التاريخ الشامل
للمدينة المنورة

د/ عبد الباسط بدر

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة - ص.ب ٣٦٦٢

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

التاريخ ... والعبرة

معالي أمين المدينة المنــــــــــــــــــــورة
المهندس/ عبد العزيز عبد الرحمن الحصيِّــن

كنت في يوم من الأيام أقرأ تاريخ إحدى المدن العربية، أهدانيه رئيس بلديتها، وأعجبني فيه تسلسل الوقائع التاريخية وشموليته. وبعد عودتي من رحلتي بحثت عن كتاب عن المدينة المنورة يشمل تاريخها منذ نشأتها الأولى حتى اليوم، لأهديه لكبار زوار الأمانة، للإطلاع على تاريخ هذا البلد الطاهر العريق، وهو أحق أن يهتم به، ولكن للأسف لم أجد في الكتب مايشفي الغليل، رغم أنها كثيرة ومتنوعة، وكل منها يهتم بجانب معين أو حقبة محددة.

ويوم قابلت الدكتور الفاضل / عبد الباسط بدر لإعداد كتاب مختصر عن المدينة المنورة وتاريخها لم يكن يدور في خلدي هذا التوسع الذي حدث في الكتاب، إلا أننى كنت مسروراً به، وكنت أتابع كتابته فصلاً فصلاً، ولا أنفك عن القراءة حتى أتِم الفصل.

لقد هالتني الأحداث الدموية المتتابعة في فصول تاريخ المدينة المنورة والتناحر على السلطة والنهب والسلب، حتى المسجد النبوي الشريف لم يسلم منها.

لقد استطاعت المدينة المنورة أن تحمل مشعل العلم والنور وأن تعم بإشعاعها العالم كله، فما الذي جعلها تتخلف كل هذا التخلف؟.

ولم يكن هذا الحال في المدينة المنورة فقط، فهي جزء مما يحيط بها وتتأثر بما يحدث بالجوار، وتاريخها يعتبر نموذجاً لما كان يحدث في الجزيرة العربية بعد الصدر الأول من الإسلام وطوال قرون متتالية لم تنعم فيها هذه البلاد بنعمة الأمن والاستقرار.

كان ذلك بسبب الجهل الذي خيم عليها وبعد أن استحكمت الاهواء وطغت الجاهلية القبلية فكانت رؤيتهم لاتتعدى أطراف أنوفهم.

والإسلام حينما وضع قانون الجماعة وأكد على عدم الخروج عنها، وعلى طاعة ولي الأمر، كان بالدرجة الأولى يحفظ مصالح المجتمع.

إننا لاندرك قيمة النعم إلا عندما نفقدها أو نرى من يفقدها، وفقد الهواء يسبب الموت، ولكن هل فكر أحد بهذه النعمة؟.

إن من يقرأ هذا السفر يدرك النعمة البالغة للأمن والاستقرار في بلادنا الغالية منذ توحيدها على يد الملك عبد العزيز طيب الله ثراه. إن السعيد من يعتبر بمن حوله ممن فقدوا هذه النعمة لامن يعتبر بفقدانها..

فهل من معتبر؟!.

عبد العزيز بن عبد الرحمن الحصيّن
أمين المدينة المنورة

تقديـــم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد السيد الوكيل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

يظن كثير من الناس أن التاريخ عبارة عن الأحداث التي تقع في فترة زمانية قريبة كانت أو بعيدة، ويرون أن سرد هذه الأحداث وتناولها بالأسلوب السهل، الذي يكشف طبيعتها، وينسبها إلى عصرها الحقيقي، وإلى من جرت على يديه، أو حدثت في عهده، هو الأسلوب الأمثل لكتابة التاريخ.

والحق أن دراسة التاريخ لا تأتي بسرد الأحداث، ولا يتذوقها الباحث بكتابتها بإسلوب سهل ميسر لكل قارئ، ولكنها تحتاج إلى عوامل ومؤثرات، تجعل أحداث التاريخ صورة حية للعصر الذي وقعت فيه، وتجعل الدارس يتقمص الشخصيات التاريخية، ويعيش مندمجا في طبيعتها بعيداً عن الخيال، قريباً من الحقيقة، ذلك لأن التاريخ هو المرآة الصادقة لكل أمة من الأمم، فهو لايعرف المجاملة، ولا يعترف بالمداهنة، ولا يقر النفاق، ولا يتعامل على أساسه، شأن الكتابات المزورة التي تكتب عادة في ظل الإرهاب الحاكم، وتحت مظلة الديكتاتورية المتسلطة.

إن التاريخ لايعبر عن عصره حقيقة إلا في رحاب الحرية التي تنطلق فيها الكلمة بغير قيود، ويعيش فيها المؤرخ بغير حدود، هنالك تجد الحدث الصادق، وترى الشخصيات في ميزان العدالة المطلقة، وحينئذ تلمس الصورة الحقيقية للفترة التاريخية التي تقرأ عنها، وبالتالي تستطيع أن تصدر الحكم الصحيح على هذه الفترة، بما لها وما عليها، لاتخاف من ذكر عيب، ولا تتورط في ذكر محاسن، لأن التاريخ الذي يكتب في ظل الإرهاب، ويفرض على المؤلف فرضاً تحت مظلة الديكتاتورية، ليس إلا قصيدة ثناء مزور،

وحديث مديح كاذب، ومن هنا لاتجد فيه حيوية التاريخ، ولا تحس فيه نبضه الدافق بالصدق ، فكلماته ميتة، وأحداثه نافقة، وتلمس في عباراته صورة النفاق مخزية هابطة.

ولعل اشتراط المؤرخين ألا يُبحث في الوثائق التاريخية إلا بعد مرور فترة كافية تمكن المؤلف من تسجيل الأحداث وهو آمن، كان من أجل منح المؤرخ حرية الكتابة بغير قيود، حتى يخرج التاريخ في صورته الصادقة، خالياً من التزوير والمجاملة.

وكتابة التاريخ على هذا النحو تخرج جيلا واعياً، تتكون شخصيته من خلال دراسته لتلك الأحداث ، فيقتدي بالمصلحين ، ويتقمص شخصية الأبطال المغاوير، ويعرف كيف يعالج ما يواجهه من الأخطاء، ثم يستطيع أن يحكم الحكم الصادق على الأحداث والأشخاص، ومن هنا نلمس بصدق تأثير دراسة التاريخ على شخصية الدارسين، لإنهم من خلال دراستهم يستخلصون العبر، ويستنبطون الدروس النافعة، ويستفيدون بها في حياتهم، وهذا هو الذي نفهمه من قوله تعالى(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)(١)

على أننا ينبغي أن نعلم أن أحداث التاريخ لن تتكلم إلا على لسان مؤرخ صادق الحس، يقظ الضمير ، ثاقب الفكر ، حريص على نقل الحقائق كما هي من غير تزوير ولا تشويه، ولهذا كانت مهمة المؤرخ شاقة وعسيرة، فهو يستقرئ الأحداث، ويصفها كما حدثت، ثم يحللها ليستنبط منها العبر والعظات.

والدراسة الوصفية للتاريخ هي إحدى الطرق التي استعملها جل المؤرخين، حتى لا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما وراء هذه الأحداث، فهم يكتفون بظواهر الأمور ويعرضون عما خفي منها، وعلى كل حال فهم يقدمون

---

١) سورة هود الآية ١٢٠

لنا الأحداث كما أدركوها، أو كما رويت لهم من الثقاة، ويدعون البحث والتحليل لمن يقدرون عليه ممن يأتون بعدهم.

وقليل من المؤرخين القدامى هم الذين أخذوا أنفسهم بإسلوب التحليل والإستنباط، فاستفاد المحدثون من طريقتهم، ونسجوا على منوالهم، فعللوا الأحداث، واستنبطوا من خلالها ما ينبغي أن يقفوا عنده، ونحن لانستطيع أن نقول: إن كل الاستنباطات صحيحة ويجب أن نقف عندها، بل هي جهد عقل بشري، قد يخطئ وقد يصيب، ولكنها على كل حال جهد قد يوصلنا إلى الحقيقة، وقد يفتح لنا الباب للوصول إلى تلك الحقيقة.

وتلك هي الطريقة المثلى في دراسة التاريخ، ولكنها مع الأسف استُغلت من بعض المؤرخين أحياناً استغلالا سيئاً، حيث كانوا يفسرون الأحداث التاريخية تبعاً لأهوائهم، ويربطونها بمفهومات تخدم مآربهم، وتبرر تصرفاتهم، ومن أمثلة ذلك، ما فسر به الماركسيون أحداث التاريخ بما سموه (التفسير المادي للتاريخ) فهم يربطون التطور البشري نحو الاشتراكية التي يدعون إليها، بالتطور الحضاري، فالإنسان سيمر بالطور الزراعي، ثم يتخطاه إلى الطور الصناعي، ثم يعبر منه إلى الإشتراكية، وقد فشلت هذه النظرية المبنية أساساً على التفسير المادي، وقبل أن تصل البشرية إلى المرحلة الأخيرة - بعد أن قطعت المرحلتين الأوليين - انهارت الدولة صاحبة التفسير المادي، وتفرقت أيدي سبا، ولم يعد لها ولا لتفسيرها المادي ما يبرر وجودهما.

وعلى كل حال فإن مهمة المؤرخ بعد التحليل والإستنباط، أن يبذل جهده لربط الأحداث بعضها ببعض، ويبرزها في سلسلة متناسقة، حتى تتم الصورة، وتتضح المعالم، ولا شك أن تسلسل الوقائع والربط بينها بإسلوب التحليل والتنسيق، مما يسهل مهمة الدارس ويضع الأمور في مواضعها التي تساعد على الاستفادة، واستخلاص العبر، وهما من أهم غايات دراسة

التاريخ.

والتاريخ بنوعيه: السياسي والحضاري يسير في اتجاه واحد، ويخدم غاية واحدة، وأقصد هنا بالتاريخ الحضاري ؛ التاريخ الذي يتناول الأوضاع الإجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، ويوضح أثرها في تقدم البلاد ورقيها، وهما بدون شك مرتبطان برباط وثيق ومن الصعب جداً الفصل بينهما، بحيث يصبح كل نوع منهما يتجه في طريق مخالف لطريق الآخر، لأننا عندما نتناول فترة سياسية معينة، نجد أنفسنا نتكلم عما تم في هذه الحقبة من الإصلاحات الاجتماعية وما صاحبها من الأوضاع الأخلاقية، ونلاحظ أن هذا كله له صلة وثيقة بالجانب الإقتصادي.

وفي الجانب الآخر إذا حاولنا أن نتناول التاريخ الحضاري، نجدنا مضطرين لأن نتكلم عن الأوضاع السياسية التي في ظلها نمت هذه الحضارة، وأخذت خصائصها المميزة لها، فنحن لا نتصور أن وضعاً حضارياً ما، ظهر ونما إلا في ظل أوضاع سياسية، وكذلك لا نستطيع أن نفهم أن أوضاعاً سياسية أخذت وضعها التاريخي المميز دون أن تنشأ في ظلها حضارة ما.

وينبغي أن نفهم الحضارة التي تنشأ في أحضان السياسة، تكون متأثرة قليلا أو كثيراً بمفهوم هذه السياسة، فكلما كانت السياسة حرة طليقة تدرك بسهولة مدى التقدم الحضاري الذي أفرزته هذه السياسة، وكلما وجدت حضارة متعثرة، لاتستطيع النهوض، ولا تقوى على المنافسة، تدرك على الفور مدى الجمود السياسي الذي نشأت في أحضانه تلك الحضارة.

والموضوعية في كتابة التاريخ، هي ثالثة المهام التي يضطلع بها المؤرخ، ذلك لأن التاريخ أحداث ووقائع جرت فصولها في وقت ما، وتناولها بموضوعية هو الذي يجدد الإطار الذي يبرزها في صورتها الحقيقية، وهو كذلك الذي يبعدها عن الخيال المجنح الذي يطير بها بعيداً حتى تخرج عن إطار التاريخ.

والموضوعية تقتضي أن يكون المؤرخ متجرداً من كل الميول المؤثرة على الحادثة، حتى تكتب ويقرأها القارئ، وكأنه يشاهدها أمام عينيه ماثلة لتوها، وأؤكد على هذا التجرد خاصة عند التحليل والاستنباط، حتى تكون نتيجة التحليل بعيدة تماماً عن التحيز والميل إلى جانب خاص، وعلى المؤرخ إذا شعر بميل ما إلى ناحية معينة، سواء كان هذا الميل بتأثير العاطفة، أو بالوقوع تحت ضغوط نفسية أو خارجية، عليه أن يتوقف عن الكتابة أو الكلام في الموضوع، حتى يجاهد نفسه لإزالة هذا الميل، ويشعر بالتجرد التام عن هذا الميل الذي طرأ عليه.

إن التحليل يكون عادة لاستنتاج أمور يترتب عليها الحكم على صانعي هذه الفترة التاريخية، ولا يمكن أن يكون الحكم عادلا ونزيهاً إلا إذا تجرد الحاكم من كل الميول المؤثرة التي تبعد حكمه عن العدالة والنزاهة، ومن هنا كان لابد من التجرد التام، وهو ما نسميه الموضوعية في تناول الأحداث التاريخية.

وكتابنا الذي بين أيدينا [تاريخ المدينة المنورة قديماً وحديثاً] كتاب نادر ، قلما تجد ما فيه من المعلومات قد جمعت في كتاب واحد غير هذا الكتاب، ولا يحتاج جهد المؤلف الدكتور عبد الباسط بدر بعد الاطلاع على هذا الكتاب إلى تقريظ أو اشادة، فالكتاب يحمل في طياته وبين أسطره أكثر مما يكتبه أي مقرظ أو مشيد لمؤلفه.

فالكتاب يتناول تاريخ المدينة النبوية منذ نشأتها، وحتى عصرنا الحاضر، كيف بدأت يثرب وجودها والتطورات التي طرأت عليها؟ وما منزلتها في الجزيرة العربية قبل الإسلام؟ وماذا كانت بعد هجرة المسلمين إليها؟ ثم يمضي الزمان، ويمضي في ركابه التاريخ يسجل الأحداث صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، نعيمها وبؤسها.

والمدينة برغم هذه الأحداث مهوى قلوب المؤمنين، ومحط أفئدة

الصالحين، والكتاب بين يديك يضعك في مواقع الأحداث، حتى كأنك تراها رأى العين، وتشاهدها فلا يغيب عنك من أطوارها شيء، فإذا مررت بطور من أطوار النعيم تحس قلبك يخفق بين أضلاعك، وكأنه يرقص طرباً لما فيه أهل المدينة من النعيم، وبالعكس تماماً إذا مررت بطور من أطوار البؤس الذي عاشته المدينة المقدسة.

ولم يكن المؤلف ـ وفقه الله ـ مجرد ناقل للأحداث، ولا جامع للوقائع، ولكنه كان مع ذلك ناقداً بصيراً، فنحن نراه مثلا ينتقد خطة فخري باشا قائد الجيش العثماني في المدينة، وذلك حين تراجع عن محاصرة الشريف فيصل ليرد هجوماً لعبد الكريم بن بديوي، واستمر في تراجعه عن الحصار حتى عاد إلى المدينة، يقول المؤلف: (كان انسحاب فخري باشا ناجحاً من الناحية التنفيذية، ولكنه كان خطأ كبيراً من الناحية العسكرية، لأنه كان يملك حسم الموقف نهائياً لصالحه، وكان في إمكانه طلب المدد من عسكره في المدينة ليحمي ظهره، ويبعد عنه عبد الكريم بن بديوي .... ولو اقتحم الخيف الذي لجأ إليه فيصل ورجاله وأسرهم لانتهت هذه الجبهة تماماً، ولاستطاع أن يرد على المدمرات الانجليزية، ويبسط سلطان الدولة على المنطقة كلها، بل ويحاصر الشريف حسين ورجاله الذين لم يكونوا حسموا الأمور لصالحهم بعد).

وكما انتقد المؤلف فخري باشا في هذه الهفوة العسكرية التي وقع فيها كقائد عسكري انتقد كذلك الشريف حيدر باشا الذي عينته الدولة العثمانية حاكماً على الحجاز، وقد أرادوا بذلك مواجهة الشريف حسين بابن عمه، حتى تكون المواجهة بين أنداد لعلها تفيد في التفاف الناس حول الشريف الجديد والانفضاض عن الشريف الثائر.

وقد استُقبل الشريف حيدر باشا في المدينة استقبالا حافلا من قبل فخري باشا وأعيان المدينة، ولما حضر ممثلوا القبائل الموالية للعثمانيين

قابلهم حيدر باشا بفتور، وفي الوقت نفسه عرض عليه سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يتعاونا معاً للقضاء على ثورة الشريف حسين فلم يقبل.

فكان تصرفه مع ممثلي القبائل، ورفضه للتعاون مع سلطان نجد، محل نقد لاذع من المؤلف، حيث ترتب على عدم حسن استقباله لممثلي القبائل ما أغضبهم وجعلهم ينفرون منه، وينحازون إلى الشريف حسين الثائر ضد العثمانيين.

وأما رفضه التعاون مع السلطان عبد العزيز آل سعود، فقد ضيع على الدولة العثمانية فرصة ذهبية كان يمكنها فيها القضاء على الشريف الثائر، ووضع حد لممارساته ضد الدولة، حيث كان السلطان عبد العزيز لدية قوة كبيرة من الجنود الذين هم من أهل الجزيزة، والمستعدون للموت في سبيل إعادة دولة الإسلام، كما كانت العلاقات بين السلطان عبد العزيز والشريف حسين متوترة للغاية .

ولعل سبب رفض الشريف حيدر، والقائد فخري باشا قبله، التعاون مع السلطان عبد العزيز هو شعورهم بأن عبد العزيز يعمل على إقامة دولة إسلامية تحكم بكتاب الله، وتستهدي بسنة رسوله، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تحت سيطرة (الاتحاديين) العلمانيين الذين كان هدفهم القضاء على الخلافة الإسلامية، وإقامة دولة علمانية لادينية .

يقول المؤلف: (المهم أن حيدر باشا وفخري باشا لم يكونا واقعيين، ولم يستفيدا من الفرص الكثيرة التي سنحت لهما لإقامة جبهة طويلة عريضة ضد الشريف حسين وأبنائه.

والمؤلف ذكر التعاون بين الإنجليز وبين الشريف الثائر، وكان تعاونهما واضحاً وبخاصة في معركة ينبع بعد أن انسحب فخري باشا، وترك الميدان فارغاً للشريف. ولعل المؤلف لم يعلق على هذا التعاون بين الأشراف ـ مع

الأسف ـ وبين الإنجليز لأن عواره واضح، وخزيه فاضح، وهو أمر يندى له جبين كل مسلم حر.

وهكذا كان المؤلف ناقداً ومؤرخاً في وقت أشد مايكون فيه التاريخ الإسلامي بحاجة إلى مؤرخ ناقد وبصير.

والله أسأل أن يجعل الكتاب ثقلا في ميزان مؤلفه. نافعاً لكل من يقرؤه. إنه سميع مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

الدكتور : محمد السيد الوكيل

أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً

المدينة المنورة قبل الإسلام
يثرب

التأسيس

يقتضي البحث عن تأسيس أية مدينة عريقة أن نتلمس طريقنا بحذر، فالتاريخ الموغل في القدم ليس إلا مجموعة روايات شفهية ، تناقلتها أجيال كثيرة متعاقبة، ولايعلم إلا الله متى بدأت، وكم تغيرت زيادة ونقصانا خلال رحلتها الطويلة إلينا، وبخاصة إذا لم تكن لدينا نقوش قديمة أو مكتشفات أثرية أخرى تساعدنا على الوصول إلى الحقيقة.

غير أن الحديث عن **تأسيس المدينة المنورة** له ميزة خاصة، ذلك أن مكانتها الكبيرة في نفوس المسلمين، منذ أن هاجر إليها رسول الله ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. تلك المكانة ، جعلت الباحثين يجتهدون في التنقيب وسط المجاهيل المغلقة، ويلتقطون الروايات، ويمحصونها بعناية، وينقونها من الأساطير والخرافات، ويأخذون أقربها إلى المنطق والمعقول.

فقد اهتم المسلمون بتاريخ المدينة المنورة منذ أن بدؤوا بتدوين تاريخهم وعلومهم اهتماما كبيرا، وبحثوا قضية تأسيسها، وناقشوا الروايات التي وصلتهم، وسوف نستعرض هذه الروايات، ونتلمس أخبارا أخرى من المصادر التي لم تصلهم، لنصل إلى الإجابة الصحيحة، أو الأقرب إلى الصحة، عن الأسئلة المهمة والملحة: من أسس المدينة؟ ومتى أسسها؟ ولماذا؟

إن أفضل بداية ننطلق منها للبحث عن الجواب هي ما صح لدينا صحة مطلقة لايرقى اليها الشك إطلاقا، كلام الله تعالى، ثم حديث رسول الله ﷺ الذي أثبت العلماء صحته.

ففي القرآن الكريم ما يدلنا دلالة قطعية على أن المدينة المنورة كان اسمها **يثرب** ، فقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى على لسان بعض

المنافقين: ﴿وإذ قالت طائفة منهم: ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا﴾(١).

وورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ غير اسمها من يثرب إلى المدينة ونهى عن استخدام اسمها القديم (٢)، ولم يرد في الحديث سبب تغيير الاسم، وذكر لها أسماء أخرى في أحاديث تالية، (٣)، وليس في نص الحديث ما يشير إلى سبب العدول عن اسمها القديم.. غير أن بعض المفسرين وشراح الحديث يرون ان معنى كلمة يثرب (وهو التثريب)(٤) قد يكون السبب الرئيسي لهذا التغيير.

وعلى أي حال فإن النهي عن استخدام الاسم القديم يعني إعطاء هوية جديدة يربطها بالإسلام ربطا نهائيا. وهذا الربط لايمنعنا من البحث عن جذور المدينة بل يشجعنا على التنقيب عن أصولها الأولى وأحوالها في العهود الطويلة قبل الاسلام. لنتبين بشكل أوضح حجم التغيير الذي أحدثه الإسلام في جوانبها كلها... بدءاً بالجانب العقدي ووصولا الى الجانب العمراني...

وسنسير الآن مع (يثرب) ونبحث عن جذورها..... منذ مرحلة التأسيس الأولى.

---

١) الأحزاب ١٣

٢) ورد في مسند الإمام أحمد قوله ﷺ : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله . وفي رواية أخرى : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل ، هي طابة ، هي طابة . انظر : مسند الامام أحمد ٢٨٥/٤ . وورد في صحيح البخاري قوله ﷺ : هذه طابة ٢ /٢٢١

٣) انظر ملحق الأحاديث النبويه الواردة في المدينة في القسم الأخير من هذا الكتاب

٤) جاء في لسان العرب : التثريب : الاستقصاء في اللوم ، والتثريب : الافساد والتخليط . انظر : لسان العرب ، مادة : ثرب ، وانظر : السهيلي ، الروض الأنف ١٥٢

فمن أسسها ؟ ومتـــى؟:

تجمع معظم المصادر العربية على ان (**يثرب**) اسم لرجل من أحفاد نوح عليه السلام، وأن هذا الرجل أســس هذه البلدة فسميت باسمه، ولكنها تختلف في عدد الأجيال التي تفصل (يثرب) عن جده (نوح) عليه السلام، وفي بعض أسماء سلسلة الآباء والأبناء. ويعرض السمهودي - سيد مؤرخي المدينة المنورة - الآراء المختلفة كلها(١). ففي إحدى الروايات نجد يثرب في الجيل الثامن بعد نوح، فهو (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام بن نوح). وفي روايه أخرى نجده في الجيل الخامس (يثرب بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح). وفي روايه ثالثه لانعرف من أي جيل هو.. لكنه من بنى (عملاق) بن ارفخشذ بن سام بن نوح.. وكلمة بني هنا لاتعنى الابن المباشر، بل تعنى حفيدا لا ندري عدد الآباء الذين يفصلون بينه وبين الجد الكبير..

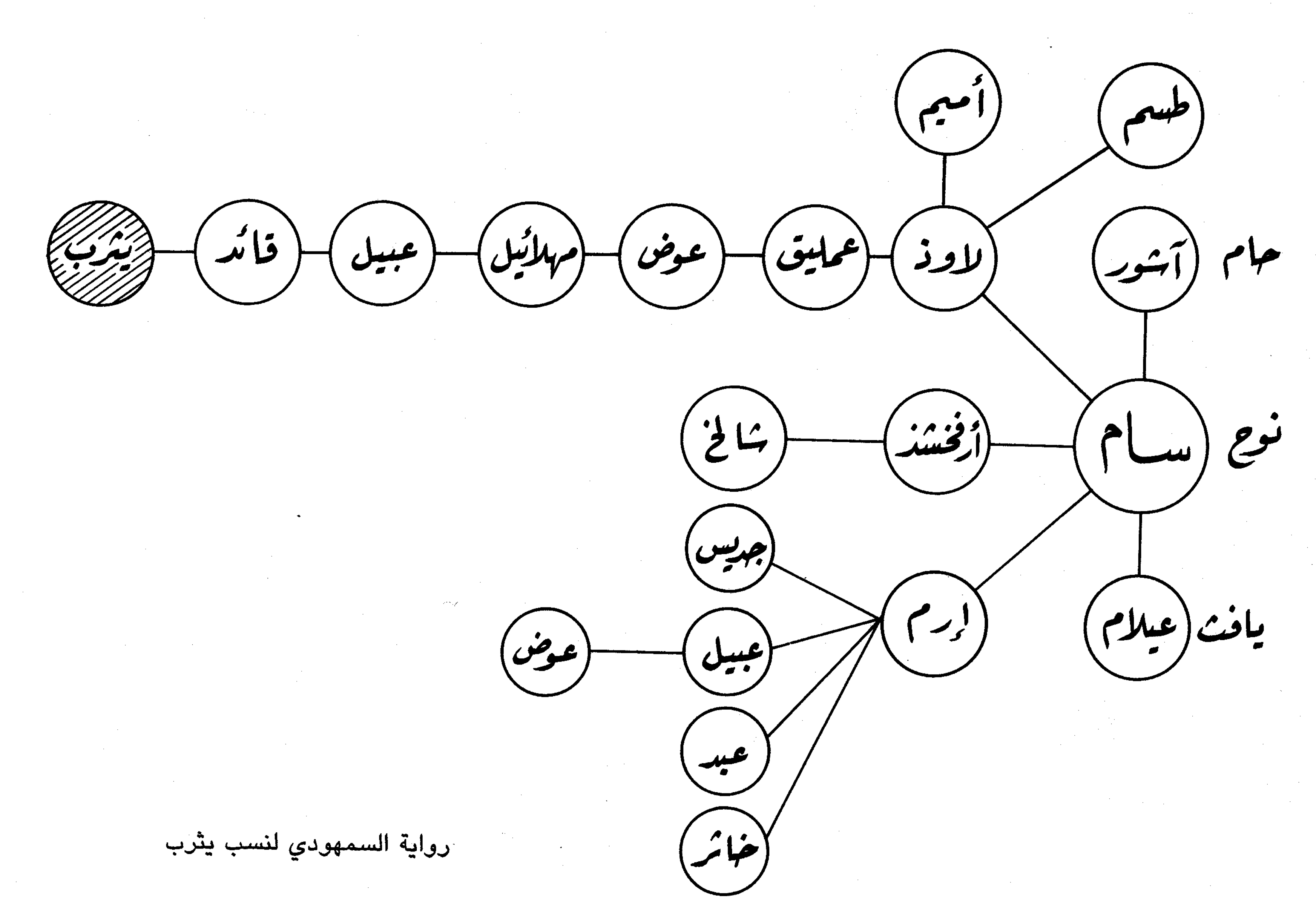
وفضلا عن هذاالخلاف في عدد الأجيال التاليه لنوح هناك خلاف حول أسماء الآباء، فبينما هو عند الطبرى من أحفاد إرم بن سام نجده عند السهيلي من أحفاد لاوذ بن سام بن نوح.. وقد أخذ ابن خلدون برواية السهيلي ورأى انها أصح وأوجه.

ولهذا الخلاف أثر في تقرير أية قبيله سكنت يثرب أول الأمر، فحسب سلسلة الطبري تكون قبيلة عبيل هي أول سكان يثرب، ويكون العماليق أول سكانها حسب رواية السهيلي وابن خلدون، والرواية الثانية تلغي حدثا تاريخيا كبيرا يقره الطبري ، وهو أن العماليق حاربوا أبناء عبيل واستخلصوا يثرب من أيديهم، فخرج العبيليون إلى موقع على طريق مكة فجحفهم السيل وسمي ذلك الموقع الجحفة، وما زال يحمل اسمه هذا حتى اليوم.

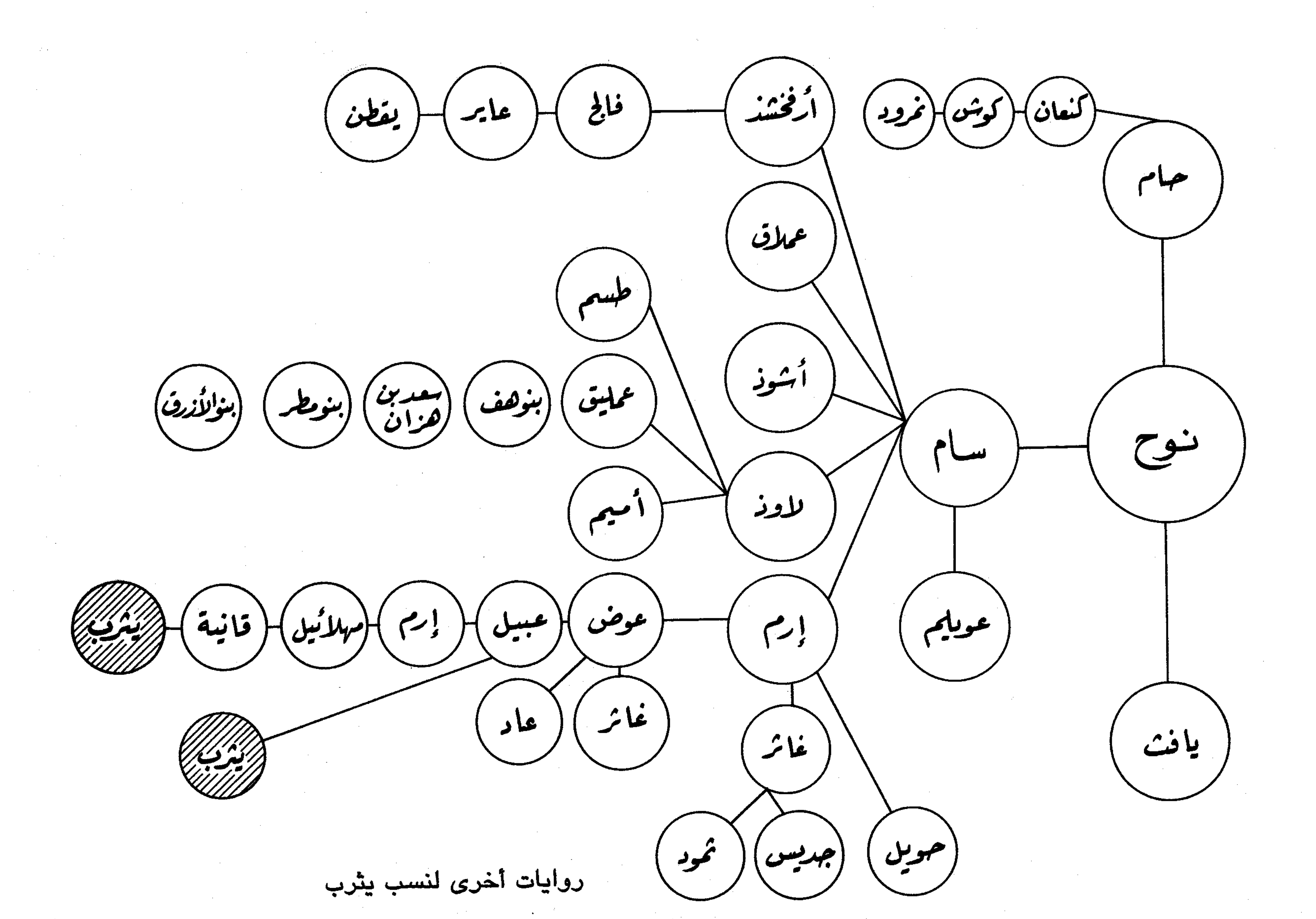
وسواء كانت رواية الطبري هي الصحيحة أو رواية ابن خلدون، فان

---

١) انظر: السمهودي : وفاء الوفاء ١/١٥٦-١٥٧



رواية السمهودي لنسب يثرب



روايات أخرى لنسب يثرب

النتيجة التى تنتهي اليها الروايتان هي: استيطان العماليق في يثرب في وقت لانستطيع أن نحدده تحديدا دقيقا.

وليس بعجيب أن يرتبط اسم البلدة باسم مؤسسها، فقد كان هذا الأمر شائعا في الحضارات القديمة.. وامتد إلى عصور لاحقة، ونجد عددا من المدن العريقة قد سميت باسم مؤسسها أوالحاكم الذي انشئت في عهده، كالاسكندرية نسبة الى الاسكندر.

وقد شاع هذا الاسم (يثرب) قديما، ووجد في نقوش وكتلبات تاريخية غير عربية بهجاء قريب جدا من اللفظ العربي، ففي جغرافية بطليموس عرفت باسـم yathripa (يثربا) وعند اسطفان البيزنطي (يثرب). وكان اسطفان يسميها أحيانا بالكلمة الأولى، فيذكرها باسم medinat أو mdinto ووجد اسمها في نقش على عمود في حران يؤرخ للملك البابلي نبونبيد باسم itribo اتريبو...(١). وهذه الألفاظ تتصل جميعها باللفظ العربي الأصلي يثرب، وتؤكد قدم التسمية وانتشارها.

وأما **سبب تأسيسها** فنجد في المصادر العربية أكثر من رواية، تختلف باختلاف المؤسس الذى تعتمده، فالذين نسبوا يثرب إلى أحد أحفاد نوح القريبين أو البعيدين يذهبون إلى أن تكاثر أبناء نوح جعل المنطقة التي نزلوها بعد الطوفان تضيق بهم، الأمر الذي دفع مجموعات منهم إلى الغرب بحثا عن مقام جديد يوفر لهم متطلباتهم (٢) وكان من نصيب فرع عبيل أن يصلوا إلى موضع يثرب ويعجبهم مافيه من ماء وشجر وحرات تحيط به وتشكل حماية طبيعية له، فاستقروا فيه. ويبدو أن يثرب كان زعيم ذلك الفرع، وإلا لما استطاع أن يبني المدينة ويوطن القوم فيها.

وترجع بعض الروايات سبب خروج عبيل إلى الضلال الذى وقع فيه أحد

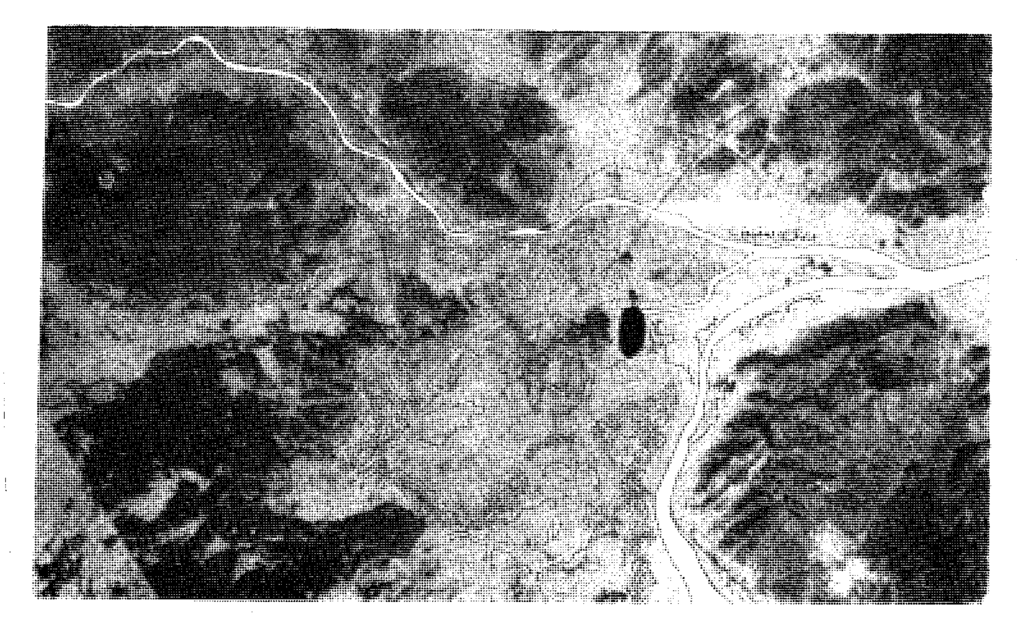
---

١) انظر : جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦١٤/١

٢) الطبري ١/ ٢٠٣



موقع المدينة المنورة - يثرب قديماً - في قلب العالم الإسلامي



صورة جوية تبين موقع يثرب وسط الجبال والأودية التي كانت تسيل بالماء معظم أيام السنة

يثرب

مقياس الرسم

١ كم

الخندق .

أطلال حصون سابقة للإسلام .

المسجد النبوي .

مساجد .

مستوطنات سابقة للإسلام واندثرت بعد ظهور الإسلام .

مستوطنات سابقة للإسلام واستمرت في فجر الإسلام .

مستوطنات ظهرت في عهد الإسلام .

الحرات الحديثة

أودية

المنطقة المبنية ١٣٩٨ هـ .

يثرب النواة الأولى للاستقرار البشري في المدينة المنورة (يثرب)

مخطط لموقع يثرب وقد وُضعت المعالم التي ظهرت فيما بعد لتساعد على تحديد موقع يثرب الأول

ملوك بابل من أحفاد نوح (نمرود بن كوش بن كنعان بن نوح) فقد دعا قومه إلى عبادة الأوثان، ففعلوا، فعاقبهم الله ببلبلة ألسنتهم، فجعل لايعرف بعضهم كلام بعض(١) وخرجوا من بابل، ولحق كل قبيل بمكان، وكان من نصيب عبيل أن تلحق بموضع يثرب.

أما الذين ينسبون تأسيس يثرب الى العماليق (٢) فيذهبون إلى أن العماليق كانوا يستوطنون تهامة من أرض الحجاز، وذلك بعد نزولهم من بابل، وأنهم بقوا فيها إلى عهد إسماعيل عليه السلام، فآمن به بعضهم، واطرد لهم الملك على منطقة الحرم إلى عهد ملكهم السميدع بن لاوذ بن عميلق، ولا ندري في أي جيل من أجيال أحفاد نوح كان السميدع، حيث اجتاحتهم قبائل جرهم، الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام فيما بعد، فخرجوا من المنطقة، وتفرقوا في الجزيرة العربية، ونزل نفر منهم في موضع يثرب فأسسوها. ونذكر هنا أن أصحاب هذا الرأي يقررون أن يثرب اسم رجل من (عبيل)، وأن (عبيل) جزء من العماليق.

نخلص من ذلك كله الى أن تأسيس يثرب كان على يد رجل يتزعم مجموعة بشرية، هاجرت من موطنها الأصلي - بابل في الرواية الأولى، وتهامة في الرواية الثانية - تبحث عن موطن جديد يوفر لها حياة كريمة، وأن هذه المجموعة وجدت في هذا الموقع أرضا خصبة، وشجراً كثيفاً، وماءاً وفيراً، ووجدت أن هذا الموقع أيضا يوفر لها قدراً من الحماية الطبيعية، فاستقرت فيه، وحولته إلى مدينة، وسمته باسم زعيمها يثرب.

وهذا مانرتاح إليه من جملة الروايات التاريخية في المصادر العربية، لأنه متوافق مع المنهج الذي كانت تسلكة الأمم القديمة في حركتها، وإقامتها،

---

١) الطبري ١/٢٠٧

٢) ابن خلدون ٢/٣٠

وتأسيس مدنها . (١).

إضافة إلى الروايات السابقة هناك ثلاث روايات مختلفة، تنسب تأسيس يثرب إلى اليهود، وإلى صعل وفالج، وإلى الأوس والخزرج.

وتقرر **الرواية الأولى** أن موسى عليه السلام حج ومعه أناس من بني إسرائيل، وبينما هم في طريق عودتهم أتو على موقع يثرب، فرأوا أن صفات هذا الموقع توافق صفات الموقع الذي ذكرت التوراة أن خاتم النبيين سيبعث فيه، ((فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا بموقع سوق قنيقاع، ثم تألفت اليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم، فكانو أول من سكن موضع المدينة)) (٢).

وعقب السمهودي على هذه الرواية بعبارة تلغي نسبة تأسيس يثرب إلى اليهود فقال: ((وذكر بعض أهل التواريخ أن قوما من العمالقة سكنوه قبلهم، قلت: وهو الأرجح)) (٣) ويؤيد ترجيح السمهودي أننا لانجد في المصادر العربية الأخرى ما يؤيد تلك الرواية، فالروايات الأخرى جميعها تجعل وصول اليهود إلى يثرب في عهد العماليق... وثمة رواية واحدة فقط تجعله في عهد صعل وفالج.. ولانجد في المصادر اليهودية القديمة والحديثة ما يبيّن أن اليهود قد أسسوا يثرب. ولو أنهم كانوا مؤسسيها فعلاً لما سكتت أسفارهم عنها... وعلى العكس من ذلك، يشير (اسرائيل ولفنستون) إلى أن اليهود عندما هاجروا نزلوا في مدن مأهولة قبلهم، منها مدينة يثرب (٤).

ومما ينقض رواية تأسيس اليهود ليثرب هو اسم يثرب نفسه، فلا يعقل

---

١) أنظر أمثلة لذلك تأسيس مدن السومريين والبابليين والمصريين القدماء في : قصة الحضارة :١٤/٢ ، ٦٥/٢ . ٢٦٥/٣

٢) وفاء الوفاء: ١٥٧/١

٣) السابق نفسه

٤) انظر : اسرائيل ولفنستون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ١٥

أن يؤسس اليهود مدينة يسمونها باسم غير يهودي... فكيف باسم رجل من العماليق، ألد خصومهم آنئذ (١).

وأما **الرواية الثانية** فتنسب تأسيس يثرب إلى صعل وفالج، وقد أوردها السمهودي نقلا عن ابن زبالة (٢) والمدهش أن صعل وفالج اسمان مجهولان في شجرة الأنساب العربية القديمة..لم يذكرهما أي من مؤرخي القبائل العربية البائدة، ولا كتب التاريخ القديمة. وقد جعلهم ابن زبالة في موقع العماليق، حيث يغزوهم النبي داود عليه السلام ويأخذ منهم مئة ألف عذراء. ووجود مثل هذا العدد من العذارى في قبيلة صعل وفالج يعني أن عددهم كان ضخماً جداً، لايمكن أن تكون يثرب القديمة قد وصلت اليه... بل لانجد تجمعا بشريا في مدينة من مدن شبه الجزيرة العربية القديمة كلها قد بلغ هذا المبلغ... والاحتمال الوحيد والضعيف في هذه الرواية: أن تكون صعل وفالج قبيلة من قبائل العماليق، كانت تستوطن بعض مناطق يثرب عندما وصل إليها اليهود، سواء في عهد داود عليه السلام أو في عهد ملك آخر.

والجدير بالذكر أن هذه الرواية ليس لها ما يدعمها في كتب التارخ العربية ولا في المصادر اليهودية التي اطلعنا عليها.

وأما **الرواية الثالثة** - ويرويها ابن كثير - فتجعل الأوس والخزرج هم الذين أسسوا يثرب، وتقرر أنهم بعد أن سكنوها بقليل نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود، هم: بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، فحالفوهم، وأقاموا بجوارهم (٣).

ولا نجد مؤرخا آخر يأخذ بهذه الرواية. وعلى العكس تماما. فهناك إجماع بين الروايات الأخرى - حتى التي نرفضها - على أن الأوس والخزرج

---

١) سنعرض للخصومة بين اليهود والعماليق في فصل: اليهود في يثرب

٢) انظر وفاء الوفاء ١٦٥/١

٣) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٨/٢-١٤٩

جاؤوا إلى يثرب بعد مدة طويلة من تأسيسها.....

ويبقى لنا من تمحيص الروايات السابقة كلها: أن تأسيس يثرب كان على يد مجموعة بشرية مهاجرة، تبحث عن موطن يوفر لها الطعام والأمان.

وهنا ينهض سؤال آخر: متى حدث ذلك ؟؟. هل يمكن تحديد **تاريخ تقريبي لتأسيس يثرب ؟؟**

رأينا أن المؤرخين العرب ينسبون تأسيس يثرب إلى أحد أحفاد نوح القريبين (الرابع أوالثامن) فأين تقع هذه الأجيال؟؟ وفي أي قرن - ولا يمكن أن نقول في أي عام - قبل الهجرة النبوية أنشأ (يثرب) المدينة التى سميت باسمه؟..

من المستحيل أن نجزم بمدة محدده، فنحن لانعرف على وجه اليقين كم من القرون تفصل بين نوح والهجرة النبوية. وما ذكره بعض المؤرخين روايات شفهية لاتستند إلى دليل مرجح.. كل ما يمكن أن نتوقعه هو أن قرونا كثيرة تفصل ما بين تأسيس يثرب وهجرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إليها. وإذا أخذنا في الحسبان أن تلك الأجيال كانت تعيش عمراً مديداً، ازداد عدد تلك القرون، فمن الثابت في كتاب الله تعالى أن نوحاً لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما (١) ومعنى ذلك أنه عاش أكثر من تلك المدة، ويقدر الطبري حياته بألف ومائتين وست وثلاثين سنة.... ويقدر أعمار بعض أحفاده في الأجيال التالية بأقل من ذلك.... ونلاحظ أن خط الأعمار يهبط كلما تقدمنا في الزمن الى البعثة النبوية، فإذا وصلنا إلى إبراهيم عليه السلام وجدنا بعض الرواة يقدرون أنه عاش مائتي سنة.

المهم أن تأسيس يثرب كان في عهود سحيقة، وفي حياة أمم انقرضت... فعبيل التي ينتسب اليها يثرب من الأمم البائدة. وكذلك معظم الأمم التي عاصرتها. ولا توجد لدينا أثار أو حفريات تساعدنا على تقدير مدة

---

١) انظر: سورة العنكبوت الآية ١٤

زمنية تقريبية.. والروايات التي نجدها في بعض كتب التاريخ والتي تحدد المدة ما بين الأنبياء لا نملك دليلا يؤيدها.

وإذا سلّمنا بأن عبيل مع قبائل أخرى من أوائل من كانت تتكلم العربية، فإن بعض مؤرخينا يقدر عمر العربية بـ(١٦٠٠) سنة قبل الهجرة.. وبذلك يكون هذا التاريخ التقريبي حداً احتمالياً ليس أكثر.

ولكن ثمة إشارات إلى مدينة يثرب نجدها في الكتابات التاريخية القديمة وبعض الآثار المكتشفة، تعود بنا الى ما قبل هذا التاريخ، وتقنعنا بأن يثرب كانت موجودة آنئذ، ولكنها لاتبين لنا تاريخ تأسيسها.

وأقدم ذكر لها في تلك الكتابات والآثار - كما تقول دائرة المعارف الإسلامية - يرجع إلى عهد المعينيين، فقد ورد اسمها بين أسماء المدن التي سكنتها جاليات معينية (١) ويستعين الدكتور جواد على بهذه المقولة لتفسير نسبة عرب يثرب الجاهلية الى اليمن (٢) فإن صحت هذه الرواية فإنها تعني أن يثرب كانت موجودة قبل أكثر من ألف وخمسمئة سنة من هجرة رسول الله ﷺ إليها، لأن الحضارة المعينية من أقدم الحضارات العربية التي وصلنا خبرها، فقد كانت مزدهرة في الفترة مابين ١٣٠٠ و ٦٣٠ ق م، وحكمت الحجاز وفلسطين في أوائل عهد ازدهارها.. (٣) وعندما ضعف سلطانها في أواخر عهدها كونت مجموعة مستوطنات لحماية طريق التجارة الذي كان يمر بيثرب.

ويتفق هذا التاريخ التقريبي مع تاريخ ذكره بعض الباحثين عن العماليق الذين كانوا يسكنون سائر الجزيرة العربية، فقد قدروا تاريخهم بـ(١٦٠٠) سنة قبل الهجرة، كما يتفق مع الدراسات التي حاولت أن تحدد هجرة موسى واليهود، حيث يقدر بعضهم أن موسى عليه السلام دخل في التيه حوالي

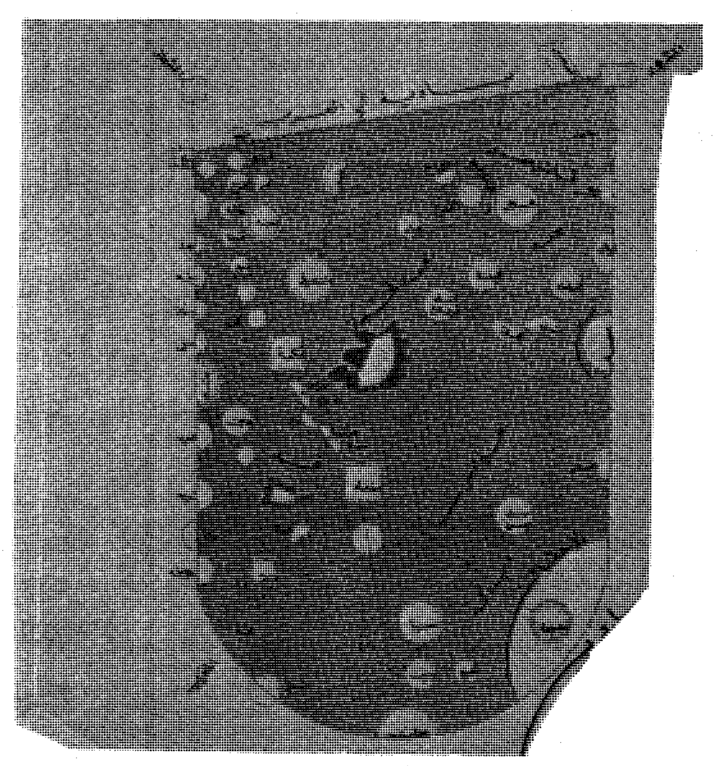
---

١) ٣/ ١٨٣ ، الألمانية

٢) المفصل ٤ / ١٢٨

٣) المفصل ٢ / ١١٩

(١٥٠٠) ق م، بينما يقدر آخرون خروجه من مصر بعام (١٤٤٧) في عهد تحتمس الثالث (١) فإن صح أنه حج قبل وفاته فيمكن أن يكون قد مر بيثرب في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد.... ومع أننا نشكك في الرواية التي تنسب تأسيس يثرب إلى بعض أتباع موسى عليه السلام الذين تخلفوا عنه عند عودته من الحج، ونميل الى ما ذهب إليه السمهودي من وجود العماليق قبلهم فيها، فاللافت للنظر في تلك الرواية أن الزمن الذي تذكره قريب من ذلك التاريخ.



يثرب... المدينة المنورة... كما تصور موقعها الجغرافي العربي القديم المقدسي (٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م)

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

---

١) انظر: قصة الحضارة : ٣٢٦/٢

يثرب بعد التأسيس

رؤيـــة في الضباب:

على الرغم من صعوبة تحديد الزمن الذي أنشئت فيه يثرب، ومن ثم صعوبة تحديد تاريخها المبكر، فإننا نستطيع أن نقسم تاريخها الجاهلي إلى قسمين كبيرين، الأول: يبدأ بالزمن المجهول الذي أسـسـت فيه - والذي اصطلحنا على تحديده بشكل تقريبي - وينتهي بهجرة اليهود إليها في عهد بختنصر عام ٥٨٦ ق م. والمعلومات عن هذه المرحلة قليلة لاتعدو شذرات متفرقة في الكتب، نجمعها لنكوّن منها صورة تقريبية للحياة في يثرب آنئذ. والثاني يبدأ بوصول اليهود إلى يثرب واستيطانهم فيها، وينتهي بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها. والمعلومات عن هذه المرحلة أوفر من سابقتها، تبدأ قليلة أيضا، وتتزايد مع تقدم السنين حتى تصبح أخباراً مفصلة، يمكن أن نستنتج منها صورة واضحة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في يثرب آنئذ.

يثرب في المرحلة الأولى (الجاهليه الأولى):

إن صح أن فرع عبيل هو الذي أنشأ يثرب، فإن الأخبار عن عبيل قليلة جداً لاتساعدنا على تكوين صورة واضحة له. ونفهم من روايات النسّابين أن (عبيل) هو الحفيد الرابع لنوح عليه السلام (حسب رواية الطبري) أو الحفيد السادس (حسب رواية السهيلي وابن خلدون) وكان يعيش في بابل مع أقاربه من أبناء نوح الآخرين. وقد ذكر في سفر التكوين أن عموبال (عبيل) هو أحد

أولاد مقعان (قحطان)، (١)وتوحي رواية الطبري بأن بابل قد عرفت تنظيما سياسيا وإداريا بعد وفاة نوح عليه السلام، فقد خلفه بعض أبنائه وأصبحوا ملوكا على المدينة، وأن هؤلاء الملوك والرعية (كانوا على الإسلام) أي على دين نوح عليه السلام، آخذين بدعوته، حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، وهو من الجيل الرابع لأحفاد نوح، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ففعلوا، وكانت لغتهم السريانية، فبلبل الله ألسنتهم حتى أصبحوا لايعرف بعضهم كلام بعض، وفهّم اللهُ العربيةَ عبيلاً وعاداً وثمود وطسم وجديس وعمليق، وخرجوا من بابل كما خرجت فروع أخرى، وساروا في الأرض حتى بلغوا موضع يثرب فنزلوا فيها واختطوها، ويبدو لي أن (عبيل) كان اسماً لهذا الفرع من أبناء نوح، وأنه كان في الأصل رجلا واحدا، ثم صار فرعاً يضم عدداً من الرجال والنساء والأطفال، فـ(يثربُ) الذي اختط المدينة هو حفيد عبيل حسب تلك الروايات، ومن المعقول تماما أن تتحول الأسرة الواحدة بعد جيلين إلى فرع فيه عدد غير قليل من الأبناء، وأن يتحرك هذا الفرع بأكمله من منطقة إلى أخرى، على نحو ما نراه في هجرة الفروع وأفخاذ العشائر والعائلات الريفية في تاريخنا القريب، بل والمعاصر، فكثيرا ما تنفصل أسرة عن القرية وتنشيء قرية صغيرة في منطقة أخرى قريبة أو بعيدة.

إذن تحرك فرع عبيل خارج بابل بعد أن تورطوا في عبادة الأوثان، ووصلوا موقع يثرب ، وهو بعيد عن بابل مسيرة عشرين يوماً على الأقل، وحملوا معهم مدنيتهم الزراعية، وقد أورد السمهودي أبياتا في رثائهم نستشف منها أثر تلك المدينة الزراعية والرعوية، تقول الأبيات:

عمروا يثرب وليس بها شفـ ـر ولا صارخ ولا ذو سنام

فحرسوا لينها بحجري معين ثم حفوا النخيل بالأجـام

---

١) انظر: الإصحاح الأول آية (٢٢) والاصحاح العاشر آية ٢٨

ومع أننا لانثق بصحة الأبيات، ونتوقع أن تكون من نحل القصاصين، فان الصورة التي رسمتها للعبيليين متوافقة مع ما يذكره المؤرخون عن أهل بابل ونشاطهم الرعوي والزراعي.

ويبدو أن عمل العبيليين في الموقع الذي نزلوه كان تربية الحيوانات وتكثيرها وزراعة أشجار النخيل قريبا من مجرى العيون في المنطقة، والاستفادة من الأشجار الكثيفة المنتشرة، فالمشهور أن أرض الحجاز كانت ذات أشجار كثيرة وعيون غزيرة.

ويمكن أن نتصور حياة عبيل في يثرب آنئذ إذا تصورنا حياة فئة محدودة العدد تسكن قرية صغيرة كثيرة الأشجار... تربي حيواناتها المدجنة: الابل والخيل والغنم، وتزرع النخيل وبعض الخضروات والفواكه الأخرى وتستمتع بمحصول وافر ونتاج جيد.. وفي شبه عزلة عن العالم الخارجي البعيد والمجهول، وقد التمس الدكتور جواد علي مايثبت وجود عبيل في التاريخ، ورجع إلى الكتابات اليونانية، وأشار إلى وجود اسم عموبال في بعض أسفار التوراة التي تذكر أنه ابن من أبناء (يقطان)، وكذلك وجد عند المؤرخ (بليتوس) اسم موضع يقال له Abalites ويورد رأي المستشرق (فوستر) بأنه يمكن أن يكون لعبيل نفسه.(١)

---

١) المفصل ١-٣٤٣

العماليق

إذا كانت الروايات عن عبيل قليلة لاترسم صورة واضحة لهم، فإنّ الروايات عن العماليق غير قليلة، ولكنها متناقضه أحيانا، وممتزجة بشيء من الأساطير وخيال القصاصين أحيانا أخرى،

فاسمهم يوحي إلى الأذهان بالضخامه، وقد دفع هذا الايحاء بعض الرواة إلى المبالغة والتهويل، فنقل لنا السمهودي رواية تزعم أن ((ضبعا وأولادها وجدت رابضة في حجاج عين رجل من العماليق، وأنه كانت تمضي أربعمائة سنة وما يسمع بجنازة))(١). ولا شك أن هذه الرواية وأمثالها من صنع قصاصين يحرصون على استثارة جمهورهم بالخوارق والعجائب.

وبعيداً عن تلك المبالغات، فان كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن تلك القبائل كانت تتميز بشيء من الطول والجسامة، ويذهب بعض المؤرخين الحديثين إلى أن سكان الجزيرة العربية كانو حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة ضخاما، وبقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولا يعمرون ما يعمر به أسلافهم(٢) والعماليق في كتب التاريخ العربية من أحفاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، كانوا يسكنون مع الأحفاد الأخرين لنوح في منطقة الرافدين، ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضا(٣).

وأما المعصية التي تردى فيها أولئك الأحفاد، فهي أن أحد أحفاد حام

---

١) وفاء الوفاء ١-١٥٧، والحجاج: العظم الذي ينبت عليه الحاجب.

٢) محمود شاكر:التاريخ الإسلامي ١/ ٨٢

٣) انظر ابن خلدون ٢/ ٢١

بن نوح أقام تمثالا، ودعاهم إلى تعظيمه وتقديسه فأجابوه(١) فبلبل الله ألسنتهم، وجعل لايعرف بعضهم كلام بعض، فتفرقوا..

وتجمع الروايات التاريخية على أنهم كثروا وانتشروا في أنحاء الجزيرة العربية كلها، وسكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة، وبلغوا أطراف بلاد الشام، وكان منهم فراعنة مصر أيضا(٢). ويحدد المؤرخون أسماء القبائل التي سكنت يثرب، فيذكر الطبري أنهم من جاسم(٣) بينما يسميهم ابن خلدون: بنولف، بنو سعد بن هزال، وبنو مطر، وبنو الأزرق(٤) وربما يكون الفرق بينهما تصحيفا في المخطوطات أو التحقيق!...

ولانعرف متى استوطن العماليق في يثرب على وجه التحديد، فرواية الطبري توحي بأنهم نزلوها بعد خروجهم من أَرض الرافدين، حيث توزعوا في الجزيرة العربية وسكن بعضهم موقع يثرب، بينما تنص رواية ابن خلدون على أنهم كانوا يسكنون تهامة من أرض الحجاز..، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء إسماعيل عليه السلام وآمن به من آمن منهم، واضطرد لهم الملك، إلى أن كان السميدع بن لاوذ بن عمليق، وفي أيامه خرج العماليق من الحرم، أخرجهتم قبيلة جرهم، وهي من قبائل قحطان، فتفرقوا، ونزل بمكان المدينة منهم بنو عبيل(٥).

ونحن لانعرف زمن السميدع بن لاوذ بن عمليق، ولا الزمن الذي يفصله عن إسماعيل، ولكننا نذكر هنا أن ابن خلدون يجعل العماليق مؤسسي يثرب، لأن يثرب حسب روايته من واحد من العماليق..

---

١) الطبري ١/٢٠٧

٢) انظر الطبري ١/٢٠٣

٣) وهي : بنو هف، وسعد بن هزان، وبنو بطر وبنو الأزرق. الطبري ١/٢٠٣

٤) ابن خلدون ٢/٣٠

٥) السابق نفسه

ولكن جرهم القحطانية التي يذكرها ابن خلدون هي التي أصهر إليها إسماعيل عليه السلام، وبين نوح وإسماعيل أجيال كثيرة(١)، بينما العبيليون من أحفاد نوح القريبين. فيثرب كما رأينا يبعد عن نوح ما بين أربعة إلى ثمانية أجيال،(٢) لذا لانملك إلا الظن بأن وجود قبائل العماليق في يثرب قديم جداً، إن لم يكن خلال تأسيسها، فإنه بعد تأسيسها بمدة غير طويلة.

وليس ثمة شك في وجود العماليق وفي عروبتهم تاريخياً، فالمصادر العربية وغير العربية تذكر أخباراً عدة عنهم، والطبري يعد جدهم عمليق ((أولَ من تكلم بالعربية))(٣)، والأسفار اليهودية تذكرهم في عدة مواضع باسمهم العماليق مرات وباسم الجبابرة مرات أخرى، وتذكر بعض أسمائهم وأسماء مدنهم العربية. ويقدر بعض دارسي الأسفار أن تاريخهم يرجع إلى ماقبل القرن العشرين قبل الميلاد. وأنهم عاصروا خروج بني إسرائيل من مصر، واصطدموا معهم في معارك عدة. (٤).

ومن المهم أن نقف عند ما ورد عنهم في الأسفار اليهودية، لأن معظم مؤرخي المدينة قديما وحديثا يذكرون أن اليهود قضوا على العماليق، وخلصوا يثرب منهم واستوطنوها بعدهم. وقد تبين لي أن في تلك الرواية خطأً كبيراً، وأن اليهود لم يقضوا على العماليق نهائياً، وأنهم سكنوا يثرب بعدهم بمدة غير قليلة، كما سأبيّن في فقرة قادمة. والمدهش أن الأسفار اليهودية نفسها لاتقول ذلك، بل تذكر معارك كثيرة معهم، وتصف في مبالغات خيالية انتصار اليهود عليهم والتنكيل بهم. ويرجع ذكرهم في الأسفار إلى عهد إبراهيم عليه السلام، ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين: أن ملك عيلام، ومعه

---

١) قدرها الطبري بأحد عشر قرنا ١/٣١٤

٢) أنظر ص٢ من هذا البحث

٣) الطبري ١/٢٠٣

٤) انظر د. عزة دروزة. تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ص ٤٢-٤٣

مجموعة من ملوك المناطق المجاورة، جاؤوا إلى عين شفاط، فضربوا كل أرض العمالقة والأموريين، وأسروا كثيرين، منهم لوط ابن أخي إبراهيم ومواليه ونساءه، وجاء الخبر إلى ابراهيم فجدّ في أثرهم ليلا، فكسرهم واسترجع جميع المال ولوطاً والنساء وسائر القوم. ثم يتكرر ذكرهم في الأسفار الأخرى، ففي سفر الخروج خبرعن مجيء العمالقة لمحاربة اليهود في زمن موسى عليه السلام في منطقة رنيديم، ويذكر الخبر أن العماليق هزموا بمعجزة ربانية(١) وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يكونوا يملكون من القدرة ما يمكنهم من الانتصار على العماليق... وتعد هذه الموقعة أول صدام بين العماليق واليهود، تلتها موقعة أخرى انتصر فيها العماليق وقتلوا عدداً كبيراً من اليهود، وذلك بسبب معصية اليهود لرسول الله موسى عليه السلام(٢).

وبعد وفاة موسى عليه السلام تكرر هجوم العماليق على اليهود بسبب معصية هؤلاء - كما تذكر الأسفار - ففي عهد القضاة غزاهم ملك مؤاب بجيش من العماليق، وبني عمون، واستعبدهم ثماني عشرة سنة،(٣) وبعد خلاصهم منهم بمدة وجيزة أعاد العماليق الغارة عليهم - كما فعل أهل مدين - وقويت أيديهم عليهم حتى اضطروهم إلى ترك مدنهم وقراهم والالتجاء إلى المنارات والحصون، فكانوا إذا زرعوا باغتهم خصومهم فأفسدوا غلتهم ولم يبقوا لهم ميرة ولا ماشية، فذلت إسرائيل إذلالا عظيما سبع سنين، إلى أن كان

---

١) الأصحاح السابع عشر من سفر الخروج

٢) أنظر الخبر في الإصحاح الرابع عشر من سفر العدد، وخلاصة الحادثة أنه لما رفض اليهود القتال مع موسى عليه السلام، بلغهم موسى أن الله كتب عليهم التيه أربعين سنة، ولما سمع الشعب كلام الرب بكوا وناحوا واعترفوا بخطئهم، وأرادوا أن يتقدموا في السير نحو أرض كنعان، فنهاهم موسى وقال لهم: لن يكون الرب معكم، فلم ينتهوا، فدهمهم العماليق والكنعانيون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. أنظر الإصحاح الرابع عشر من سفر العدد

٣) أنظر الأصحاح الثالث من سفر القضاة

خلاصهم على يد جدعون الذي اشتبك مع العمالقة والمدينين في وادي يرزعبل، وضربهم ضربا شديداً على ماذكره الإصحاحان السادس والسابع من سفر القضاة في سياق طويل فيه الكثير من الخيال (١).

ويبدو أن الإسرائيلين ضعفوا ثانية، وكانوا يتعرضون لضربات العماليق وغيرهم من جيرانهم إلى أن ظهر فيهم طالوت،(٢) حيث أبلغه النبي صموئيل أن الله يأمره بالتصدي للعماليق والانتقام منهم، وتظهر العبارة التي وردت في الأسفار مدى حقد اليهود على العماليق ورغبتهم في الانتقام منهم بوحشية لانظير لها، ولا يمكن أن يقبلها دين سماوي فقد جاء في نص العبارة على لسان صموئيل:

(إياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعب إسرائيل، الآن فاسمع صوت كلام الرب، هكذا يقول رب الجنود: إنني افتقدت ماعمل عمليق بإسرائيل حين وقف له عند صعوده من مصر، فالآن اذهب، واضرب عمليق وأحرمه كل ماله، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلا وامرأة، طفلا ورضيعا، بقرا أو غنما.) ويروي السفر أن شاؤول (طالوت) قاد مائتين وعشرة آلاف رجل من اليهود وزحف بهم على العماليق وضربهم من حويلة إلى شور، وقبض على ملكهم (أجاج) وحرم (قتل) جميع الشعب بحد السيف، وعفا عن أجاج وعن خيار الغنم والبقر والخراف، وعن كل ما هو جيد، وحرم الأملاك المحتقرة والمهزولة))(٣)

ويروي السفر أن الله غضب على شاؤول لأنه لم ينفذ أمره بقتل العماليق جميعهم ودوابهم وماشيتهم، فكلم النبي صموئيل قائلا ((إني ندمت على جعل شاؤول ملكاً لأنه لم يتم كلامه)) وجاء صموئيل إلى شاؤول وأنبه، فأظهر الندم وطلب المغفرة، وأتى بأجاج فقطعه بالسيف. ولكن صموئيل أخبره أن

---

١) انظرالأصحاحين المذكورين

٢) وتسميه الأسفار اليهودية شاؤول

٣) المصدر نفسه

الله رفضه من الملك، وذهب غاضبا، ولم يعد يراه إلى أن مات.

ومن المهم جدا أن نقف عند الرواية السابقة لأنها - فيما يبدو لي - أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على جميع الذين كتبوا عن تاريخ يثرب، سواء في تأريخهم للعماليق، أو في تأريخهم لسكن اليهود في يثرب. أما ما يتعلق بالعماليق، فثمة إجماع لدى مؤرخي المدينة المنورة على أن اليهود قد قضوا على العماليق وأنهوا وجودهم في يثرب تماما.

وأما ما يتعلق بتاريخ سكن اليهود في يثرب فمعظم الروايات تجعل اليهود يحلون محل العماليق بعد القضاء عليهم مباشرة.

فبعض الروايات تقرر أن موسى عليه السلام بعث جيشا إلى العماليق فقضى عليهم.(١) بينما تقول روايات أخرى: إن الحادثة جرت بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من مائتي سنة !!... وليس في أسفار التوراة أي خبر عن جيش لموسى ضرب العماليق ، وكل ماذكرته تلك الأسفار عن حروب موسى كان مع سيمون الآموري(٢) ومع المدينين (أهل مدين)(٣). كما أن تاريخ اليهود القديم الذي دونه مؤرخهم الأكبر (يوسفوس) لم يشر إلى بعث بعثه موسى عليه السلام إلى الحجاز. ولو أن ذلك البعث قد وجد فعلاً ما سكت عنه مؤرخو اليهود لاقديما ولا حديثا، بل لكانوا عدّوه من مفاخرهم الكبيرة، وبالغوا فيه أيما مبالغة.

وثمة قضية أخرى في هذا الموضوع.. فالرواية رغم ما فيها من حقد على العماليق ـ وصية صموئيل لشاؤول بقتلهم رجالا ونساء وقتل ماشيتهم ـ توحي بأن شاؤول لم ينفذ الوصية تماما، وتوحي روايات أخرى سنعرض

---

١) انظر ابن خلدون ٣٠/٢، السهيلي ٥١/٢، وفاء الوفاء ١٥٩/١، الوكيل: يثرب قبل الإسلام ص ٤٣

٢) سفر العدد الإصحاح الحادي والعشرون

٣) الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر العدد

لهابعد قليل أن (شاؤول) لم يستأصل العماليق، وأن العماليق مالبثوا أن أغاروا على الإسرائيلين وأوقعوا بهم.. فلا يمكن أن تكون غزوة شاؤول لهم قاضية، أو حتى شديدة بالدرجة التي ذكرها السفر، ثم ينهضون بعد حين ويغيرون على المدن الإسرائيلية ويتغلبون على جيوشها. ثم إن دارسي الأسفار اليهودية لايذكرون يثرب ضمن المدن التي افتتحها شاؤول، ويرون أن المنطقة التي جرت فيها المعارك كانت في صحراء سيناء المتصله بمنطقة العقبة.(١).

وعلى فرض أن يثرب كانت تخضع للعماليق ولم تكن عاصمتهم، وأن سقوط عاصمة العماليق ـ سواء كانت في تيماء أو خيبر أو تبوك ـ وقتل ملكهم - وتسميه المصادر العربية الأرقم بن الأرقم - يعني انتهاء سلطة العماليق على يثرب.. حتى على افتراض قبول هذا الرأى فإنه لايمكن أن ينهي وجود العماليق في يثرب.(٢) وقد تبين لي أن الروايات العربية عن بعث موسى للعماليق والقضاء عليهم مصدرها واحد، وهو رواية لأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الكبير ((الأغاني)) وهي رواية غريبة(٣)، ولا يذكر الأصفهاني أنها مسجلة في كتاب... ولا يسوق أي دليل على صحتها... وقد أخذها عنه عدد من مؤرخي المدينة بعد ذلك حتى وصلت إلى ابن خلدون، فذكرها ابن خلدون على أنها حقيقة تاريخية... في حين إن الطبري وسواه من المؤرخين المتقدمين لم يأخذوا بهذه الرواية ولم يذكروها في تاريخهم. وقد شك إبن خلدون بهذه الرواية ورفض أن يأخذ بها في تأريخ أول سكنى

---

١) دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم:١٤٠

٢) وقد نص ابن خلدون على ذلك في رواية قرر فيها أن العماليق كانوا في المدينة بعد عهد سليمان وأمرهم راجع إلى ملوك القدس ٣٤٢/٢

٣) انظر: الأغاني ١١٦/٣ دار الكتب

اليهود في يثرب(١).

ومن جهة ثانية لا يمكن أن نحكم بأن حملة شاؤول على العماليق قد قضت عليهم، لأننا نجد في الأسفار التالية لسفر صموئيل عدة أخبار تذكر وقائع أخرى بين الأسرائيلين والعمالقة. ومن هذه الأخبار أن العمالقة في عهد داود عليه السلام ـ الذي تسلم الملك من شاؤول بعد غضب الله عليه كما تقول الأسفار - غزوا مدينة صقلاح وأحرقوها وسبوا من فيها من النساء، ولم يقتلوا لاصغيرا ولا كبيرا ـ خلافا لما كان يفعله الإسرائيليون - وكان داود غائبا عن المدينة فلما علم بذلك أسرع ولحقهم بجنده فأدركهم واستخلص الأسرى والسبي والأموال.(٢) ويدل سياق الخبر على أن الحادثة وقعت في حياة شاؤول المعزول عن الملك، أي غير بعيد عن معركته مع العماليق، فكيف نصدق أن حملة شاؤول قد قضت عليهم؟؟ جل مافي الأمر أن رواية سفر صموئيل كانت مشوبة بالمبالغة الشديدة لتستوعب الحقد الذي يحمله اليهود على العماليق. ثم إن الحديث عن معارك الإسرائيلين مع خصومهم في الأسفار كلها تنهج منهج المبالغة، حتى يقع في تناقضات مكشوفة يحس بها كل من يمضي في قراءتها... وعلى سبيل المثال فقد ذكر في سفر العدد أن الإسرائيلين زحفوا بأمر موسى عليه السلام إلى مدين فدمروها(٣) وأهلكوا أهلها جميعا، بينما ذكر في سفر القضاة أن المدينين زحفوا على الإسرائيلين في عهد القضاة، وهو يلي عهد موسى ويوشع مباشرة، وأذلوهم وحكموهم سبع سنين؟ فكيف فني المدينيون ثم نموا بهذه السرعة وأذلوا

---

١) ابن خلدون ٢٥١/٢ ولايعُدّ الأصفهاني في الثقات فلا يُعَوّل على مايرويه إذ هو مجروح غير مأمون وذو عصبية وهوى

٢) أنظر الإصحاح التاسع والعشرين

٣) الاصحاح الحادي والثلاثين

الأسرائيليين؟(١).

لذلك أرى أن الزعم بأن العماليق قد انتهوا على أيدي اليهود غير صحيح على الإطلاق... وأن أصل هذه المقولة رواية أطلقها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني دون أي دليل، فسرت وشاعت في كتب التاريخ، وبخاصة كتب تاريخ المدينة المنورة.

وهنا يظهر سؤال وجيه: كيف كان وضع العمالقة في يثرب؟ وكيف انتهوا؟ ومتى؟.

رأينا أن العماليق قد تكاثروا وانتشروا في مناطق شاسعة غطت شبه الجزيرة العربية كلها وقسما من بلاد الشام ومصر.(٢). ويذكر المؤرخون أنهم كانوا قبائل عدة، وكل قبيلة أو مجموعة من القبائل تستوطن منطقة معينة، وتعيش مستقلة، أو شبه مسقلة عن القبائل الأخرى، وأغلب الظن أن العمالقة لم يؤسسوا دولة واحدة تضمهم في شبه الجزيرة العربية، وربما نجح بعض سادتهم في تأسيس مملكة تضم معظم منطقة الحجاز أو كلها، ويذكر الطبري أن الأرقم كان ((ملك الحجاز)) وكان يقيم في تيماء(٣) ويبين ابن خلدون أن ملكه كان (مابين تيماء إلى فدك)(٤) وعلى هذا فإن يثرب لاتدخل

---

١) الاصحاحين السادس والسابع

٢) يقول الطبري: فعمليق أبو العماليق كلهم، وهي أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام، الذين يقال لهم الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة في مصر، وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم، وكان من ساكني المدينة منهم بنو هف، وسعد بن هزان، وبنو مطر، وبنو الأزرق وكان في نجد منهم: بديل وراحل، وغفار. كما أن أهل تيماء منهم، وقد ملك الحجاز رجل منهم اسمه الأرقم. أنظر الطبري ٢٠٣/١

٣) السابق نفسه.

٤) ابن خلدون ٣٤٣/٢.

في نطاق ملكه إنما هي في سلطة الذين سكنوها والذين كانوا ملوك المدينة وكان لهم بها نخل وزرع.(١). ويقوي هذا الرأي أن العماليق أنشأوا في يثرب مجتمعا زراعيا وثمة رواية تذهب إلى أنهم أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمر بها الدور والأطام واتخذ بها الضياع.(٢) والمجتمع الزراعي في الغالب - ولا سيما في العصور القديمة - قليل الحركة، خلافا للمجتمع التجاري، فمتطلبات العمل في الأرض تقتضي وجود أصحابها بجانبها مدة طويلة، وكانت المجتمعات الزراعية قديما تحقق الاكتفاء الذاتي غالبا، لذا أتصور أن سكانها من العماليق انهمكوا في زراعتهم وعاشوا حياتهم مستمتعين بوفرة محاصيلهم أول الأمر..... وعندما نمت التجارة أسهموا فيها إلى حد ما، فثمة رواية تذكر أن بعض أهل يثرب كان يصل بتجارتة إلى غزة.(٣). والمعروف أن أهل يثرب قبيل الإسلام لم يكونوا تجارا على شاكلة أهل مكة، وأن إسهامهم في التجارة الخارجية كان محدوداً، مع أن يثرب تقع في الطريق التجارية بين اليمن والشام، ومع أن القوافل كانت تمر بها، فإن أهلها لم يؤثروا التجارة على الزراعة التي تغريهم بها خصب أراضيهم وكثرة ينابيعهم آنئذ، كما أن الطريق التي تمر بها ليست الطريق الوحيدة، فهناك الطريق الساحلي الذي سلكه أبو سفيان عندما علم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس المسلمين لاعتراض قافلتهم.

ونستنتج من قول ياقوت (إنهم اتخذوا الآطام والضياع) أنهم استغرقوا في حياتهم الزراعية وأثروا، وتحصنوا في الآطام تحسبا من غزوات تقوم بها قبائل أخرى أجدبت أرضها أو شحت مواردها، وهذا ما كانت عليه الحياة آنئذ، كما نستنتج أن يثرب قد اتسعت وصارت لها ضواح ((ضياع)) وهذا ما

---

١) السابق نفسه.

٢) وفاء الوفاء ١-١٥٧.

٣) المفدل ١/٥٨٥.

سنجدها عليه في فترات أخرى...

وقد عمر العماليق في يثرب ما شاء الله، ثم وفدت عليهم قبائل أخرى ساكنتهم، وأعتقد أن الوفرة التي وصل إليها العماليق جعلتهم يقبلون مساكنة الوافدين إليهم ليستفيدوا من العمالة الطارئة، فيخفف عنهم القادمون أعباء العمل في الأرض، ويجد أصحاب الأرض فرصة للتمتع بثرواتهم، وما لبث الوافدون أن استثمروا بعض الأراضي التي لم يستثمرها العماليق في المنطقة، وتحولوا إلى ملاك وأثروا وجاروا العماليق في حياتهم، ويؤيد ما أذهب إليه ما ذكره ابن خلدون من أن العماليق في يثرب ((ملكوا أمر أنفسهم، وانضافت إليهم قبائل من العرب نزلوا معهم واتخذوا الأطم والبيوت))(١).

وخلال رحلة السنين الطويلة، حصل تزاوج وتمازج بين العماليق والقبائل الوافدة، وظهرت أجيال جديدة تحمل دماءاً مختلطة، وما لبث العماليق المتميزون بضخامة الأجسام أن قل عددهم، ولكنهم لم ينقرضوا تماما، بل بقيت منهم بقية إلى ما بعد وصول اليهود إلى يثرب. ويذكر ابن زبالة أن بني أنيف - وهم حي أقاموا مع اليهود قبل وصول الأوس والخزرج - كانوا منهم(٢).

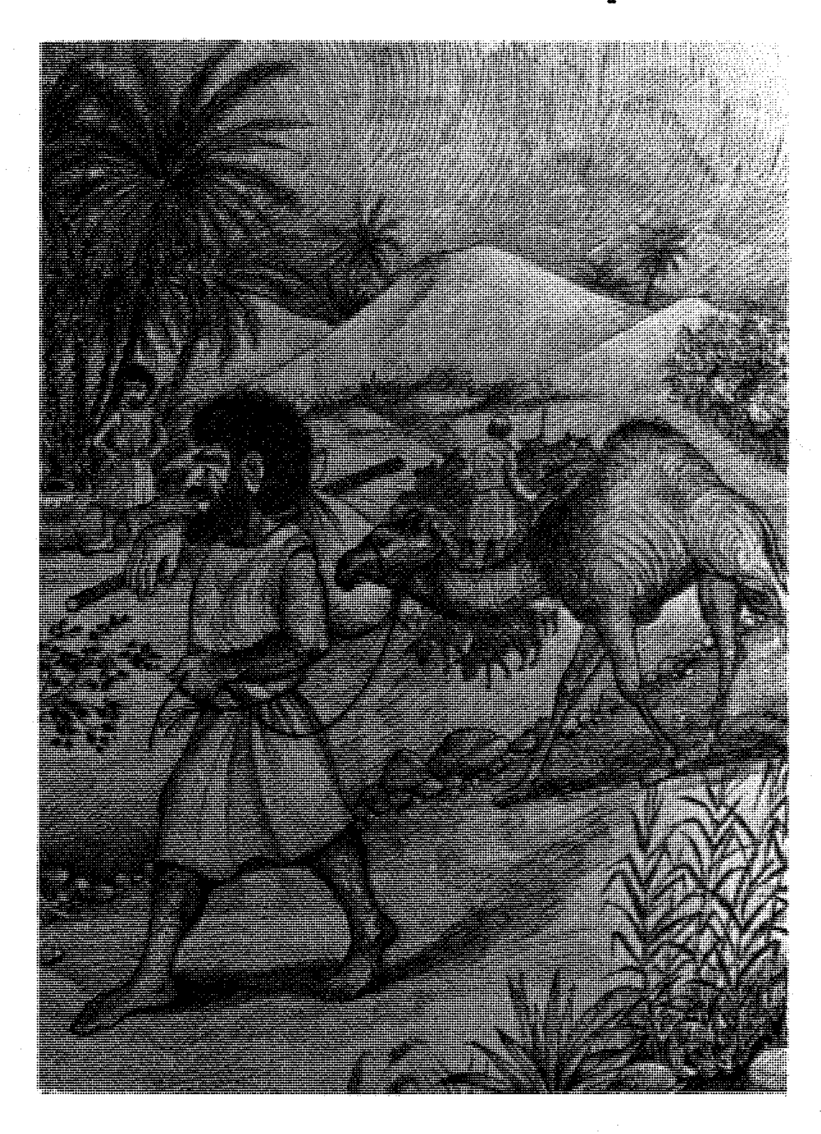
وهكذا نشأ مجتمع يثربي جديد يجمع في ظلاله العماليق وغير العماليق، ينعم بخصوبة الأراضي، ووفرة الغلال، ومنعة المنطقة طبيعياً بما حولها من حرات، وصناعياً بما أقامه اليثربيون من أطام وحصون. وقد استمر هذا المجتمع في حياة هادئة نسبيا، فلا نسمع بموقعة حربية كبيرة، ولا نجد لهم جيشا يجتاح منطقة أخرى، ولا اسم ملك متميز بأعماله. ولعل غيبة التنقيبات الأثرية، وقلة المكتشفات، قد أسهم في جعل هذه الفترة ضبابية، تبنى على الافتراض والتصور وليس على اليقين القاطع. ويستمر هذا الضباب كثيفا إلى

---

١) ابن خلدون ١-٤٢

٢) وفاء الوفاء ١/٦٢١- وتاريخ الإسلام ١/٨٢

أن نقع على أول أثر تاريخي يصل إلينا من عهد الدولة المعينية حيث وجد الباحثون ذكر يثرب في الكتابات المعينية المكتشفة...



العماليق... استفادوا من الطبيعة الزراعية ليثرب

يثـــرب والمعينـــيون

يرجح بعض الباحثين المحدثين أن يثرب قد خضعت للدولة المعينية وأصبحت واحدة من مناطق نفوذها،

وتعد المملكة المعينية من أقدم الممالك العربية الجنوبية التي وصلتنا بعض أخبارها عن طريق المكتشفات الأثرية. وثمة خلاف شديد حول زمن نشأتها وسيادتها.(١). والقول الأرجح أنها عاشت وازدهرت ما بين القرن العاشر والقرن الخامس قبل الميلاد، وقد ذكرها بعض الجغرافيين الغربيين، مثل (تيودورس) الصقلي (وسترابون) الروماني. أما المؤرخون والجغرافيون العرب فلم تصلهم أخبارها. وقد ذكر ياقوت الحموي أن معين اسم حصن باليمن، ومدينة باليمن تذكر في براقش(٢).

وتدل الأثار المكتشفة أن المملكة المعينية كان لها صلات وثيقة مع جاراتها تحولت إلى نفوذ وسيطرة. وقد امتدت سلطتها من جنوب اليمن إلى الحجاز وحتى فلسطين، فكانت (مدين) في وقت من الأوقات مستعمرة معينية (٣) والسبب الرئيسي الذي جعل الباحثين يعتقدون أن يثرب دخلت تحت نفوذ المملكة المعينية هو الأثار التي اكتشفت في مدينة العلا على أحد القبور القديمة.

فقد وجد المنقبون كتابات معينية وردت فيها أسماء أشخاص ومدن وآلـهـة معينيه معروفة، كما ورد ذكر يثرب ومؤان وعمون وغزة. ويرى بعض

---

١) في الخلاف حول زمن الدولة المعينية انظر ديتيف فلس وفرتز هوبل: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسين علي، مكتبة النهضة العربية ط١ القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٧١-٢٧٣.

٢) أنظر معجم البلدان ٥/١٦٠ دار الفكر

٣) السابق ص ٥٩.

الباحثين أن تلك المدن كانت جزءاً من المملكة المعينية وأرضاً خاضعة لها، وأن ملوك معين كانوا يعينون حكاما عليها باسمهم، ويلقب الحاكم (كبر) أي كبير، ويتولى الحكم باسم الملك، ويجمع الضرائب ويحافظ على الأمن.(١).

ولئن صحت هذه المقولات فان المعينين قد سيطروا على يثرب في فترة تمدد مملكتهم، أي منذ الألف قبل الميلاد، وعينوا عليها حاكما من أهلها- كما كانوا يفعلون في مناطق نفوذهم الأخرى - لتأمين طريق تجارتهم البرية، ولم تكن سلطتهم على المدينة تتعدى الضريبة السنوية المفروضة عليهم، فضلاً عن حماية قوافلهم، ولانجد في الكتابات القليلة عن معين أي ذكر لحروب خاضوها مع أهل يثرب، ولا أحداثا متميزة.. وجل مانجده إشارات تبيّن أن سيطرتهم كانت على الحجاز بأ كمله.

ونظراً لضعف هذه السيطرة فإننا لانتوقع أن يحدث في المجتمع اليثربي أية تغيرات كبيرة، اللهم إلا المزيد من الاستقرار والانتعاش والفوائد التي تأتي بها تجارة مطمئنة مزدهرة.

---

١) أنظرالمفصل ٢/١١٩-١٢١

يثرب والسبئيـون

قامت مملكة سبأ على أنقاض المملكه المعينيه وورثت مستعمراتـها، وهذا يعني أن السبئيين بسطوا سلطتهم على يثرب بعد المعينيين(١).

غير أننا لا نجد في كتب التاريخ العربية والغربية مايشير إلى تغيرات في المجتمع اليثربي المطمئن - اللهم إلا الوصف التاريخي العام لنمو المدينة والرفاهية الكبيرة في عهد السبئيين، ولا نجد أحداثا كبيرة تلفت نظر المؤرخين، أو حتى القصاصين الذين يبحثون عن مادة لقصصهم الخيالية.

والثابت لدينا أن مملكة سبأ كانت معاصرة لحكم سليمان بن داود عليه السلام، وأن ملكتها بلقيس قد التقت به وآمنت بما يدعو إليه كما أخبرنا القرآن الكريم (٢).

وقد عمرت دولة السبئيين كما أخبرنا القرآن الكريم أيضا(٣)إلى زمن سيل العرم، حيث ضعفت الدولة وانهارت. وربما تُظهر المكتشفات الأثرية ذات يوم أخباراً جديدة عن تلك الدولة تضيء لنا جزءاً من تاريخ يثرب في عهد السبئيين، وإلى ذلك الحين لانملك إلا أن نبقى في الضباب والافتراض.

---

١) انظر: المفصل ١٠٥/٢

٢) انظر سورة النمل الآيات ٢٢-٤٤

٣) انظر سورة سبأ الآيات ١٥-١٧

يثرب والكلدانيون

قلنا إن الباحث في تاريخ يثرب لابد له أن يستعين بمصادر خارجية عسى أن يجد فيها حادثة أو ذكراً لهذه المدينة في العصور التي لم يصلنا منها شيء، خاصة وأن الكتب التاريخية العربية تعرض لتلك الفترة روايات كثيرة متداخلة ومتضاربة أحيانا، لاتعتمد على أثر مكتشف أو كتابة متناقلة، ويتدخل خيال الرواة والقصاصين فيضيف ويحذف مالايعلم به إلا الله، وفي يقيني أن الدراسة الموضوعية المتأنية لتاريخ يثرب تقتضي بحثا وتنقيبا واسعِين في التاريخ المدون أو المستنتج من النقوش والحفريات للأمم المجاورة، وبالذات تاريخ بلاد الرافدين، وحضارة الأنباط وفلسطين واليمن ومصر بل واليونان والرومان أيضا. فالتاريخ المدون لهذه الحضارات يكاد يكون صحيحاً في القرون الميلادية الأولى وفي القرون الثلاثة أو الأربعة التي سبقت الميلاد.

أما تاريخنا العربي الموثوق فلا يتعدى قرناً أو قرناً ونصف القرن قبل الهجرة.

وإذا كنا في كتابنا هذا محكومين بظروف معينة لاتتيح لنا التنقيب الواسع في تاريخ تلك الأمم، فعسى أن تكون إشاراتنا القليلة هنا دعوة لمن يرزقهم الله الوقت والفراغ والهمة لخدمة التاريخ والحقيقة والجذور.

ولعل من الأمثلة القريبة على فائدة البحث الذي أشير إليه مانجده في تاريخ الدولة البابلية الكلدانية من إشارات إلى يثرب نقف عندها وقفة قصيرة لتكون نموذجا لوقفات تحتاجها دراساتنا القادمة.

فقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن النقش الذي عثر عليه في خرائب مسجد حران الكبير يتحدث عن أعمال الملك ((نبونيد))، ويقرر أن هذا الملك خرج من بابل في أواخر حكمه وجاء إلى تيماء فأخضع أهلها، ثم سيطر على

المدن المجاورة وضمها إليه وهي: ددانو (مدينة قديمة معروفة ذكرتها الأسفارالعبرانية) وباكوا (فدك) وخبرا (خيبر) واتريبوا (يثرب) وظلت خاضعة لحكم هذا الملك عشر سنوات(١).

ونبونيد هو أخر ملوك الدولة البابلية الكلدانية، حكم لمدة ١٦ سنة (من سنة ٥٥٦ - ٥٣٩ ق م) قضى عشر سنوات منها في شمال الجزيرة العربية، تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه (بلشازار) ثم عاد إلى بابل ليدهمهم الملك الفارسي قورش سنة ٥٣٩ ق م، وينهي دولتهم ويجعلها ولاية تابعة لإمبراطوريته(٢).

وليس بين أيدينا تفصيلات عن كيفية سيطرة نبونيد على يثرب، ولكنني أتوقع أن المدينة خضعت له دون حوادث فاجعة أو انتصارات ساحقة يحققهاالملك المذكور، فلو كان ذلك قد حدث لسجل النقش تلك الحادثة ضمن مفاخر نبونيد التي عددها، وأتصور أن يثرب قد سلمت للحاكم الجديد بعد أن ضعف سلطان الدولة السبئية، ومن قبلها المعينية، وأن الضرائب التي كان يدفعها اليثربيون إلى السبئيين والمعينيين قد تحولت إلى خزانة نبونيد، وأن حاكما باسم الملك قد عين عليها، أو أبقى الحاكم القديم نفسه إن كان هو الذي أعلن الخضوع، وربما بقيت في يثرب حامية محدودة تضمن استمرار الولاء والجباية مدة السنوات العشر. وأما الحياة الداخلية في يثرب فسارت على منوالها القديم بعد مدة وجيزة من هزة تغير السلطان، وأن الحامية البابلية الكلدانية انسحبت من يثرب بعد رحيل نبونيد وزوال مملكته فلا نجد في الأخبار أو في السكان بقايا بابلية امتزجت مع القبائل التي كانت تسكن يثرب.

واعتقد أيضا أن الحكم البابلي قد حدث قبل هجرة اليهود إلى يثرب.

---

١) انظر: المفصل ١/٦٠٧-٦١٩

٢) السابق ١/٦١٧-٦١٩

فالبابليون أعداء اليهود، وهم الذين أنهوا دولتهم الأخيرة ((يهوذا)) قبل مجيء نبونيد إلى الحكم. ولئن نجحت بعض القبائل في الهجرة أيام بختنصر ٥٨٩ ق م إلى المنطقة فاعتقد أن هذه القبائل لم يكن يسرها أن يدهمها خلفة نبونيد في مهجرها، وأنها ستفر من وجهه إلى أي مكان أخر، ولو وجد نبونيد اليهود في المناطق التي احتلها لكان له معهم شأن، ولذكر ذلك في تاريخه المدون.

وعلى أية حال فهذه افتراضات يمليها ((منطق الوقائع)) وليست حقائق قاطعة، فربما تحمل إلينا الوثائق المكتشفة في قادم الأيام أشياء أخرى ليست في الحسبان، ولكن حتى ذلك الوقت نرجح هذه الصورة..

يثرب والرومان

هل مر الرومان بيثرب؟:

من المعروف أن الرومان لم يحاولوا التوغل في جزيرة العرب في فترة مدهم العسكري الكبير، لأن الصحراء الواسعة تشكل العقبة الكبيرة لجيوشهم النظامية الجرارة.

ولكن التاريخ الروماني يذكر محاولة واحدة قامت فيها حملة رومانية باختراق الجزيرة العربية إلى جنوبها للوصول الى مناطق الذهب في أرض اليمن، وقد جرت هذه المحاولة في عهد الإمبراطور أوغسطس عام ٢٥ ق م، حيث أمر هذا الامبراطور واليه على مصر ((أوليوس غالوس)) بإعداد الحملة وقيادتها، ورافق الحملة جغرافي معروف هو (سترابون) صديق القائد غالوس وكتب عنها، فوصلتنا أخبارها شبه كاملة.

خرجت الحملة بعشرة آلاف محارب روماني وألف نبطي وخمسمائة اسرائيلي، يرشدها أحد قواد ملك الأنباط، وأبحرت من الساحل المصري للبحر الأحمر ووصلت الى ((لويكة كومة))(١)، بعد أن خسرت عددا كبيرا من السفن والرجال، وفتك المرض بعدد أخر لفساد الطعام والماء وسوء الغذاء، فاضطرت إلى قضاء الصيف والشتاء فيه حتى استراح الجيش وتعافى من المرض (٢).

بعدها تحركت الحملة وسلكت طريقا لم يوضحه سترابون حتى وصلت الى نجران، ثم اجتازت عدة مدن وحاربت أهلها حتى بلغت مدينة مرسيبا

---

١) يقدر دكتور جواد علي أنها ينبع. المفصل ٤٥/٢، بينما يرى فؤاد حمزة أنها مويلح. قلب جزيرة العرب ٢٥٧

٢) المفصل ٤٥/٢

الجيش الروماني... هل مرَّ بيثرب؟

(مأرب) ومنها عادت إلى مدائن صالح ثم أبحرت عائدة إلى مصر، ولم تحقق الحملة أهدافها ولم تحصل على الذهب الذي خرجت لأجله، كما أنها لم تلحق المدن التي احتلتها بالدولة الرومانية. وقد تعددت الأراء حول الطريق التي سلكتها الحملة بعد نزولها في ينبع أو مويلح، ومن بين تلك الآراء رأي يقرر أن الحملة سارت في طريق إضم إلى يثرب لكي تتجنب الاصطدام بالقبائل التي تسكن على الطريق التجاري بين ينبع والجنوب، وأنها تابعت طريقها من يثرب إلى نجد، ومنها إلى نجران أو من يثرب إلى القصيم ثم سارت في طريق اليمن إلى نجران (١). وذكر سترابون أن ملك تلك المنطقة، وربما كان شيخ قبيلة، يدعى الحارث قد رحب بالرومانيين وساعدهم في اجتياز الطريق، ولئن صحت هذه الرواية - وهي أرجح الروايات - فان الحملة قد مرت بيثرب أو بظاهرها، وربما استراحت فيها قليلا وتزودت بما يلزمها من الماء والطعام، فسترابون يذكر أن المنطقة كانت كثيرة العيون.

ولا شك أن ذكاء الحارث وحسن تعامله مع قائد الحملة قد أفاد المنطقة التي مرت بها، فلم يتعرض الجيش لأية مدينة، ولم تقع أية مصادمة في المنطقة، وعندما ذكر سترابون أسماء المدن التي خربتها الحملة، أو عاثت فيها فسادا، لم يذكر أية مدينة قبل نجران، وهذا ما يرجح مرور الحملة بطريق يثرب فالقصيم حيث المدن قليلة، ولا تشكل مطمعا للرومانيين، وربما يكون الحارث قد تفاهم مع شيوخ المنطقة ورؤسائها كي يتجنبوا الصدام مع الحملة.

وعلى أية حال، فإن الحملة لم تترك أي أثر في يثرب أو في حياة اليثربيين، حتى إننا لانجد لها ذكرا في كتابات المؤرخين القدماء، بل إن الرومانيين بعامة لم يؤثروا في حياة يثرب وأبنائها على الإطلاق.

---

١) يؤيد هذا الرأي كلاسر وشبرنلكر. أنظر المفصل ٢/ ٥١

اليهود في يثرب

عندما هاجر المسلمون إلى يثرب وجدوا بين سكانها قبائل يهودية عدة، وكان للمسلمين معهم شأن سنذكره في تاريخ الحقبة الإسلامية.

فمَنْ هؤلاء اليهود؟ وهل هم من سكان يثرب الأصليين الذين وصلتهم الدعوة اليهودية فتهودوا؟ أم أنهم قبائل عربية كانت تسكن خارج يثرب تهودت وجاءت يثرب فسكنتها؟ أم أنهم من يهود بني أسرائيل الذين خرجوا من مصر أو من فلسطين؟؟.

ثمة إجماع بين المؤرخين على أن معظم يهود يثرب هم أحفاد مهاجرين جاؤوا من فلسطين ، وأن قليلا منهم عرب تهودوا وانضموا إلى اليهود الآخرين، ولكن المؤرخين يختلفون اختلافا شديدا في تحديد تاريخ هجرة اليهود إلى يثرب، ولا سيما المؤرخون العرب، الذين اهتموا بتاريخ المدينة المنورة.

ويدهش المرء لكثرة الروايات التي يجدها في هذا الموضوع، ويدهش أيضا لتفاوتها تفاوتا شديدا. وسوف أعرض باختصار مجمل تلك الروايات، والزمن الذي يحدده كل منها.

الرواية الأولى: أقبل موسى وهارون حاجين، فمرا بالمدينة، فخافا من يهود، فخرجا مستخفيين، فنزلا جبل أحد، فغشي هارون الموت، فقام موسى فحفر له ولحده. وهذا يعني أن اليهود كانوا موجودين في يثرب قبل وصول

موسى وهارون حاجين(١).

الرواية الثانية: جاء اليهود إلى يثرب زمن موسى عليه السلام عندما حج مع أخيه هارون ومجموعة من بني إسرائيل، فلما صاروا إلى موقع يثرب اشتورت طائفة من الإسرائيلين فيما بينها، ورأت في الكتاب الذي لديها .أن هذا الموضع سوف يخرج فيه نبي، فقرروا الإقامة فيه، وكان ذلك (٢).

الرواية الثالثة: إن موسى عليه السلام أرسل جيشا لمحاربة العماليق والقضاء عليهم تماما، ففتك الجيش بجميع العماليق سوى رجل واحد أعجبهم، وكان ابن ملك العماليق الأرقم، وعندما رجع الجيش إلى فلسطين، وكان موسى قد مات، غضب الإسرائيليون على الجيش لمخالفة أمر موسى واستبقائه ابن الأرقم ولم يسمحوا له بدخول البلاد، فعاد الجيش إلى موقع يثرب واستوطن فيه(٣).

الرواية الرابعة: هاجرت مجموعة يهودية من بني شمعون بعد وفاة موسى - بزمن لا نعرفه - إلى أرض العماليق وقضت عليهم واستوطنت أرضهم (٤).

الرواية الخامسة : كان علماء من بني اسرائيل يجدون صفة النبي المنتظر في كتبهم ، فخرج بعضهم - في زمن لانعرفه - يبحث عن موقعه حتى وقفوا على منطقة يثرب ، ووجدوها مطابقة لما عندهم ، فأقاموا فيها(٥).

الرواية السادسة: لما خلع بنو إسرائيل طاعة داود عليه السلام وتبعوا ابنه اشيوست (واسمه في الأسفار ابشالوم) فر داود مع سبط يهوذا إلى خيبر. وأقام فيها سبع سنين حتى قُتل ابنه فعاد إلى ملكه، وقد أقام

---

١) وفاء الوفاء١/١٦١

٢) وفاء الوفاء ١/١٦٢

٣) وفاء الوفاء ١٥٩/١٦٠

٤) قلب الجزيرة العربية ٢٥٨ . يثرب قبل الاسلام ٣٩

٥) وفاء الوفاء ١٧٩/١٦٠

بالحجاز من أقام، ونزل بعضهم بلاد يثرب، واتخذوا فيها الأطم والبيوت، وملكوا أمر نفسهم(١). وفي الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول أن داود خرج الى حلب وليس الى خيبر.

الرواية السابعة: اقتحم بختنصر البابلي أورشليم عاصمة اليهود عام ٥٨٩ ق م، ودمر الهيكل وسبى معظم أهلها وساقهم إلى بابل، وهربت جماعة من اليهود قبل الاقتحام، وبعده، وسارت إلى بلاد الحجاز ونزلت يثرب(٢).

الرواية الثامنه: بعد أن عاد قسم من اليهود الذين شردهم بختنصر إلى أورشليم وانضووا تحت حكم الرومان، أثاروا شغبا كبيرا في المدة مابين عام ٦٦-٧٠ م فهاجمهم القائد الروماني تيتوس ودمر أورشليم ثانية، وشتتهم، وأغرق عددا كبيرا منهم في بحيرة لوط، ففر الناجون إلى الحجاز ووصلوا يثرب وأقاموا فيها(٣).

الرواية التاسعه: جمع اليهود شتاتهم بعد تشردهم الثاني وعادوا إلى فلسطين، وقاموا بثورة عام ١٣٢ م، فأرسل الإمبراطور الروماني هارديان جيشا أعمل فيهم السيف ودمر مدينتهم ومنعهم من دخولها نهائيا، وفر من نجا منهم إلى جزيرة العرب (٤).

الرواية العاشره: خطب ملك الروم فتاة من بني إسرائيل، وكانوا لايزوجون النصارى، فكادوا له، واستقدموه وقتلوه ومن معه، وخافوا انتقام الروم ففروا الى الحجاز، وتبعهم جيش الروم فهلك عطشا في منطقة اسمها

---

١) ابن خلدون ٣٤٢/٢

٢) الطبري ٥٣٨/١ وقد أشار الى وجود العماليق قبلهم، ابن كثير ٣٦/١ وقد جعل الأوس والخزرج يسبقونهم، الروض الأنف ٢٥١/٢، وفاء الوفاء ١٦٠/١

٣) يثرب قبل الإسلام ص ٣٧ تاريخ فلسطين القديم ٨٩ اليهود في شبه الجزيرة العربية ٥٩. قلب جزيرة العرب ٢٥٩

٤) اليهود في شبه الجزيره ٦٠، قلب جزيرة العرب ٢٥٩

ثمد الروم (١)٠

وكما نرى فان الروايات الست الأولى لاتثبت للنقد والتمحيص، ولاتعدو أن تكون حكايات قصاصين صنعوا من خيالاتهم ماشاؤوا، فالروايتان الأوليان تتحدثان عن حج موسى عليه السلام، والأولى تجعل اليهود موجودين في يثرب قبل وصول موسى، إلى درجة أن موسى وهارون يخافان منهم، ولاتخبرنا الرواية عن سبب خوفهما من اليهود، ولا نجد في سياق الرواية ما يقنع بها، ثم إن المؤرخين الذين تحدثوا عن وفاة هارون ذكروا أنها حدثت في فلسطين وليس في الحجاز، وقد ساق الطبري عدة روايات لاتخلو من مظاهر خارقة، ولكنها تتفق على أن موت هارون وموسى عليهما السلام كان في فلسطين (٢)، وينقل عن أهل التوراة أنهم يقولون: هلك هارون وموسى في التيه (٣)، أما أسفار العبرانيين فتذكر أن هارون مات في العقبة عند جبل اسمه هور، ودفن فيه (٤) ويبدو أن رواية هذا الإصحاح وصلت إلى بعض القصاصين فحور اسم الجبل وجعله جبل أحد، ونقل هارون من فلسطين الى يثرب.

وكذلك الرواية الثانية التي تجعل طائفة من اليهود تتخلف عن موسى انتظارا للنبي المرتقب ﷺ، لايمكن قبولها منطقيا، لأن اليهود آنئذ في عصر نبي يعيش معهم، ولو أرادوا ثواب الله لأطاعوه ولم يشتوروا من دونه ثم يتخلفوا عنه، وأما الرواية الثالثة فقد أشرنا إليها عندما تحدثنا عن العماليق وأسطورة القضاء عليهم على يد جيش بعثة موسى عليه السلام، ونذكر هنا أنه لم يثبت على الإطلاق أن موسى عليه السلام بعث جيشا إلى الحجاز، لا

---

١) عمدة الأخبار ص ٣٧، وفاء الوفاء ١٦٠/١

٢) الطبري ٤٣٢/١ - ٤٣٤

٣) السابق ١-٤٤١

٤) الاصحاح العشرون سفر العدد. أنظر ص (١٧) من هذا الكتاب

في المصادر التاريخية العربية ذات الشأن ، ولافي الأسفار اليهودية •

وقد أشرت إلى أن أصل الرواية خبر أورده صاحب الأغاني دون أي توثيق، وقد رفضها السهيلي من قبل (١)، أما الرواية الرابعة حول هجرة بني شمعون فلم يقل بها أحد من المؤرخين القدماء، وأول ما وردت في كتاب فؤاد حمزة (قلب الجزيرة العربية)، وقد استقاها المؤلف من سفر أخبار الأيام الأول، وأخذها عنه الدكتور الوكيل وقرنها برواية أخرى عند ابن النجار، وجعلها حقيقة مسلمة. والواقع أن سياق الخبر لايدل على أن اليهود وصلوا أرض الحجاز أو يثرب على الإطلاق، فقد ورد في السفر النص التالي: (ساروا ـ اليهود ـ إلى مدخل جدود إلى شرق الأردن ليفتشوا عن مرعى لماشيتهم ، فوجدوا مرعى خصيباً جداً، لأن آل حام سكنوا هناك في القديم، وجاء هؤلاء المكتوبة أسماؤهم في أيام حزقيا ملك يهوذا، وضربوا أخيمتهم، والعمونيون الذين وجدوا هناك ، وسكنوا أماكنهم، لأن هناك مرعى ماشيتهم، ومنهم من بني شمعون ذهب إلى جبل سعير خمسمئة رجل، وضربوا بقية المنتقلين من عماليق، وسكنوا هناك إلى هذا اليوم)(٢).

يدل النص على أن يهوداً من بني شمعون كانوا يبحثون عن مرعى لماشيتهم فاصطدموا مع قبائل في معان، ومع جماعة ((متنقلة)) من العماليق، وانتصر بنو شمعون وأقاموا في أماكنهم.

وقد ناقش هذا النص عدد من الدارسين، وقرروا أنه غامض مبهم، لايحدد زمنا لحركة تلك الجماعة، ولا لموقعها، فقبائل العمونيين لاتعرف على وجه الدقة مواقعهم. والخلاف بين العلماء شديد في ذلك، بعضهم يجعلهم في جنوب الأردن قرب العقبة، وبعضهم يضعهم في جنوب الجزيرة العربية بين

---

١) السهيلي الروض الانف ٢/٢٥١

٢) انظر: سفر الأيام الأول

ممالك اليمن القديمة (١). وقد ذكر الجغرافي الروماني (سترابون) اسم العمونيين في تلك المواقع، ويغلب على الظن أن اليهود الذين كانوا يعيشون حياة تنقل بماشيتهم آنئذ لم يتجاوزوا نهاية الأردن، وأنهم وقفوا على مدخل الجزيرة العربية ولم يتوغلوا فيها على الإطلاق.

وأما الرواية الخامسة فهي غامضة مبهمة، ولا تحدد زمنا بعينه، وأغلب الظن أنها إن صحت فستكون بعد زوال دولة اليهود وتفرقهم في الشتات.

وأما الرواية السادسة فغريبة تتناقض مع ما ذهب إليه ابن خلدون من قبل من أن اليهود قضوا على العماليق في وقت سابق. (٢) ولا نجد لهذه الرواية ذكراً في المصادر العربية الأخرى، وأما الأسفار اليهودية فتصرح بأن داود عليه السلام عندما ثار عليه ابنه ابشالوم خرج إلى جلعاد (٣) وجلعاد في شرق الأردن بإجماع الدارسين.

وأماالرواية السابعة فهي الرواية الأشيع في كتب التاريخ، وقد ذكرها الطبري وأخذها عنه السمهودي ورجحها على الروايات الأخرى (٤)، وهي تتفق مع منطق الوقائع، وذلك أن اليهود كانوا بتحريض من فرعون مصر (نخوا) يثورون على الدولة البابلية، وفي عهد بختنصر أعلنوا العصيان ونصبوا ملكا عليهم اسمه يوآحاز، ولكن بختنصر كبح العصيان وعزل يوآحاز وولى أخاه (الياقيم)، ومالبث الياقيم أن حالف فرعون مصر وأعلن العصيان على البابليين، فزحف إليه بختنصر وقهر مملكته وفرض عليها الجزية، فخضع حينا من الوقت، ثم عاد وأعلن العصيان ثانية فزحف بختنصر بالجيش وضرب

---

١) انظر آراء الدارسين المختلفة في: اسرائيل ولفنستون . تاريخ اليهود في بلاد العرب ٣ ـ ٥

٢) ابن خلدون ٢/١٠٠

٣) سفرالملوك الأول الاصحاح العاشر

٤) أنظر : الطبري ١ / ٥٣٨ ، والسمهودي ١ - ١٦٠

مملكة يهوذا وعزل الياقيم ونصب مكانه صدقيا، وبعد مدة حاول صدقيا الاستقلال عن البابليين واستنجد بملك مصر (وج أبرع) وعقد معه حلفاً، فزحف بختنصر وفي ذهنه أن ينهي المسألة اليهودية، فحاصر أورشليم، ودخلها عام ٥٨٦ ق م، وقتل ملكها وأعمل فيها السيف، ثم ساق معظم أهلها أُسارى وسبايا إلى بابل (١).

فخلال هذه الفترة المضطربة لابد أن يفكر بعض اليهود بالهرب من الأتون المحرق، وقد ذكر المؤرخون أن بعض اليهود استطاعوا أن يهربوا من البابليين (٢) وطبيعي أن يتجه الهاربون إلى مكان لايخضع لخصومهم، فاتجه بعضهم إلى مصر والتجأوا الى فرعونها فتبعهم بختنصر واحتل مصر وقتل ملكها وعدداً من اليهود (٣) واتجه بعضهم الآخر إلى الجزيرة العربية التي لم تدخل في سلطان البابليين، بينما كانت المناطق الأخرى المحيطة بفلسطين تحت سيطرة البابليين. ثم إن مفاوز الصحراء ستنجيهم لبعض الوقت. ويذكر الطبري أن بختنصر بعد أن فرغ من خراب بيت المقدس اتجه جنوبا لغزو العرب ووصل إلى ذات عرق، حيث التقى بالقبائل العربية التي تجمعت تحت زعامة عدنان، وهزم العرب، وانصرف بختنصر بغنائم وسبايا كثيرة (٤). والمدهش أن الطبري الذي ذكر من قبل توجه اليهود إلى الجزيرة العربية بعد أن شردهم بختنصر لم يعرض بشيء على الإطلاق لوجود اليهود في الجزيرة العربية، وأغلب الظن أن بختنصر عدوهم الأول لم يكن ليتركهم لو وجدهم في أي من المناطق التي دخلها، والأمر الذي يرجح عندي أن اليهود لم يستوطنوا في تلك المناطق بعد. ويزيدني اقتناعا بهذا الرأي ماكشفت عنه النقوش الأثرية

---

١) أنظر تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ٢٠٣ - ٢٠٥

٢) السابق نفسه.

٣) السابق نفسه.

٤) الطبري ١/٥٥٨ - ٥٦٠

في العلا عن تاريخ الملك البابلي نبونيد، الذي خلف بختنصر، وقد جاء نبونيد كما رأينا الى الحجاز وسيطر عليها، وجعل عاصمته فيها مدينة تيماء، وظل فيها عشر سنوات ومدّ سلطانه إلى خيبر وفدك ويثرب، وكان اليهود آنئذ سبياً في بابل يحظر عليهم الخروج منها، وكان البابليون من ألد أعدائهم، فكيف يمكن أن يسمح لهم نبونيد بالاستقرار في يثرب وتيماء وخيبر وفدك ؟؟.

فإما أن اليهود لم يصلوا على الإطلاق إلى مناطق الحجاز بعامة ويثرب بخاصة في عهد بختنصر ونبونيد، أو أن مجموعات ضئيلة قد وصلت ولاذت بتلك الواحات في سكينة كاملة وعاشت فترة امتداد بختنصر ومن ثم نبونيد إلى المنطقة في خوف شديد، ولم تكن تلك الجماعات قبائل كبيرة يمكن أن تشكل تجمعا سكنيا كبيراً بل كانت على الأكثر عائلات محدودة.

أما الروايات الثلاث الأخيرة، فجميعها تشير إلى هجرات يهودية في زمن الدولة الرومانية، وأغلب الظن أنها قد حدثت بالفعل، لأن اليهود سبق أن تشتتوا وأصبحت عودتهم الى فلسطين موضع خطر شديد عليهم، ومن الطبيعي أن تفكر قبائل كاملة منهم بالهجرة الى مواقع آمنة تبدأ فيها حياة جديدة، لاسيما وأن هارديان - بعد أن أعمل فيهم السيف والحرق - حرّم على من بقي منهم العودة إلى أورشليم، وقد ظل هذا التحريم ساريا بعد أن تحول الرومانييون إلى النصرانية، واستمر إلى الفتح الإسلامي للقدس، حتى ان كبير رهبان القدس طلب من عمر بن الخطاب أن ينص في معاهدة التسليم على منع اليهود من دخول القدس، فاستجاب له عمر رضوان الله عليه.

ننتهي مما سبق إلى ان اليهود لم يستوطنوا في يثرب في عهد موسى على الإطلاق ولا في عهد يوشع، ولا في عهد داود... وربما بدأت هجرتهم بسيطة محدودة بعد أن نكبهم بختنصر عام ٥٨٦ ق م. ولكن هجرتهم الحقيقية إلى الحجاز بعامة وإلى يثرب بخاصة، حدثت عندما نكل بهم الرومان في عهد تيتوس عام ٧٠م، ثم في عهد هارديان سنة ١٣٢م، وبين هذين

الزمنين خرجت قبائل يهودية كاملة من فلسطين واتجهت جنوبا في شبه الجزيرة العربية وبدأت تستوطن في الواحات، فنزل بعضها في تيماء ، وبعضها في خيبر، ووصل بعضها الآخر إلى يثرب، وكانت يثرب عامرة بمجتمع يضم قبائل عربية عدة، بعضها بقية من العماليق، وبعضها قبائل توافدت من أطراف يثرب القريبة والبعيدة.

ويذكر بعض المؤرخين أن أول من وصل إلى يثرب من اليهود ثلاث قبائل هم، بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع أو بنو يهدل، ثم تبعتهم قبائل أخرى، وكان أول منزلهم في موضع الغابة (قريبا من يثرب) فوجدوه وبيئاً فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا يتلمّس لهم منزلا أفضل، فاختار لهم منطقة (العالية) حيث الأرض خصبة يرويها واديان هما بطحان ومهزور، فنزل بنو النضير على بطحان ونزلت قريظة ويهدل على مهزور، واختارت قينقاع موضعها في الوسط. (١)، ثم تمددوا، وانتشروا على شكل قوس يشغل أخصب بقاع المنطقة.

اليهود في يثرب قبل الأوس والخزرج:

يجمع المؤرخون على أن اليهود نزلوا في يثرب قبل أن يرحل إليها الأوس والخزرج، باستثناء رواية شاذه ساقها ابن كثير، ويمكن أن نعد بدء الاستيطان الحقيقي لليهود في يثرب في القرن الميلادي الأول وما بعده للأسباب التي ذكرناها في الفقرة السابقة.

ويذكر المؤرخون أن الأوس والخزرج خرجوا قبل سيل العرم وخراب سد مأرب أو بعده مباشرة، ويقدر بعضهم ذلك الزمن بأواخر القرن الرابع الميلادي، وعلى ذلك فقد بقي المجتمع في يثرب مقتصرا على القبائل العربية المقيمة في يثرب منذ القدم، وعلى قبائل اليهود الوافدة ـ وأحسبها قد صارت أكثرية بعد حين - قرابة ثلاثة قرون.

---

١) المفصل ٥١٩/٦.

فكيف كانت يثرب آنئذ؟ ومن هم بقية سكانها؟؟.

يذكر بعض مؤرخي المدينة أسماء بعض القبائل العربية التي سكنت المدينة آنئذ، منهم أهل الهتمة (لعلهم التهاميون) ومنهم بنو مزيد أو مرثد، حي من بلي أيضا، ولعلهم كإخوانهم بني أنيف بقية من العماليق، ومنهم بنو معاوية، وبنو الحارث. ونجد أسماء بعض القبائل اليمنية التي وفدت إلى المدينة قبل الأوس والخزرج، مثل بني الجذمار(١) وبني الشطية(٢) وبني غاضبة(٣) وقد اطلع السمهودي على أسماء كثيرة منهم في كتاب ابن زباله الذي لم يصلنا ولم ير حاجة لنقل تلك الأسماء في كتابه (٤)، ويعد ابن النجار لتلك القبائل العربية ثلاثة عشر أطما، والأطم بناء حصين مرتفع يضم عددا من العائلات. ولا يعني هذا العدد القليل أن القبائل العربية كانت قليلة، ذلك أن معظم تلك القبائل كانت تسكن المنازل (٥)، ولم يكن يبني الأطام إلا القليل خلافا لما صار عليه اليهود عندما نزلوا يثرب ، فقد سارعوا لبناء الأطام لكونهم غرباء عن المنطقة، وما زالت في نفوسهم آثار الغزوات المريعة التي تعرضوا لها في فلسطين، وقد ذكرت بعض الروايات أن أطامهم كانت تسعة وخمسين أطما، مع أنهم كانوا نيفا وعشرين قبيلة!!(٦).

على أي حال فإن هجرات اليهود المتوالية بعد حملة تتيوس على فلسطين عام ٧٠م جعلت عددهم في يثرب يعادل عدد العرب المقيمين فيها أو يزيد عليهم، وقد سالم اليهود العرب المقيمين في يثرب وأحسنوا التعامل معهم أول

---

١) ابن النجار أخبار مدينة الرسول ص ١٤.

٢) المفصل ٥١٩/٦.

٣) وفاء الوفاء ١٦٣/١

٤) السابق ١٦٥/١

٥) أخبار مدينة الرسول ١٤

٦) وفاء الوفاء ١٦٥/١

الأمر، وانهمكوا في زراعتهم وبعض الصناعات التي كانوا يتقنونها -وسنعرض لها في فصل أخر- وأمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة جوارهم على دفع إتاوة لهم وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم.(١)، ولكنهم كانوا يعيشون في أحيائهم حياة يهودية (يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وسادتهم، ويدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة)(٢) وهؤلاء السادة هم الذين بنوا الأطام والحصون، وكان أحبارهم يقومون بالأمور الدينية، ويقيمون لهم بقية شعائرهم، ويحكمون فيما يقع بينهم من خصومات. وقد اعتنى اليهود عناية خاصة بزراعة النخل، وكانوا يزرعونها قرب آطامهم ويمتدون بها في الأراضي الخصبة الشاسعة، وما يلبثون أن يبنوا آطاما جديدة بقربها، فاتسعت المساحة المشجرة وامتد العمران في يثرب وتميز بتقسيم واضح، قسم لليهود، بل منطقة أو حي لكل قبيلة منهم، فلم يكن اليهود يخالطون العرب في السكن إنما كانوا ينزوون في مناطق منفردة، وأتوقع أن تكون المساكن اليهودية قد امتدت على الأطراف الشمالية والشرقية وبعض الجنوبية من يثرب بدأً من منطقة الجرف وموازاة للحرة الشرقية ثم تلتف على مساحة شاسعة وتتجه غربا فتبلغ وادي بطحان حيث نزل بنو قنيقناع، أما القسم الأخر فهو قسم الأحياء العربية وكان ينتشر في وسط يثرب وفي قباء وفي موازاة بعض الأطام اليهودية، وكان على شكل تجمعات قبلية غالبا، حيث يسكن أبناء كل قبيلة متجاورين إلى حد ما، وربما يختلطون مع القبيلة الأخرى أو تتصل منازلهم في المنطقة الواحدة.

---

١) المفصل ٥١٦/٦

٢) المفصل ٥٣٣/٦

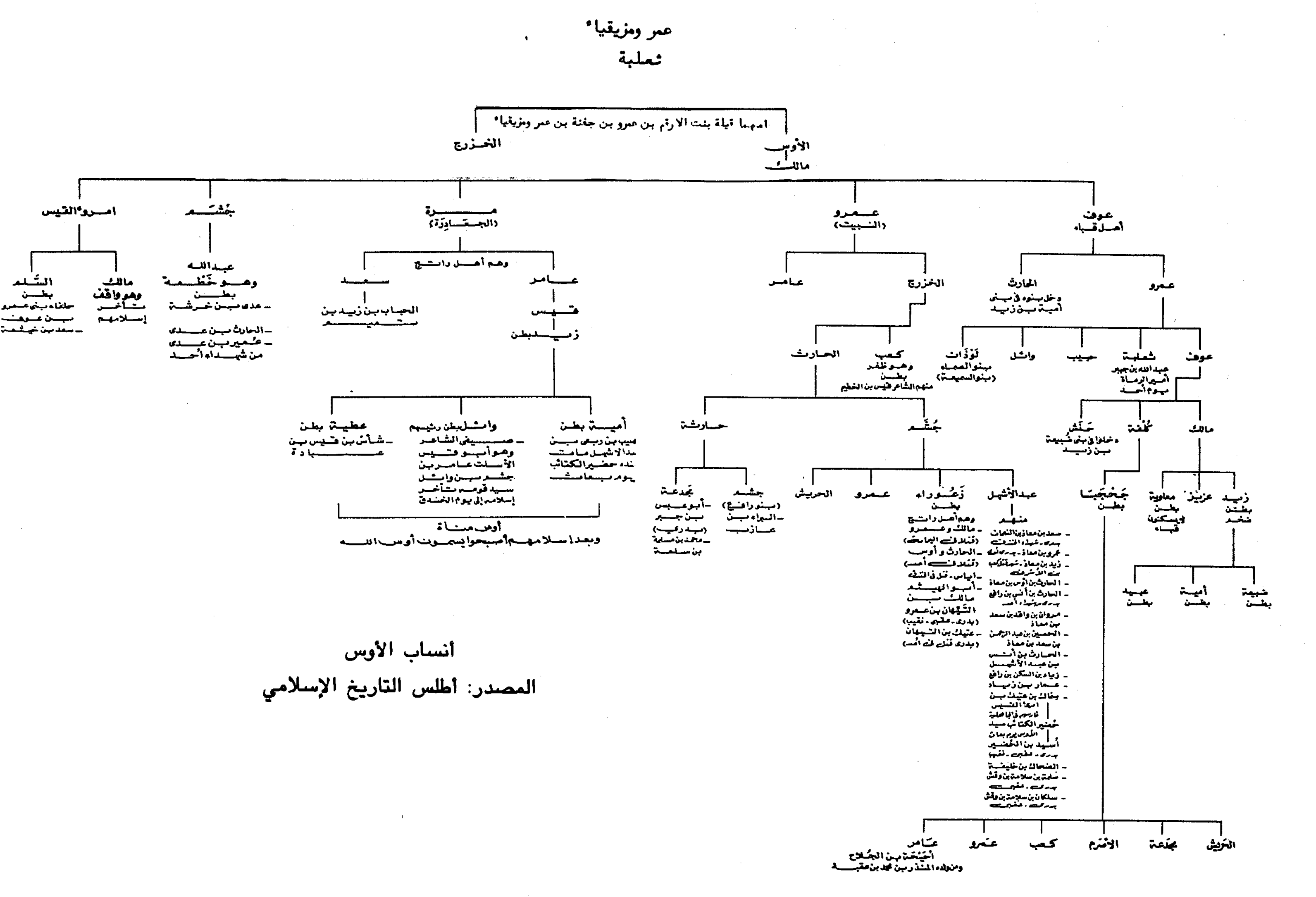
الأوس والخزرج في يثرب

لعل الحدث الأهم في تاريخ يثرب بعد نزول اليهود فيها هو وصول الأوس والخزرج إليها واستيطانهم في أطرافها أول الأمر، ويتفق المؤرخون على أن هاتين القبيلتين قحطانيتان، جاءتا من مملكة سبأ في اليمن قبيل، أو إثر، حادثة سيل العرم وخراب سد مأرب (١)، ولكنهم يختلفون في زمن حدوث ذلك السيل، ومن ثم في زمن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب.

غير أن المكتشفات الأثرية الحديثة أظهرت أن السد قد تعرض لعدد من الانهيارات الجزئية وأُصلح مرة بعد مرة، وقد أدى التنازع والحروب الكثيرة بين ممالك اليمن إلى اضطراب أحوالها وقلة العناية بالسد وبالأقنية التي تنقل المياه للأراضي الزراعية الشاسعة، فبدأ القحط يضرب بعض مناطق اليمن، واضطربت الأحوال الاقتصادية، وازدادت سوءاً لاستمرار النزاعات السياسية والحروب الداخلية الصغيرة. وقد حركت هذه الأوضاع أطماع جيرانها

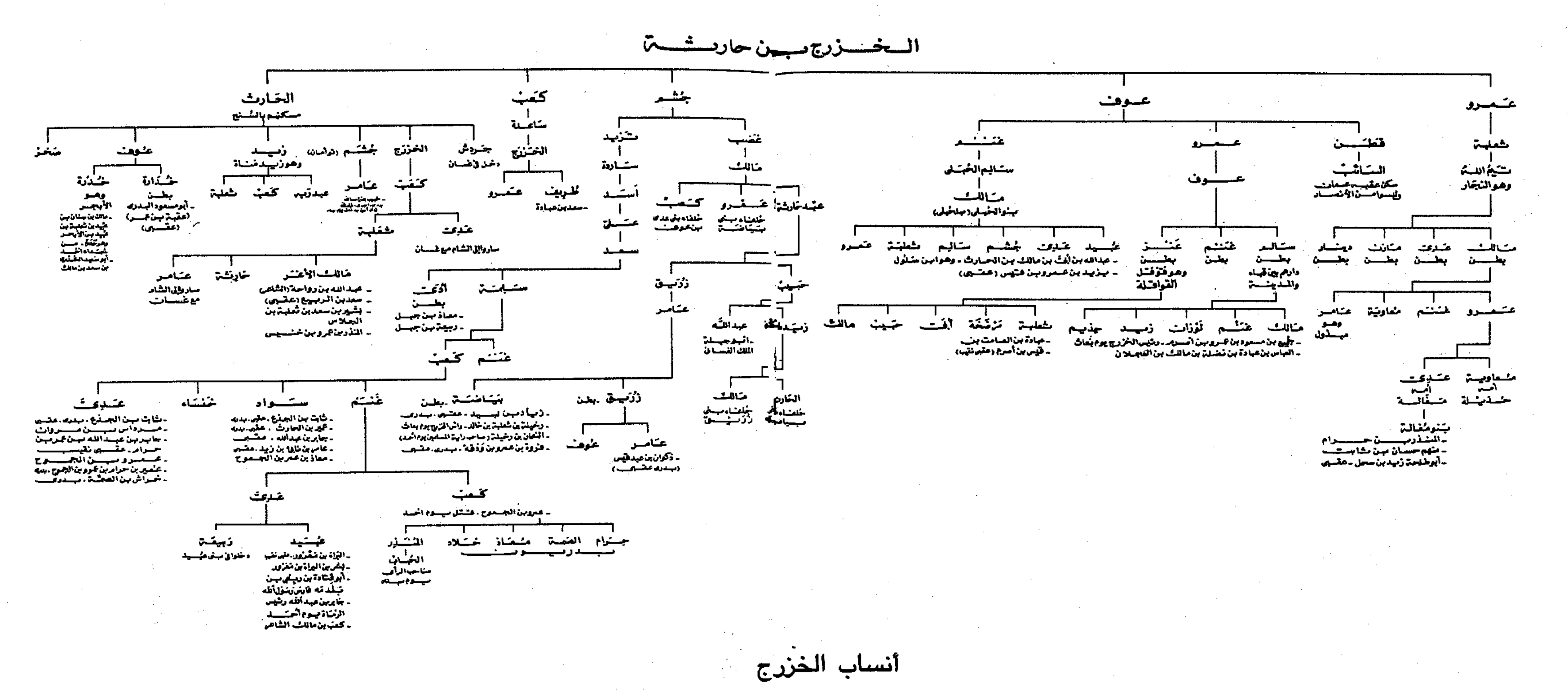
---

١) وهو سد بناه بعض ملوك اليمن، ويرجح بعض المؤرخين اعتمادا على عدد من الآثار القديمة، منها نقوش على بعض صخور السد، أن المكرب علي نيف، وابنه بتع أمرين، هما المؤسسان الحقيقيان للسد حوالي عام ٧٥٠ ق م، وقد زاد فيه خلفاؤهما وعنوا به مدة من الزمن، ثم قلت العناية به، فتعرض لعدة مشكلات وأصيب بأضرار شديدة مرات متوالية، وقد أقيم السد للتحكم في مياه الأمطار في عدد من الأودية التي تنصب من الجبال، وقامت خلفه بحيرة عظيمة، كانت تشكل خطرا شديدا على المدن والقرى والمزارع المجاورة عندما يتعرض السد لخلل أو انهيار جزئي، ويؤكد المؤرخون أن السد تعرض لعدد من الانهيارات الجزئية بدءا من القرن الأول الميلادي، بعدها أصلح عدة مرات، أكبرها عام ٤٥٠ م، وآخرها عام ٥٦٩ م. أما مملكة سبأ فكان أول انهيار بها عام ١٠٩ ق م حيث قامت على أثرها مملكة (سبأ وذي ريدان). أنظر المفصل ٢٨١/٢



أنساب الأوس

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



أنساب الخزرج

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

فتحرشت بها وهاجمتها مرة بعد مرة. وطبيعي في هذه الظروف أن تفكر بعض القبائل بالهجرة والبحث عن موطن بديل آمن.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ماأجمعت عليه الروايات العربية القديمة من أن انهيار سد مأرب هو السبب في هجرة القبائل، ليس سببا وحيدا للهجرة، وأن الهجرة بدأت قبل انهيار السد بسبب الحروب الداخلية. وربما كانت الموجات الأكبر للقبائل المهاجرة قد حدثت إثر التصدع الكبير للسد وخراب بعض المدن والقرى التي اجتاحتها المياه، وقد أوردت بعض الكتب التاريخية العربية أخبارا عن خروج القبائل اليمنية من اليمن تختلط فيها الحقيقة بالخيال القصصي(١) والأرجح عندي أن الأوس والخزرج هاجروا مع القبائل المهاجرة حوالي القرن الثالث الهجري، ونزلوا يثرب، بينما اتجهت قبائل أخرى (غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب) شمالا الى الشام(٢).

وصلت القبيلتان اليمنيتان الى موقع يثرب فأعجبهما ما رأتاه من أرض خصبة وينابيع ثرة ونخل وزرع كريم، وكانت المنطقة شاسعة لا تضيق بالقادمين الجدد، ويبدو أن حاجة اليثربيين (عرباً أو يهوداً) آنئذ الى مزيد من الأيدي العاملة لاستثمار الأراضي الأخرى، وصلة الأوس والخزرج السابقة بالزراعة وخبرتهم فيها، وحالتهم الاقتصادية المتردية ، فلم يكونوا أهل نعم

---

١) منها أن كاهنة تدعى طريفة بنت الخير الحميرية تنبأت بهلاك البلاد فخرجت بعض القبائل ، ومنها أن عمرو بن عامر اللخمي ، رأى جرذا يحفر في سد مأرب فعلم ألا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على الهجرة واصطنع الحيلة كي يبيع أملاكه ، فأمر أصغر أولاده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم ويلطمه ، ففعل ابنه ذلك أمام القوم ، واصطنع عمرو الغضب الشديد وأقسم أن لايقيم في البلد ، وعرض ممتلكاته للبيع فاشتراها الناس منه ورحل ، ورحلت معه الاوس . انظر البداية والنهاية ١٤٩/٢

٢) البداية والنهاية ١٤٨/٢

وثراء وخيل وأموال... بل كانوا قوة عاملة... كل هذه العوامل ـ وربما عوامل أخرى ترتبط بالأمن والدفاع عن المنطقة أيضا - جعلت اليثربيين يقبلون حلول الأوس والخزرج على أطراف مزارعهم، وجعلت الأوس والخزرج يقبلون العمل عند اليثربيين بالشروط التي تعرض عليهم، وعاشوا ردحاً من الزمن في جهد وضيق من العيش، ليسوا بأصحاب زرع ونخل، وليس للرجل منهم إلا الأجر الذي يأخذه عن عمله في مزارع اليهود أو اليثربيين الآخرين، وغالبا ما يكون شيئاً من الأعذاق والطعام الآخر، ثم بدأوا يقيمون مزارع بسيطة في الأرض الموات، وساعدتهم خبراتهم الزراعية التي نقلوها معهم من بلادهم على إنشاء مزارع محدودة أول الأمر، وما لبثت أن اتسعت قليلا، وصار لهم شيء من النخل، وكانت أعدادهم تتزايد مع الهجرات الخارجة من اليمن، وأخذ القدماء يستضيفون الجدد ويستفيدون منهم في توسعة المزارع، وكانوا يشعرون بقلتهم أمام أعداد اليهود الكبيرة، ويحسون بفاقتهم إزاء ثروات أولئك، ويوادعونهم أيما موادعة.

ولكن مع تزايد أعداد الأوس والخزرج، ومع نمو ثرواتهم وتحول مساكنهم الصغيرة إلى مزارع لابأس فيها، بدأ اليهود يتخوفون منهم، ويشعرون أنهم سينافسونهم في الزرع والضرع وربما يسابقونهم في التجارة والكسب.

ويبدو أن الأوس والخزرج أحسوا بما يحيك في صدور جيرانهم، فتداعى العقلاء من الطرفين الى حلف ومعاهدة، يلتزم فيها الطرفان بالسلام والتعايش، والدفاع عن يثرب إزاء الغزاة، وحماية بعضهم بعضا، فتعاقدوا وتحالفوا

واشتركوا وتعاملوا، فلم يزالوا على ذلك زمناً طويلا(١).

ولا ندري كم عاشت يثرب في ظل هذا الوئام، غيرأن تلك المدة كانت كافية كي يزداد عدد القادمين الجدد وتزداد أموالهم، وينافس بعضهم اليهود في المال والظهر والزرع ((فلما رأت قريظة والنضير حالهم، خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم حتى قطّعوا الحلف الذي كان بينهم)) (٢). ولم تكن منازل الأوس والخزرج مشتركة أو متساوية، فكان الأوسيون يقطنون بين الحرة الشرقية وقباء وملتقى وادي رانوناء والبطحاء والعوالي، فكانت مناطقهم أكثر خصوبة من مناطق أبناء عمومتهم وأقرب جواراً الى اليهود، وأماالخزرج فقد نزل بعضهم في الجهة الغربية ومنتصف يثرب عند وادي بطحان، وبعضهم في أول العوالي (أنظر المصور المرفق).

ولاشك أن التاريخ الثقيل الذي يحمله اليهود على ظهورهم من فلسطين، بما فيه من حروب طاحنة ومكر، والذي دونوه في أسفارهم وجعلوه تراثا لأجيالهم المتعاقبة، هذا التاريخ جعل اليهود شديدي الحذر، متخوفين من تشرد أخر، لذلك بادروا إلى الغدر خشية أن يُغدر بهم، وكانت الموازين تميل لصالحهم حتى ذلك الوقت رغم ازدياد عدد القادمين الجدد وثرواتهم، لذلك سرى الخوف إلى الأوس والخزرج، وخافوا أن يفقدوا الاستقرار الذي نعموا به والثروة التي بدأت تنمو في أيديهم.

بدأ اليهود، بعد أن قطعوا الحلف، يضايقون الأوس والخزرج ويحاولون إذلالهم، وتروي بعض كتب الأخبار روايات غريبة عن إذلال اليهود للأوس والخزرج، حتى لتزعم أن ملك اليهود (الفطيون) كان يدخل على بناتهم قبل أن يُهْدَيْنَ إلى أزواجهن، وفي اعتقادي أن هذه الرواية من خيالات القصاصين وبعض الإخباريين، أرادوا أن يصوروا بها ظلم اليهود وتجبرهم، وهذا

---

١) وفاء الوفاء ١٧٨/١

٢) السابق نفسه

التصوير مألوف في روايات الإخباريين وحكايات القصاصين، بل إننا نجد الحكاية نفسها في أخبار طسم وجديس، ونجدها أيضا في أخبار اليمامة(١)

وتمضي رواية الفطيون فتقول: إن أهل المدينة استعانوا بتبع للقضاء على الفطيون والتخلص من تلك الوصمة(٢). وثمة رواية أخرى تقرر أن الفطيون حاول أن يفرض تلك المهانة على الأوس والخزرج فقتلوه(٣) والملحوظ أن هذه الروايات متأخرة لانجدها في أي من كتب التاريخ المتقدمة، وهذا ما يزيد الشك فيها، فضلا عن أن الأنفة العربية لاتقبل تلك الحالة على الإطلاق.

ويروي ابن النجار أن الأوس والخزرج اضطربوا بعد إلغاء الحلف، وأنهم أقاموا في منازلهم وهم خائفون إلى أن ظهر فيهم مالك بن العجلان(٤) ولاندري كم هي المدة التي اضطربت فيها العلاقة بين اليهود وجيرانهم اليمنيين، ولا ندري أيضا متى ظهر مالك بن العجلان، ولكن السياق يدل على أن القوم توسّموا فيه القدرة على قيادتهم لمجابهة اليهود وتخليصهم من ذلك القلق، فسلموا له الزعامة، وكان مالك حصيفاً، أدرك أنه لن يتمكن من مواجهة اليهود بقومه وحدهم، فأخذ يبحث عن نصير قوي.

وهنا تختلف الروايات، فبعضها يقول أنه توجه إلى الغساسنة في الشام أو أرسل إليهم رسولاً يستثيرهم لنجدته، والغساسنة - كما هو معروف - أقرباء الأوس والخزرج يجمعهم أصل واحد، فقد خرجوا جميعاً من اليمن، وليس غريبا أن يهبوا لنجدتهم.

وتقول هذه الروايات ان ملك الغساسنة - أو أحد قادته الكبار - ويدعى

---

١) أنظر وفاء الوفاء ١ - ١٨٣ - ١٨٥

٢) السابق نفسه

٣) السابق ١-١٧٩.

٤) أخبار مدينة رسول الله ص ١٧

أبو جبيلة ـ جاء بجيش كبير إلى يثرب، وأوهم اليهود بأنه متوجه إلى اليمن، ونزل بأطراف يثرب، ودعا أبناء عمومته الأوس والخزرج إلى وليمة ضخمة ووزع عليهم الأعطيات، ورجع هؤلاء إلى يثرب تحت سمع اليهود وبصرهم، فلما دعاهم أبو جبيلة إلى وليمة مماثلة خرج إليه أشرافهم ومعهم خدمهم وعبيدهم، فأمر لهم بالطعام، ثم قتلهم عن أخرهم . وقد فعل ذلك (خيفة أن يتحصنوا في الحصون فلا يقدر عليهم)(١)وتقول روايات أخرى إن مالك بن العجلان استنصر ملك اليمن تبع بن حسان، فجاء إلى يثرب بجيشه وقتل أشراف اليهود بالحيلة نفسها، وحاول السمهودي أن يوفق بين الروايتين فقال: ولعل مالك بن العجلان قد كان توجه إلى ملك الغساسنة وبها تبع المذكور، فوقع من كل منهما نصرة، فأضافه قوم إلى تبع وقوم إلى أبي جبيلة الغساني(٢).

والأرجح أن أبا جبيلة الغساني هو الذي حضر لنصرة الأوس والخزرج لقرب الديار والقرابة.

وقد نتج عن هذه الضربة التأديبية لليهود تغير موازين القوى في يثرب، وعودة الوفاق بين الأوس والخزرج من جهة، واليهود الذين سعوا لكسب مودتهم من جهة أخرى. ومن الملحوظ أن الأوس والخزرج لم يستغلوا هذه الحادثة في اذلال اليهود أو طردهم أو اغتصاب أراضيهم ، واكتفوا بالآثار النفسية التي خلفتها الضربة بالباقين والعودة إلى الوفاق والمعايشة، وقد ثبت هذا الوفاق مدة من الزمن وأفاد الطرفين، وأثبت الأوس والخزرج وفاءهما لعهودهما. وتروي الأخبار أن تبع بن حسان غضب على اليثربيين وقصد

---

١) وفاء الوفاء ١ -١٨٠.

٢) السابق ١-١٨٢

تخريب المدينة، فوقف الجميع في وجهه، (١) مع أن الأوس والخزرج أبناء عمومته، وكان من الممكن أن يهادنوه ويحولوا غضبه إلى اليهود فيستأصلونهم.

وتنسب تلك الروايات إلى تبع بن حسان أنه خرج لمواجهة الفرس، فمر بالمدينة وفتحها، أو أنها سلمت له بالطاعة والولاء، ثم ترك فيها ابنه مع جارية صغيرة وتابع سيره إلى الشرق، فقُتل ابنه غيلة، فأقبل راجعا يريد تخريب البلدة. وحاول أن يمكر بأهلها كما فعل أبو جبيلة باليهود، ولكن اليثربيين فطنوا لمكيدته ولجأوا إلى الحصون، فحاصرهم تبع ورماهم بالنبل، وتماسك اليثربيون ووقفوا جميعا في وجهه، ثم خرج إليه بعض أحبار اليهود وأقنعوه بأن يكف عن يثرب لأنها - فيما عندهم من الكتاب - مهاجر نبي وقراره، ونجحوا باقناعه في كف الأذى عنها وصالح اليثربيين وأحسن إليهم. وتمضي الروايات فتبيّن أنه أعجب بالأحبار وطلب أن يرافقه بعضهم إلى اليمن، فخرج معه اثنان منهم، وتهّود تبع بن حسان وجعل اليهودية الدين الرسمي لمملكته، فانتشرت اليهودية في اليمن. ويرى بعض الدارسين أن اليهودية وصلت إلى اليمن قبل ذلك، منذ أيام سليمان عليه السلام وقيام المبادلات التجارية بين فلسطين واليمن.

ويمكن الجمع بين الروايتين بأن اليهودية وصلت الى اليمن منذ أيام سليمان ولكنها انتشرت انتشاراً محدوداً بين أفراد قلائل، فلما كانت أيام تبع بن حسان وحدثت هذه الحادثة ، تهود تبع ودعا قومه للتهود، ففشت اليهودية في اليمنيين، وفي هذه المرحلة من الوفاق تحرك أبناء الأوس والخزرج خارج الحزام الذي كانوا محتبسين فيه، وبنوا المنازل والآطام في قلب يثرب وتوسعوا في المزارع، وصار لكل بطن من بطونهم موقع أو مواقع كثيرة متجاورة وغير متجاورة، فملؤوا جهات يثرب كلها، وربما تخللت

---

١) السابق

منازلهم وآطامهم منازل اليهود وآطامهم.

وبعد ذلك أعاد اليهود حساباتهم وأخذوا يخططون لتغير جديد في مجتمع يثرب يستعيدون فيه سلطتهم، أو على الأقل يخضدون شوكة مساكنيهم من الأوس والخزرج بالذات، وقد عمدوا الى خطة ماكرة، فأعادوا التحالف معهم ولكن بطريقة جديدة هذه المرة، فقد فرقوا بين الأوس والخزرج في التحالف، وجعلوا كل قبيلة منهم تحالف واحدة من القبيلتين اليمانيتين تمهيداً لتحويل القبيلتين إلى المواجهة فيما بينهما، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوسيين، وتحالف بنو قنيقناع مع الخزرجيين. وبدأت كل فئة يهودية تسعر النار في حليفها على الطرف الآخر، وتبذر العداوة والشقاق بين القبيلتين العربيتين الشقيقتين، ونجحت الخطة الماكرة، واستطاع اليهود أن يحولوا وحدة القبيلتين وصفاءهما إلى مشاحنات قوية، مالبثت أن تحولت إلى حروب طاحنة استمرت مئة وعشرين عاما (١) ولم تنته تلك الحروب حتى جاء الاسلام وأطفأها.

معارك بين الأوس والخزرج:

بدأت المعارك بين الأوس والخزرج بحرب سمير ، وانتهت بحرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، ومابين هاتين الحربين نشبت أكثر من عشرة حروب، وكان لليهود دور في إذكاء الفتنة في عدد منها، إذ كانوا يتحالفون مع فئة دون فئة، وسنستعرض بإيجاز الحروب التي ذكرها المؤرخون بين الأوس والخزرج، لندرك الحالة النفسية والأمنية وطبيعة العلاقات بين القبيلتين الشقيقتين في يثرب.

حرب سـمير:

أول تلك الحروب حرب سمير، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى رجل من الأوس كان السبب المباشر في إشعالها واسمه سمير بن زيد.

---

١) وفاء الوفاء١/٢١٥

ويروي الاخباريون أن رجلاً من قبيلة ذبيان اسمه كعب الثعلبي نزل ضيفاً على مالك بن العجلان الخزرجي، الذي تسبب في إذلال اليهود في يثرب، وحالفه. وفي أحد الأيام نزل كعب الثعلبي الى سوق بني قينقاع فوجد رجلا يسأل عن أعز شخص في يثرب ليبيعه فرسه الكريمة. فذكر كعب مضيفه مالك بن العجلان الخزرجي، وعارضه سمير بن زيد فذكر رجلا أخر من الأوس ((أحيحة بن الجلاح الأوسي)) وذكر رجل أخر رجلاً من اليهود، ولكن البائع اقتنع بكلام كعب ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان، فغضب سمير الأوسي وتربص بكعب الثعلبي حتى تمكن منه وقتله، فثار مالك بن العجلان وطلب سميرا ليقتله ثأرا لضيفه، وجرت مفاوضات بين القبيلتين ليسلموه القاتل أو يدفعوا دية المقتول، وكانت الأعراف تقضي بأن دية الحليف نصف دية الحر، فعرض الأوسيون دفع الدية، فرفض مالك بن العجلان، وتحاشد الحيان، وأسرع بنو قريظة وبنو النضير فناصروا الأوسيين وأمدوهم بعدد من الرجال، واقتتل القوم قتالا شديداً، وانتصر الأوسيون ومن مهعم أول الأمر، ثم تكررت المواقع، واستمرت متقطعة عشرين سنة، ومالك مصمم على قهر الأوس وحلفائها، وأدرك الأوسيون نية مالك، فأرسلوا الوسطاء وحكموا ثابت بن المنذر بن حرام، فحكم بأن تدفع دية كعب الثعلبي كاملة، وتعد القتلى الذين أصيبوا من الطرفين، ويقابل بعضهم ببعض، ثم يعطى من له زيادة في القتلى الدية، فرضي الجميع وعاد السلام بينهم.

ولا تخفى أصابع اليهود في هذه المعركة الطويلة، فهم لم يكتفوا بإحجامهم عن الإصلاح بين الحيين، بل ناصروا الأوسيين على الخزرج، ولا شك أن إذلال إحدى القبيلتين العربيتين إضعاف للوجود العربي بعامة، ولا استبعد أن يكون لبعض بني قينقاع أصبع خفة في استثارة سمير بن زيد في السوق، أو في تصعيد الموقف فيما بعد. أما الدور الخفي الذي أكاد أوقن أنهم لعبوه فهو حث الأوسيين على مواجهة مالك بن العجلان. ولا ننسى ما

في نفوس اليهود من حقد شديد عليه، حتى إن بعض الروايات تزعم أنهم لعنوه في بيوت عبادتهم (١).

حرب حاطـــب:

النموذج الثاني للحروب التي أثارها اليهود، أو كان لهم يد في إثارتها هي حرب حاطب. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى رجل من وجهاء الأوس يدعى حاطب بن قيس الأوسي، نزل عليه ضيف من بني ذبيان، ثم إن الضيف غدا إلى السوق فرآه رجل خزرجي، فقال لرجل من اليهود: لك ردائي إن كسعت هذا الذبياني (أي ضربته برجلك في دبره)، فأخذ اليهودي الرداء وكسع الذبياني كسعة سمعها من بالسوق ، فنادى الذبياني: يالحاطب، كُسع ضيفك وفُضح، وبلغ الخبر حاطباً فجاء إلى السوق وسأل من كسع الذبياني؟ فأشاروا إلى اليهودي فضربه بالسيف، وعلم الخزرجي بذلك فأسرع وراء حاطب ليقتله، ولكنه لم يدركه، ووجد رجلاً من الأوس قرب منزل حاطب فقتله، وثارت الحرب بين الأوس والخزرج، وحاول بعض بني فزارة أن يصلحوا بين الحيين ويتحملوا دية القتيل فلم يفلحوا. ووقعت المعركة. فانتصرت الخزرج ودارت الدائرة على الأوس رغم مناصرة اليهود لهم.

ومن الواضح أن الأصابع اليهودية لم تغب عن هذه المعركة اثارة ومشاركة.

وهكذا اضطرب الجو العام في يثرب ثانية وفسدت العلاقات بين بطون الأوس والخزرج، واجتهد اليهود في إذكاء الفتنة ، ولئن صحت الرواية بأن الخصومة استمرت مئة وعشرين سنة، فلقد عاشت يثرب ثلاثة أجيال على الأقل أوقاتا عصيبة جعلتهم يثورون لأتفه الأسباب، ويحملون في نفوسهم استعداداً دائماً للتشاجر والقتال، فاذا وقع اعتداء على أحدهم نادى قومه للأخذ بالثأر، ولو كان الحادث سخيفاً أثاره فرد مغرور، أو صعلوك، أو

---

1) وفاء الوفاء ١٨٢/١ وأنظر تفصيلات حرب سمير في ابن الأثير ٤٠٢/١ ، المفصل ١٣٨/٤

غريب طارىء.

وقد طغت أخبار هذه الحروب على تاريخ يثرب قبيل الإسلام، وأصبحت شخصياتها موضع اهتمام الدارسين، حتى لانكاد نسمع شيئا عن أخبار البطون والقبائل العربية الأخرى التي سكنت يثرب مع اليهود والأوس والخزرج ، وليست هي بقليلة، وقد تحالف كل منها مع إحدى القبيلتين الشقيقتين، فتحالف ناس من جهينة وأشجع مع الخزرج يوم بعاث ، وتحالف ناس من مزينة مع الأوس، ودخلوا جميعا في أتون الخصومة الكبيرة واشتغلوا بها.

وقد بلغ اضطراب الجو العام في يثرب أيام حرب بعاث ذروته، حتى عزم كل فريق أن يفني الفريق الأخر، فلما رأى عقلاءهم كثرة القتل وسوء العاقبة إنِ استمر الأمر على ماهو عليه تداعوا إلى وضع السيف والرأفة بالآخرين، وأدركوا أن المستفيد الوحيد من هذه المذبحة هو اليهود، (فصرخ رجل من الأوس عندما رأى أبناء قبيلته يتعقبون الخزرج عند انكسارهم ليقتلوهم : يا معشر الأوس اسجحوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب)(١).

حرب بعـــــاث:

كان يوم بعاث موجعاً للطرفين، فهو حلقة كبيرة في سلسلة متصلة يخسر كل طرف مرة ويكسب مرة، فتزيد الأحقاد في النفوس، ويبقى فتيل الحرب قابلاً للاشتعال في أية لحظة ويعيش الجميع رهق الإعداد لمعركة قادمة ، وقد ظل الأوس والخزرج يستعدون لمعركة بعاث أكثر من شهرين، وتحالف الأوسيون مع بني قريظة وبني النضير وبني أوس اللات، بينما تحالف الخزرجيون مع مزينة وأشجع، وخالفهم عبد الله بن أبي بن سلول، واعتزلهم بعد مشادة مع أحد سادة الخزرج. والتقى الطرفان في منطقة تسمى بعاث، واقتتلوا قتالاً شديداً، وتضعضع الأوسيون وحلفاؤهم، وقتل عدد كبير منهم

---

١) الكامل ٤١٨/١

وبدأوا بالفرار، ولكن قائدهم حضير الكتائب ثبتّهم، فقاتلوا بشجاعة وهزموا الخزرجيين وحلفاءهم، وهمّوا أن يقضوا عليهم نهائيا، فتدخل أحد عقلاءهم وكفهم عن تتبعهم ، وسلب بنو النضير وبنو قريظة الخزرج المغلوبين (١). لذلك (سئموا الحرب وكرهوا الفتنة وأجمعوا على أن يتوجوا عبد الله بن أبي بن سلول) (٢)، أي أنهم تعاهدوا على أن يتعايشوا بسلام ويقيموا نظاما سياسيا جديدا يديره عبد الله بن أبي بن سلول ليستتب الأمن وتنتهي الفتن.

وقد حدثت حرب بعاث قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات، وكانت آخر حرب بين القبيلتين الشقيقتين، فقد جمعهما الإسلام بعد ذلك، ألف بين قلوبهما .

حروب أخرى بين الأوس والخزرج:

إضافة إلى الحروب الثلاثة التي ظهرت أصابع اليهود فيها بشكل واضح ومباشر، نشبت عدة حروب، نعدها امتداداً للحرب الأولى التي أوغرت الصدور وحفرت فيها خنادق للعداوة لم تردمها المصالحات المتوالية، بل كان كل صلح أشبه بهدنة مؤقتة، تضع فيها الأطراف السلاح، وتلتقي وتتعايش فترة من الزمن، ولكن في أعماقها استعداداً لجولة قادمة، وتوثباً لثأر قديم لم تشفه الدية المدفوعة ولم تستأصل أحقاده العميقة جلسات الصلح ، لذلك سرعان ما تتوتر العلاقات لأتفه سبب وتبدأ موقعة جديدة.

وقعة بني جحجبا :

بعد حرب سمير التي انتصر فيها الخزرج حدثت واقعة تظهر عمق الشرخ الذي حدث بين القبيلتين الشقيقتين رغم ما بينها من قرابة قديمة ومن تزاوج وتصاهر قريب ، فقد بقيت في نفوس بعض الأوسيين الأحقاد ، وسرعان ما انفجرت على يد أحيحة بن الجلاح زعيم فرع من فروع الأوس هم بنو جحجبا.

---

١) أنظر أيام العرب في الجاهلية ص ٧٥

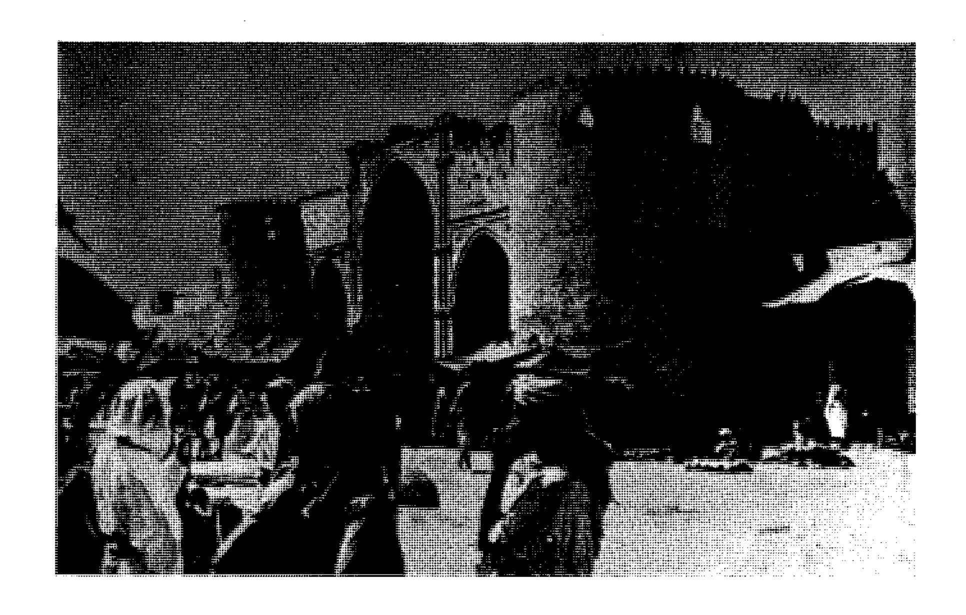
٢) ابن خلدون ٢/٣٤٦ - ٣٤٧

كان أحد الخزرجيين ـ وهو كعب بن عمرو المازني ـ متزوجاً امرأة من بني سالم أحد فروع الأوس، وقد أسكنها بيتاً في حي قومها القريب من حي بني جحجبا، فلم يطق أحيحة رؤية الخزرجي يمر من الحي ، فأمر جماعة من قومه أن يترصدوه، فترصدوه حتى ظفروا به فقتلوه، فلما علم أخوه عاصم بن عمرو المازني بذلك استنفر قومه بني النجار الخزرجيين، فخرج بنو النجار بفروعهم كلها ليثأروا للخزرجي القتيل، وخرج بنو جحجبا لملاقاتهم، وتلاقى الجمعان عند أطم يسمى الرحابة، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم بنو جحجبا، ونجا رئيسهم أحيحة وقتل أخوه، ورغم هزيمة الأوسيين فان عاصم بن عمرو أخا القتيل لم يشتف، لذلك قرر أن يقتل أحيحة، وعلم أحيحة فاحتاط حيطة شديدة، وكانت له كلاب تحرس أطمه ، ومع ذلك فقد كاد عاصم أن يظفر به عندما فاجأه مرة خارج الأطم، ونجا أحيحة في اللحظة الأخيرة، وقرر أن يكسر شوكة خصومه فيهاجمهم فجراً، وعلمت زوجة أحيحة بما عزم عليه ، وكانت من الخزرج، فاحتالت لتبلغ قومها بحيلة ذكية، ربطت بعض أطراف طفلها بخيط، فأخذ الصغير يبكي بكاء متواصلا وهي تحمله وتحاول إسكاته ولايسكت، وسهر أحيحة معها معظم الليل، ثم فكت طرف الصبي، فهدأ ونام، وادعت أنها تشكو من آلام في رأسها لما عانته مع الصبي، وشدت رأسها، وطلبت من زوجها أن ينام فلما نام، وقد أتعبه السهر وبكاء الصبي، تدلت من الأطم بحبل، وتسللت إلى قومها فأنذرتهم بما عزم عليه أحيحة والأوسيون، وعادت بسرعة الى بيتها دون أن يفطن إليها أحد، وعند الفجر خرج أحيحة وقومه ليفاجئوا عاصم بن عمرو وبني النجار الخزرجيين فإذا بالقوم قد استعدوا لهم، وأخذوا يرشقونهم بالنبال، ثم خرجوا اليهم بالسلاح، وتضعضع الأوسيون وانسحب بهم أحيحة إلى حيّهم وقد أذهله ما حدث، وأدرك أحيحة أنه غدر به، واستطاع أن يكتشف ما فعلته زوجته فضربها ضرباً شديداً كسر يدها ، وطلقها ، فعادت إلى أهلها لتتزوج بعد ذلك هاشم بن عبد مناف ، وتلد

له عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مــوقــعــة الســـرارة:

استمر مسلسل الخصومة والدماء، فقد لقي رجل من بني الحارث (من الخزرج) رجلاً من بني عمرو بن عوف (من الأوس) خارجاً من بئر أريس فرماه بنبل فقتله، وعلم قوم القتيل بذلك فسارعوا للانتقام وترصدوا القاتل وقتلوه غيلة، وكان اليثربيون يستفظعون قتل الغيلة، فلا يقتلون رجلاً في داره أو في نخله، وعندما اكتشف أهل القتيل الأمر تداعوا لحرب بني عمرو بن عوف الأوسيين، وأرسلوا إليهم ينذرونهم بذلك، وخرج الطرفان من حييهما والتقوا بمكان يسمى السرارة، وهي منطقة بين العوالي وقباء، وكان يقود الأوسيين حضير بن سماك، ويقود الخزرجيين عبد الله بن أبي بن سلول فاقتتلوا قتالاً شديداً، واستمرت المعركة أربعة أيام دون أن يحرز أحد الطرفين نصراً ساحقا، فانسحبت الاوسُ إلى حيها، ورأى الخزرجيون في ذلك نصراً لهم فلم يتبعوهم واكتفوا بتسجيل انتصارهم في قصائد شعرية يفخرون بها على خصومهم.



مـوقـعـة الحـصـين بن الأســلـت:

انتقلت المواجهة إلى حيين آخرين من أحياء الأوس والخزرج بسبب خلاف بين رجلين من الحيين، من الأوس الحصين بن الأسلت، أخي الشاعر الأوسي المشهور أبي قيس بن الأسلت، ومن الخزرج رجل من فرع مازن الخزرجي لم تذكر المصادر اسمه، ونظراً لما في النفوس من شحناء فقد تحول الخلاف إلى نزاع شديد وقتل الحصينُ بن الأسلت الأوسيُ المازنيُ الرجلَ الخزرجيَ، وما إن بلغ الخبر الخزرجيين حتى بعثوا نفراً منهم فتتبعوا الحصينَ وقتلوه قبل أن يصل إلى داره، وكان من الممكن أن يقف مسلسل الدماء عند هذا الحد، فقد قُتل القاتل، ولكن الحقد الذي زرعته الوقائع السابقة جعل الأوسيين يقررون إعلان الحرب الشاملة على الخزرجيين، وأرسلوا ينذرون المازنيين بالحرب ، فاستنفر المازنيون إخوانهم الخزرجيين، وخرج الجمعان من حييهما لايكاد يتخلف أحد، والتقيا فاقتتلا قتالاً شديداً، وظفر أبو قيس بن الأسلت بقتلة أخيه في المعركة فقتلهم، وسقط القتلى من الطرفين، وصمد الخزرجيون، وما لبثوا أن تغلبوا على الأوسيين، ففر الأوسيون إلى أحيائهم.

مـوقعـــة فارع:

استمرت الخصومة بين الأوس والخزرج، فما تكاد تهدأ معركة حتى تنشب معركة أخرى كي لا تندمل الجراح، والمدهش أن الحيين كانا بعد كل موقعة يعودان الى الحياة العادية مكتفين بنتائج تلك الموقعة ومتحفزين إلى موقعة أخرى، ففتيل الحرب ينتظر أية بادرة من أحد الطرفين ليشتعل في معركة جديدة، وعوامل الاشتعال موجودة ومتعددة، تحرش من أحد الطرفين وينتهي بسقوط قتيل وتبدأ المعركة.

وفي هذه الموقعة يذكر المؤرخون أن شابا غريباً جاء من خارج المدينة - من بلي القضاعية - ليزور عمه المقيم في المدينة في جوار رجل من الأوس،

وهو معاذ بن النعمان بن أمرىء القيس الأوسي والد الصحابي الجليل سعد بن معاذ، وكان أيّ غريب يقيم في منطقة ما يستجير بواحد من أهلها الأصليين، فإن أجاره أصبح الغريب محمياً في دمه وماله، يدافع عنه مجيره ويثأر له إن قتل.

ولسبب لم تذكره المصادر تشاحن رجل من بني النجار الخزرجيين مع الشاب القادم لزيارة عمه، وتحولت المشاحنة إلى مقاتلة فقتل الخزرجي الشابَ القضاعي ، وغضب معاذ بن النعمان فأرسل إلى بني النجار يطالبهم بتسليم القاتل أو دفع الدية، فرفض بنو النجار، وأعلن الأوسيون أنهم سيثأرون للقتيل بقتل أحد سادة الخزرج (عمرو بن الأطنابة)، فاستنصر معاذ بن النعمان قومه، وخرجوا لقتال بني النجار، وخرج لهم بنو النجار، فالتقوا عند أطم يسمى فارع يملكه حسان بن ثابت، واقتتل القوم قتالاً شديداً استمر عدة أيام، وسقط القتلى من الطرفين، ولم تهدأ الحرب إلا بعد أن سعى عمرو بن الأطنابة في الصلح بين الطرفين، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص.

يــــوم الربيـــع:

تكررت المواقع في هذه الحرب، وحدثت معركتان كبيرتان كان كل حي فيهما يعد للقاء ويحرز النصر على خصمه بالتناوب، المعركة الأولى حدثت قرب جبل سلع في مكان يسمى الربيع، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وانهزمت الأوس وتبعهم الخزرج حتى إذا بلغوا دورهم كفّوا عنهم، وعرض الأوسيون المهزومون الصلحَ فوافقت جميع أفخاذ الخزرج إلا بنو النجار، فلم يأمن الأوسيون، وحصنوا نساءهم وذراريهم في الآطام توقعاً للقاء جديد، ومالبث أن حل هذا اليوم بعد أن استكمل الفريقان استعدادهما، وخرجا فالتقيا في بقيع الغرقد واقتتلا قتالاً شديداً، وانتصر الأوسيون هذه المرة وهزم الخزرجيون، وتنحى أبو قيس بن الأسلت عن القيادة لأنه يتطير منها ويعتقد أن قيادته تنتهي دائما بالهزيمة، وترك لقبيلته اختيار القائد، فاختاروا حضير

الكتائب بن السماك الأشهلي، والد الصحابي الجليل أسيد بن الحضير، فقادهم في معركة أخرى، بمكان يسمى الغرس يقع بين قباء والعوالي، وانتصر الأوسيون، فعرض الخزرجيون الصلح، وتم الاتفاق على حصر الديات، فمن أصاب في خصمه زيادة عما أصيب دفع دية الزيادة، وتبين أن الخزرجيين قتلوا ثلاثة أشخاص زيادة عما قتل منهم، فدفع الخزرجيون ثلاثة من غلمانهم رهائن عند الأوسيين الى أن يدفعوا لهم الديات توثيقا للصلح، وتوقفت الحرب إلى حين.

غير أن بعض الأوسيين لم تشتف نفوسهم بهذه النتيجة، فعمدوا إلى الرهائن الثلاثة فقتلوهم، وعلمت الخزرج بهذا القتل فاستنفرت للحرب ثانية، وبدأت حلقات أخرى من مسلسل الثأر والدماء.

موقعة الفجار الأولى:

سميت هذه الموقعة بفجار تشبيها لها بحرب الفجار التي نشبت بين كنانة وقيس في الأشهر الحرم، ولكن فجار الأوس والخزرج لم تقع في الأشهر الحرم، وإنما سميت بهذا الاسم بسبب غدر بعض الأوسيين بالرهائن الخزرجيين، وقد خرج الخزرجيون بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول للانتقام لرهائنهم ولاقاهم الأوسيون بقيادة أبي قيس بن الأسلت في منطقة تسمى الحدائق، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً، وأصيب الشاعر الأوسي قيس بن الخطيم بعد أن أبلي بلاءً حسناً، وحُمل جريحاً وانسحب الأوسيون ولم يتبعهم الخزرجيون، وأخذ كل فريق يستعد للقاء آخر.

موقعة معبس ومضرس:

خرج الفريقان بعد مدة، واحتشد الأوسيون في بستان يسمى معبس، واحتشد الخزرجيون قبالتهم في بستان يسمى مضرس، واقتتلوا قتالاً شديداً عدة أيام، وكان النصر فيها بالتناوب أول الأمر، ثم شد الخزرجيون فهزموا الأوسيين هزيمة منكرة لم ينهزموا مثلها من قبل، وتفرقت أثرها كلمة

الأوسيين فدعا بعضهم إلى مصالحة الخزرج وإنهاء الحرب ، وأصر بعضهم على مواصلة الحرب وإثخان الخزرجيين ثأراً للهزيمة المنكرة التي حلت بهم، وأصر كل على رأيه فصالح بعض الأوسيين الخزرج وهم بنو عمرو بن عوف وبنو أوس، وأصر على الحرب كل من بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وغيرهم، فشن عليهم الخزرجيون غارات متوالية ليخضدوا شوكتهم ويحملوهم على الصلح، وكانت الغارات شديدة أحرق فيها الخزرجيون بعض نخيل خصومهم.

ولكن هؤلاء الأوسيين لم يذعنوا وقرروا الرحيل من المدينة والبحث عن حليف قوي يساندهم، والعودة بعد ذلك للقتال، وأعلنوا أنهم راحلون إلى مكة للعمرة، وكان من عادات اليثربيين أن من يريد الحج أو العمرة يعلق على باب بيته فروعا من شجرة النخل فلا يعترضه أحد، ولا يتعرض لأمواله وممتلكاته بسوء، فتركهم الخزرجيون يخرجون بسلام، فلما وصلوا مكة فاوضوا قريشا على محالفتها، وقبل القرشيون، وعقد الحلف، وكان أبو جهل غائبا عن مكة فلما قدم وعلم بالحلف أنكره وخشي أن يترتب عليه نتائج وخيمة في المستقبل، فهؤلاء الأوسيون قد ضلعوا في الحروب، وربما يسعون إلى السيطرة على مقاليد الأمور في مكة إن أقاموا فيها، أو يورطوا حلفاءهم فيما لاتحمد عقباه، وهو مالا يريده مجتمع قريش التجاري، لذلك عمد أبو جهل إلى الحيلة لينقض التحالف الذي أبرمه أبناء عشيرته ونجح في ذلك، وعاد الأوسيون إلى المدينة خائبين، ودخلوا في هدنة مؤقتة كادت أن تنهي التطاحن، لولا أن هبّ اليهود ليسعروا الفتنة ويوقدوا الحرب بين الأقارب من جديد.

بدأت الاتصالات بين الطرفين لعقد التحالف ضد الخزرج وأبدى اليهود من بني قريظة وبني النضير استجابة سريعة، فعادت نذر الحرب إلى يثرب وحدثت معركة جديدة سميت موقعة الفجار الثانية.

موقعـة الفجار الثانـية:

علم الخزرج بأمر التحالف بين الأوسيين الرافضين للصلح واليهود، فأرسلوا إلى اليهود يهددونهم وينذروهم بالحرب الطاحنة إن أتموا الحلف مع خصومهم. وأدرك اليهود أن التهديد جدي، ورأوا ضعف موقفهم وموقف حلفائهم إزاء الخزرج والأوسيين الذين صالحوهم، فأنكروا تحالفهم مع الأوسيين المعارضين للصلح، ولم يصدقهم الخزرجيون، فطلبوا منهم رهائن لتوثيق موقفهم، وسلم اليهود بعض غلمانهم للخزرجيين رهائن تضمن عدم محاربتهم للخزرجيين، وسكر أحد الشعراء الخزرجيين يوماً، وتغنى بشعر يفتخر فيه بإذلال الأوسيين واليهود وأخذ الرهائن منهم، فلما بلغ هذا الشعر اليهودَ غضبوا ورجعوا عن تعهدهم، وحالفوا الأوسيين خصوم الخزرج وأذاعوا خبر تحالفهم علانية، ورأى الخزرجيون أن اليهود قد حنثوا بعهدهم، ودعا عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي إلى طرد بني قريظة وبني النضير من المنطقة التي يسكنونها والانتقال اليها لكونها أفضل من المنطقة التي يسكنها الخزرج، ولكن بعض الخزرجيين رفضوا ما دعا إليه عمرو بن النعمان، وكان عبد الله بن أبي بن سلول في مقدمة الرافضين، وأرسل عمرو بن النعمان إلى اليهود يأمرهم بالخروج من ديارهم وإلا قتل الرهائن، فرفض اليهود الخروج، وقتل عمرو بن النعمان بعض الرهائن، وأبى خزرجيون آخرون أن يقابلوا الغدر بغدر مماثل وأطلقوا ما لديهم من رهائن، وكان منهم سليم بن أسد القرظي جد محمد بن كعب بن سليم الذي دخل في الإسلام فيما بعد، وخرج الأوسيون وحلفاؤهم اليهود لقتال الخزرج وخرج الخزرجيون لملاقاتهم، وتخلف عنهم الذين رفضوا قتل الرهائن وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وحدث قتال شديد بين الطرفين لم يسفر عن نتيجة حاسمة، وعاد الأوسيون وحلفاؤهم اليهود الى أحيائهم يعدون العدة لمعركة قادمة فاصلة، هي معركة بعاث التي كانت خاتمة المسلسل الدموي بين الأشقاء والأقارب،

والدرس القاسي للأوس والخزرج معا، سقط فيه دعاة الحرب ورؤوس القوم العتيدة ، وتنبه الأشقاء لدور اليهود وفتنتهم، واصطلحوا على سلم نهائي، وتهيأت نفوسهم لاستقبال الدعوة الاسلامية.

والآن وقبل أن نودع يثرب في المرحلة الجاهليه، نطل بنظرة عاجلة على الجوانب الدينية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والعمرانية خلال تلك المرحلة.

الديانات والعقائد في يثرب

عرفت يثرب عدداً من العقائد والديانات قبل الإسلام، تفرد بعضها بالسكان حينا من الدهر، ثم انحسر عن قسم منهم، لتشاركه معتقدات وديانات أخرى في بقية عهد يثرب إلى أن أشرق عليها الإسلام بنوره، وأكرم الله أهلها بهذا الدين الخاتم، فجمعهم عليه، ومحا ما كان قبله من أخلاط.

ولو فتشنا عن أول العقائد والديانات في يثرب فلن نجد إلا روايات متناثرة لاتتيح لنا الجزم بما كان سائداً في العصور السحيقة، وإلى أن تُظهر لنا المكتشفات الأثرية شيئاً من الرسوم أو الكتابات، فسوف نبقى في حيز التصور والافتراض، معتمدين على روايات لايدعمها دليل مادي، تختلط الحقيقة في بعضها بالخيال، ولا بد من تمحيصها قدر الإمكان.

ونحن في الحقيقة لانعرف بالضبط ما الذي كان عليه أهل يثرب الأوائل الذين أسسوها وسكنوها في مرحلة نشأتها الأولى، وسواء كان أهل عبيل مؤسسيها أو كان العماليق، فإننا لانملك معلومات وثيقة عن معتقدات أولئك.

والروايات التي تصل العبيلين والعماليق بنوح عليه السلام، تجعلهم قريبين منه إلى درجة نتوقع أنهم أوبعضهم ربما كانوا على **الدين القويم** الذي دعا إليه نوح، فآمن به من آمن وكفر من كفر، ثم نجّى الله المؤمنين دون الكافرين، ولكن رواية الطبري عن معصية ذرية نوح من بعده تنسف ذلك الاعتقاد فقد روى الطبري أن جميع أحفاد نوح قبل أن يتفرقوا كانوا على الاسلام، إلى أن ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ففعلوا، وأصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم، فجعل بعضهم

لايعرف كلام بعض، وتفرقوا في الأرض(١).

وعلى هذا فإن يثرب مؤسس المدينة كان قد تحول إلى **الوثنية** هو ومن معه من آل عبيل أو العماليق. ولئن صح أنهم جاؤوا من أرض الرافدين - حيث الحضارة السومرية هي الحضارة الأولى بعد الطوفان - فلا بد أنهم قد نقلوا معهم وثنيتها، وهذه الوثنية حفظتها لنا بعض النقوش والتماثيل التي كشفت عنها بعض الحفريات.

كانت وثنية السومريين بسيطة سانجة أول الأمر، تسعى إلى تجسيد الإله في أحد المظاهر الحسية، كالمظاهر الكونية مثل الشمس والقمر، أو الحيوانية كالثور والغزال. وبعد مدة طويلة من الزمن ازداد التجسيد الحسي فصنعت التماثيل لتلك الإلهة، وصارت تعبيراً رمزياً عنها، واتخذت أشكالاً كثيرة، أدناها تشكيل طبيعي، حيث يكون الوثن صخرة أو جذع شجرة، وأعلاها صنم مصنوع بعناية، يصور إنسانا أو حيواناً أو مزيجا مركبا من الإنسان والحيوان، مثل ثور له رأس إنسان أو مثل أبي الهول، وكانت عبادة الشمس أقدم العبادات، لأنها تصور في المعتقد الوثني الساذج (نور الآلهة) (الذي كان يقضي الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه فيصعد في السماء ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء، ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبته النارية)(٢)ولم تكن المعابد معروفة في الفترة الأولى، وقد استحدثت بعد مدة طويلة وصار لها كهنتها، وكان الساحر أول كاهن يقيم الطقوس ويؤثر في القبيلة، ولم تكن قضية الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلد قد استقرت بعد في عقولهم، ولم يكونوا يقومون بالصلوات والقربان طمعاً في الحياة الخالدة، بل كانوا يقومون بها طمعا في النعم المادية

---

١) الطبري ٢٠٧/١

٢) قصة الحضارة ٢٩/٢.

الملموسة في الحياة الدنيا(١).

وأما الأصنام التي كانوا يتقربون إليها فلم يصلنا شيء من العرب البائدة، بل إن العرب العاربة لم تعرف الأصنام إلا في عهد متأخر، عندما جاء بها عمرو بن لحي من الشام(٢) غير أن المؤرخين يقفون عند الآية التي ذكرت أصنام قوم نوح، وهي قوله تعالى (وقال نوح ربِّ إنَّهمْ عَصَوْني واتبعوا مَنْ لم يزده ماله وولده إلا خسارا، ومكروا مكراً كُبّاراً، وقالوا لاتذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ و يعوق ونسراً)(٣) ويشيرون إلى أن هذه الأصنام عبدت ثانية بعد الطوفان، وأن العرب من ولد إسماعيل عادوا إليها وعبدوها (٤) ولا نعرف هل كان ذلك في عهد العرب البائدة وهل وصلت تلك الأصنام إلى يثرب في عهد السومريين والعماليق؟؟.

على أية حال لم يشتهر في يثرب أي من الأصنام، ولم يقترن باسمها وثن أو صنم معين، حتى في الجاهلية الأخيره التى وصلتنا أخبارها.. لذلك فإني أميل إلى أن الديانة الوثنية التي كانت في الجاهلية الأولى على عهدالعبيليين والعماليق لا تعدو أن تكون عبادة الكواكب والتقرب بها للآلهة، يقرب إليها اليثربيون القرابين لتعطيهم محصولاً وفيراً، وتبعد الأرواح الشريرة عنهم وتحميهم، وتحمي ماشيتهم من كل عدوان. ولا بد أن هذه الوثنية السانجة ـ التي لم تكن تتخذ معبداً محدداً، ولا أصناما منحوتة ـ قد تطورت عندما شاعت الأصنام في الجزيرة العربية، فوصل إلى يثرب شيء منها، سواء عن طريق ماوزعه عمرو بن لحي على القبائل ـ علماً بأن قبائل يثرب لم تُذكر بين من أخذوا الأصنام منه ـ أو عن طريق الشام مباشرة، أو بتقليد من

---

١) السابق ٢/٣٠

٢) الروض الأنف ١/١٠٢

٣) سورة نوح الآية ٢١ وما بعد

٤) الروض الأنف ٢/١٠٣ والأصنام ٨ وسيرة ابن هشام ١/٩٦

رأوهم في أسفارهم. ولا بد أن البيوت اليثربية قد عرفت في الجاهلية الثانية شيئا من الأوثان أو الأصنام، لاسيما وأن اليثربيين كانوا يحجون إلى مكة، شأنهم في ذلك شأن جميع العرب، ويطوفون بالكعبة المليئة بالأصنام مع غيرهم من الجاهليين.

وتشير الروايات الى أن بيوت يثرب كانت فيها أصنام مختلفة عندما بدأ المسلمون يتوافدون إليها مهاجرين من مكة، وخاصة بيوت السادة والأثرياء وهناك قصة صنم عمرو بن الجموح وما فعله أبناؤه به (١)، وقصة سهل بن حنيف الذي كان يكسر أصنام قومه ليلاً ويعطي خشبها لأمرأة مسلمة لتجعلها حطبا في موقدها (٢) ولا بد أنهم تأثروا بهذا التقديس وابتاعوا شيئا من الأصنام التي كانت تباع في الأسواق وحملوها إلى بلدهم، وربما حمل بعضهم شيئا من حجارة الحرم وهو عائد إلى يثرب كما كان يفعل بعض الظاعنين من مكة قديما (٣).

وعندما وصل الأوس والخزرج إلى يثرب واستقام أمرهم فيها اتخذوا صنماً لهَم اسمه مَنَاة. واختلف الرواة في تحديد مكانه، فقالوا مكانه في قديد على طريق مكة، وقالوا إنه بموضع ودان، وقالوا إنه في فدك مما يلي ساحل البحر (٤) ويرجح بعض المؤرخين المحدثين أنه كان بالمشلل على بعد سبعة أميال من المدينة (٥) كما اختلفوا في هيأته، فبعضهم قال إنه كان صخرة تراق عليها دماء القرابين، وبخاصة عند طلب المطر، وبعضهم قال إنه صنم منحوت من حجارة (٦) وكان أهل يثرب يقصدونه بعد عودتهم من الحج،

---

١) ابن هشام ٩٧/٢

٢) انظر : السابق ١٣٥/٢

٣) السابق ٩٥/١

٤) انظر: اليعقوبي ٢٥٥/١

٥) المفصل ٢٤٦/٦

ويحلقون رؤوسهم عنده، ويرون أن حجهم لايتم إلا إذا أقاموا عنده بضعة أيام (١) ومع أن عدداً من القبائل العربية الأخرى كانت تزور مناة وتذبح عندها .. فإن الأوس والخزرج بالذات ارتبط اسمهما به، حتى قال أحد الشعراء:

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج(٢)

وقد بلغ من تعظيمهم لمناة أنهم لا يجعلون ظهورهم اليها، ويتحرفون في سيرهم حتى لاتكون مناة خلفهم، ويروي ابن هشام بيتاً في ذلك للكميت يقول فيه:

وقد آلت قبائل لاتُولّـــي مناة ظهورهـــا متحرفيـــنا (٣)

ويرجح بعض الباحثين أن مناة كانت وسط معبد بُني خصيصا لها. وكان لها سدنة يرتزقون من القرابين والنذور، وقد ظلت مناة مكانها إلى عام الفتح، حيث بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان أو علي بن أبي طالب فهدمها (٤).

وأما **اليهوديـة** فكانت الديانة الثانية بعد الوثنية زمناً وانتشاراً، فقد حمل اليهود إلى يثرب عقيدتهم التي كانوا عليها حينما هربوا من خصومهم الذين نكلوا بهم وقوّضوا مملكتهم، فبنوا الآطام والحصون، وكان معهم أحبارهم الذين يحتفظون بالأسفار وبالتعليمات الدينية، ويقيمون لسائر اليهود الطقوس الدينية ويوجهونهم في أمور دينهم وأحوالهم الشخصية. وكان يطلق على بني قريظة وبني النضير (الكاهنان) لأنهما ينتسبان إلى هارون عليه

---

٦) السابق نفسه
١) الأصنام ١٤
٢) الأصنام ٧
٣) السيرة النبويه ١/ ١٢٠
٤) السابق ١/ ١٠٢

السلام. ويبدو أن عدداً من الأحبار كان منهم، وعندما سكن اليهود يثرب كانت ديانتهم تختلف عن اليثربين الوثنين. فاليهود يدعون إلى إله واحد هو إله إسرائيل، وإنْ كانت تصوراتهم لا تخلو من أثار وثنية، وقد أقاموا معابدهم داخل آطامهم، وكان يطلق عليها اسم المدراس أو المدارش (١) ولم يشتهر لهم معابد عامة كبيرة، ولم تذكر كتب السيرة أسماء معابد مخصوصة، وقد رُوي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي الحزبين أنت يا محمد، فقال: على ملة ابراهيم فقالا: كان إبراهيم يهوديا، فقال لهم رسول الله ﷺ هلموا إلى التوراة (٢)، وكانوا يقيمون طقوسهم عند أحبارهم، فكل قبيلة منهم تذهب إلى حبرها في أطمه، كما كانوا يتقاضون عندهم ويحلون معظم مشكلاتهم وقضاياهم الشخصية. وقد ذكر القرآن الكريم أن أجيال اليهود كانت كثيرة المخالفات والمعاصي، وعزا كل ماوقع لهم من مصائب ونكبات إلى مخالفاتهم الدينية (.ضُرِبتْ عَلَيهمُ الذلةُ والمسكنةُ، وباؤوا بغضبٍ منَ اللهُ ذلك بأنهمْ كانوا يَكْفُرون بآيات الله، ويَقْتُلُونَ النبيينَ بغير الحق، ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون) (٣).

ويبدو أن اليهود لم يهتموا بتغيير عقيدة الوثنية في يثرب أول الأمر، ولم يقوموا بالدعوة إلى دينهم... والمعروف أن الأنانية الحادة عند اليهود تحول دون تحمسهم لنشر عقيدتهم بين الأخرين، غير أنهم مالبثوا أن توجهوا إلى بعض العرب ونجحوا في تهويد بعض الأفراد. وقد ذكر اليعقوبي أن قوماً من

---

١) المفصل ٦/ ٥٥٠

٢) الطبري ٧/ ١٤٥

٣) البقرة ٦١

الأوس والخزرج تهودوا (١) ولكنه لم يذكر أسماء أية بطون أو أفراد، وذكر بعضهم أن بني جشنة، - وهم من بلي، بقايا العماليق - قتلوا نفراً من بني الربعة، فلجأوا إلى اليهود فأبوا أن يجيروهم حتى يدخلوا في دينهم فتهودوا (٢) وزعم المستشرق مرجليوث أن أغلب القبائل اليهودية من أصل عربي، لأن أسماءها - عندما ظهر الإسلام - كانت عربية، وقد رفض الباحثون هذا الزعم - وقرروا أن الأسماء وحدها لاتكفي لإعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس، خاصة وأن اليهود لم يحافظوا على خصائصهم في الجزيرة العربية كما حافظوا عليها في البلاد الأخرى (٣) ولا شك أن بعض القبائل العربية قد تهودت، كقبيلة السموأل بن عادياء، وأن هذا التهوّد زاد اختلاط اليهود بالعرب، فلبسوا لباسهم، وتصاهروا معهم (٤) فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، ولكننا لا نجد أثراً كبيراً لهذا الاختلاط في يثرب، وفي اعتقادي أن تأثير اليهود في اليثربيين الأخرين كان في الأمور التالية:

أولا : اجتذاب عدد محدود من اليثربيين - لم تصلنا أسماؤهم - إلى اليهودية، ونرجح أن يكون هذا قد حدث بعد استقرار اليهود في يثرب بمدة، وقبل أن تقع بينهم الدماء، فلما تجبر اليهود على اليثربيين وانتقم منهم اليثربيون على يد أبي جبيلة توقفت محاولات التهويد، وصار اليثربيون خصوما.

ثانيا: نشر بعض المفهومات الدينية السماوية بين الوثنين، كالبعث والحساب والقضاء والقدر والصوم، وخاصة صوم يوم عاشوراء، فقد ثبت أن

---

١) اليعقوبي ٢٥٧/١

٢) الأغاني ٩٥/١٩ (دار الكتب)

٣) تاريخ اليهود في شبه الجزيرة العربية ص ٩١

٤) المفصل ٥٣٢/٦

بعض العرب كانوا يصومونه رغم وثنيتهم، ومنهم قبيلة قريش (١).

ثالثا: وهناك أثر ثالث تحقق بوجودهم دون أن يقصدوه، وهو تهيئة اليثربيين بشكل غير مباشر لقَبول دعوة رسول الله ﷺ، ذلك أنهم كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج (قالوا لهم: إنّ نبياً مبعوثاً الآن قد أظلّ زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فعلقت هذه الصورة في أذهانهم وعندما لقي رسول الله ﷺ بعض الخزرج القادمين إلى مكة عرض عليهم الإسلام، فقال بعضهم لبعض: ياقوم تَعَلموا -والله- إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه وقبلوا ما عرض عليهم من الإسلام) وكانت بيعة العقبة الأولى (٢).

الحنيفـــية:

إضافة إلى الوثنية واليهودية يذكر بعض المؤرخين أفراداً في يثرب كانو على دين الحنيفية، وكانوا في أواخر العصر الجاهلي أدركوا هجرة الرسول ﷺ وقد اشتهر منهم رجلان فقط هما: أبو عامر عمرو بن صيفي (أو عبد عمرو بن صيفي) من الأوس، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، من الخزرج، وكان الرجلان قد هجرا الأوثان ولبس أبو عامر المسوح فلقب بالراهب وكان كثير الأسفار، فلما ظهر الاسلام حسد النبي ﷺ وعانده وأخذ يُحرّض عليه، ولقبه رسول ﷺ الفاسق (٣) وقد شارك قريشاً في غزوة أحد، وحفر حفرا في ساحة المعركة قبل أن يصلها المسلمون وغطاها ليوقع بهم، وكان في مقدمة المقاتلين، بينما كان ابنه حنظلة في مقدمة المسلمين، واستشهد، ولقب بغسيل الملائكة، وقد استمر ابوعامر في معاداة الإسلام، وأسهم في تحزيب الأحزاب يوم الخندق، وأشار على المنافقين أن يبنوا مسجد الضِرار، وأن

---

١) أنظر غوستاف لويون. حضارة العرب ص ٩٩، وأنظر فتح الباري ٢٤٤/٤

٢) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٧/٢

٣) السابق ٣٠/٣

يستعدوا بالسلاح والقوة، وذهب إلى الروم ليستنفرهم على المسلمين، فمات هناك، وأما أبو قيس صرمة ابن أنس، وهو من بني النجار، فقد ترهب ولبس المسوح، وهجر الأوثان ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لاتدخله طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، فلما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة أسلم وهو شيخ كبير وحسن إسلامه (١) ولا تذكر الكتابات التاريخية أية تفصيلات عن الأحناف في يثرب. ولا أستبعد وجود أفراد آخرين من الأوس والخزرج تأثروا بالحنيفية، ففي رواية لابن هشام أن أبا عامر عندما خرج من المدينة كان معه خمسة عشر رجلا من الأوس والخزرج، وفي رواية أخرى خمسون(٢) إذن فمن المحتمل أن يكون بعض الأحناف موجودين ولكن لم تشتهر أسماؤهم ولم ترد أخبارهم.

---

١) الطبري ٢/٩٧، المفصل ٦/٥٠٤

٢) السيرة النبويه ٣/٣٠

الجانب السياسي في تاريخ يثـرب

يرجح المؤرخون أن يثرب كانت في معظم عصورها القديمة مجتمعاً مستقلاً بنفسه أو شبهَ مستقل، وكانت في عهود قليلة تابعة لمملكة في الجنوب أو في الشمال أو (منطقة نفوذ) لسلطة بعيدة عنها، تدفع إليها إتاوة سنوية.

والأخبار التي لدينا تدل على أن العبيليين والعماليق لم يؤسسوا في المرحلة الأولى من نشأة يثرب ملكاً واسعاً، إنما كانت كل مدينة تستقل بحدودها ومزارعها، وكان نظام الحكم أقرب إلى حكم العشائر، تخضع فيه القبيلة لسادتها ووجهائها، وكثيراً ما يكون السادة طبقة حكم تتشاور فيما بينها في الأمور المهمة، وكان نظام التكافل القبلي يقوم بدور كبير في حماية الأفراد من عدوان خارجي، غير أن العماليق في فترة متأخرة كوّنوا دولة عاصمتها تيماء، وحدودها دون يثرب، كانت تناوش العبرانيين في سيناء والنقب وفلسطين، فظلت يثرب محافظة على استقلال ذاتي، ولم تتأثر بالحروب التي خاضها العماليق، وبالخسائر التي أُصيبوا بها، ولم يرد ذكر يثرب في أية من المعارك التي ذكرتها الأسفار أو تناقلتها كتب الأخبار، أما الرواية التي تزعم أن جيش موسى عليه السلام قد استأصل العماليق من يثرب وغير يثرب، فقد تبيّن لنا أنها غير صحيحة على الاطلاق (١).

ولما كان مجتمع يثرب القديم زراعياً فإنه من الطبيعي أن تكون علاقاته السياسية الخارجية محدودة، فطبيعة العمل في الأرض تقتضي أن يكون صاحبها بجنبها معظم أيام السنة. ولايعني هذا أن اليثربيين كانوا منقطعين عن المجتمعات الأخرى المجاورة، أبداً، فمن اليثربيين من عمل بالتجارة وسافر إلى المدن المجاورة كخيبر وفدك وتيماء وتبوك ، ووصلوا إلى غزة، وكانت

---

١) أنظر مبحث العماليق في هذا الكتاب

ميناء هاماً، فباعوا بضائعهم فيها، ولكن الغالبية العظمى من السكان كانوا مزارعين.

كما أن طبيعة المجتمع الزراعي تجعله أقرب إلى الموادعة مع المجتمعات الأخرى المجاورة، وتجعل السكان لايرغبون في شن الحروب والغزوات على جيرانهم ولكنهم يخافون أن يشن الآخرون عليهم الحروب والغزوات، التي كانت جزءا طبيعياً من الحياة العامة، وموردا من الموارد الاقتصادية (الشرعية) لسكان الصحراء، ولكل من شحّت موارده. ولئن ضنت علينا الروايات بأخبار الحروب التي خاضها اليثربيون مع جيرانهم غزاة ومغزوين، فإننا نتوقع أن اليثربيين لم يدخلوا حربا كبيرة ولم يجتاحوا أيا من المدن المجاورة، ولكنهم لم يسلموا من غزو البداة من حولهم، وربما كانوا يكتفون بالتحصن في دورهم ومناوشة الغزاة، ويتعرضون لبعض الخسائر وللسلب والنهب وإحراق المحاصيل وقطع النخل، فكل هذه الأمور هي من سلوكيات الحروب القديمة بل ومن مسلّمات الحياة في تلك العصور، كما أن وصول النفوذ المعيني إلى شمالي الحجاز وحدود فلسطين يعني أنها خضعت للمعينين، وأن الجيوش المعينية اجتاحتها أو دخلتها سلما بعد أن وافق اليثربيون على دفع مبالغ معينة للفاتحين - وهذا ما أرجحه - فاسم يثرب قد ورد في الكتابات المعينية التي تتحدث عن مناطق السلطة والنفوذ المعيني، غير أن هذه السلطة لم تكن تتعدى تعيين مندوب لها في المدينة (وقد يكون من أهلها) بدرجة كَبْر (كبير) ليقوم بجمع الضرائب المفروضة عليها، ويحمي برجاله القوافل التجارية العابرة.

وقد استمر الحال على ذلك في عهد السبئيين الذين ورثوا الدولة المعينية وورثوا مناطق نفوذها، ولكن سلطة السبئيين مالبثت أن تقلصت وانحسرت عن المناطق البعيدة فعاد ليثرب استقلالها الذاتي.

ولم يتغير الأمر كثيرا عندما بسط نبونيد البابلي سلطانه على يثرب، فقد تحولت الضرائب التي كانت ترسل إلى المعينين والسبئيين إلى نبونيد الذي

أقام في تيماء، وازدادت حركة الاتصالات مع تيماء والمدن المجاورة لانضمام يثرب إلى منظومة البابليين في الحجاز.

غير أن وصول اليهود إلى يثرب واستقرارهم فيها قد أحدث شيئا من التغيير في العلاقات السياسية داخل يثرب وخارجها، فاليهود بتقوقعهم على أنفسهم وتكوين تجمعات خاصة بهم جعل نظام الحكم في يثرب يتجه الى مزيد من التعددية. وذلك أن اليهود كانوا يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وأحبارهم، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أوائل كل سنة(١)، وكان الرؤساء يتولون تنفيذ الأحكام التي يصدرها الأحبار على المجرمين والعصاة منهم، وكانوا يضعون الحراس على الممتلكات والمزارع أيام الثمر.

وتوحي الرواية التي تناقلتها الأخبار عن (الفطيون) أنه كان رئيس القبائل اليهودية كلها، وتسميه الرواية ملك اليهود، ومن المحتمل أن تكون كلمة اليهود قد اجتمعت على رجل منهم لمواجهة اليثربيين الأخرين مثلما اجتمعت كلمة الأوس والخزرج على مالك بن العجلان فيما بعد لمواجهة التحدي اليهودي وكسر شوكته، وكما اجتمعت كلمة بني سلمة على رجل يسمى (أمة) ليقاتلوا خصومهم، حتى ليرد لقبه في بعض الروايات ملك، ولكن طبيعة التقسيم العشائري والديني لقبائل اليهود والتنافس الشديد بينها(٢) لاتسمح لأي ملك أن تمتد سيطرتة على القبائل كلها، ولذا نعتقد أن اليهود في يثرب لم يصلوا إلى مرحلة تتويج ملك على القبائل اليهودية المقيمة فيها، فلكل قبيلة منهم زعيم، وإذا صادف أن أحد زعماء العشائر اليهودية كان ذا شخصية قوية استطاع أن يبسط نفوذه على الزعماء الأخرين مدة من الزمن، فسرعان مايقوم التنافس بين تلك العشائر بغياب الشخصية القوية الطاغية أو ضعفها، وقد

---

١) المفصل ٥٣٣/٦

٢) وفاء الوفاء ٢٠٤/١

أشار القرآن الكريم إلى صفة التنافس والتزاحم فيما بينهم إلى درجة الخصومة والقتال، ولا سيما في الفترات التي لا يهددهم فيها عدو خارجي، فقال تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)(١)، وقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخرجون فريقا منكم من ديارهم تُظاهرون عليه بالإثم والعدوان)(٢).

وكان بنو قينقاع في شقاق مع بني النضير وبني قريظة، وقد وقعت بينهم خصومات ومشاجرات كثيرة. وفي يوم بعاث وقفوا مع الخزرج ضد الأوس وحلفائها اليهود الأخرين، وأُصيبوا بخسائر كبيرة اضطرتهم إلى ترك بعض منازلهم والالتجاء إلى داخل يثرب(٣) وذكر القرطبي صوراً من الصراعات التي كانت تقوم بين عشائرهم، والجرائم التي تقع، والتمييز الطبقي في معالجتها، فنقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان اذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قُتل به، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من قريظة ودُي مئة وسق من تمر، أي لايقتل به(٤).

وكان حيي بن أخطب قد حكم أن للنضري ديتين وللقرظي دية واحدة(٥)، وكان بعض حكامهم وأحبارهم يتحيزون ويحابون ويرتشون ويتساهلون في تطبيق الأحكام على الشريف، ويتشددون على الوضيع والفقير، وكان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي، وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير ولم يرجموه، واذا زنى الدنئ بالشريفة رجموه(٦) ولما هاجر الرسول ﷺ ضجّ بعض اليهود من حكامهم وأحبارهم ورفضوا غير مرة أحكامهم المتعسفة،

---

١) الحشر ١٤

٢) البقرة ٨٥

٣) المفصل ٦/ ٥٢٤

٤) القرطبي ٦/ ١٨٧

٥) الطبري ٦/ ١٥٧

٦) السابق نفسه

واحتكموا الى رسول الله ﷺ فحكم بينهم بما في التوراة.

أما علاقاتهم مع جيرانهم اليثربيين فكانت قبل وصول الأوس والخزرج طبيعية وودية في الغالب، واستمرت على هذا الحال بعد وصول الأوس والخزرج مدة من الوقت، ويؤيد ذلك مانراه من اتحادهم معا في مواجهة الجيش اليمني الذي قاده تبع بن حسان، ودفاعهم المشترك عن يثرب، ورغم أن الأوس والخزرج ينتميان إلى الأصول البعيدة ذاتها التي ينتمي اليها تبع.

ويروي ابن كثير أن (أسعد أبو كرب) أحد تبابعة اليمن الأقوياء غزا بلاد المشرق فمر في طريقه بالمدينة فلم يهج أهلها، وخلف بين أظهرهم ابنا له وتابع سيره الى خصومه فَقُتل ابنه غيلة، فعاد إلى المدينة وهو عازم على خرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها، فاجتمع الأوس والخزرج بقيادة عمرو بن طلحة من بني النجار، وكان أحد بني النجار قد قتل جنديا من جنود تبع وجده في بستانه، فازداد تبع حنقا على اليثربيين وحاصر يثرب حصاراً شديداً، فخرج إليه بعد مدة حبران من أحبار اليهود وكلّموه وأخبروه أنه لايمكن أن يخرب المدينة لأن الله يحفظها، فهي مهاجَر نبي اقترب وقته، فأصغى لهما تبع وأعجب بكلامهما وترك حصار البلدة وتهوّد واصطحب معه الحبرين إلى اليمن حيث جعل اليهودية دين الدولة وحضّ الناس على التهود(١) غير أن هذه العلاقة مالبثت أن توترت عندما خشي اليهود من ازدياد عدد الأوس والخزرج، ومن قدوم مهاجرين آخرين من اليمن فحاولوا فرض نفوذهم على جيرانهم، ولكن الأوس والخزرج كسروا شوكة اليهود بقيادة مالك بن العجلان كما مر بنا من قبل. وهنا تغيرت سياسية اليهود وعادوا إلى محالفة القبيلتين ولكن كل على حدة، فتحالف بنو النضير وبنو قريطة مع الأوس، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرج، وما لبث المكر اليهودي أن أشعل فتيل الحرب بين القبيلتين الشقيقتين، وأذكاها طوال مئة وعشرين سنة على ماتقوله

---

١) أنظر البداية والنهاية ١٥٢/٢

الروايات، وكان اليهود يشاركون حلفاءهم في بعض المعارك - فقد شاركوهم في يوم السمير ويوم حاطب ويوم بعاث - وتحملوا معهم شيئا من الخسائر، وغنموا من الغنائم في المعارك التي انتصر فيها حلفاؤهم.

أما العلاقات الخارجية بين يثرب وجيرانها بعد وصول اليهود فقد جد فيها جديد هو: اتصالات يهود يثرب مع التجمعات اليهودية في المناطق الأخرى، ولاسيما فدك وخيبر وتيماء ووادي القرى والعيص، ولم تتعد هذه الاتصالات المشاورات وتبادل الرأي، فلا نجد مشاركة بين اليثربيين (يهوداً أو غير يهود) وأبناء تلك المدن في مواقع أو مواجهات أو حروب ضد الآخرين، ولكن اليهود كانوا حريصين على عقد المعاهدات مع زعماء القبائل الأخرى وتقديم الهدايا لهم لاسترضائهم، ودفع إتاوة أحيانا(١)، وبالمقابل أقام الأوس والخزرج تحالفات مع بعض العشائر العربية المجاورة كمزينة وسليم وجهينة وفزارة، وكانوا يدفعون لبعض القبائل التي تسكن على طريق السفر مبلغا من المال، فيروي ابن شبة أنه كان لعيينة بن حصن الفزاري - سيد بني فزارة - إتاوة على أهل يثرب بعامة يأخذها كل عام(٢)، وهي في اعتقادي أشبه بضريبة حماية وتعهد بعدم الاعتداء، حماية لقوافلها والمسافرين من أبنائها في أرض الفزاريين، وتألفاً لعيينة بن الحصن المعروف بغاراته على القرى والمدن.

كما أقام الأوسيون والخزرجيون علاقات مع أبناء عمومتهم الغساسنة في الشام، وكانوا يترددون عليهم ويأخذون من أعطياتهم، وقد استنفروهم على اليهود عندما حاول اليهود إذلالهم ، ونجح مالك بن العجلان، كما رأينا ، في استقدام جيش من الغساسنة فتك بزعماء اليهود وأشرافهم، وكسر شوكة اليهود في يثرب.

---

١) المفصل ٦/٥٢٦

٢) تاريخ المدينة المنوره ٢/٥٣٨ -٥٣٩

وفي أواخر العهد الجاهلي كان حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم اليثربيان يترددان على بلاط الغساسنة وينالان أعطياتهم، وقد حفظ الغساسنة لحسان المودة وأرسلوا له بعض الهدايا بعد أن طعن في السن وعمي، ولكننا لانجد أثرا لعلاقات رسمية جماعية بين يثرب والغساسنة بعد حادثة مالك بن العجلان، وربما لعدم حاجة اليثربيين لأقربائهم ثانية، ولانشغال الغساسنة بمعاركهم مع المناذرة.

ثم إن عدم وجود حكومة منظمة تدير الأمور في يثرب سبب هذا الفتور في العلاقات الخارجية بينها وبين الممالك الأخرى، فلم تكن يثرب مملكة ولا دولة بل مجتمعا زراعياً محدوداً له نظامه العشائري والبيئي المتعدد، وله همومه ومشاغله الخاصة لاأكثر ولا أقل، لذلك لانجد علاقات تذكر مع الفرس أو الروم (الدولتين العظيمتين آنئذ) ولا مع اليمن، باستثناء ما ذكرناه عن قدوم تبع بن حسان الى يثرب ثم انصرافه عنها.

الجانــب الاقتصــادي في مجتمع يثــرب

أما الجانب الاقتصادي في مجتمع يثرب القديم فكان عماده الأول **الزراعــة**، بسبب طبيعة الموقع وملاءمته لمؤسسي المدينة، فيثرب واحة خصبة، فضلا عن أن منطقة الحجاز كانت - كما يقول الرواة - أشجر أهل الأرض، وكثيرة العيون والينابيع، والمياه الجوفية قريبة لمن يريد أن يحفر الآبار، وهذا يجعل العمل الزراعي أول ما يتبادر لمن يستوطن المنطقة.

ويبدو أن العبيليين، حملوا معهم من بلادهم خبرات زراعية أولية، فبلاد سومر - أول مهد للحضارة بعد الطوفان - هي بلاد ما بين الرافدين، وعمادها الاقتصادي الأول هو الزراعة، ولا بد أن الذين خرجوا منها - لأسباب كثيرة - كانوا على شيء من الخبرة والممارسة في أعمال الحقول.

ولعل هذا التصور هو الذي جعل أحد الشعراء يرثي العبيليين ويذكر مآثرهم في يثرب، ومنها جهودهم الزراعية واهتمامهم بغرس النخل فقال:(١).

عين جودي على عبيل وهل **يرجع مافات فيضها بانسجام**

عمروا يثرب وليس فيها سفر **ولا ســارح ولا ذو ســـنام**

غرسـوا لينها ببحر معيـن **ثم حفوا الفســيل بالآجـام**

(اللين : النخل)

ومع امتداد الزمن ومجيئ العماليق، ثم القبائل الأخرى، ثم اليهود، ثم الأوس والخزرج، كانت الزراعة تشد الوافدين وتغريهم بالعمل في الحقول، وليس من قبيل الصدف أن يكون جميع الذين استوطنوا يثرب لديهم ميول زراعية أساسية، ولديهم ممارسة سابقة في البلاد التي جاؤوا منها، فاليهود كانوا يزرعون ويحصدون في فلسطين، والأوس والخزرج خرجوا من بلاد المزارع الخصبة، وطبيعي أن يضع هؤلاء رحالهم في يثرب، لأنهم رأوها

١) انظر مروج الذهب ص ١٥٦

موافقة لخبراتهم ولميولهم.

ولا شك أن توافد المستوطنين إلى يثرب بعد العماليق قد أسهم في توسيع الرقعة الزراعية، وتنويع المحاصيل وتبادل الخبرات وازديادها، لذلك نجد تنوعاً واسعا في محاصيل يثرب أخر العصر الجاهلي.

فالتمر هو المحصول الأول والأهم عند اليهود والأوس والخزرج، حتى اننا نجد رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب يشاور الصحابة في أن يعرض على المشركين إعطاءهم ثلث محصول التمر مقابل أن يرجعوا عن المدينة، فيشير عليه الصحابة بغير ذلك، وما كان من الممكن أن يكون ثلث المحصول عرضا في مثل هذا الموقف الصعب لو لم تكن كميته وافرة وقيمته عالية مغرية، وللنخيل مكانة متميزة في نفس الحجازي بعامة واليثربيين بخاصة، إذ كانوا يستفيدون من كل أجزائها: من ثمارها في الغذاء والتعامل التجاري، فقد كان التمر يُعطى أجوراً للعمل أحيانا، ويكون معادلاً تجارياً في المبادلات، ويستفيدون من جذوعها وعسفها في صنع العرائش وسقوف البيوت وأعمدة الخيام، ومن لحائها ونوى تمرها لعلف الحيوانات، لذلك كانوا يجزعون أشد الجزع عليها في الحروب، وكان أقسى ما يمكن أن يواجهوه أو يواجهوا به خصومهم هو إحراق النخل.

وقد اشتهرت يثرب بأنواع متميزة من النخل الذي يعطي تموراً فاخرة مازالت حتى الآن: كالعنبرة والصفاوي أو الصفرة والعجوة والبرني... وغيرها.

ومن المزروعات المهمة في يثرب الحبوب، وفي مقدمتها الشعير والذرة ومن ثم القمح، فقد كان القمح قليلا فيها لايسد حاجتهم وكانوا يستوردونه

من الشام أواخر العصر الجاهلي وفي عصر النبوة(١).

ومن مزروعات يثرب الخضار كالكوسا والباذنجان والفاصولياء والدباء (القرع).... أما الفواكه ففي مقدمتها العنب والبطيخ والرمان.

وأما **التجـــارة** ... فمن المعروف أن التجارة تنشأ طبيعية وفطرية في كل تجمع سكاني. فمنذ أن ينتقل الفرد من مرحلة الانتاج الكامل لحاجاته الأولية البسيطة يصبح في حاجة لإنتاج الأخرين أو جهودهم، آنئذ تبدأ الصورة الأولى من التجارة، صورة المبادلات العينية المحدودة، ثم تتطور مع تقدم الانسان وتنوع إنتاج الأفراد والمجتمعات، وتنشأ الأسواق الصغيرة، وما تلبث هذه الأسواق أن تتحول إلى أسواق كبيرة يقصدها الناس، من داخل المجتمع ومن خارجه، ويبرز أفراد نشيطون يخرجون إلى أسواق أخرى ليبيعوا فيها بضائعهم ويشتروا ماليس عندهم، فتبدأ التجارة الخارجية وتتطور حتى تصبح تجارة دولية واسعة، هذا ناموس كل مجتمع، وهو ماكانت عليه يثرب، بدأت التجارة فيها في مرحلة تأسيسها الأولى، وكانت مبادلات صغيرة محدودة بين المستوطنين أنفسهم، وما لبثت أن اتسعت وشملت أنواع المحصولات الزراعية أولا، ثم الحاجيات الأساسية من أدوات منزلية وثياب وأخشاب، ثم الأسلحة المعروفة آنئذ: الرماح والأقواس والنبال والسيوف والدروع... الخ. وقد ساعد موقع يثرب على الطريق التجارية بين اليمن والشام على تنشيط التجارة، وكان في هاتين حضارة متقدمة وتجارة تحملها القوافل المسافرة فيما بينها، فصارت يثرب محطة استراحة للقوافل من جهة، وسوقا محلية يعرض فيها التجار ما يشتريه أهل يثرب منهم.

الأسـواق التجـاريـة

أنشأت الحركة التجارية النشطة في يثرب أسواقا عدة، **أولها** وأقدمها سوق بالجرف، حيث كانت يثرب القديمة، يُرَوِّح فيها الناس ثمانين جملا

---

١) فتح الباري ٤٣٧/٣

جونا، غير الألوان الأخرى، وعندما تحرك المد العمراني جنوبا زحفت معه السوق، ولكنها ظلت خارج المدينة من جهتها الشمالية، وقد عرفت فيما بعد باسم (سوق زبالة) وكانت سوقا موسمية أول أمرها ثم تحولت الى سوق ثابته.

السوق **الثانية** : تقع في قلب يثرب الجديدة على طرف وادي بطحان ، ذكرت باسم سوق جُباشة، ثم صاراسمها سوق بني قينقاع، أو سوق الجسر، وذلك لأن يهود بني قنيقناع نزلوا قربها ثم اتخذوها سوقهم، وبنوا فيها دكاكين للتجارة، وأخرى للصياغة، وأخرى لصناعة الأدوات المنزلية والأسلحة وسكك الحراثة والمناشير والملاقيط، وكان لهذه السوق جلبة تسمع من بعيد، وقد عظم أمرها أواخر العصر الجاهلي، وكانت ميدانا لفتن كثيرة، وعندما جاء المسلمون إلى المدينة تعاملوا فيها، ثم اختط رسول الله ﷺ سوقا خاصة للمسلمين فانصرفوا عنها، وحدث أن تحرَش أحد اليهود بامرأة مسلمة فيها فكانت بداية فتنة أدت إلى جلاء بني قينقاع عن المدينة وزوال تلك السوق، على نحو ما سيمر بنا بعد قليل.

السوق **الثالثة** : ذكر ابن شبه أنها بالصفاصف بالعصبة، والصفاصف كما ذكر السمهودي موضع بين سد عبد الله بن عمرو بن عثمان وبين العصبة، والعصبة موضع بقباء(١)، وعليه يكون هذا السوق جنوبي يثرب في موضع بقباء.

ولهذا السوق أصول قديمة تزعم بعض الأخبار، أنه كان فيه ثلاثمائة صائغ.

السوق **الرابعة** : في غرب المدينة بين قباء وبطحان، عند أطم يسمى مزاحم كان لعبد الله بن أبي بن سلول، ويبدو أن هذا السوق صغير لأن ابن

---

١) أنظر ابن شبه تاريخ المدينة ٣٠٦/١، والسمهودي وفاء ١٢٥٢/٤ و ١٢٦٧/٤

جبل سلع

أسواق المدينة المنورة قبل الإسلام



السوق... كان منبسطاً من الأرض ليس فيه بناء. يأتي التاجر ببضاعته صباحاً ويعود بما بقي منها مساءً، والموقع لمن سبق إليه

شبه يذكر أنه في زقاق ابن حبين(١).

وكما نرى فإن هذه الأسواق الأربعة قد توزعت في جهات المدينة لتخدم سكان كل منطقة فيها، ولتكون سوقا عامة أيضا، وكانت أسواق يثرب قبل مجيئ بني قينقاع فضاء من الأرض ليس فيها بناء، يأتي التجار اليها صباح كل يوم ومن يسبق إلى مكان يضع فيه سلعته، إلى أن ينقضي النهار فيحمل كل تاجر مابقي لديه وماشتراه ويعود به إلى بيته الى اليوم الثاني، وهكذا، وعندما جاء بنو قينقاع بنوا الدكاكين في السوق الذي سمي باسمهم، وظلت الأسواق الثلاثة الأخرى ليس فيها بناء، وكانت هذه الأسواق منتجع البدو القادمين من خارج يثرب أيضا، يعرضون فيها ما يحملونه من مواش ومنتجات حيوانية وبعض صناعاتهم اليدوية البسيطة.

وقد نشطت حركة الأسواق عندما كثر سكان يثرب، وكان لليهود أثر واضح فيها، كما كان لهم أثر سلبي يتمثل في التعامل بالربا، سواء بالبيع الآجل ووضع زيادة ربوية تحسب حسب مدة السداد (النسيء)، أو بالإقراض الربوي المباشر، ففي خبر للواقدي أن أبا رافع بن أبي الحقيق أقرض أسيد بن حُضير ثمانين ديناراً يأخذها بعد سنة مائة وعشرين ديناراً، أي أن الفائدة الربوية كانت خمسين بالمئة، وهذا يرينا مدى الاستغلال الربوي الجشع الذي كان يمارسه اليهود(٢). وقد اتخذ المرابون محلات لهم في تلك الأسواق، وكان منهم من يقوم بأعمال الصرافه و بيع الذهب والفضة وتبادل النقود الرومية والفارسية واليمانية.

أما **الأسواق الخارجية** ليثرب فلا نجد ذكرا لغير غزة، ويبدو أن اليثربيين لم يكونوا أصحاب قوافل تضرب إلى الشام واليمن على نحو ما كان عليه أهل مكة، ولكنهم كانوا يشاركون في قوافل التجار الآخرين، وذلك

---

١) أنظر أبن شبه١/٣٠٦

٢) أنظر: المغازي ١/٣٧٤

لانصرافهم إلى الزراعة واغتنائهم بها، ولكون يثرب محطة للقوافل التجارية العابرة (١) فهم يجدون ما يريدونه في تلك القوافل دون الحاجة إلى عناء السفر، وكان نظام القوافل التجارية آنئذ يتيح الفرصة لصاحب المال أن يتاجر دون أن يسافر، إما أن يرسل نائبا عنه، أو أن يكلف أحد المسافرين في القافلة أن يشتري له ما يريد مقابل أجر معين. فقافلة أبي سفيان التي أراد رسول الله ﷺ أن يعترضها لم تكن ملكا لأبي سفيان أومجموعة قليلة من التجار، بل يشارك فيها معظم أهل مكة، وكان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق كان يرسل تجارة إلى الشام مع القوافل ويستورد بواسطتها الأقمشة وبعض الخمر وقد ظل هذا الأسلوب متبعا إلى مابعد ظهور الأسلام، فكانت القوافل تحمل تجارة لبعض المسلمين دون أن يسافروا معها كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان.

ولا ندري مدى استفادة يثرب من الموانىء البحرية القريبة منها مثل ينبع والجار، ولكننا نتوقع أن بعض الواردات إلى تلك الموانىء كانت تجد طريقها إلى أسواق يثرب.

وأما أهم ماكانت القوافل تحمله إلى يثرب فهي: الأقمشة والزيت والخمر والعطور والذهب والفضة والأحجار الكريمة والرقيق والأسلحة والدروع. وأهم ماكانوا يبيعونة لتلك القوافل التمور والشعير والحلي التي يصنعها الصاغة اليهود وبعض الصناعات اليدوية للأدوات المنزلية...

وكانت العملة التي يتعاملون بها الذهب والفضة الخالصة... وكانوا يعتمدون على أوزانها، والدنانير الرومية والفارسية... فضلا عن التعامل بالمقايضة أحيانا.

---

١) أنظر ما رواه الطبري عن سعد بن عبادة عندما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم ولحقه أهل مكة فأدركوه واعتقلوه ثم تركوه عندما علموا أنه يجير تجارة لجبير بن معطم بن عدي - الطبري - ٢/٣٦٧

الصناعة في يثرب

الصناعة من نشاطات الأنسان الأولى أيا كانت درجته في المدنية... والانسان البدائي يبدأ بصناعة مستلزماته الأساسية.... عصاه التي يصطاد بها وسكينه التي يقطع بها ويدافع بها عن نفسه، وأيضا الأواني المنزلية التي يستخدمها..الخ ومع تقدم الزمن تتحول المهارات الفردية في الصناعة إلى تخصص يستغرق فيه صاحبه ويجعله عمله الأساسي ومورد رزقه.... لذا فمنذ استقر العبيليون والعماليق في يثرب بدأت معهم صناعات أوليه بسيطة تعتمد على معطيات البيئة الطبيعية، وفي مقدمتها الخشب الذي يكثر في اشجار يثرب، والصوف الذي تعطيه أغنامها.... ونحن لانملك معلومات واضحة عن مصنوعات العبيليين و العمالقة، ولم تصلنا بعد مكتشفات أثرية تبين لنا مدى ما وصل إليه أولئك الأقوام من رقي صناعي.

لذلك نتجاوز هذه المرحلة إلى الجاهلية الثانية التي وصلتنا أخبارها، ونجد في تلك الأخبار أن يثرب قد عرفت عدداً من الصناعات هي:

أولا: صناعات معدنية، كالمساحي والفؤوس ورؤس الرماح والسيوف والقدور والصحون، وكان يقوم بها فتيان يجلبهم أهل يثرب أو يشترونهم من القوافل التي تحمل الرقيق.. لأن العرب كانت تأنف العمل في الصناعة، وتسمي من يعمل بها: القَين، ولا سيما صنعة الحدادة. وعندما جاء اليهود كان فيهم من يعمل في هذه الصناعات، وخاصة بعض بني قينقاع، وكانت لهم في سوقهم (دكاكين) للحدادة والنحاسة.

ثانيا : صناعة الحلي والصياغة، وقد تخصص بها اليهود وازدهرت على أيديهم، حتى لتزعم بعض الروايات أنه كان في أحد أسواق يثرب ثلاثمئة

صائغ(١).

ثالثا : صناعة خشبية: لاشك أن توافر الأخشاب بكثرة في يثرب سيساعد على قيام هذه الصناعة وازدهارها... فقد ظهر عدد من النجارين المهرة، وظهرت مصنوعات خشبية كثيرة كالكراسي و(المناضد) وأبواب البيوت والنوافذ وأخشاب المحاريث والقتود و(الهوادج) والأسِرّة والصناديق، وغير ذلك من الأثاث المنزلي. ويبدو أن بعض النجارين قد تفننوا في زخرفة مصنوعاتهم الخشبية، ولا سيما أبواب بيوت الأثرياء ونوافذهم وسقوفهم وبعض الأثاث.. فعندما جلى بنو النضير عن المدينة حمل بعضهم أبواب بيوتهم المزخرفة وبعض أخشاب سقوفها، مما يدل على قيمتها العالية(٢).

ويلحق بصناعة الأخشاب صناعة أخرى تعتمد على الأشجار، كصناعة الحصر والسلال.

ومن الصناعات التي عرفتها يثرب صناعة الخمر، وكانوا يصنعونها من العنب والتمور، ويخزنونها لاستعمالهم الشخصي وللبيع، وكان يعمل في هذه الصناعة العرب واليهود على حد سواء.

فضلا عن ذلك هناك بعض الصناعات التي في البيوت كغزل الصوف ونسج بعض البسط، وكان يقوم بها النساء أوبعض العبيد.

تربية الماشية:

إضافة إلى الموارد الاقتصادية السابقة، كان في يثرب مورد آخر هو تربية الماشية، وكان أغنياء اليثربيين يملكون قطعانا كبيرة من الماشية تدر عليهم أرباحاً طائلة، وكان معظم أهلها الأخرين يملكون أعداداً بسيطة منها يسرح بها الرعاة في أطراف يثرب الخصبة، وقد عدّ السمهودي اثنتي عشرة منطقة تسرح فيها الماشية حول المدينة، فضلا عن الغابة والرواحة وأطراف

---

١) أخبار مدينة الرسول ص ١٢

٢) السيرة ١٤٣/٣

الأودية والشعاب(١). ولكثرة الماشية ظهر عند اليثربين نظام (المحميات) أي المناطق المخصصة للرعي، لايحق لأحد أن يمتلكها أو يزرع فيها أويبني عليها، وكانت لهم حمى شمالي يثرب عند الغابة وحمى أخرى جنوبها قرب الربذة، وحمى ثالثة شرقها تدعى روضة عرينة مخصصة للخيول، وظلت كذلك في الإسلام(٢).

وأهم المواشي التي عني بها اليثربيون: الغنم والماعز والابل، أما الأبقار فكانت قليلة، وقد عنوا بالخيل عناية شديدة لأهميتها في الحروب والأسفار، تليها البغال والحمير لكونها وسائل نقل مناسبة للفلاحة.

---

١) انظر وفاء الوفاء: ١١٢٣/٣

٢) انظر السابق ١٢٢٤/٤

الحياة الاجتماعية

لاتختلف الحياة الأجتماعية في يثرب في عصورها الأولى عن الحياة الأجتماعية في أي مجتمع فطري ساذج... فنظام القبيلة يفرز مجموعة من الأعراف تحكم العلاقة بين الأفراد، وتقسم السكان إلى طبقات متفاوتة هي:

الطبقة الأولى: وتضم الأحرار من أبناء القبيلة نفسها.. ولهؤلاء كل حقوق التملك والسيادة والتصرف ضمن أعراف القبيلة، وعليهم التزامات التكافل القبلي بدءاً بمصروفات رئيس القبيلة، ووصولاً إلى نصرة من يُعْتَدى عليه من أبناء القبيلة، والأخذ بثأر من يقتل منهم، والمشاركة في دفع ديات القتلى من خصومهم.

الطبقة الثانية: الموالي، وهم أفراد أو بطون عشائر لاتمت إلى القبيلة بصلة، لكنها هاجرت وجاورت أبناء القبيلة الأصلية ووالتهم... ولهؤلاء حقوق تقارب حقوق أبناء القبيلة في الحماية والدفاع عنهم والأخذ بثأرهم، ولكن ليس لهم أن يتزوجوا من بناتهم.

الطبقة الثالثة: العبيد، وهم الذين يمتلكهم الأحرار بالشراء أو بالأسر في الغزوات أو بالهبات أو بالإرث، لذا كان بعض العبيد يأتي بهم التجار من الآفاق ، وبعضهم عرب خُلّص أُستُعبدوا بالغزو والأسَر.. وليس لهؤلاء حقوق تذكر، بل إن درجتهم كانت تنزل عن درجة البهائم... فالسيد يكرم فرسه ويعنى بها أيما عناية، ولكنه يجلد عبده، وقد يقتله لسبب تافه... لذا كان بعض العبيد يأبقون فينجون بأنفسهم أويُقتلون..

وعندما بدأت الهجرات الوافدة تحمل إلى يثرب اليهود ثم الأوس والخزرج لم يتغير الأمر كثيراً في هذا التقسيم الطبقي، فقد صار لكل من اليهود والأوس والخزرج، عندما استقروا وأثروا، موال وعبيد...

ولكن ظهرت ألوان من العلاقات الاجتماعية الجديدة بين الكتلتين

البشريتين الكبيرتين اللتين تتقاسمان يثرب، أعني كتلة الأوس والخزرج من جهة، وكتلة اليهود من جهة أخرى، وكانت العلاقات ودية أول الأمر، أثرت في بعض الأفراد والبطون القبلية فتهودوا، وكان من نتيجة هذا التهود أن تراخت الحواجز الاجتماعية بين الطرفين، فتزوج اليهود الوافدون من عربيات يهوديات وغير يهوديات، وتزوج العرب المتهودون من يهوديات وافدات، ولكن لانعرف في يثرب من تزوج من يهوديات ولم يكن يهودياً، لأن من الصعب على اليهودي أن يزوج فتاته لوثني، وبخاصة إذا أخذنا بالأعتبار نزعة الاستعلاء والتميز عند اليهود.

غير أن هذه العلاقات مالبثت أن فترت عندما حاول اليهود إذلال العرب، وازدادت فتورا عندما أدى سعي مالك بن العجلان إلى البطش بأشراف اليهود وسادتهم. ومع مرور الزمن وانشغال الأوس والخزرج بالفتن التي اشتعلت بينهم نجد أخبارا تحدثنا عن علاقات حميمة بين بعض الأوس وبني النضير، وبعض الخزرج وبني قينقاع.. وقد كان لهذه العلاقات الفضل في إنقاذ بني القينقاع من القتل عندما حاصرهم رسول الله ﷺ وأنزلهم على حكمه، فسارع عبد الله بن أبي ابن سلول حليفهم وصديقهم إلى التشفع بهم، وألح على رسول الله ﷺ أن يطلقهم فأطلقهم الرسول ﷺ وأمر باجلائهم(١). وقد خلفت هزيمة اليهود أمام الأوس والخزرج، أو مناصريهم، في نفوس اليهود مزيداً من المكر، جعلهم يستخدمون وسائل كثيرة للانتقام والتشفي. منها الحديث عن نبي أظل زمانه سيتبعونه وينتقمون من الأوس والخزرج، ومنها الإشاعة التي أطلقوها عن (التعشير)، حيث زعموا أنه لايصح أن يدخل أحد يثرب إلا من ثنية الوداع، ومن دخلها من منفذ أخر أصيب بمرض قاتل.. وعلى من يدخلها من ثنية الوداع أن يعشر، أي ينهق عشر مرات في نفس واحد، وقد بقيت هذه الأسطورة سائدة إلى أن جاء عروة بن الورد ليدخل

---

١) انظر الطبري ٢/ ٤٨٠

يثرب، فقالوا له أن يعشر.. فأبى وقال: يامعشراليهود مالكم والتعشير. قالوا: أنه لايدخلهاأحد من غير أهلها فلم يعشر بها إلا مات.. ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا أصابه الهزال.. فلم يبال بهم ودخل على أعين الناس وهم يترقبون أن تصيبه مصيبة.. ولكن لم يحدث شيء - بل تحداهم وقال شعراً:

لعمري لئن عشرّت من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع

فلما رأى الناس أنه لم يصبه شيء تركوا التعشير ولم يتقيدوا بالدخول من ثنية الوداع، ودخلوا من كل ناحية(١).

---

١) انظر تاريخ المدينة المنوره ١/٢٦٩

العمران وتطوره في يثـرب

أسست يثرب أول الأمر في منطقة محدودة تقع في الشمال الغربي من قلب المدينة المنورة الحالية، وظلت هذه المنطقة مدة من الزمن تحمل هذا الأسم، وعرفت في بعض الأوقات على أنها قرية من القرى التي تتشكل منها مدينة (يثرب) الكبيرة، وتقع هذه المنطقة في منبسط من الأرض يبدأ من شمالي جبل سلع ويمتد إلى أطراف أحد، ويسير في الاتجاه الغربي من أحد محاذياً لوادي قناة إلى أن يصل إلى القسم الأخير من مجرى وادي بطحان(١)

وسواء كان العبيليون أو العماليق هم المؤسسين الأوائل، فلا بد أنهم استفادوا من طبيعة الأرض ومن أشجارها في صنع بيوتهم الأولى، وكانت أكواخا بسيطة مصنوعة من جذوع الأشجار وأغصانها، ثم تحولت إلى بيوت طينية تسقف بسوق الأشجار الطويلة وأغصانها، وكانت منتشرة وسط ذلك المنبسط، غير متلاصقة، لكل بيت أرض تحيط به وتفصله عن البيت المجاور(٢)ويؤيد هذا التصور روايات تذكر أن يثرب كانت سقيفة من الأرض، أي كانت بيوتا بارزة تشغل جزءاً واسعاً من الأرض. ونجد في التحليل اللغوي أن كلمة سقيفة تعني البيوت المبنية على (صفة)، أي مرتفع من الأرض(٣)

وهذا أمر معهود في بناء كثير من البيوت بخاصة في الريف، و في المناطق القريبة من مسيل الماء، حيث يعمد منشيء البيت إلى إنشاء ردم صناعي ليجعل أرضية المنزل عالية، فإذا سالت مياه الأمطار كان البيت في مأمن من أن تتخلله.

---

١) انظر العباسي عمدة الأخبار ص ٥٩ وانظر المصور المرفق

٢) صالح مصطفى لمعي: المدينة وتطورها العمراني ص١٠

٣) اللسان ٣/٢٠٤٠

لذا يمكننا أن نتصور الشكل الأولي ليثرب على النحو التالي: تنتشر مجموعة من البيوت البسيطة في بقعة واسعة، تقدر مساحتها بثلاثة (كيلومترات) مربعة.. هذه المساحة خضراء معشبة، تتخللها أشجار غير كثيفة، ولكل بيت فسحة تحيط به من أطرافه، ويرتفع البيت عن الأرض مسافة بسيطة.

وبعض البيوت على شكل أكواخ من سوق الأشجار، وبعضها من الطين، وقد سقفت بجذوع الأشجار وأغصانها، ويتألف البيت من غرفة واحدة متوسطة الحجم، وربما تطورت بعد ذلك الى إضافة غرفة أخرى مجاورة عندما يزداد عدد أفراد العائلة. وخارج الغرفة سقيفة مصنوعة من أخشاب الأشجار أيضا، تتصل بجدران الكوخ، تقف فيها حيوانات صاحب الكوخ ومواشيه لتحميها من الشمس القائظة والأمطار.

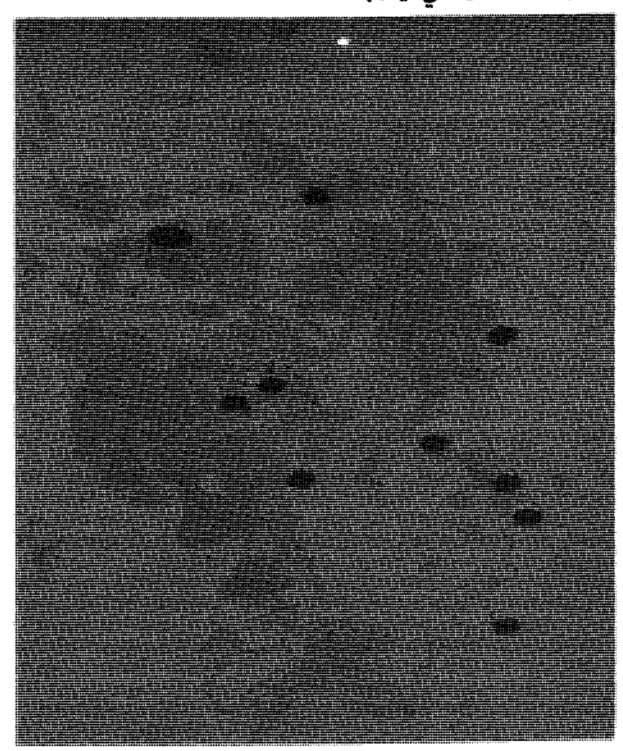
ونستنتج هذه الصورة من المكتشفات الأثرية للقبائل القديمة التي انحدر منها مؤسسو يثرب، فقد أظهرت المكتشفات أن الرجل منهم كان ينشيء كوخه بالطريقة التالية: أن يغرس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة، ويثني أعلاها حتى تجتمع، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أوعقدة أوقبة، فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية، ولم تكن لهذه البيوت نوافذ(١).

وعندما امتد الزمن قليلا بهؤلاء الوافدين تحولت الجدران إلى مبان طينية، واتسعت فسحة البيت، وصار له باب من الخشب نفسه، ولكن السقف ظل مجموعة من الأخشاب الممتدة تغطيها سعف النخل وأغصان الأشجار، ويرقد فوقها شيء من الطين يمسكها كي لا تعصف بها الريح. وعندما تكاثر المستوطنون الأوائل امتدوا من المنطقة التي نزلوها إلى الجنوب الشرقي حذاء الحرة، ونجد في بعض الروايات أن حرة واقم (الحرة الشرقية) سميت بهذا

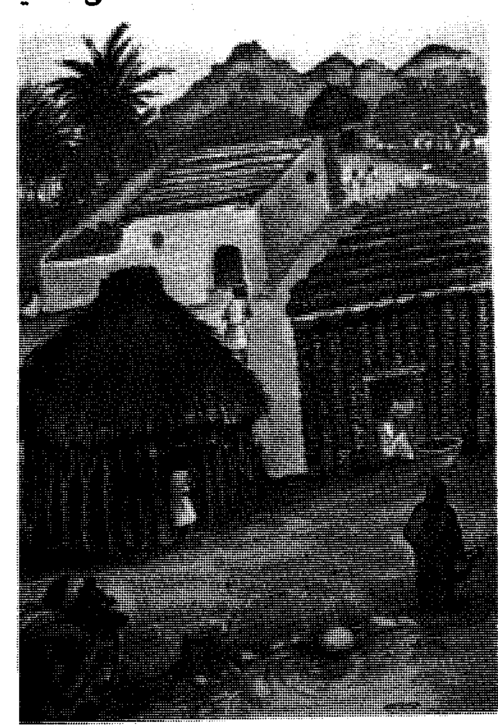
---

١) انظر: قصة الحضارة ٣٦/٢

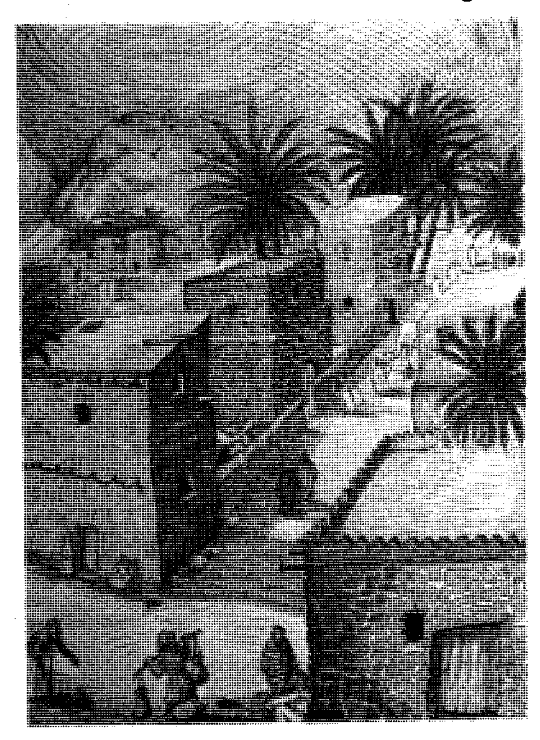
تطور العمران في يثرب



تطور العمران في يثرب وقد ثُبتَ في الخريطة موقع المسجد النبوي ليُعين على تحديد المواقع القديمة



مساكن اليثربيين في المرحلة الأولى



مساكن اليثربيين في نهاية العصر الجاهلي

الاسم نسبة إلى أحد العماليق الذين نزلوا فيها(١)ولعل العماليق قد انتشروا بهذا الخط الجنوبي حتى وصلوا إلى المنطقة المسماة بزهرة، فلدينا روايات تقول إن منطقة زهرة هي من أوائل ماسكن في يثرب، وان صعل وفالح كانتا أول قبيلتين سكنتاها(٢) ويمكن التوفيق بين هذه الرواية والرواية التي تقول ان العماليق نزلوا بموضع بيثرب، وإن تكاثر العماليق جعل بعض أحفادهم ينتقلون إلى منطقة زهرة، وكان من بين هؤلاء الأحفاد فرعان يسميان صعل وفالح، فإن صح هذا التقدير فلا تضارب في الروايات، إذ يكون قانية العبيلي أو العمليقي أول من أسس يثرب، وصعل وفالح أول من سكنوا في زهرة التابعة ليثرب، أو التي هي امتداد لها. وأنا أميل إلى هذا الرأي.

على أية حال فإن امتداد العمران إلى منطقة زهرة أمر حقيقي تؤكده الآثار القديمة التي اكتشفت في تلك المنطقة(٣) ثم إن مرور الزمن واستقرار الأجيال المتوالية قد حمل تقدما في الشكل المعماري للبيوت، وأدخل الحجارة مع الطين، وبخاصة عندما زحف العمران إلى قرب الجبال والحرار، حيث تتوافر الأحجار اللازمة للبناء، وقد أكد الدارسون أن السومريين الذين ينتمي إليهم العمالقة قد بنوا هياكلهم من الحجارة، وأن أثرياءهم كانوا ينتجعون مرتفعات من الأرض فيبنون عليها بيوتهم، وأن هذه البيوت قد أخذت من الذوق والترف بنصيب، وصار لها قناطر ومداخل مزينة، كما صار للبيوت فناء محاط بسور يحمي سكانه من الأعداء والفضوليين والحيوانات، ولا أستبعد أن يحذو أثرياء العماليق أو الذين كثرت أموالهم وأثروا حذو أسلافهم...

إذن تطور العمران مع امتداد الزمن، وتحسنت هيئة البيوت، ويظهر من روايات أهل الأخبار أن بعض البيوت قد صارت فيما بعدُ طبقتين، وهذا تطور

---

١) وفاء الوفاء ١٣٢٧/٤

٢) انظر وفاء الوفاء ١٥٦/١-١٥٨

٣) المدينة المنوره بين الماضي والحاضر ص٢١، ٢٢

كبير في فن البناء، وكانوا يسكنون في الطبقتين أحيانا، ويودعون ماشيتهم في الطبقة الأرضية أحيانا أخرى، ولاشك أن وجود جذوع أشجار كبيرة وقوية ساعد اليثربيين على تطوير عمرانهم(١)٠

وقد اكتشف أهل المدينة منذ القرن الهجري الأول آثاراً عمرانية تدل على ذلك التقدم العمراني، فقد وجدوا في أصل إحدى الدور - دار إبراهيم بن هشام أمير المدينة - نفقا يمتد من طرف باب السلام إلى الجنوب، ووجدوا فيه صناعات غريبة في البناء وقديمة، كما عثروا على بعض التماثيل، وسميت الدار بدار التماثيل(٢)٠

وعندما نزل اليهود يثرب حصل تطور عمراني جديد ، فقد ظهرت أبنية جديدة شيدها الوافدون الجدد ، فاتسعت المدينة ، ولكنها لم تتسع في امتداد متصل ، بل ظهرت فيها تجمعات سكنية مستقلة ، فصارت أشبه بضواح منتشرة على رقعة واسعة من الأرض ، تمتد من منطقة الجرف شمالا إلى وادي جفاف جنوبا ، وتقدر هذه المسافة بعشرة(كيلومترات) تقريبا.

وشكل بنو قينقاع تجمعاً محدوداً في منتصف المسافة بين الشمال والجنوب، بين الحرتين الشرقية والغربية (قرب منطقة الحرم تقريبا)، وامتد تجمعهم إلى أول قربان وقباء....

أما التجمع الثاني فكان لبني قريظة، حيث نزلوا في الجنوب الشرقي ونزل بعدهم جنوباً بنو النضير، فكانوا في أقصى منطقة في الجنوب الشرقي (انظر المصور السكاني ليثرب)، وخلافا لما كانت عليه أبنية العماليق من انتشار وتناثر، كانت أبنية اليهود في كل تجمع من تجمعاتهم السكنية متقاربة أو متلاصقة، وكانت على نوعين: منازل وآطام.

أما المنازل فكانت كمنازلهم في فلسطين قبل خروجهم منها، مبنية من

---

١) انظر المفصل ١٧/٥

٢) انظر تاريخ المدينة المنوره ٢٦٠/١

اللبن أو الحجر أو منهما معا، وكان للمنزل فناء يحيط به سور، وفي داخله عدد من الغرف يختلف باختلاف ثراء صاحب البيت وإنفاقه، وعندما استقر اليهود في يثرب وأثروا حسنوا منازلهم وأدخلوا إليها كثيرا من الزخارف، وعنوا عناية خاصة بالزخرفة الخشبية، فكانت مداخل البيوت تعلوها قناطر من خشب محفور ومرسوم عليه أشكال تزيينية، وكذلك كانت سقوف بعض البيوت تزينها أخشاب ثمينة حفرت عليها أشكال تزيينية مختلفة...

وللبيوت نوافذ خشبية ضيقة لاتخلو من تزينات أيضا، وأما الجدران فقد طليت بالجص من الداخل لتصبح صقيلة وملساء، وربما علقت عليها بعض البسط والمنسوجات التي تحوكها النساء...

وأما الآطام فهي بيوت مربعة مرتفعة مبنية من الحجارة غالبا ليس لها نوافذ خارجية، وهي حصينة يحتمي بها أهلها من هجمات الأعداء.. ويسمى الأطم حصنا، وقد اشتهرت المدينة بآطامها، وربما يكون السبب في الاهتمام بها توزع التجمعات السكنية على مساحة واسعة من الأرض، لايمكن أن يضمها سور واحد لذا يلجأ كل تجمع إلى بناء أطم واحد يحتمون به عند الحاجة.

وثمة خلاف بين الدارسين حول بداية هذه الآطام في المدينة ومنشئيها، أهم العماليق ؟ أم اليهود، أم الأوس والخزرج؟. ولكل حججه وشواهده. فالبلاذري في كتابه فتوح البلدان ينسب بناء الآطام إلى العماليق، وبعض المؤرخين الغربيين يذهب الى أن اليهود هم الذين أنشأوها، وأن كلمة أطم تعني في العبرية البيت الذي لانوافذ له، ويذهب الدكتور الخطراوي الى أن الأوس والخزرج هم المنشؤون الأوائل، وأنهم نقلوها من اليمن بدليل وجود

أمثالها في الآثار اليمنية القديمة(١).

أما العماليق فليس لدينا أي دليل يثبت بناءهم الآطام، وأقدم الآطام الموجودة في المدينة أحدث منهم بزمن كبير.

وأما اليهود فيمكن أن يكونوا هم الذين أنشأوها في يثرب عندما هاجروا إليها، ونعتقد أنهم قد عرفوها من قبل بسبب صلتهم القديمة باليمن أيام سليمان عليه السلام، وعندما وصلوا إلى يثرب في مجموعات قبلية متوالية سكنت كل مجموعة في منطقة خاصة بها، وأسهم هذا التوزع في تأكيد صفة التوزع السكني ليثرب، هذا التوزع يناسبه بناء الآطام. ويرجح عندنا هذا الرأي عاملان: الأول، أن اليهود سبقوا الأوس والخزرج في الهجرة الى المدينة، والثاني، أن عدد الآطام التي بناها اليهود أضعاف عدد الآطام التي بناها الأوس والخزرج، رغم أنهم لايفوقونهم في عدد السكان.

وعلى أية حال.. وأيا كان المؤسس الأول للآطام، فإن هذه الآطام كانت علامة مميزة ليثرب، ومنها انتقلت فيما بعد الى الطائف ومكة.

كان بناء الآطام مربعا غالبا ومستطيلا أحيانا، ويتألف الأطم من طابقين أو ثلاثة، ويضم في داخله عدداً من الغرف في جهاته الأربع، تتوجه الى ساحة داخلية تطل عليها النوافذ.

وليس في الحصون والآطام نقوش أو زخارف غالبا، فهي أبنية حربية تستخدم للتحصين والدفاع عن النفس. وقد بلغ عدد آطام اليهود أكثر من سبعين أطما، وآطام العرب قبل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما، وعندما

---

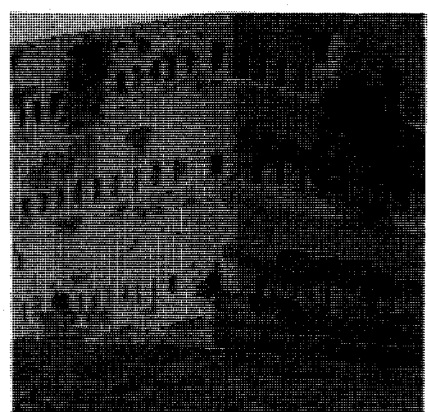
١) أنظر المدينة في العصر الجاهلي ٩٠ وفتوح البلدان ٢٩ ، واليهود في بلاد العرب ١١٦

جاء الأوس والخزرج بنوا عشرين أطما(١)•

وهكذا تنوعت أبنية يثرب، فكان منها المساكن البسيطة، ومنها المنازل الضخمة المبنية من دورين أو ثلاثة والمليئة بالنقوش والزخارف، ومنها الآطام العالية والحصون المنيعة. وقد انتشرت الآطام والحصون في معظم أنحاء يثرب، ولكنها كثرت في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي في الحرة الشرقية والعوالي وقربان وقباء، وكان أقلها في الجرف والحرة الغربية..

ولما كان أهل يثرب يعتمدون على هذه الأطم والحصون فقد ظلت مدينتهم في منطقة واسعة ممتدة من الجرف شمالا إلى نهاية قربان حنوبا، وكانت على شكل تجمعات، بعضها متقارب البيوت كتجمعات اليهود، وبعضها متناثر كتجمعات القبائل العربية القديمة في يثرب، ثم تجمعات الأوس والخزرج الذين وفدوا إليها..

ومن الملاحظ أن الأوس والخزرج لم يحدثوا أنماطا جديدة من الأبنية، وأنهم بنوا بيوتا على شاكلة المنازل التي وجدوها فيها، كما بنوا الآطام ليتحصنوا فيها، وبخاصة بعد أن بدأت منازعاتهم مع اليهود، ثم مع بعضهم بعضا.



نموذجان من المباني القديمة في المدينة يُعتقد أن الآطام كانت على شاكلتهما

---

١) انظر وفاء الوفاء ١/٦٥

الجانب الثقافي في يثــرب

لانعرف شيئا عن الجانب الثقافي عند العماليق، وإن كانت الكتابات عن أجدادهم السومريين تنسب إليهم ثقافة وفنونا كثيرة. وقد خلّف أولئك رسوما وتماثيل ونقوشا وزخارف وآنية تدل على تقدم علمي وذوق رفيع، وربما يكون للعماليق شيء من هذا التقدم تكشف عنه الحفريات ذات يوم، ولكن الى أن نصل إلى دليل ملموس لانستطيع أن نبني تصوراً صحيحاً عن الوضع الثقافي في عهدهم.

وعندما تقدم الزمن، وخالطتهم قبائل عربية أخرى، بدأت الثقافة المحلية تأخذ طريقها إلى أبناء يثرب، وهي ثقافة شفوية لا تعتمد على الكتابة إلا نادراً، ولا تسجل ماتصل إليه في كتب متداولة. ولعل هذا يفسر لنا بقاء الكتابة قليلة في أهل يثرب حتى مجيء الإسلام، فقد كان في الأوس والخزرج من يكتب، وهناك آثار في المدينة لم تفك رموزها حتى الأن أشار إليها الأنصاري وتوقع أنها ترجع إلى عصور جاهلية قديمة(١).

وعندما وفد الأوس والخزرج لم يتحسن الأمر كثيراً رغم أن هاتين القبيلتين تنتميان إلى أصول حضارية عريقة. ويبدو أن الهجرة حدثت في عصور ضعفت فيها الثقافة، وانتشر الفقر وصار الاهتمام بلقمة العيش الهم الوحيد لمعظم الناس، فلما رحل المهاجرون وقطعوا تلك المسافات الشاسعة ووصلوا يثرب اندمجوا في حياتها اليومية، ولم يهتموا بالأمور الثقافية، وتسربت إليهم الثقافة الشفوية التي سرت فيمن قبلهم ومن معهم، وظهر فيهم الخطباء والحكماء والشعراء، ولكن لم يظهر العلماء والأطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفلاسفة. ولما كان أهل المدينة أقل من سواهم مشاركة في الرحلات والأسفار الخارجية، لذا لم تنتقل إليهم آثار الثقافة

---

١) انظر: آثار المدينة ص ١٨٨-١٩٠

الفارسية أو اليونانية أو سواهما، وإن كانت بعض الكلمات الفارسية والرومية قد تسربت إلى اللغة بسبب الرقيق القادم من هناك، وليس بفضل انتقال العلوم والفنون.

وعندما جاء اليهود حملوا معهم ثقافتهم الدينية والفكرية والعلمية، وكانت على مايبدو مقصورة على أشخاص معينين، في مقدمتهم الأحبار الذين يحتكرون العلوم الدينية، ويقضون جزءاً من وقتهم في دراسة الأسفار التي يحملونها، وكانوا يقيمون المدراس -المدراش - ليعلموا فيه القضاياالدينية الأساسية لأبناء طائفتهم، أما التعمق في الأمور الدينية فهذا يعني تحول الدارس الى الكهنوت وتخصصه فيه، وقد وجد فيهم من فعل ذلك على توالي أجيالهم...

ومن ثقافتهم في الأسفار نشأت لديهم ثقافة تاريخية نقلت جزءاً من الاسرائيليات إلى المجتمع اليثربي قبل مجيء الاسلام إليها وبعده، وقد كان في اليهود عدد ممن يحسن الكتابة. وكانوا يستخدمون لغتهم العبرية في أمورهم الثقافية، وكان فيهم من يكتب العربية.. أما لغتهم في الحياة العامة فقد كانت العربية، وكان فيهم من يقول الشعر ويحسنه، مثل كعب بن الأشرف وسارة القرظية، وسعية بن الغريض.

وأما العلوم الأخرى فقد كان فيهم بعض الأطباء، وكان فيهم من يتقن الحساب وشيئا من الفلك... ولكن الظاهرة المثيرة للانتباه هي أنه لم ينبغ من أولئك اليهود عالم أوصاحب نظرية أو رياضي أو فيلسوف ذو مكانة علمية، أو ممن يترك أثرا علميا قيما يذكر به. ومن الممكن أيضا أن ينطبق عليهم ماتوقعناه في الأوس والخزرج، ذلك أن اليهود في الفترة الأخيرة لدولتهم، سواء في أواخر مملكة يهوذا أوفي عهد تيتوس الروماني، كانوا قد دخلوا مرحلة ضعف وتخلف، وكانت الفتن والحروب تستهلك معظم حياتهم، فعندما هاجروا لم يكن فيهم أحد من العلماء البارزين، وربما لم يحملوا معهم من غير

كتبهم الدينية شيئا مهماً من الكتب العلمية والفلسفية، فلما صاروا في مستقرهم الجديد انقطعت صلاتهم بأبناء طائفتهم في العراق والشام ومصر إلا من سفرات نادرة يقوم بها بعض الأحبار، وانقطعوا عن الحركة العلمية خارج المنطقة حتى إن بعض المستشرقين ليشك أن يكون هؤلاء اليهود من نسل يهود فلسطين، ويعتقد أنهم قبائل عربية تهودت وبقيت في مستواها الثقافي السائد في المنطقة(١) ويذهب أحد مؤرخيهم إلى أن انغماسهم في الحياة اليومية في يثرب وانقطاعهم عن العالم الخارجي وعدم اتصالهم بأبناء طائفتهم شل قواهم الروحية، وصاروا مثل غيرهم من السكان المنعزلين عن العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة(٢).

ولاشك أن تلك الأراء تعتمد في أساسها على رأي خاطيء يَنسب إلى يهود فلسطين تطوراً حضارياً عالياً، فلم يكن هؤلاء أكثر ثقافة أورقياً اجتماعيا من جيرانهم في الجزيرة العربية، كما أنهم لم يكونوا أرقى في مستواهم عن الفلاحين وسكان القرى الآخرين في فلسطين أيام هجرتهم، ثم إن عدد المهاجرين إلى يثرب كان قليلا. ومن الطبيعي أن قلة العدد، وظروف الهجرة، وتغير الحياة، هذه العوامل لاتساعد على إظهار النبوغ والعبقريات، لذا فان ثقافتهم في يثرب كانت أيضا في دائرة الثقافة الشفوية، رغم معرفتهم الكتابة، ورغم وجود المدراس لديهم.

ونقصد بالثقافة الشفوية مجموعة المعارف التي تتكون لدى الفرد من تراث ينتقل إليه -شفاها- من أسلافه، كأخبار الحروب، والتاريخ غير المدون، والعادات والتقاليد، و الخبرات التي يكتسبها بالتأمل والملاحظة والتجربة ويحفظها في ذهنه، وينقلها إلى الآخرين شفاها، وكالحكمة والأمثال ومعرفة الأنواء والنجوم وأوقات الزرع والحصاد والآفات الزراعية، والإبداع اللغوي

---

١) انظر المفصل ٣١/٦هـ

٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٠

والأدبي -الخطابة والشعر- اللذين يُظهران المواهب الفنية والذوق الأدبي، يُظهران مايكون لدى الإنسان من تراث وخبرات وتجارب في الحياة، وليست هذه الثقافة هينة قليلة الشأن، بل هي جملة معارف عظيمة لم تتح لها فرصة التدوين لأسباب كثيرة، فلما انتقلت من عصر إلى عصر مرت بمراحل تنقية فكرية وعقدية، وتأثرت بالحروب وموت الرجال الذين يحملونها، وعندما وصلت إلى عهد التدوين فقدت الكثير من أجزائها بسبب النسيان، أو تغيير المقاييس ، أو زهد الذين يدونون المعارف بما لم يدونوه...

وقد كان لدى اليثربيين قدر وافر من هذه الثقافة الشفوية نجد إشارات متناثرة إليها في الأخبار التي وصلتنا، منها تاريخ الحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج، ومنها الحكم والأمثال التي دونت في كتب الأمثال وكتب الأدب العامة، ومنها أخبار عن الأنواء والفصول والنجوم.. ونصوص كثيرة من الشعر والنثر، ولا مجال لاستعراضها هنا، فهي موجودة في كتب الأدب بكثرة.... لذا نكتفي بالحديث الموجز عن فن أدبي يختزن الكثير من جوانب الثقافة الشفوية هو: **فن الشعر**...

فمنذ القدم، تحدث الدارسون والنقاد عن حركة شعرية متميزة في يثرب. وعندما ألف ابن سلام الجمحي كتابه (طبقات فحول الشعراء) اعتبر يثرب أشعر القرى في الجاهلية والإسلام لكثرة ما ظهر فيها من شعراء ولجودة شعرهم (١) وهؤلاء الشعراء جميعاً ظهروا في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي، وليست هذه مشكلة شعراء يثرب وحدهم، بل هي مشكلة تاريخ الشعر العربي كله، فأقدم مانعرفه من الشعر الجاهلي يرجع إلى مئة وخمسين سنة قبل الهجرة ليس أكثر.. وذلك لأن الشعر الجاهلي كان جزءا من الثقافة الشفوية تتناقله الأجيال بالحفظ والذاكرة وقلما تدونه في قراطيس.

ويتضمن الشعر الذي وصلنا من اليثربيين آخر العصر الجاهلي تسجيلاً

---

١) انظر طبقات فحول الشعراء ١/ ٦٤

للوقائع بين الأوس والخزرج، والعلاقات مع اليهود، ويتضمن أيضا خلاصة التأمل والحكمة والتجربة الإنسانية في ذلك العصر... ومن الشعراء الذين ظهروا في يثرب: قيس بن الخطيم، وأُحيحة بن الجلاح، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وأبو قيس بن الأسلت، وعصماء بنت مروان. ومن شعراء اليهود الذين وصلنا شيء من شعرهم: كعب بن الأشرف وسارة القرظية وسعية بن الغريض.

وإلى جانب هذه الشاعرية، عُرف اليثربيون بذوقهم الفني الرفيع ونقدهم الجمالي الصائب. ومما يروى في هذا الباب أن الشاعر الكبير النابغة الذبياني كان في شعره عيب هو الإقواء(١)، فأراد اليثربيون أن ينبهوه إلى عيبه دون تجريح، فأمروا جارية أن تغني قصيدته التي فيها إقواء، وتمد صوتها في آخر الأبيات ليظهر الإقواء جلياً، فغنت قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتدي   عجلان ذا زاد وغير مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ

وقوله أيضا في القصيدة نفسها:

بمخضب رخص كأن بنانه   عنم يكاد من اللطافة يعقدُ

فتنبه النابغة للعيب، وعدل الأبيات ليتخلص من الإقواء فجعل الشطر الأخير من البيت الثاني (وبذاك تنعاب الغراب الأسود) والشطر الأخير من البيت الرابع (عنم على أغصانه لم يعقد).

لقد كان الشعر لليثربين - كما كان لمعظم العرب - سجل أحداثهم ومنبراً لمفاخراتهم وموجزاً لتجاربهم في الحياة وتأملاتهم ومبادئهم وقيمهم.. بل ومعارفهم الإنسانية العامة.... كما كان وسيلة من وسائل إعلامهم ومادة

---

١) الإقواء هو اختلاف حركة آخر حرف في أحد أبيات القصيدة عن حركة آخر حرف في الأبيات الأخرى، ويسمى أخر حرف في البيت الشعري (الروي)

لأسمارهم.. ولكن رغم وجود الكتابة بين عدد من اليثربين وعدد أكبر من اليهود فان هذا الشعر لم يدون إلا بعد نهاية العصر الجاهلي بما لايقل عن قرن من الزمان.

وهكذا يمكن أن نكوّن صورة عامة للجانب الثقافي في يثرب، وهي صورة غائمة غامضة في القسم الأول من تاريخها -أيام العماليق- تتضح قليلا بعد وصول القبائل العربية، حيث تظهر الثقافة العربية الشفوية التي تزدهر فيها التأملات الانسانية والأدب - بشقيه الشعر والنثر - وأطراف من المعرفة الفلكية بالنجوم والمطالع والأنواء، والزرع، وشيء من الصناعة..

وعندما جاء اليهود حملوا معهم ثقافة دينية واسعة، وثقافة علمية قليلة، لأنهم لم يكونوا أحسن حالاً من جيرانهم.

وعندما جاء الأوس والخزرج استمرت الصورة على حالتها السابقة، ولكن بدأت الثقافة العربية تصهر الجميع، فظهر الخطباء والشعراء والإخباريون من العرب واليهود، وزاد اليهود على العرب معرفتهم بالكتابة والأخبار التي يستقونها من الأسفار.. ولم تقم المدارس بين العرب قبل الإسلام ولكنها قامت عند اليهود بدوافع دينية، وكانت مناهجها دينية غالبا تضاف إليها بعض العلوم الأولية في الحساب والكتابة..

لذلك بقي الجانب الثقافي محدوداً، ينتظر إشراقة جديدة تطلقه من عقاله وتبلغ به ذروة عالية... هذه الاشراقة هي الإسلام الذي سيسطع بنوره على يثرب ويغيّر أشياء كثيرة فيها، يغيّر اسمها، وعقيدة أهلها، وسلوكهم، وكيانهم السياسي، وعلاقاتهم الاجتماعية، وبنيتهم الفكرية والثقافية، وليصنع لهم، وللإنسانية كلها من خلفهم، قمماً حضارية هائلة...

المدينة المنورة في العهد النبوي

يثرب والاســــلام:

لم تكن يثرب سوى واحدة من تلك المدن الكثيرة التي ظهرت في حقبة تاريخية سحيقة، وعاشت فيها أجيال متوالية حياة عادية، لايتألق فيها حدث ضخم ولا يهز أيامها الهادئة أمر ذو شأن، اللهم إلا الغزوات القليلة المتقطعة التي شهدتها أرضها، وجيوش الفاتحين العابرة التي أزهقت بعض الأرواح فيها، ثم حملت من خيراتها وأموال أهلها الكثير أو القليل، والفتن الطاحنة بين أبنائها، تثور حينا وتهدأ حيناً... وهذه سنة عرفتها كل مدينة قديمة... إذن، كانت يثرب تعيش في الظل أو مايشبهه.. لم تكن عاصمة ملك ضخم... كما كانت بابل ونينوى وتدمر ومأرب... ولم تخرج منها الجيوش لتبني مجداً واسعاً ... كما خرجت من أثينا وروما. ولم تتألق فيها حضارة عمرانية كما تألقت في بعلبك و عمان وبصرى ومأرب وأرض مصر.... بل ولم تعرف مجدا فكريا كالذي عرفته أثينا وإسبارطه وبابل وبعلبك والإسكندرية....

كانت يثرب واحة زراعية محدودة، ترتاح فيها القوافل وتمر عليها السنون الطويلة وهي في تيار الحياة اليومية العادية... تتأثر بما يجري حولها بعض التأثر، ولكنها لاتؤثر فيمن حولها. إن ازدهرت فازدهار محدود، وإن كبت فإلى حين ، ثم تعود سيرتها الأولى، مثلما يجري جدول هادىء، يزداد حيناً وينقص حيناً لاتغور ينابيعه ولا يعرف ثورة الفيضان.... وكأنما كانت طاقات الأجيال تختزن، ويجتمع بعضها إلى بعض لتخرج دفعة واحدة في وقت معلوم، وينفجر الجدول الهادىء، وتهتز المدينة الساكنة، وتنطلق الطاقات الكامنة لتصنع مجداً في العقيدة والفكر والرجال والحضارة، ولتكون عاصمة النور الذي سيغمر - ليس المنطقة وحدها بل - مناطق واسعة من العالم كله، ولتصبح اسماً خالداً تهوي إليه الأفئدة وتتناقلها الأجيال بحب واحترام كبيرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يثرب على موعد:

كانت يثرب على موعد وعدها الله إياه من الأمد الأول، ليتغير فيها كل شيء، ليصبح سكونها حركة دائبة، وقلتها كثرة وزخما...

وكانت بدايات هذا الوعد بعيداً عنها، هناك في مكة المكرمة، حيث بُعث خاتم المرسلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، وبدأ ببعثته صراع النور والظلمة، يفتح الرسول ﷺ للناس دروب الخير فتقف دونه السواعد الآثمة، وتحاول جهدها أن تطفيء النور وتغلق أبواب مكة وأبواب الدنيا كلها على وثنيتها السانجة، لأجل منافع هينة قليلة....

لم يكن لمشركي مكة بُعد النظر، ولم يكن للمعاندين قدرة على التأمل والتدبر، ولم يفكروا يوما، ماالذي يمكن أن يكونوا عليه إن آمنوا بالدعوة الجديدة وحملوها إلى الناس.... كانت مصالحهم الصغيرة القريبة تحجب بصيرتهم عن التفرس فيما يمكن أن تحمله الأيام، فتشبثوا بواقعهم المريض، وتعللوا بما وجدوا عليه آبائهم وأصموا آذانهم عن صوت الحق وأصروا وعتوا واستكبروا استكبارا، ومالبثوا أن تحولوا إلى حراب مسمومة تجتهد في وقف امتداد الدعوة الجديدة.. بل وتسعى إلى اقتلاعها ما أمكنها السعي....

لذا شاءت حكمة الله أن تنتقل البذور المؤمنة من صخور مكة الصلبة إلى واحة يثرب الخصيبة، لتروى البذور وتنتعش وتتحول إلى حدائق وظلال......

كان محمد بن عبد الله ﷺ يذيع دعوته بين أهل مكة، فيتقبلها أقلهم وضعفاؤهم، ويرفضها ويحاربها السادة وأولو الشأن......

وصبر رسول الله ﷺ وصابر، ومرت سنوات عدة والدعوة محاصرة بعناد المشركين، تكسب بين الحين والآخر فرداً أو أفراداً قلائل معظمهم من المستضعفين، الموالى والمحالفين والعبيد وبعض القرشيين... وكلما ازداد عدد المسلمين ازداد إحساس قريش الوثنية بخطرهم، وازدادت من ثم مجابهتهم وتحولت إلى ظلم فادح..، كانت أيدي العتاة الآثمين تسطو على

المسلمين المستضعفين، تطرح بلالاً في الرمضاء وتسيمه صنوف العذاب، تقتل ياسراً وزوجته سمية وتكاد تبطش بعمار، ولا يجد المسلمون إلا المرارة والدعاء إلى الله مفرج الكروب، لذا لم يكن أمام المسلمين من خيار سوى البحث عن أرض أخرى تجد الدعوة فيها متنفسا، ويجد فيها المسلمون حرية الحياة الكريمة بإسلامهم، وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، بعيداً عن أرض مكة، وأهلها وطبيعة حياتها، وكان هذا البعد شاهدا على أن المسلمين لم يجدوا حول مكة مساحة صغيرة تضمن لهم الأمن والأمان....

اتجه رسول الله ﷺ إلى القبائل المحيطة بمكة، يبحث لديها عن حماية ونصرة، كي يبلغ دعوة ربه، غير أن سلطة قريش الدينية ومكانتها وتحالفاتها جعلت القبائل لاتصغي للدعوة الكريمة... بل إن الدعاية المضادة التي شنتها قريش الوثنية كان لها أبعد الأثر في تلك القبائل.. فقد اتهموه ﷺ بالمروق على تراث الأجداد، وبالجنون والهلوسة الشعرية وبالتأثر بالجن... وبكل ما في جعبتهم من تهم تجعل الآخرين ينظرون إلى الدعوة والداعية بريبة وحذر (١)... وقد بلغ تأثير قريش درجة جعلت الثقيفيين في الطائف يردون على رسول الله ﷺ أسوأ رد، ويغرون به صبيانهم وسفهاءهم.

غير أن هذه العقبات المضنية لم تزد رسول الله ﷺ إلا مضاءً في الدعوة، فاستمر في عرض دعوته على الأفراد والقبائل، وانتهز فرصة الحج فخرج إلى الوفود يلقى هذا ويحدث ذاك عسى أن يجد أذنا صاغية.. وكان الحجيج من مختلف بقاع الجزيرة العربية يتناقلون أخباراً متناثرة عن ظهور رجل في قريش يسفه معتقداتها، وكانت تلك المعتقدات جزءاً من نسك الحج الذي نسكوه وتحملوا المشقة إليه.. لذا كانت تلك الأخبار القليلة المتناثرة، وما يضاف إليها من دعايات القرشيين ومكانتهم في نفوس الأخرين.. كان ذلك كله كفيلا بصرف الحجيج عن الدعوة، حتى أولئك الذين قدر لهم أن يلقوا رسول

---

١)أنظر: السيرة النبويه لابن هشام٢/٧١

الله ﷺ ويستمعوا له لم يستجيبوا استجابة فورية لدعوته.. بل آثروا التريث والتفكير.. وربما تأثر بعضهم بما سمعه.. وأدرك أنه الحق.. ولكنه - تحت ضغط تلك العوامل - لم يعلن إسلامه..

إرهاصات الوعد : لقاءات في مكة:

وكان من بين أولئك الحجيج عدد من أبناء يثرب من الأوس والخزرج.. وقد تأثر بعضهم بالدعوة في وقت مبكر، ولكنه لم يجد الفرصة لإعلان إسلامه ولم يستطع أن يفعل شيئاً، وتروي الأخبار أن سويد بن الصامت (من بني عمرو بن عوف الخزرجيين) سمع من الرسول ﷺ فقال: إن هذا لقول حسن.. وانصرف متأثراً بما سمع ثم قتل يوم بعاث.. أي في السنة السابعة للبعثة النبوية، ويقول رجال من قومه .. إنّا لنراه قتل وهو مسلم... وكذلك إياس بن معاذ (من بني عبد الأشهل من الأوس) اهتز للدعوة الجديدة واستشعر الإسلام وحث قومه على الاستجابة لها، ولم تجد كلماته أُذناً صاغية في قومه، وضربه سيد قومه أبو الجسر بحفنة من تراب..(١) وكانت هذه الإرهاصات في السنوات الأولى للبعثة النبوية..

وشاء الله أن ينشغل اليثربيون بالفتنة الكبيرة بين الأوس والخزرج، وأن يصطلوا بنيرانها المحرقة يوم بعاث، ويقتل عدد من سادتهم، ليكونوا أكثر استعداداً لقبول الدعوة والانتقال من حياتهم المضطربة إلى الإسلام، ولئن صحت الروايات أن يوم بعاث كان قبل خمس سنوات من الهجرة،أي في السنة السابعة للبعثة النبوية، فان أول بذور الإسلام في اليثربيين كانت في السنة العاشرة من البعثة النبوية.. حيث كان رسول الله ﷺ يطوف بين الحجاج في المشاعر المقدسة ويعرض عليهم دعوته، فلقي ستة أفراد من أهل يثرب وسألهم: من أنتم؟ فقالوا: نفر من الخزرج، فقال: أمن موالي يهود ، فقالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم، قالوا: بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله

---

١) السابق ٢/٧٦

عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. فقال بعضهم لبعض: ياقوم تَعلّموا - والله - إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنّا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا(١).

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى أن يشرح الله صدور اليثربيين الستة إلى الإسلام.. في مقدمتها هذا التاريخ الطويل من الحروب بين الأوس والخزرج (١٢٠ سنة حسب بعض الروايات) والمعاناة الطويلة التي عاشها أبناء القبيلتين الشقيقتين خلال أجيال ثلاثة.. وبقدر ماكانت نتائج الوقائع تحفر في نفوس الطرفين إحَناً ورغبة في الثأر والانتقام وزهو النصر المؤقت، كانت تحفر في أعماقهم تطلعا إلى الخلاص من ويلات الحروب والنزاعات، والركون إلى حياة آمنة مستقرة، ينعمون فيها بمحصولاتهم الوفيرة وظلالهم الناعمة، وكان لديهم إحساس بأن اليهود وراء الفتنة، أو هم المستفيدون دائما منها، فعلى الرغم من محالفة بني النضير وبني قريظة للأوس وبني قينقاع للخزرج، واشتراكهم معهما في بعض المعارك، فإن الأوس والخزرج كانوا يحسون باستعلاء اليهود عليهم، ويحفظون تهديدهم بخروج نبي يتبعونه (أي اليهود) ووعيدهم بأن يقتلوهم قتل عاد وإرم(٢).

وكما أسلفت ، قدّم اليهود -بشكل غير مباشر- خدمة للدعوة الإسلامية عندما أقروا في أذهان الأوس والخزرج حقيقة ظهور نبي أظل زمانه، وأقروا في أذهانهم انتصار ذلك النبي ومن يتبعه على خصومهم.. لذا كان أول ما

---

١) السابق ٧٧/٢
٢) السابق ٧٧/٢

يتبادر إلى أذهانهم عندما سمعوا صوت رسول الله ﷺ والآيات التي تلاها عليهم أنه النبي الذي ذكره اليهود كثيرا، وكانت الرغبة إلى سبق اليهود إليه واحدة من الدوافع المهمة لإسلامهم.

إذن اجتمع عامل الشر والعداوة بين القبيلتين الشقيقتين ـ وقد ظهر هذا العامل في قولهم لرسول الله ﷺ (فعسى أن يجمعهم الله بك)، وعامل الرغبة في سبق اليهود إلى الدين الجديد، فكان هذان العاملان سبباً من الأسباب التي شرح الله بها صدور هؤلاء النفر الخزرجيين للإسلام(١).

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب ليكونوا الندى الذي يعد الأرض للبذور القادمة، ونشروا خبر لقائهم مع الرسول ﷺ، وما سمعوه منه، ونقلوا إلى عدد من مواطنيهم الأثر الذي وجدوه في نفوسهم بعد ذلك اللقاء.. ولا بد أنهم نقلوا لهم أيضا آمالهم في أن تجتمع الكلمة على الدين الجديد. ليبقى أمرهم عاليا على اليهود. ولم يقتصر حديثهم على أبناء قبيلتهم الخزرج، بل انتقل إلى خصومهم الأوس، وكانت الأوس قد أوقفت الحرب وهي منتصرة ولم تفتك بالخزرج المهزومة، وبناء على نصيحة أحد سادتهم كي لايخلو الأمر لليهود إذا هلك الخزرجيون.. وخلال هذه الفترة كانت العلاقة بين القبيلتين الشقيقتين هادئة إلى حد ما، يتزاور فيها بعض الناس من الطرفين ويتصاهرون.. (فأسعد بن زرارة الخزرجي هو ابن خالة سعد بن معاذ الأوسي)...

وتمضي السنة، ويخرج الحجيج من يثرب إلى مكة في السنة التالية، فيهم عشرة من الخزرج ورجلان من الأوس، يقصدون رسول ﷺ، ويلتقون به في العقبة أيضا ويسمعون منه، فيسلمون ويبايعونه بيعة العقبة الأولى أو بيعة

---

١) انظر مثالاً لذلك قصة إسلام سعد بن الربيع في كتاب: سعد بن الربيع الأنصاري: النقيب الشهيد - محمد علي كاتبي ص ٧٠ وما بعدها. دار القلم - دمشق ١٤١٢هـ

النساء(١).

داعية في يثرب:

أرسل رسول الله ﷺ مع وفد يثرب الذين أسلموا مصعب بن عمير أحد المسلمين المتفقهين، واستقبلت يثرب أول داعية إسلامي بين جنبيها، وأتاحت له حرية الدعوة إلى الإسلام.. فنزل في بيت أسعد بن زرارة أحد اليثربيين السته الذين سبقوا إلى الاسلام، وسيد من سادات الخزرج، واتخذ من منزله مركزا للدعوة، وأخذ يحدث الذين يأتونه عن الدين الجديد ويدعوهم إليه، واستجاب له عدد من أقارب أسعد وبني قومه.. ثم خرج أسعد وضيفه لزيارة الناس في مجالسهم وفي بساتينهم، وفتح الله على مصعب، فأحسن الحديث، عرض مبادئ الدين الجديد عرضاً مؤثراً، وتلا على الناس شيئاً من القرآن الكريم، فتسرب اليقين إلى قلوبهم، واجتمع إليه الذين أسلموا ليصلي بهم، ويعلمهم أمور دينهم..

أمضى مصعب عدة أشهر في يثرب ينشر فيها الإسلام ويبايعه عليه كل يوم عدد من اليثربيين.. فيهم بعض سادة الأوس وسادة الخزرج، وما أن يسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا بني عبد الأشهل (من الأوس) حتى يسلم جميع بني عبد الأشهل.. ولا شك أن لحكمة مصعب في الدعوة وحسن تأتيه الأثر الكبير في أن يفتح الله عليه(٢)، وعاد مصعب إلى مكة قبل انقضاء السنة وليس في يثرب بطن من بطون الأوس والخزرج إلا وفيه عدد

---

١) سميت بيعة النساء لأن المرء كان يبايع فيها رسول ﷺ على جميع أركان الإسلام إلا الجهاد في سبيل الله ، فلم يكن الجهاد قد أذن به بعد .. وهذه البيعة هي التي يبايع عليها النساء

٢) أنظر خبر إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير في السيرة.. فقد جاءاه مهددين يريدان إخراجه، فأحسن مصعب لقاءهما، وجعلهما يستمعان إليه، وأحسن عرض الإسلام عليهما، فشرح الله صدورهما للإسلام.. السيرة ٢/٨٣

من المسلمين (باستثناء أربعة بطون صغيرة تأخر إسلامها).. وعاشت يثرب أشهر تلك السنة على ما علمها إياه مصعب بن عمير من القرآن والفقه والعبادات.. وكانت مجالسهم أول مجالس تجمع اليثربيين على العلم و التعلم، وكانت بعض الدور تشهد صلوات جماعية.. فقد اتخذ أسعد بن زرارة من موقع اسمه هزم النبت (في الحرة الغربية) مصلى وصلى فيه الجمعة في أربعين رجلا، وترددت آيات الله في بيوت المسلمين من الأوس والخزرج رجالا ونساء رفتيانا..

البيــــعة الكبرى:

أقبلت أشهر الحج وخرج وفد اليثربيين إليه، وكان كبيرا، فقد بلغ عدد المسلمين فيه سبعين رجلا وامرأتين، وقد عزم هؤلاء على لقاء رسول الله ﷺ في العقبة.. حيث كان اللقاء السابق في العام الفائت، ودعوته إلى الهجرة إليهم. وأبدى المسلمون اليثربيون حنكة كبيرة، فلم يفاتحوا قومهم بعزمهم على لقاء رسول الله ﷺ ولم يعتزلوهم.. وأحكموا خطة اللقاء برسول الله ﷺ، أرسلوا من يواعده في العقبة ليلا أوسط أيام التشريق (الثاني عشر من ذي الحجة) وانسلوا في الموعد المحدد من بين أصحابهم بعد أن هجع القوم.. واصطحبوا معهم أحد سادة الخزرج (عبد الله بن عمرو بن حرام) - ولم يكن قد أسلم - إذ تفرسوا فيه الخير.. فعرضوا عليه الإسلام.. وصدقت فراستهم فأسلم الرجل وصحبهم إلى لقاء الرسول ﷺ.. وكان لقاء تاريخياً عجيباً في شعب من شعاب الجبال بين مكة ومنى، بعيداً عن أعين المشركين من اليثربيين والقرشيين وحضر فيه رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس، ولم يكن العباس قد أسلم بعد، ولكنه كان يناصر ابن أخيه ويحميه، وكان العباس أول المتكلمين، فقد أراد أن يستوثق من القوم لابن أخيه ويرى مدى استعدادهم لحمايته إن هاجر إليهم.. فقال لهم: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة

في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.. ولم يجب الأنصار إلا بعد أن سمعوا من رسول الله ﷺ ما يريده منهم لنفسه ولربه.. فتكلم رسول الله ﷺ.. فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (أي نساءنا) فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء حروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر..

وكما أراد العباس أن يستوثق من اليثربيين حمايتهم لرسول الله ﷺ، أراد بعض اليثربيين أن يستوثقوامن ملازمة رسول الله ﷺ لهم، فقام أبو الهيثم التيهان وقال: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال (اليهود) حبالا (أي عهود ومحالفات) وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني. أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. وأراد العباس بن عباده بن فضلة الخزرجي أن يبصر القوم بأبعاد هذه البيعة والعقبات التي ستترتب على هجرة الرسول ﷺ، وأن يشد العقد، فقال لهم: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط

يدك، فبسط يده فبايعوه(١).

ولا شك أن الإيمان قد بلغ مبلغا عظيما في نفوسهم فجعلهم يوثقون كل ذلك التوثيق... فرسول الله ﷺ لم يعدهم بملك أو جاه أو ثروة أو غير ذلك من مكاسب الدنيا.. بل وعدهم جزاء الآخرة فقبلوا وبايعوا، وهنا طلب منهم رسول الله ﷺ أن يختاروا منهم اثني عشر نقيبا ليكونوا بمثابة المسؤولين عنهم والمتابعين لهم في أمور دينهم.. فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (بحسب نسبة الموجودين من القبيلتين آنئذ).. وفي نهاية اللقاء عاد المسلمون المبايعون إلى رحالهم دون أن يحس بهم قومهم، وباتوا على موعد مع عهد جديد.. ينتقل فيه الإسلام والمسلمون إلى مدينتهم.. وتدخل مدينتهم التاريخ من أوسع أبوابه..

ورغم السرية الكاملة التي تمت بها البيعة، نمى إلى قريش شيء من أخبارها. ربما من عابر سبيل رآهم أو سمع بعض كلامهم، فأقبل عتاة الكفر إلى رحال أهل يثرب في منى يتبينون الأمر، وسكت المسلمون.. وقام أصحابهم من غير المسلمين يحلفون بالله أن هذا الأمر لم يحدث، وكانوا صادقين في أيمانهم إذ لم يشعروا بما حدث.. وخرج الحجيج من منى إلى يثرب سالمين.. غير أن قريشا استوثقت من صحة الخبر بعد ذلك، فخرج بعضهم يطلبون المسلمين.. فلم يدركوا منهم إلا سعد بن عبادة فأسروه وعادوا به إلى مكة وعذبوه.. ثم أنقذه منهم جبير بن مطعم، وكان سعد يجير له تجارته في يثرب..

يثرب تستقبل المهاجرين:

بدأت يثرب مرحلة جديدة من عمرها.. مرحلة استقبال المهاجرين إليها من مسلمي مكة تمهيداً لاستقبال رسول الله ﷺ.. فما أن تمت البيعة حتى وجه الرسول ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى يثرب وحضّ عليها.. وبدأ

---

١) ابن هشام ٩٣/٢

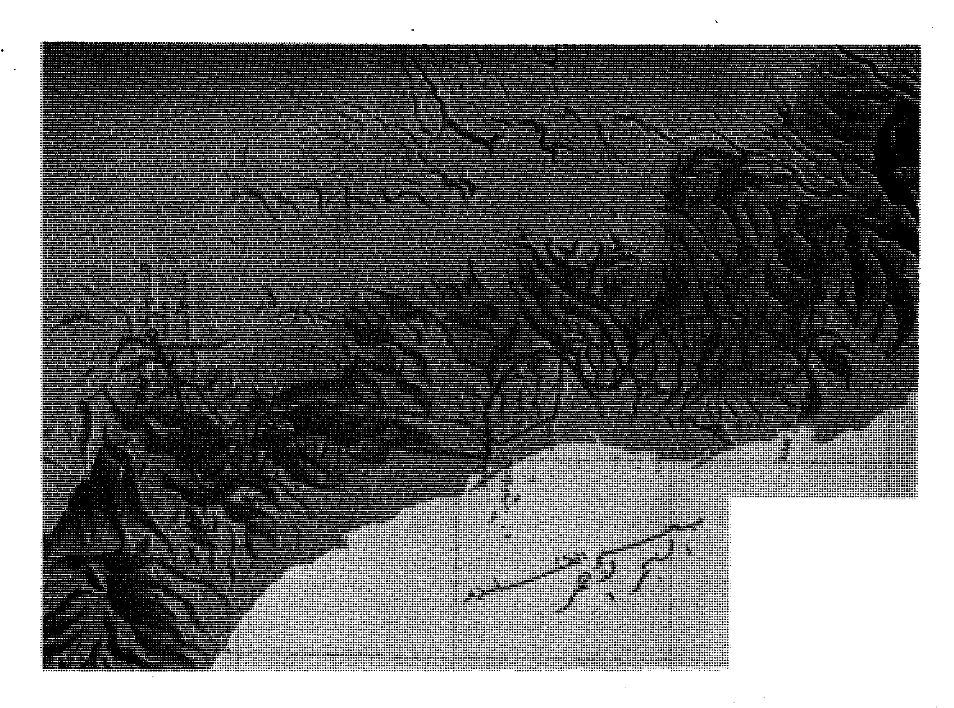
المسلمون ينسلون إليها أفرادا أو جماعات، وكان أول من وصل منهم أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد.. وقصة هجرته صورة صارخة لما وصل إليه طغيان المشركين وتسلطهم على المسلمين الضعفاء(١)، فقد شتتوا أسرته؛ أخذ حموه منه زوجته، وأخذ قومه طفله، فخرج مهاجراً وحده.. ثم تتابع المهاجرون بعده، وكان إخوانهم في المدينة يستقبلونهم وينزلونهم في ضيافتهم، وكان بنو عمرو بن عوف (من الخزرج) الذين يسكنون في قباء - مدخل المدينة من طريق مكة آنئذ - يحظون بالنصيب الأوفر من المهاجرين، وكان سعد بن خيثمة أحد بني عمرو بن عوف عزباً فخصص منزله لاستقبال العزاب والذين لم يصطحبوا عائلاتهم، كما كان منزله بمثابة المجلس العام للمهاجرين والأنصار.. وخلال فترة شهرين وفد إلى المدينة أكثر من أربعين أسرة من مسلمي مكة، منهم عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله وحمزة بن عبد المطلب. ولم يبق في مكة إلا أبو بكر وعلي والمستضعفون، وتوزع معظمهم بين بيوت الخزرج في قباء والعوالي ووسط المدينة عند بطحان، وبعضهم عند بيوت الأوس كبني عبد الأشهل وبني ظفر.

وطلع البدر على يثرب:

في أواخر شهر صفر خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة يصحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ودليل لهما، بعد أن أجمعت قريش على الفتك به.. وقد حماه الله منهم ومن عيونهم، وفشلت مطارداتهم لهما ، ووصل ركب رسول

---

١) الرواية في ابن هشام ٢/ ١١٠، والطبري ٢/٣٦٩ وانظر قصة عياش وهشام أيضا في ابن هشام ٢/١١٤



١ ـ مصور طريق الهجرة من مكة إلى المدينة.



٢ ـ طريق الهجرة داخل المدينة.

المصدر: أطلس تاريخ الإسلام

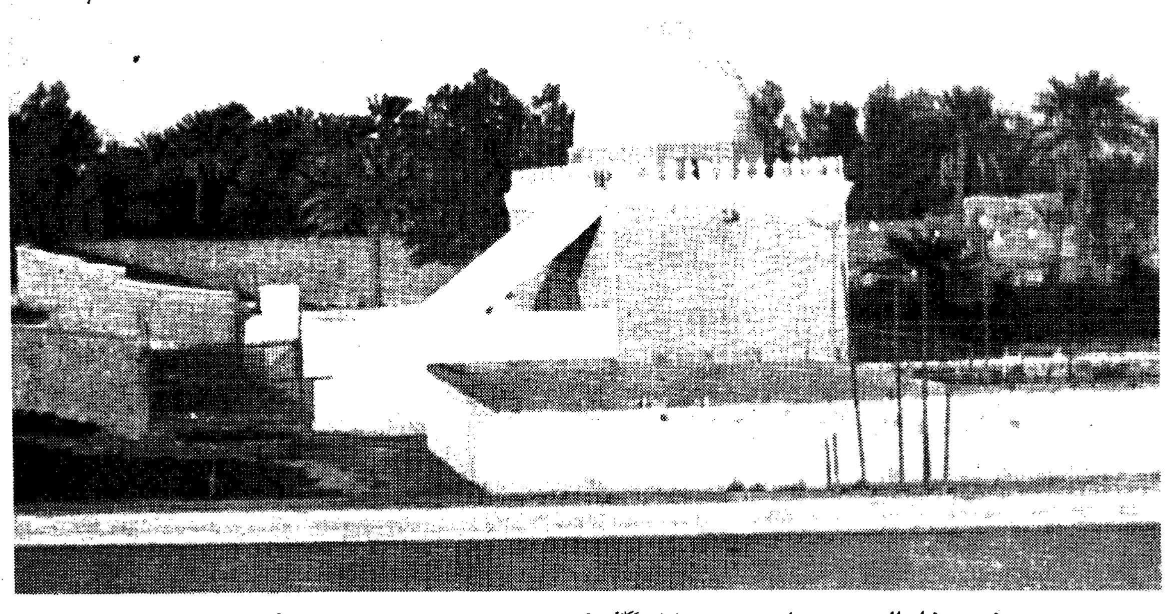
الله ﷺ إلى قباء في الثاني عشر من ربيع الأول(١)، وكان بعض المسلمين يخرج إلى ظاهر المدينة يترقبون الركب، ويمكثون حتى تغلبهم الشمس فيرجعون، وقد وصل ﷺ وأبو بكر بعد أن اشتدت الظهيرة وعاد المترقبون إلى بيوتهم.. فرآه رجل من اليهود وصرخ بأعلى صوته.. يابني قيلة هذا جدكم قد جاء.. فهرع المسلمون إلى لقائه ﷺ وأنزله كلثوم بن هِدم في داره بطرف قباء، وتوافد إليه المسلمون من أهل يثرب ومن المهاجرين.. وخرج إليهم ﷺ، واجتمع بهم في بيت سعد بن خيثمة، وتوافد إليه المسلمون من المهاجرين والأنصار، وغير المسلمين.

وجاء نفر من اليهود ليتعرفوا على شخصه ﷺ ويوازنوا بين ما يرونه وماهو عندهم.. وفي حديث أم المؤمنين صفية رضي الله عنها أن حيي بن أخطب وأخاه أباياسر جاءا مع الوافدين، ونظرا إلى رسول الله ﷺ طويلا وعادا إلى بيوتهما(فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا) وكان رسول الله ﷺ يلتقي بالناس في دار سعد بن خيثمة - مجمع العزاب - وقد مكث في قباء من ظهر الاثنين ١٢ ربيع الأول إلى صباح الجمعة ١٦ ربيع الأول، وكانت قباء ضاحية منفصلة عن المدينة أشبه بقرية مستقلة، وخلال إقامته فيها أسس المسجد الذي ما زال حتى الآن يعرف بمسجد قباء.

وفي صباح يوم الجمعة خرج رسول الله ﷺ ومعه طائفة من المسلمين متوجها إلى قلب يثرب ، وغير بعيد عن قباء، حل وقت صلاة الجمعة، فنزل رسول الله ﷺ في دار بني سالم بن عوف في بطن وادي رانوناء ومعه من حضر من المسلمين وأسس في ذلك الموقع مسجداً سمي فيما بعد مسجد

---

١) ابن هشام ١٣٣/١



في هذا الموقع صلى رسول الله ﷺ أول جمعة في الإسلام وقد أقيم فيه مسجد في عهد عمر بن عبد العزيز، وجُدد عدة مرات، وهذا المبنى هو التجديد قبل الأخير

مسجد الجمعة في توسعته الجديدة التي قامت بها وزارة الأوقاف السعودية

الجمعة (١)، وحاول عدد من بني سالم بن عوف أن يستضيفوا رسول الله، وأمسكوا خطام بعيره وقالوا له: يارسول الله: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. وسارت الناقة غير بعيد، فمرت بحي بني ساعدة، فخرج سعد بن عبادة أملا في أن يحظى بضيافته ﷺ، ولكنه لقي الجواب نفسه: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. وطوال مسير الناقة من قباء إلى قلب يثرب كان سكان تلك المناطق يتسابقون لأخذ خطام الناقة طمعا في نزوله ﷺ عندهم. وكانوا يلقون الجواب نفسه: خلّوا سبيلها فإنها مأمورة. حتى إذا وصلت الناقة إلى فسحة من الأرض (مربد) قرب وادي بطحان بركت (وهي منطقة لبني مالك من آل النجار من الخزرج) وحولها المسلمون ينظرون أين سيحل رسول الله ﷺ، ومن ذا الذي سيحظى بضيافته؟. وما لبثت الناقة أن قامت وسارت غير بعيد ثم رجعت إلى مبركها الأول وبركت فيه. فنزل عنها رسول الله ﷺ. وسارع أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فحطّ الرحل عن الناقة وأخذه إلى بيته، وكان بيته قريبا، وتسابق سكان المنطقة إلى طلب الاستضافة فقال لهم رسول الله ﷺ: المرء مع رحله.. وذهب مع أبي أيوب الى منزله... بينما ذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى منزل رجل(٢) في منطقة السُنْح.

تأسيس المسجد النبوي:

كان الموقع الذي بركت فيه الناقة أرضاً خالية، فيها بقايا نخل وقبور قديمة، يجفف فيها التمر بعد جنيه، ورغب رسول الله أن يقيم فيها المسجد، فسأل عن أصحابها، فأُخبر أنها لغلامين يتيمين من بني النجار يربيهما معاذ

---

١) ولا يزال قائماً مكانه حتى اليوم ومعروفاً بهذا الاسم

٢) وهو الصحابي الجليل خارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه. وقد أصهر أبو بكر إليه فيما بعد فتزوج ابنته جبيبه رضي الله عنهم أجمعين. والسنح منطقة بين قربان والعوالي على بعد ميل من المسجد النبوي تقريباً

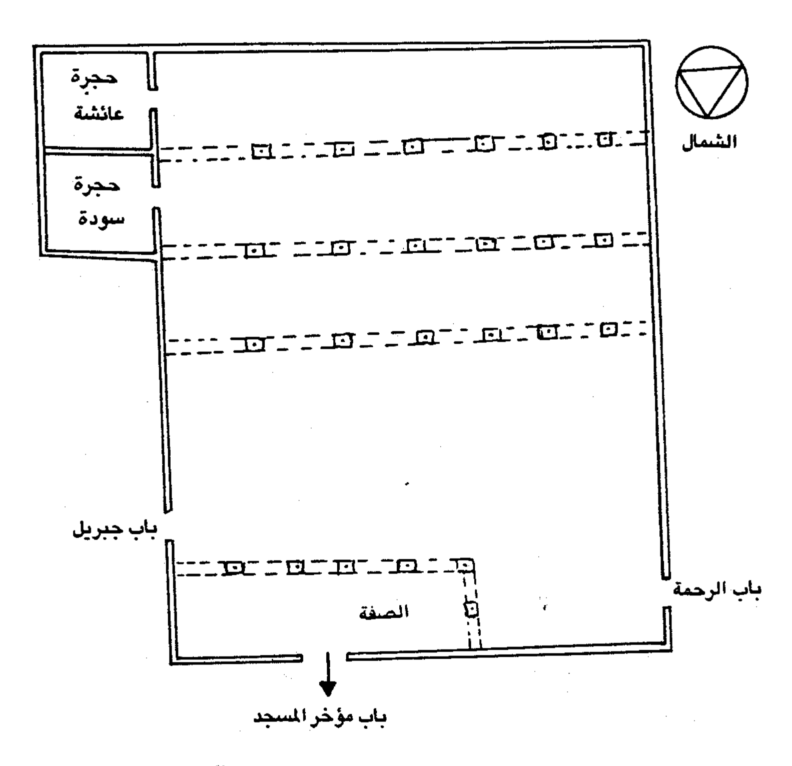
ابن عفراء الخزرجي، وسارع معاذ إلى التبرع بها، ولكن رسول الله ﷺ أبى إلا أن تشترى من الغلامين شراءً.. فكان ذلك..

وأمر رسول الله ﷺ بتسوية الأرض وتنظيفها.. فقطعت بقايا النخل ونبشت القبور ونقل مافيها من عظام إلى موقع آخر وسويت الأرض، فخط لهم رسول الله ﷺ فيها المسجد الذي أصبح اسمه: المسجد النبوي.. وانتدب المسلمين للعمل في بنائه، وشارك فيه بنفسه فكان ينقل الحجارة واللبن على بطنه الشريف.. ويُهرع بعض المسلمين ليحملوا عنه فيأبى ﷺ إلا العمل بنفسه، الأمر الذي أشعل الحماسة في نفوس المهاجرين والأنصار فاجتهد الجميع في إنجاز المسجد في مدة قصيرة، وقد بني من الحجارة والطين وسعف النخل، وفي وسطه السواري من شجر النخل التي قطعت، وحدد رسول الله ﷺ القبلة فيه، وكانت نحو بيت المقدس، وصلى فيه بالمسلمين قبل أن يستكمل تعريشه ووضع سقفه(١) فكان انشاء المسجد أول عمل يقوم به رسول الله ﷺ في المدينة.

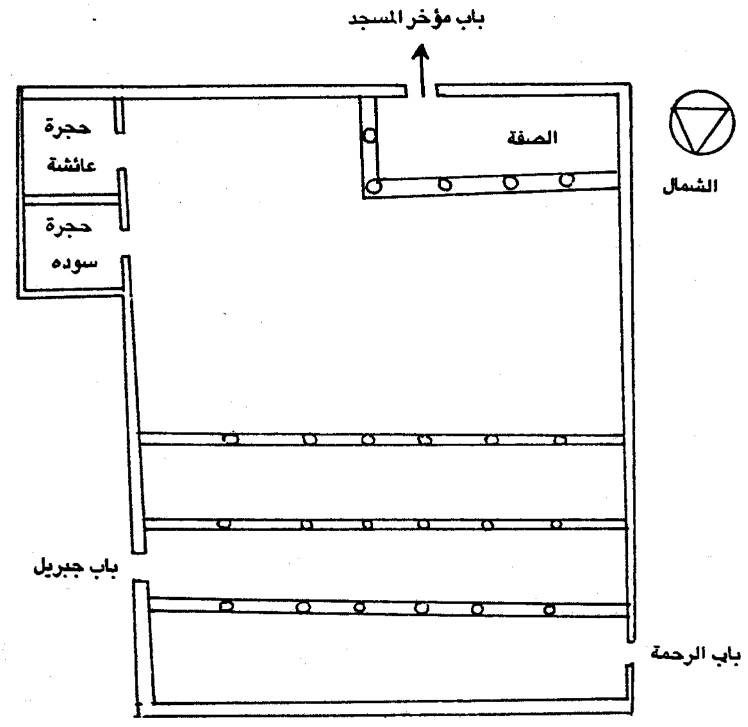
وما إن صار المسجد صالحاً للجلوس فيه حتى صار موقعَ قيادة المجتمع الإسلامي الجديد، ومركزَ الدولة الناشئة ، يجلس فيه رسول الله ﷺ ليقضي أمور المسلمين.. ويصلي فيهم الأوقات الخمس.. ويسكن في حجرة ملاصقة لجداره الشرقي بنيت بعد الفراغ من بناء المسجد، وسرعان ما صار المسجد مركز المدينة المنورة، يقصده المسلمون للصلاة فيه خلف رسول الله ﷺ، وليتفقهوا في دينهم ويسمعوا من رسولهم عليه الصلاة والسلام، وليعرضوا عليه أمور دنياهم، فيقضي فيها بما يلهمه الله.. فكان هذا المسجد نواة المجتمع الجديد، وكانت له وظائف عقدية واجتماعية وسياسية وثقافية كبيرة.. فهو المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الصحابة رضوان الله عليهم من معلم الأمة ﷺ شؤون دينهم، وهو المجلس الذي يدير منه رسول الله ﷺ

---

١) أنظر المصور المرفق



● المسجد في عهد الرسول بعد تحويل القبلة إلى الكعبة عام (٢) هـ



مخطط المسجد النبوي في بنائه الأول. ويلاحظ أن القبلة كانت في الجهة الشمالية إلى بيت المقدس

المصدر: المسجد النبوي عبر العصور د. محمد السيد الوكيل

شؤون المجتمع الجديد.. يقصده الناس المسلم والغير المسلم.. فيسمعهم ويقضي في أمورهم، فهو مقر رئيس ذلك المجتمع الجديد والدولة الجديدة..

التغييرات الكبرى في يثـرب:

منذ قدومه ﷺ بدأت سلسلة من التغييرات في يثرب وفي حياة سكانها.. فمن هذه التغييرات إلغاء الاسم القديم للمدينة (يثرب) وإطلاق تسميات جديدة هي: طيبة وطابة.. والمدينة، ولا شك أن تغيير الاسم يحمل دلالات كثيرة.. فهو انقطاع كامل عن المرحلة السابقة، وبداية لمرحلة جديدة مغايرة تماما.. ولعل أهم تغيير شهدته المدينة باسمها الجديد هو تغيير القيم والمفهومات، والبناء الجديد لشخصية الفرد ولشخصية المجتمع، فمنذ أن يدخل الفرد في الإسلام تتغير قيمه وعلاقاته وعواطفه بتغير ولائه، ويتحول من الولاء للقبيلة والأنصياع لرئيسهاإلى الولاء لله ورسوله والانصياع لتوجيه رسوله ﷺ.. وتتغير علاقاته، فيصبح الإسلام الحكم الفيصل فيها.. وربما يتحول الصديق إلى عدو والعدو إلى صديق في العلاقات الجديدة.. فكان الفرد يتحول عن أسرته وعن أصدقائه القدماء.. وقد يعاديهم إن كانوا مصرين على الجاهلية.. ويحاربهم إن وجد أنهم يحاربون الإسلام.. والشواهد على ذلك كثيرة(١).

بدأ الرسول ﷺ هذه التغييرات في المواقف والعلاقات بعملية عظيمة كان لها أثر كبير في المجتمع الجديد، هي عملية المؤاخاة بين المهاجرين

---

١) منهاأمر محيصة وحويصة، وهماأخوان أسلم الأول وظل الثاني على شركه. فلما أمر الرسول ﷺ بقتل بني قريظة، وثب محيصة على يهودي كان صديقا لهم في الجاهلية يدعى شنينة فقتله، فاستنكر حويصة ذلك، وعنف أخاه، فرد عليه محيصة قائلا: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك، فقال حويصة: أوالله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتني. قال محيصة نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها، فجعل حويصة يتعجب من ذلك ويقول: والله ان دينا بلغ بك هذا لعجيب. ومالبث أن أسلم... ابن هشام. السيرة ١٩/٣

والأنصار، أي تأسيس روابط جديدة لاتقوم على القرابة، ولا تقوم على الانتماء إلى قبيلة ولا على الأعراف الجاهلية القديمة.. بما فيها من كرم ضيافة ومعونة للضيف وجوار وحماية للمقهور.. أراد رسول الله ﷺ بالمؤاخاة أن يتجاوز كل المفهومات الجاهلية، ويجعل العلاقة الجديدة بين القادمين من مكة وأهل المدينة علاقة أخوة تفوق الأخوة الأسرية.. فقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار: تآخوا في الله أخوين أخوين ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي، ثم آخى بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد بن أبي زهير (من الخزرج)، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك (من الخزرج) وبين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل.. ((كان جعفر مهاجراً في الحبشة)) وبلغ عدد المتآخين خمسا وأربعين أو خمسين من كل طرف، وقد أوجدت هذه المؤاخاة نوعا جديداً و عجيباً من العلاقة الحميمة بين المسلمين لم يعهده العرب من قبل.. فقد روى البخاري أن سعد بن الربيع الذي آخاه الرسول ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف قال لعبد الرحمن: انظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها... وقد قابل المهاجرون هذا الكرم النادر والإيثار الكبير بالتعفف والإكبار، فقال عبد الرحمن بن عوف لسعد: بارك الله لك في أهلك ومالك.. ولكن دلني على السوق -ولم يأخذ منه شيئا- وذهب إلى السوق فتاجر(١).

ولم تكن المؤاخاة إعلانا للصداقة الحميمة بين شخصين وحسب - بل كانت إعلاناً عن علاقات عميقة جديدة، تقوم على التكافل بين الطرفين حتى ليرث أحدهما الآخر.. فقد تقرر في تلك المؤاخاة أن الأخ يرث أخاه الجديد، ويورثه، فيصبح بذلك مقدما على أهله في الدم والنسب.. وقد ظل هذا الحكم سائداً إلى مابعد غزوة بدر، حيث نسخ بأيات المواريث ((وأولوالأرحام

---

١) أنظر صحيح البخاري. باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار

بعضهم أولى ببعض في كتاب الله))(١).. لذا، وفي ظل العلاقات الجديدة، بدأ تشكّل المجتمع الجديد في المدينة.. مجتمع يقوم على الأخوة في الإسلام، والتسليم الكامل لله ورسوله ﷺ. وطبيعي في ظل هذا المجتمع أن تغيب الإحن القديمة ، وتنتهي حزازات الأوس والخزرج وعداوتهما الطويلة.. وقد حاول بعض اليهود والمنافقين إحياءها واذكاءها فيما بعد، ولكن رسول الله ﷺ سارع إلى إطفائها وإعادة الوئام إلى المجتمع الجديد في تكوينه الإسلامي وقيمه المتميزة..

اهتم الرسول ﷺ خلال الأشهر الأولى من استقراره في المدينة بالبناء العقدي للمجتمع الجديد.. فكانت له مجالس يومية مع المسلمين في المسجد يحدثهم ويعلمهم ويقوي الإيمان فيهم ويستقبل أعداداً جديدة من سكان المدينة الذين لم يسلموا بعد فيسمعون منه وينطقون الشهادة بين يديه، فيكثر عدد المسلمين ويقل عدد المشركين.. بينما ينزوي اليهود في أحيائهم وحصونهم، ينظرون إلى الوافدين الجدد وإلى دينهم نظرة حقد وغيظ شديدين، لذا لم يسلم منهم أول الأمر إلا واحد من أحبارهم هو عبد الله بن سلام وأهل بيته وقد كشف عبد الله بن سلام لرسول الله ﷺ مدى الغيظ والحقد في نفوس اليهود أنئذ فقال له: يارسول الله: إن يهود قوم بهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم.. ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي. فإنه إن علموا فيه بهتوا في وعابوني. فأدخله الرسول ﷺ في بعض بيوته وجاء اليهود فدخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام منكم؟ (وكان اسمه الحصين قبل إسلامه). قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا فخرج عليهم ابن سلام وقال لهم: اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه

---

١) الأنفال/٧٥

رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا كذبت.. وأفحشوا القول فيه، فقال ابن سلام ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور (١) وأخذ اليهود في التشكيك برسالة رسول الله ﷺ وكان بعض أحبارهم كأبي ياسر بن أخطب يكثرون عليه الأسئلة ليمتحنوه، ويخالفوه رغم ما يسمعونه من إجاباته.

وإضافة إلى رابطة الأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار عززّ رابطة السكان بالمدينة، فدعا الله أن يملأ القلوب بحبها ((اللهم حببّ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حباً، وصححها لنا، وبارك لنا في مُدها وصاعها)) وكان دعاؤه ﷺ للمدينة بأن تفيض عليها بركات الله، فتتميز بخصائص تنفرد بها من بين المدن، وتبقى لها إلى يوم الدين (اللهم إن إبراهيم نبيك وخليلك دعاك لأهل مكة، وأنا نبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة، اللهم بارك لهم في مُدهم، وصاعهم، وقليلهم، وكثيرهم ضعفي ما باركت لأهل مكة، اللهم من هاهنا وها هنا وها هنا وأشار إلى نواحي الأرض كلها (اللهم من أرادهم بسوء فأذبه كما يذاب الملح في الماء)(٢) واكتسبت المدينة بتشريع من رسول الله ﷺ حرمة خاصة، ولم يكن في جزيرة العرب غير مكة مدينة لها حرمة وحرم.. فقد حرم رسول الله ﷺ المدينة بريدا في بريد، وحرم الصيد وقطع الشجر - إلا ماتدعو الحاجة إليه - في حرمها ففي رواية لابن زبالة أن رسول الله ﷺ حرم الطير والوحش من حرة واقم إلى حرة العقيق، وحرم الشجر بريدا في بريد،(٣) ووجه إلى

---

١) ابن هشام ١٥٩/٢

٢) انظر ملحق الأحاديث النبويه عن المدينة في آخر هذا الكتاب

٣) أنظر وفاء الوفاء ٩٧/١، ١٠٢، ١٠٥، ١١٠

المحافظة على آطامها لكونها زينة المدينة(١) كل هذا حوّل المدينة من بلدة صغيرة عادية إلى مدينة لها قيمة دينية وعاطفية خاصة.. ستزداد مع تمكن الإسلام وانتشاره إلى أن تصبح عاصمة الدولة الإسلامية الأولى وقطب الرحى في المجتمع الواسع الجديد العهد.



قبائل المدينة ومواقعها في العهد النبوي
المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

---

١) السابق ١/١١٠

وثيقة المدينة:

أمر رسول الله ﷺ بكتابة معاهدة تبين العلاقات الداخلية والخارجية في المدينة، علاقات المسلمين بعضهم ببعض، وعلاقاتهم مع مساكنيهم من اليهود والمشركين.. وعلاقات أهل المدينة عامة، المسلمين واليهود والمشركين، مع من سواهم من خارج المدينة.. ولم يشر رواة الحديث إلى الكيفية التي تم فيها إعداد هذه الوثيقة، وما سبقها من لقاءات ومن حضر كتابتها، مع أنها ترتب حقوقا وواجبات على كل من المسلمين واليهود وغيرهم من أهل المدينة، ومع أن نسخة منها أو أكثر كانت موجودة مع اليهود، فقد ذكرت الروايات أن بني قريظة عندما نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق واتفقوا مع الأحزاب مزقوا الوثيقة.. وما دام لدى القرظيين نسخة فلا نستبعد أن يكون مثلها لدى القبائل اليهودية الكبيرة أيضا..

ولعل أهم ماورد في العهد هو ذلك الإعلان الصريح (أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس) وهذا الإعلان مستنبط من الآية الكريمة: «كنتم خير أمة أخرجت للناس..» ولم يكن للمسلمين أنئذ أرض تضم تلك الأمة سوى أرض المدينة، وفيما يلي نص العهد كما أورده ابن هشام:(١):

بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم، بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين: وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي

---

١) السيرة النبوية لابن هشام ١٤٣/٢

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنوالنجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لايتركون مفرحاً (أي محتاجا) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لايحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم (أي الظلم العظيم) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة، لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اِعْتَبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قَودٌ به إلا أن يرضىَ ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولايحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخرأن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولايؤخذ منه صرف ولاعدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين

ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتع (يظلم) إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف، وان ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ماليهود بني عوف، وإن البر دون الاثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لاينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهلِ بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن (يثرب) حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى مافي هذه الصحيفة وأبره، وإنه لاتُجار قريش ولا مَنْ نَصَرَها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح، يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دَعَوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلَهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل مالأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة)

وكما نرى نتبين في الوثيقة عدة محاور أساسية.

المحور الأول: إعلان وحدة المسلمين وتميزهم عمن سواهم وإيجاد روابط جديدة من أبناء الدين الواحد تعلو على الروابط القبلية والعائلية.

المحور الثاني: تعزيز التعاون والترابط والتكافل بين المسلمين ولا سيما في الديات والنفقات.

المحور الثالث: بيان حقوق اليهود الساكنين في المدينة وواجباتهم. فلهم حق النصرة والحماية، وعليهم واجب المشاركة في الحماية والدفاع عن المدينة.

المحور الرابع: منع التعاون مع أعداء المسلمين (وبالذات قريش المشركة).

المحور الخامس: حماية دم المسلم وترتيب القصاص على من يهدره.

المحور السادس: إقرار قواعد أمنية في المدينة بمنع حماية المحدثين وأصحاب الفتن وأيوائهم والتستر عليهم.. وإقرار الأمن للساكنين في المدينة جميعاً مالم يرتكب أحدهم ظلماً أو إثماً.

ولا شك أن هذه المعاهدة قد أعطت اليهود شعوراً بالأمان أيضا طمأنهم إلى أن الذين اتبعوا رسول الله ﷺ لن يفعلوا بهم مثل ما كان اليهود يتوعدون الأوس والخزرج أن يفعلوه بهم إذا ظهر النبي بينهم.. فاستمر اليهود في أعمالهم وبدؤوا يقوون صِلاتهم مع أحلافهم الذين لم يسلموا بعد في المدينة كما بدؤوا حملة تشكيك برسالة الرسول ﷺ إذ كانوا يسألونه عن بعض القضايا الغيبية ويحاولون أن يلبسوا عليه شيئا من المتشابهات وكان حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر وعدد من الأحبار من قادة هذه الحملة وكان رسول الله ﷺ يحلم عليهم ويعاملهم بالحسنى ويدعوهم إلى الإسلام..

ومرت أشهر السنة الأولى والمسلمون يشغلون بالتربية الروحية التي تصقل نفوسهم وتعمق قيم الإيمان فيهم وتعدهم للأعمال الجليلة القادمة.. وكانت مجالس رسول الله وما يتلى فيها من قرآن كريم وما يحدث به الرسول ﷺ مادة تلك التربية ووسيلتها الكبرى.. وكذلك زياراته لبعض البيوت

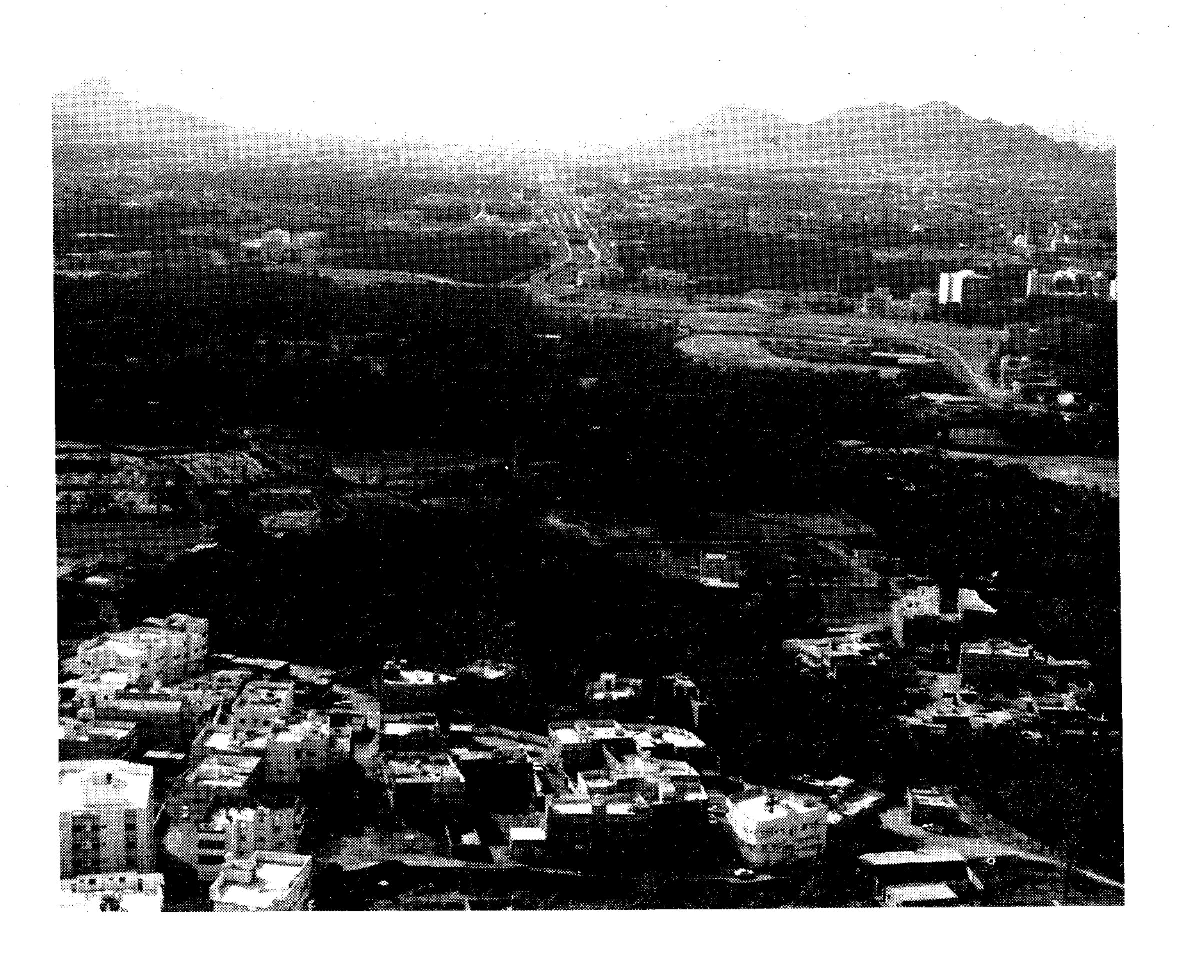
والبساتين التي يجلس فيها الأنصار.. ثم خطبه في الجمع والمناسبات الطارئة.. وكان المسلمون يتناقلون أخبار تلك المجالس وأحداثها ويقبلون على الآيات الكريمة يحفظونها.. وينقلون ذلك كله إلى بيوتهم ومجالسهم فيما بينهم فيزداد الذين آمنوا إيمانا وتتألق شيئا فشيئا الشخصية الإسلامية سلوكها وعلاقاتها، غير أن وجود اليهود ومحاولاتهم الدائمة في التشكيك بالرسالة والرسول ﷺ ووجود عدد من المشركين.. أدى إلى ظهور طبقة أخرى في المجتمع المدني.. طبقة مريضة النفس لا تقوى على المجاهرة بموقفها من الدين الجديد، فأظهرت إليه الولاء، وأضمرت العداوة والخصومة.. هذه الطبقة هي طبقة المنافقين.. التي بدأت تتشكل مع ارتفاع شأن المسلمين، وكان على رأسها عبد الله بن أبي بن سلول الذي أوشك أن يتوجه أهل يثرب زعيما عليهم بعد موقعة بعاث(١)، ولكن هذه الطبقة لم يشتد أمرها إلا فيما بعد، وعاشت المدينة العام الأول بعد الهجرة حياة جديدة، ظهرت فيهاالقيم الجديدة. وأحدثت تغييرات كبيرة في بنية المجتمع المدني، على نحو ما سنراه في صفحات قادمة.

والجدير بالذكر أن المدينة لم تتعرض لأي خطر داخلي أو خارجي خلال السنة الأولى للهجرة، فكأنما قنعت قريش بخروج معظم المسلمين من مكة، واحتباس ضعفائهم مصفدين في البيوت، أو غير قادرين على الهجرة فلم تفكر بالهجوم على المسلمين في المدينة، وعادت لتجارتها وحياتها اليومية،

---

١) لم يشارك عبد الله بن أبي بن سلول في موقعة بعاث كما أسلفنا في الفصل السابق، وعندما فكر بعض العقلاء في إنهاء العداوة بين الأوس والخزرج وإقرار الأمن توجهوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول وعقدوا العزم على أن يولوه الرئاسة. ولكن انتشار الإسلام بين أهل المدينة وهجرة المسلمين من مكة إليها وتسليم زمام الأمور إلى رسول الله ﷺ حال دون ذلك.. لذا حنق ابن أبي سلول على الدعوة فأظهر الايمان وأبطن العداوة، وكانت له مواقف واضحة النفاق

وظنت أن قضية المسلمين قد هدأت بتقوقعهم في المدينة بعيداً عنهم، ولم يَدُر ببالها أن القدر يخبىء لها من الأحداث شيئاً كثيرا.



المدينة مركز نشاط عسكري:

في صفر من العام الثاني للهجرة، شهدت المدينة نشاطا عسكرياً جديداً، فقد قرر رسول الله ﷺ أن يتصدى لقريش ويعاقبها على مافعلته بالمسلمين في مكة، ويُظهر هيبة المجتمع الإسلامي الجديد، فوجه السرايا لقطع الطريق على تجارة قريش، العصب الرئيسي لحياتها(١)، وخرج بنفسه على رأس مجموعة من المهاجرين، واتجه غربا إلى المناطق التي تسكنها قبائل بني بكر حليفة قريش وحامية قوافلها في تلك المنطقة، ووصل إلى الأبواء على بعد (٤٠كم) من المدينة، فلم يجد قافلة لقريش ولا بعثاً من بعوثها. وخاف سكان المنطقة (بنو حمرة من بكر) ووادعوا رسول الله ﷺ وتعهدوا بعدم نصرة قريش على المسلمين، وخلال الغزوة أرسل رسول الله ﷺ سريتين تجوبان المنطقة، الأولى بقيادة عبيدةَ بن الحارث واتجهت جنوبا حتى وصلت منطقة تسمى ثنية المرة، فوجدت جمعا من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وحدث تراشق بالسهام ، وكادت تقع معركة بين الطرفين، ولكن بعض الأحلاف حجزوا بينهما، والسرية الثانية بقيادة حمزة بن عبد المطلب. سارت غربا إلى شاطئ البحر فلم تلق جيشا ولا قافلة لقريش، وعادت السريتان إلى المدينة.

وهكذا... ولأول مرة تتحول المدينة إلى مركز حركة عسكرية تتجه خارج حدودها، وتظهر قوة المجتمع الإسلامي الجديد، وتهدد تجارة قريش.

وتلتها بعد شهر غزوتان أخريان (غزوة بواط التي وصلت رضوى شمالي مكة بمئة وخمسين كيلو متر تقريبا، وغزوة العشيرة قرب ينبع حوالي (٨١ كم) جنوب غرب المدينة) ولم يحدث في هاتين الغزوتين قتال، فقد عمدت قبيلة مدلج (من بني بكر) التي تسكن حوالي ينبع، إلى موادعة المسلمين، وقد أفادت هذه الموادعة المسلمين كثيراً لأنها جردت قريش من نصرة حلفائها

---

١) كانت قريش قد سلبت أموال عدد من المهاجرين كصهيب الرومي وعبد الله بن جحش فأراد رسول الله ﷺ أن يعاقبها بفرض نوع من الحصار الإقتصادي عليها

القريبين من المدينة، والذين كان في قدرتهم الإغارة عليها أو تهديدها.

وحدثت بعد ذلك حادثة أكدت هذه القضية، فقد أغار كُرْز بن جابر الفهري على أطراف المدينة حيث تسرح المواشي، ونهب بعض الإبل وفر بها غربا، فتبعه المسلمون إلى قرب منطقة بدر ولم يدركوه، وهذا يعني أن المدينة التي لم يكن لها سور يحميها من الغارات المفاجئة يمكن أن تتعرض لهجوم من حلفاء قريش القريبين منها في أي وقت، إذا لم يكن بينها وبين القبائل المجاورة عهد أو موادعة.

وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة أرسل رسول الله ﷺ سرية بقيادة عبد الله بن جحش إلى جنوب مكة حيث طريق القوافل بين مكة واليمن، وذلك لرصد قريش واستطلاع أخبارها، ولم يأمرها بقتال. ولكن السرية وجدت قافلة لقريش فتعرضت لها وقتلت قائدها وأسرت اثنين من رجالها، وعادت بالقافلة والأسيرين إلى المدينة.

ونظراً لأن هذه الحادثة وقعت في شهر حرام (رجب) فقد أثار المشركون ضجة كبيرة، واتهموا المسلمين بانتهاك الأشهر الحرم.. وهذا عمل تستفظعه القبائل العربية، لذلك كان له وقع خطير في الحواضر والبوادي، فهو خرق لعرف عامّ ساد الجزيرة العربية مدة طويلة قبل الإسلام، ولما رجعت السرية إلى المدينة لم يستلم رسول الله ﷺ الغنائم منها، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وانتشرت دعاية قريش أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال(١) وما لبث أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ يُبين سلامة موقف المسلمين إزاء قريش، التي لم تراع حرمة المسجد الحرام وأخرجت المسلمين منه، فهذا خرق أكبر من خرق حرمة الأشهر الحرم، يلغي حصانة قريش فيها قال تعالى: (يسألونكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه. قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصَدٌ عَنْ سبيلِ اللهِ وكفرٌ به

---

١) د. أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة ص ٢٩.

والمسجدِ الحرامِ، وإخراجُ أهلِهِ منه أكبرُ عند الله، والفتنةُ أكبرُ من القتل))(١)
عندئذ فُرج عن المسلمين، وقَبِل رسول الله ﷺ الغنائمَ، وكانت أولَ غنائم تدخل المدينة المنورة..

كانت الموقعة انعطافاً واسعاً في حياة المدينة، فهي أول حركة تخرج منها قوة عسكرية من المدينة لتقوم بأعمال حربية بعيدة عنها.. كانت المدينة في حالة دفاع دائماً.. ولم يكن لها جيش قط.. ولم تكن في حالة هجوم قط.

ومما يلفت النظر أن الرسول ﷺ، جند في تلك السرايا المهاجرين فقط ولم يشرك فيها أحداً من الأنصار، وهذه حنكة كبيرة من رسول الله ﷺ: أن يواجه قريشا بأبنائها، ويشعرها بأن القضية عقوبة لقريش التي ظلمت هؤلاء المهاجرين، ولكي لاينشئ عداوةً مبكرة بين القرشيين وأهل المدينة، فلم تكن المدينة مهيئة بعدُ لقتال واسع النطاق مع قريش وأحلافها الكثيرين.. لذا فاقتصار السرايا على المهاجرين يجعل قريشاً لاتفكر في غزوة شاملة تضرب فيها المدينة وأهلها بعامة.. على نحو ما فعلته بعد ذلك في الغزوات التالية: بدر وأحد والخندق..

المسلمون في المدينة يهددون قريشاً:

لم توقف قريش قوافلها الذاهبة إلى الشام واليمن، واكتفت بتشديد الحراسة عليها واتخاذ أقصى تدابير الحيطة والحذر، ببث العيون والرصد في الطريق، وتسقط أخبار المسلمين في المدينة، بينما كان رسول الله ﷺ في المدينة يترصد أخبار قريش، وينتظر الفرصة المواتية لمعاقبتها عقوبة موجعة.

وجاءه أحد الراصدين بخبر قافلة عظيمة لقريش قادمة من الشام، يقودها أبو سفيان. عندئذ انتدب الرسول ﷺ المسلمين من المهاجرين والأنصار، وخرج مستعجلا بمن كان مستعداً للخروج، ولم ينتظر من لم يتهيأ بعد..

---

١) البقرة ٢١٧ -.

وكان معه (٣١٤) رجلا (على أرجح الأقوال)(١) منهم مئة من المهاجرين والبقية من الأنصار، ومعهم سبعون بعيراً يتعاقبون على ركوبها وفَرَسَان فقط.

وعلم أبو سفيان بخروج المسلمين لأخذ القافلة، فغيرّ طريقه واتجه إلى الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى أهل مكة يستنفرهم للدفاع عن القافلة، وكان وقع الخبر شديداً على قريش، فقد رأت في تعرض المسلمين لقافلتها امتهاناً لكرامتها، وتحدياً لهيبتها بين القبائل، وتهديداً خطيراً لموردها الاقتصادي الرئيسي، فخرج جميع فرسانها المشهورين وجميع رجالها القادرين على القتال لمواجهة المسلمين، ويُقدر عددهم بألف رجل(٢) على أصح الأقوال.

استطاع أبوسفيان أن يتجنب مواجهة المسلمين، ونجا بقافلته ووصل بها مكة، وأرسل إلى قريش رسولاً آخر يعلمها بنجاة القافلة، فلما جاء الخبر رأى بعض القرشيين أنه لاحاجة للخروج، فتوقف بنو عدي (قبيلة عمر بن الخطاب) وبنو زهرة(٣)، بينما أصر زعماء القرشيين على مواجهة المسلمين، واقنعوا بقية المشاركين في الحملة بالاستمرار.

الوقعــة الكبرى:

عندما سمع المسلمون بمسيرة أهل مكة جمع رسول الله ﷺ الصحابة واستشارهم فيما يفعلونه.. هل يرجعون إلى المدينة أم يواجهون جيش قريش، لأن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا أصلا لمحاربة قريش.. بل خرجوا لاعتراض قافلة فيها عدد محدود من الحراس.. ولم يأخذوا أهبتهم لمعركة كبرى، ثم إن الأنصار قد بايعوا رسول الله ﷺ على منعه إذا هدده خطر أو هجوم في المدينة.. ولم يكن في البيعة مايشير الى الخروج لقتال الآخرين

---

١) المجتمع المدني ص٤٠

٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٨٤/١٢

٣) المجتمع المدني ص ٢٠

بعيدا عن المدينة.. لذا آثر رسول الله ﷺ أن يعرف رأيهم.. وحدث موقف من المواقف الإيمانية العظيمة تجلت فيه أثار التربية الروحية خلال المدة الماضية، سواء في المهاجرين أو في الأنصار.. فقد وقف رسول الله ﷺ يسأل المسلمين: أشيروا علي أيها الناس.. فقام أبو بكر، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود، وهؤلاء الثلاثة من المهاجرين، فقال: يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك.. والله لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى ((إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)) ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، فقال له سعد بن معاذ: والله إنك تريدنا يارسول الله. قال أجل، قال: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ماتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك بنا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

سر رسول الله ﷺ بقول سعد، فقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم(١) وسار المسلمون فنزلوا عند بدر، واحتجزوا عيون الماء التي كانت في المنطقة كي لايستولي عليها القرشيون الذين اقتربوا من المنطقة، وقبضوا على بعض عبيدهم وعرفوا منهم عدد الجيش وأهم فرسانه.. وبنى المسلمون عريشاً لرسول الله ﷺ يدير منه المعركة، وسهر رسول الله ﷺ يدعو ربه أن ينجزه وعده بالنصر.. وهطل مطر خفيف أثناء الليل.. رَكَنَ خلاله المسلمون

---

١) ابن هشام ٢/٢٥٨ والبداية والنهاية ٣/٣٦٢ -.

إلى الجحور والأشجار إتقاء رذاذه.. وغشيهم النعاس فاستراحوا.. واستيقظوا على صوت رسول الله ﷺ يناديهم لصلاة الفجر.

كان ذلك اليوم هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان، ووصل المشركون إلى موقع قريب مواجه للمسلمين، وبعد الصلاة نظّم الرسول ﷺ الجيش في صفوف متوالية، وهو أسلوب جديد لم تألفه العرب من قبل، فضمن وجود مجموعات احتياطية تردف المجموعة الأولى، كما ضمن مواجهة التفوق العددي للمشركين الذين يستخدمون أسلوب الكر والفر.. ووجه إلى استخدام النبال لكسر شوكة الهجوم، وأوصى بحسن استخدامها فلا ترمى إلا حين يقترب العدو.. وعند طلوع الشمس بدأ جحفل المشركين يزحف نحو المسلمين، فأوصى الرسول ﷺ بعدم التصرف قبل صدور توجيهاته (لايقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه)، ووقف ﷺ يدعو ربه طويلا : (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض) وما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فتناوله أبو بكر ورده عليه والتزمه من ردائه وقال له: يانبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.. فأنزل الله قوله ((إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)) فخرج رسول الله ﷺ من العريش وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر(١) وقال للمسلمين: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض... وعندما اقترب المشركون من المسلمين هتفوا يطلبون المبارزة الفردية، وخرج ثلاثة من صناديدهم: عتبة بن ربيعة وابناه الوليد وشيبة، وكانت المبارزة إحدى أعراف القتال، ولها تأثير كبير على سيره فيما بعد، فخرج إليهم بعض شباب الأنصار، فرفضوا قتالهم، وطلبوا مبارزة أبناء قومهم من المهاجرين، لكسر شوكتهم والانتقام من السرايا السابقة التي

---

١) فتح الباري ٧/٢٨٧ -.

اقتصرت على المهاجرين.. فانتدب لهم رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين هم: علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث... وبدأت المبارزة فقتل علي شيبةَ وقتل حمزة عتبةَ واختلف كل من عبيدة والوليد في ضربتين فجُرح كل منهما.. أنئذ حمل علي وحمزة على الوليد فقتلاه، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين، وكان لنتيجة المبارزة أثر كبير في تقوية عزائم المسلمين، وفي تهييج غضب المشركين، فاندفع هؤلاء بعصبية نحو المسلمين.. فلقيتهم النبال.. وصرعت وجرحت عددا منهم.. ثم لقيتهم الصفوف المتراصة فكسرت هجمتهم، واشتد الجِلاد بين المسلمين والمشركين، وبدأت صرخات المصابين من المشركين توهن عزائم أصحابهم، بينما كان المسلمون يكبرون ويهللون، ويتسابقون لقتل رؤوس الكفر، وانتشر المقاتلون في ساحة واسعة، وفقد المشركون تفوقهم العددي نتيجة لهذه الضعضعة، ولصمود المسلمين، وقبل ذلك كله نتيجة لنصر الله وتأييد المسلمين بالملائكة ، ولو شاء الله لأمر ملكاً واحداً فدمر جيش المشركين.. ولكن شاءت إرادته أن تكون الأسباب البشرية حاضرة، لتكون عظة وعبرة فيما بعد.. وبدأ الوهن يسيطر على مجموعة المشركين المفككة، ثم تحول إلى غلبة واضحة للمسلمين، ورعب في قلوب المشركين، وبدأ بعضهم بالهرب، فازداد الرعب في الآخرين ودبت الفوضى فيهم وأصبح كل منهم يلتمس مهربا من مسلم يطارده.. وشعر بعضهم بأنه لن ينجو فاستسلم واستأسر.. وكان رسول الله ﷺ يشارك في القتال بنفسه، حتى ليقول علي رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ



مصور غزوة بدر

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا(١)

وسقط أئمة الكفر: أبو جهل، قتله شابان أنصاريان وأجهز عليه ابن مسعود، وأمية بن خلف، قتله بلال وجماعة من الأنصار.. وتتابع قتلى المشركين حتى بلغوا سبعين رجلاً، واستأسر منهم سبعون.. وانجلت المعركة عن هزيمة كبيرة للمشركين تاركين وراءهم غنائم كثيرة، ونصر الله المسلمين نصراً مبيناً..

توقف القتال، وأمر رسول الله ﷺ بسحب قتلى المشركين والقائهم في بعض الآبار، وجمعت الغنائم، وشُد وثاق الأسرى انتظاراً لحكم الله ورسوله فيهم، وجمعت أجساد شهداء المسلمين.. وهم أربعة عشر شهيداً، ودفنت. ومكث رسول الله ﷺ مع صحبه في بدر ثلاثة أيام، ثم خرج عائداً إلى المدينة. وفي الطريق أمر بقتل اثنين ممن كانا يشتدان في أذى المسلمين وهما عقبة بن معيط والنضر بن الحارث فقتلا. وأوفد الرسول ﷺ زيد بن حارثة بالبشرى إلى المدينة، فوصلها قبل الجيش يبشر أهلها بفتح الله على المسلمين.. وكان الخبر مدهشاً للجميع، لما سمعوه من تفاوت الجيشين في العدد، وللهيبة التي كانت لقريش في نفوس الناس.. حتى ليقول بعض الصحابة: والله لم أصدق حتى رأيت الجيش والأسرى والغنائم..

عاد الجيش المنتصر ليدخل الفرحة إلى قلوب المسلمين في المدينة، وليملأهم الشعور بأثر نصر الله لهم عزة ومنعة وتوفيقا.. بينما غَصّ اليهود ومن بقي على الشرك والمنافقون بهذه الأخبار وملأتهم الكآبة.. وكانت الغنائم وافرة، ووزع رسول الله ﷺ الأسرى على بيوت المسلمين.. وأوصى بهم خيرا، وكان فيهم زوج ابنته زينب أبو العاص بن الربيع، وعمه العباس بن عبد المطلب، وابن عمه عقيل بن أبي طالب.. وفيهم أبو عزيز بن عمير شقيق مصعب بن عمير، وقد روى أبو عزيز أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم أو

---

١) مسند أحمد ٢/٢٢٨-

عشاءهم خصوه بالخبز - وكان الخبز نادرا - حتى ماتقع في يد أحدهم إلا ناوله إياها، فيستحى فيردها، فيردها عليه(١).

وكما عوّد رسول الله ﷺ أصحابه ، فقد استشارهم فيما يفعله في أسرى بدر، فأشار بعض الصحابة - وعلى رأسهم أبو بكر - بقبول الفداء، وأشار عمر وبعض الصحابة بالقتل، فأخذ الرسول ﷺ بالرأي الأول وقبل فداء من يملك المال.. ومن على الفقراء، وجعل فداء من يعرف الكتابة أن يعلم عشرة من صبية المسلمين، ونزل الوحي بعد ذلك معاتبا الرسول ﷺ، ومقراً له على مااختاره (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض)(٢)..

آثار النصر:

وكانت أصداء بدر كبيرة وقوية، تعدت مكة والمدينة إلى سائر الحجاز، ثم أرجاء الجزيرة العربية الأخرى.. فقد أحس المؤمنون بعزة من الله استعلوا بها على المشركين واليهود.. وانخذل اليهود وظهرت أحقادهم، وجاهر بعضهم بالعداء غيظا من هذا النصر، وذلك أنهم فقدوا امتيازهم في المدينة، وسقطت توقعاتهم بظهور نبي يتبعونه ويستعلون به.. وهابت القبائل حول المدينة المسلمين، وبدأت العرب تتحدث بما أصاب قريشا من ذل وهوان.

ودعم رسول الله ﷺ انتصار بدر بحركة عسكرية أخرى تعزز هيبة المسلمين لدى القبائل.. فبعد عودته من غزوة بدر بستة أيام، بلغه أن بعض أحلاف قريش من غطفان وبني سليم بدؤوا يجمعون الجموع للتحرك ضد المسلمين، فعاجلهم بغزوة قادها بنفسه ﷺ ويبدو أن تلك القبائل بلغها الخبر قبيل وصول المسلمين.. ففروا على عجل وتركوا إبلهم عند الماء الذي كانوا ينزلون عليه (قرقرة الكدر).. فغنم المسلمون الإبل وكانت (٥٠٠) بعير، وأقاموا ثلاثة أيام في المكان، ثم عادوا إلى المدينة.

---

١) البداية والنهاية ٣/٣٠٧ -

٢) الأنفال ٦٧

غدر قرشي - يهودي:

ازداد اليهود غيظاً وحقداً على المسلمين، وظهرت فيهم بوادر الغدر وبخاصة في بني النضير وبني قينقاع.. أما بنو النضير فقد قدم زعيمهم سلام بن مشكم خدمة كبيرة لأبي سفيان بن حرب الذي حاول أن يقوم بعمل انتقامي مباغت يقلل فيه من آثار انتصار بدر. فقد خرج من مكة في أواخر ذي القعدة على رأس قوة خفيفة (مائتي فارس)، وسلك طريق نجد، أي اتجه شرقا، ثم شمالا، فوصل شرقي المدينة، واجتهد ألا يحس بمسيره أحد، ونزل بالطرف الشمالي الشرقي من المدينة، وتسلل أبو سفيان وحده إلى بني النضير، فاستضافه سيدهم سلام بن مشكم، وقدم له الطعام والشراب، وأرسل من يتجسس له على المسلمين فجاؤوه بأخبارهم.. وأمضى أبو سفيان ليلة عنده ثم خرج إلى أصحابه وتحرك بهم إلى منطقة في الحرة الشرقية تدعى العريض، ودهموا أحد بساتين النخل الجديدة فيها، ووجدوا فيه رجلين من الأنصار فقتلوهما، وأضرموا النار في البساتين وهربوا.. فلما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ خرج ببعض المسلمين في أثرهم.. فأسرع أبو سفيان ومن معه.. وألقوا كل ما معهم من زاد وحمولة ونجوا بأنفسهم، وتبعهم جيش المسلمين فلم يدركهم(١).

وعلى الرغم من شناعة مااقترفه سلام بن مشكم فان رسول الله ﷺ لم يعاقبه آنئذ، ولم يهاجم بني النضير، فقد شغله عنه ماكان يراه من تحرش قبيلة أخرى هي بني قينقاع.

المدينة تتخلص من أول قبيلة يهودية:

كان بنو قينقاع من أشد اليهود وأغناهم.. ولا شك أنها حكمة بالغة من

---

١) وسميت تلك الحادثة: غزوة السويق، لأن المشركين لما خافوا أن يدركهم المسلمون تخففوا من أحمالهم وطرحوها في الطريق، وكانت سويقا ، أي طحينا ، فغنمه المسلمون

رسول الله ﷺ كي لايجتمع عليه اليهود.. فيتحالف بنو قينقاع وبنو النضير ضده.. وقد كان بينهما شيئ من النفرة والخصومة.. لذا آثر أن يهتم بأمر بني قينقاع أولا.. فخرج إليهم وجمعهم في سوقهم ودعاهم إلى الاسلام، فردوا عليه رداً خبيثا وقالوا: لايغرنك أنك لقيت قوما لايعرفون الحرب فأصبت منهم، والله لئن جربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.. فانصرف عنهم ﷺ مغضباً.

وحدث بعد ذلك أن امرأة مسلمة من خارج المدينة جاءت إلى سوقهم وجلست إلى صائغ ليصنع لها بعض الحلي، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فتأبى، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها، فضحكوا منها، فاستصرخت المسلمين، فوثب أحدهم فقتل الصائغ، فتجمع عليه اليهود وقتلوه، وبلغ ذلك المسلمين فغضبوا غضباً شديداً، وأخبروا رسول الله ﷺ، فنزلت إليه الآية: (وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)(١) فانتدب الناس للخروج إلى حصونهم، وحاصرهم حصارا شديدا خمسة عشر يوما، فاستسلموا، وكانوا سبعمائة مقاتل، وهمّ رسول الله ﷺ بقتلهم، إلا أن حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول مشى إلى رسول الله ﷺ فيهم، وألح عليه لإنقاذهم، فأمر رسول الله ﷺ بأن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا منها بما حملته رحالهم من متاع، وابتعدوا إلى أذرعات في أرض الشام.. وبذلك تطهرت المدينة من أول قبيلة يهودية كانت أشد اليهود وأغناهم، وخلت سوقهم ومساكنهم للمهاجرين والأنصار، ولم تتدخل القبائل اليهودية الأخرى لنصرة بني قينقاع لسببين رئيسيين:

الأول: أن رسول الله ﷺ عندما عقد العهد بينه وبين اليهود فرق بين القبائل، فجعل عهده مع كل منها على حده.. فالخلاف الذي يقع بين المسلمين وأية قبيلة منهم لاعلاقة لأطراف أخرى بها.. وبذلك يمنع تكتلهم ومساندتهم لبعضهم بعضاً ضد المسلمين.

---

١) الأنفال ٥٨

الثاني: أن بني قينقاع كانوا في ذلك الوقت على خلاف مع القبيلتين اليهوديتين الرئيستين في المدينة، بني النضير وبني قريظة، لذا لم تتحمسا لمناصرتها...

المسلمون يضغطون على قريـش:

مضت السنة الثانية من الهجرة ودخلت السنة الثالثة والعمل العسكري واضح في المدينة.. فقد تابع رسول الله ﷺ ضغطه على تجارة قريش وحلفائها.. فخرج إلى قبائل غطفان، الذين بدؤوا يتجمعون ثانية عند ماء يسمى ذي أمر ، فسمع الغطفانيون بخروج المسلمين ففروا، ونزل المسلمون في ديارهم وأقاموا فيها طيلة شهر صفر دون أن يلقوا قتالا ثم عادواإلى المدينة. وأرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة زيد بن الحارثة لتقطع على قريش طريق التجارة الشرقي، وهو طريق يتجه شرقا إلى نجد والعراق ثم شمالا إلى الشام.. وكان أبو سفيان قد خرج فيه بقافلة، فلقيته سرية زيد بن حارثة عند ماء يسمى ((القردة)) وفر أبو سفيان ومن معه تاركين القافلة غنيمة للمسلمين.. وهكذا اشتد الخناق على تجارة مكة وأصبحت طرقاتها الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية كلها مهددة تترصدها سرايا المسلمين وتوقع بها.. وكانت السرايا تخرج من المدينة بأعداد تتراوح بين المائة والمئتين، ويشارك فيها المهاجرون والأنصار معا، ويعودون بالغنائم الوفيرة غالبا، ويخلفون وراءهم أخباراً تتناقلها القبائل.. تهزّ هيبة قريش وتعلي شأن المسلمين..

وفي الوقت نفسه كان بقية المسلمين في المدينة يعملون في مجالات العمل الأخرى.. ويحرصون على الصلاة في مسجد النبي ﷺ، وعلى الجلوس إليه عندما يكون في المدينة.. وكانت الآيات تتنزل بالأحكام فيتناقلونها ويتدارسونها ويحفظونها.. وكان شأن المسلمين يعلو كل يوم.. وفي الوقت نفسه كان كثير من اليهود يتميزون غيظا..

عقوبة يهودي غادر:

ولم يُخفِ بعض اليهود غيظهم وعداوتهم للمسلمين.. بل جاهروا بالعداوة وعملوا جهدهم لينالوا منهم.. وكان من أشدهم إيذاء في تلك الفترة كعب بن الأشرف، (١) أحد سادة بني النضير وصاحب حصن مشهور باسمه في منطقتهم.. وكان كعب شاعراً ، فلما جاءت الأخبار بانتصار المسلمين في بدر ومقتل رؤوس الشرك بكى المشركين بقصائد حارة.. وسافر إلى مكة يحرض أهلها على الانتقام.. وطاف بين عدد من القبائل المجاورة، وحاول أن يجمع كلمة اليهود على محاربة المسلمين رغم أن العهد بين اليهود والمسلمين مازال سارياً.. بل عاد إلى المدينة وأخذ يذيع القصائد التي تؤذي المسلمين.. فيذكر فيها زوجاتهم وبناتهم ويتغزل بهن غزلا فاضحا، فتأذى المسلمون من ذلك أذى شديداً، وقرر رسول الله ﷺ انهاء شره، فانتدب جماعة من المسلمين لقتله على رأسهم محمد بن سلمة (الأوسي)، فاحتالوا له واستنزلوه من حصنه وقتلوه(٢).

ولا شك أن قتل كعب بن الأشرف كان عملاً سياسياً عسكرياً ناجحاً من حيث التخطيط والتوقيت والتنفيذ، يخدم المسلمين في المدينة ويساعد على استتباب الأمن فيها، فكعب كان قادراً على حشد القوى داخل المدينة ضد المسلمين، وبالتالي تهديدهم من الداخل، وعلاقاته مع بني قريظة كبيرة، ومن الممكن أن يجمع كلمتهم على المسلمين، وهو أيضا ذو أصول عربية - من طيئ - وله مكانة بين القبائل العربية، ويدل تحركه السريع والنشيط بين مكة والمدينة والطائف على أنه ذو صلات قوية بالقبائل.. فمن الممكن أن يُجمّع

---

١) كتب بن الأشرف الطائي: من بني نبهان عربي أمه يهودية من بني النضير عاش بين أخواله وتهوّد وصار سيداً في أخواله، بني حصناً كبيراً شرقي المدينة مازالت بقاياه موجوده

٢) أنظر ابن هشام٣/١٢ -

القبائل ويحثها على مهاجمة المسلمين.. فضلا عن دوره الإعلامي الكبير باعتباره شاعرا متمكنا.. والشعر أحد وسائل الاستثارة القوية بين العرب.. لذا كان من الضروري حماية الجبهة الداخلية والخارجية للمدينة المنورة.

وقد ظهرت آثار قتله مباشرة داخل المدينة، اهتز اليهود وذعروا وحافظوا على العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ، واختفت الأصوات الداعية لنقضه ونصرة قريش عليه..

قريش ينفـد صبرها:

ومرت الشهور على المدينة وقد تحسنت أحوال المسلمين فيها.. وعلت شوكتهم، ووادعتهم القبائل المحيطة بالمدينة إلى شاطئ البحر، وكان بعضها حليفاً لقريش، فلما وادعت المسلمين أمن المسلمون غارتهم، واستطاعوا أن يرسلوا السرايا لتهديد قوافل قريش، وشعرت قريش بالخطر الكبير. وتداولت الأمر في دار الندوة، وقال صفوان بن أمية (إن محمدا وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندري مانصنع بأصحابه وهم لايبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخلت عامتهم معهم، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا بدارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة).. ولم تكن قريش قد ضمدت جراحها في بدر بعد، لذا ازداد غيظها، وحولت قوافل تجارتها إلى الطريق الشرقي -طريق نجد- وهو طريق طويل مجهد، ولكنها لم تسلم، فقد خفت إليه سرية المسلمين بقيادة زيد بن حارثة واعترضت قافلة يقودها صفوان بن أمية نفسه.. وكاد صفوان أن يقع في الأسر لولا أن فر تاركاً القافلة غنيمة للمسلمين.. فبلغ الغيظ في قريش ذروته، وبدأت تعد العدة لحملة كبيرة تشنهاعلى المدينة، هدفها الانتقام لهزيمتها في بدر من جهة، ووقف مطاردة المسلمين لقوافلها التجارية من جهة أخرى.

قريش تهاجم المدينة : غزوة أحد

نشط أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن ربيعة في إثارة البطون والقبائل المجاورة لمكة من ثقيف وكنانة وبني المصطلق، وخصصت قريش أموال القافلة التي نجت من المسلمين قبيل معركة بدر لتجهيز الحملة، وأسندت القيادة لأبي سفيان.. وتجمع الجيش: ثلاثة آلاف مقاتل معهم ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس إضافة إلى الدروع والسيوف والرماح والسهام الكثيرة.. ولم يبق في مكة رجل قادر على القتال إلا خرج أو انتدب من يخرج مكانه، وحضّ صفوان بن أمية الشاعرَ أبا عزة الجمحي على الخروج وتحمل نفقته ونفقة عياله، وأخرج جبير بن مطعم عبده الحبشي (وحشي)، ووعده أن يعتقه إن قتل حمزة بن عبد المطلب، وكان وحشي بارعاً في رمي الحربة.. وخرج مع الجيش أبو عامر الراهب(١)، الأوسي الذي ترك المدينة ولحق بقريش حقداً على رسول الله ﷺ. كما خرجت نساء زعماء قريش يضربن الدفوف لتشجيع المقاتلين وإثارة حماستهم، وكان منهن نسوة موتورات قتل أزواجهن أو إخوانهن أو آباؤهن ببدر.. كهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان.. وتحرك الجيش بجلبته الكبيرة إلى المدينة وسار على طريق عسفان - الجحفة - رابغ -الأبواء -.. وسارع عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - وكان مقيماً بمكة لم يظهر إسلامه بعد - إلى إرسال رسالة إلى رسول الله ﷺ وسلم يخبره بتحرك الجيش.. ووصلت الرسالة مع اقتراب الجيش من المدينة، فأرسل رسول الله ﷺ رجالاً لاستطلاع حركة الغزاة القادمين، فرصدوهم عند ذي الحليفة، ورأوهم يسيرون بجانب وادي العقيق إلى المنطقة الشمالية الغربية من المدينة، ليستقروا في مصب وادي قناة قرب جبل أحد.. وعاد المستطلعون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بالأمر، وكان ذلك صباح يوم الجمعة الرابع عشر من شهر شوال.. واستنفر رسول الله ﷺ

---

1) وقد سماه رسول الله ﷺ (الفاسق)

المسلمين وشاورهم في المكان الذي تكون فيه المعركة، فانقسمت آراء الصحابة إلى قسمين، قسم يرى البقاء في المدينة وانتظار قدوم المشركين إليها، فإذا دخلوها قاتلوهم في أزقتها وألقوا عليهم النبال والحجارة من أسطحة البيوت، وقسم يرى الخروج إليهم وقتالهم بظاهرها، وكان رأي الرسول ﷺ مع القسم الأول، بسبب كثرة البنيان في المدينة المنورة واتساعه وحصانته، وخبره المسلمين بشوارعها، وخبرة الأنصار (الأوس والخزرج) بحرب المدن، فطالما اقتتلوا في الجاهلية في ساحاتها وشوارعها، بينما يجهل المشركون شوارع المدينة، وليس لديهم خبرة بحرب المدن..

وكان أصحاب الرأي الثاني متحمسين للخروج، وعلى رأسهم بعض الأنصار الذين فاتتهم بدر فلم يشهدوها وحمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وقال أحد المتحمسين من الأنصار: يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية (أي لايصل إلينا أعداؤنا)، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فأبرر القوم وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لاأطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة. ومالت الأكثرية إلى هذا الرأي، فعدل رسول الله ﷺ عن رأيه، واستجاب للأغلبية وأمر المسلمين أن يستعدوا لمواجهة المشركين في المكان الذي نزلوا فيه، قرب جبل أحد.. وحان وقت صلاة الجمعة، فصلى الرسول ﷺ بالناس الجمعة، ثم دخل بيته، ولبس درعه، وخرج على المسلمين وأمر الناس بالخروج..

التوجـــه الى أرض المعركـة:

شعر بعض الصحابة أن المتحمسين للخروج استكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج خلافا لرأيه، فلاموهم على ذلك، وندم المتحمسون، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بأنهم يرجعون عن رأيهم إن شاء، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله، والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا). وتجمع المسلمون خارج المدينة في الناحية الشمالية الشرقية، وعقد لهم رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية، لواء للمهاجرين يحمله مصعب بن عمير، ولواء للأنصار الأوسيين يحمله أسيد بن حضير، ولواء للأنصار الخزرجيين يحمله الحباب بن منذر، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وسار بالناس شرقا ثم شمالا ثم غربا ليتجنب أية حركة أو دوريات للمشركين، وعبر بعض البساتين وكان دليلهم أبو خيثمة الأنصاري، ثم توقف آخر الحرة الشرقية، واستعرض الجيش ورد غير القادرين على القتال، ومنهم فتيان: رافع بن خديج وسَمُرة بن جندب، فقال رافع: يارسول الله إني ماهر في الرمي، وشهد له بذلك بعض الحاضرين فأجازه، فقال سَمُرة: يارسول الله إني أصرع رافعاً، فطلب رسول الله منهما أن يتصارعا، فصرع سمرة رافعا، فأجازه الرسول أيضاً.. بينما أعاد عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وغيرهم لصغر سنهم.. وبات الرسول ﷺ ومن معه في موقعهم، وكان عددهم ألف رجل تقريباً، ومعهم فرس واحدة فقط للزبير بن العوام، وقام يحرسهم خمسون رجلاً على رأسهم محمد بن سلمة.. ثم تحرك قبل الفجر واقترب من أحد، وأصبح على مرأى معسكر المشركين، ورأى المسلمون كثرة المشركين، فبدأ المنافقون باللغط، وحان وقت صلاة الفجر فصلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين، وعليهم السلاح.

نكـوص المنافقــين:

بعد صلاة الفجر دعا رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول إلى الانسحاب، واحتج بأن رسول الله ﷺ لم يأخذ برأيه، وكان ممن يرون البقاء في المدينة، وتبعه المنافقون والذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، وكانوا ثلث الجيش.. وحاول عبد الله بن حرام الأنصاري ثنيهم عن الانسحاب في هذا الوقت العصيب، وقال لهم: أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر عدوكم.. ولكنهم أصروا على الانسحاب، فقال لهم: أبعدكم الله ياأعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه.. وقد أثر هذا الانسحاب في نفوس بعض المسلمين، وكاد بنو حارثة الأوسيون وبنو سلمة الخزرجيون أن ينسحبوا أيضا.. ولكن الله ثبتهم..

غضب المسلمون من موقف ابن سلول والمنافقين ورأى بعضهم أنه ينبغي قتالهم وتأديبهم، لأن انسحابهم في هذا الوقت تمرد وخذلان خطيرين، ولكن رسول الله ﷺ رأى تركهم وإهمالهم، فالاشتغال بهم وقتالهم سيعطي الفرصة للمشركين المتربصين كي ينقضوا على المسلمين..

تنظيم الجيش في مواقع القتال:

تقدم رسول الله ﷺ بمن بقي معه - حوالي (٧٠٠) رجل - نحو جبل أحد، ليأخذوا مواقعهم بمواجهة المشركين وليحموا ظهورهم بجبل أحد، واجتاز وادي قناة إلى عدوة الوادي، وهي سهل ينتهي بجبل أحد، وأخذ رسول الله ﷺ ينظم صفوف المقاتلين، واختار منهم خمسين رجلاً من مهرة الرماة، ووضعهم على جبل صغير يقع جنوبي أحد ، وعلى يسار الموقع الذي نزل به المسلمون، وهو موقع (استراتيجي) حساس يؤثر على ساحة القتال، وأمرهم أن يرموا المشركين بالنبل عند الهجوم، وبخاصة الفرسان، وأن يلزموا أماكنهم ولا يغادروها مهما كانت النتائج، سواء انتصر المسلمون أو هزموا، كي لاينفذ أحد من جانب الجبل فيتمكن من ظهور المسلمين.. وجعل

على رأس الرماة عبد الله بن جبير وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل لايأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لانُؤتين من قبلك..، ثم صف بقية الجند صفوفا متوالية في ساحة الوادي، وجعل في مقدمة الصفوف أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ومصعب بن عمير وسعد بن معاذ وسعد بن الربيع وأبا دجانة وأنس بن النضر والمقداد بن عمرو والزبير بن العوام.. وعندما انتهى من تعبئتهم قال لهم: لاتبدءوا حتى آمركم. وأخرج سيفا وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه، فطلبه كثيرون، منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فأمسكه عنهم، فقام أبو دجانة، وكان مشهورا بقوته وشجاعته، فقال: وماحقه يارسول الله؟ قال أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال أنا آخذه بحقه يارسول الله. فأعطاه إياه، فربط أبو دجانة رأسه بعصابة حمراء وأخذ يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن..

وفي مواجهة المسلمين كان المشركون يرتبون مقاتليهم، ويصفونهم صفوفا خلافا لما كانت عليه عادتهم، ووضعوا على الميمنة في مواجهة جبل الرماة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانت زوجات زعماء قريش مع النسوة خلف الصفوف يضربن الدفوف ويحضضن الرجال على القتال.. وكان أبو عامر الفاسق يتحرك بين الصفوف بنشاط كبير، وقام قبل وصول المسلمين بحفر عدة حفر في الساحة المواجهة وتغطيتها ليوقع بها المسلمين.. كانت الخطة التي وضعها رسول الله ﷺ بارعة، فالموقع الذي صف فيه المسلمين غير واسع، يناسب عددهم القليل.. ويضطر المشركين إلى أن يقفوا صفوفا، وبذلك يضعف تفوقهم العددي، لأنهم لايستطيعون أن يقاتلوا جميعا في هذه المساحة من الأرض.. وكذلك موقع الرماة على الجبل

يسيطر على جزء مهم من الساحة، ويشل حركة الفرسان ويؤثر على بقية المهاجمين..

المرحلة الأولى من المعركة:

اقترب أبو عامر الراهب - وقد سماه رسول الله ﷺ الفاسق - من صفوف المسلمين، وحاول أن يستميل قومه الأوسيين ليتركوا القتال فردوا عليه رداً عنيفا، ونادى أبو سفيان الأنصار وأخبرهم أن قريشا لاتريد قتالهم بل تريد قومها الذين خرجوا عليها، فرد عليه الأنصار بما أغاظه وأحنقه، فأمر أبو سفيان ميمنة جيشه بالتقدم، فتقدم المشاة أمامهم أبو عامر الفاسق يدعمهم خالد بن الوليد وفرسانه، فرشقهم الرماة بالنبال، ومن نفذ منهم تصدى له الزبير بن العوام ومن معه.. فتقهقرت ميمنة المشركين وفيها جراحات كثيرة، ثم كرروا الهجوم مرتين متواليتين وتقهقروا أمام المواجهة القوية، وطلب حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة المبارزة فتصدى له الزبير بن العوام وقتله، فأخذ اللواء أخوه عثمان بن أبي طلحة فقتله حمزة، فأخذه أبو سعيد بن أبي فقتله سعد بن أبي وقاص... وتتابع على راية قريش عشرة رجال قتلهم المسلمون جميعا، وسقط اللواء، وهجم المسلمون هجمة رجل واحد، وأبلى أبو دجانة وحمزة بلاء حسنا، فتضعضعت صفوف المشركين وبدأ الصف الأول بالهرب، وتبعهم المسلمون فاتسعت ساحة القتال، وتوزع المسلمون مجموعات وراء المشركين، وبدت المعركة وكأنها قد حسمت لصالح المسلمين.. واستسلم عدد من المشركين، وألقى الكثيرون سلاحهم وأمتعتهم وجدّوا في الهرب، ورأى الصحابي حنظلة بن أبي عامر أبا سفيان على فرسه فعقر الفرس وسقط أبو سفيان على الأرض، وهجم عليه حنظلة ليقتله، ولكن شداد بن الأسود ضرب حنظلة بالسيف فقتله ونجا أبو سفيان، وانتهز وحشي فرصة اضطراب الصفوف وتوزع المقاتلين من المسلمين والمشركين في ساحة واسعة، وبحث عن حمزة، فرآه يطارد أحد المشركين ويقتله، فغافله

ورماه بحربته رمية قاتلة، وسقط حمزة رضي الله عنه شهيداً، وجرى وحشي إلى صفوف المشركين الخلفية ليخبر هند بنت عتبة بما فعله، ونفذ ابن قميئة الليثي إلى مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين، وظن أنه رسول الله ﷺ فقتله، ومضى إلى صفوف المشركين ينادي أنه قتل رسول الله.. وسارع علي بن أبي طالب فحمل اللواء، وتابع المسلمون مطاردة المشركين الفارين، وأخذ بعضهم يجمع الغنائم التي يتركونها، ورأى بعض الرماة راية المشركين تدوسها الأقدام والمسلمين يطاردون المشركين ويجمعون الغنائم فدعوا إلى النزول ومساعدة إخونهم في المطاردة وجمع الغنائم، فذكّرهم عبد الله بن جبير بوصية رسول الله ﷺ، ولكنهم لم يستجيبوا وعَصَوا قائدهم وهبطوا من الجبل، فبقي عبد الله بن الجبير ومعه عشرة رماة فقط..

المرحلة الثانية من المعركة:

لاحظ خالد بن الوليد خلو الجبل من الرماة فأسرع بفرسانه ـ وكانوا مائتي فارس ـ إلى طرف الجبل والتف وراءه، ثم صعد إليه من جهته الخلفية وفاجأ الرماة المتبقين على الجبل من خلفهم، فقاومه الرماة، لكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام العدد الكبير فاستشهدوا جميعا، وانحدر خالد بن الوليد من الجبل في ظهور المسلمين، وعلا صوت أحد المشركين ينادي زملاءه للعودة والمواجهة، وصرخ عمرو بن قميئة مدعياً قتل رسول الله ﷺ، والتقطت إحدى النساء القرشيات (وتدعى عَمْرة الحارثية) لواء قريش من الأرض ورفعته، فتنادى المشركون والتفوا حول لوائهم، وكروا على المسلمين، وهاجموا المجموعات الصغيرة المتفرقة التي كانت تجمع الغنائم، وحوصر المسلمون بين فرسان خالد والمشركين الذين كروا عليهم، وفقدوا تنظيمهم ودبت الفوضى فيهم... وارتاع الكثيرون منهم لما سمعوا ابن قميئة ينادي: قتلت محمدا، قتلت محمدا.. واشتبك بعضهم مع بعض وهم لايدرون، وقتل والد حذيفة بن اليمان بيد المسلمين خطأ، وصرخ حذيفة: أبي.. أبي..، فأحسوا أن بعضهم يقتل بعضا، واشتد القتال وسقط عدد من الشهداء، وشرع عدد من المسلمين بالهرب، واتجه بعضهم جنوبا إلى المدينة، وبعضهم الآخر شرقا وشمالا وأصيب عدد كبير من المسلمين، ومرت هند بنت عتبة بجثة حمزة فوقفت لتتشفى منه، وشقت بطنه وأخرجت قطعة من كبده ولاكتها بفمها ولفظتها.. ومثلت نسوة أخريات ببعض الشهداء، فقطعن أذانهم وأنوفهم حقدا وتشفيا.. وازدادت بلبلة المسلمين، ورأى رسول الله ﷺ تشتتهم وانخفاض روحهم المعنوية، وارتفاع الروح المعنوية للمشركين، بعد أن سمعوا مناديهم يزعم أن محمداً قد قتل.. فرجع إلى سفح أحد وتترس به ونادى بأعلى صوته أنا رسول الله، هلموا إلي، أنا رسول الله.. فسمع صوته عدد من المسلمين واطمأنت نفوسهم، واتجهوا إليه رغم كثافة المشركين،

وتجمعوا حوله.. فشكّلوا مركز قيادة ومقاومة جديدة، وسمع بعض المشركين النداء أيضا فاتجهوا إليه ليضربوا قيادة المسلمين، ودارت معركة عنيفة حول رسول الله ﷺ، وأحاط به عدد من الصحابة يقاتلون دونه، منهم أبو بكر وعلي وسعد بن عبادة ونسيبة بنت كعب المازنية وسعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف وأبو دجانة الذي جعل ظهره هدفا لسهام المشركين حماية لرسول الله ﷺ، وأبو طلحة زيد بن سهل، واستطاع أحد المشركين (عتبة بن أبي وقاص) أن يقترب من رسول الله ﷺ ويقذفه بحجر أصاب وجهه الشريف وكسر رباعيته، فشدّ عليه الصحابي حاطب بن أبي بلتعة وقتله، وحمل أحد فرسان المشركين -ابن قميئة- على الجمع واخترقه وأصاب رسول الله ﷺ بضربتين أثرت في درعه وأدخلت حلقتين من حلقات المغفر في وجهه، وسال الدم على وجهه الشريف، ووقع في حفرة وأغمي عليه لبرهة من الوقت، فاستبسل الصحابة في القتال، وأبلت نسيبة بنت كعب بلاء حسن، وأخذ علي بيد رسول ﷺ فخرج من الحفرة، وتجمع عدد أكبر من الصحابة حوله، فانسحب بهم إلى جبل أحد انسحابا منظما، جماعة تلو جماعة، وحاول أحد المشركين -أُبيّ بن خلف الجمحي- النفاذ إلى الرسول ﷺ فوقف له الرسول وقذفه بحربة فسقط يتدحرج، وارتد إلى جماعته وهو يقول: قتلني محمد، وما لبث أن مات من تلك الاصابة، وارتقى المسلمون هضبة من هضاب جبل أحد وتترسوا بها، وفشلت كل هجمات المشركين عليهم، وأراد رسول الله ﷺ أن يصعد إلى صخرة تشرف على ساحة المعركة، فلم يستطع لما به من جراح وإعياء، فجلس طلحة بن عبيد الله تحته ورفعه إليها حتى صعدها، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسا.. وقاد أبو سفيان وخالد بن الوليد آخر هجوم على المسلمين، فلقي المهاجمون مقاومة كبيرة وارتدوا على أدبارهم وقد أضناهم القتال، واشتد بهم الإعياء، وأيقنوا أنهم لن ينالوا من المسلمين المتحصنين، فقرر أبو سفيان وقف القتال والاكتفاء بما أوقعوه من خسائر في المسلمين

وأمر بالتهيؤ للرحيل، وارتقى تلة تواجه التلة التي تترس فيها المسلمون ونادى: الحرب سجال، يوم بيوم، يوم علينا ويوم لنا، يوم نُسَاءُ ويوم نُسَر، أُعلُ هبل. فأمر رسول الله ﷺ بالرد عليه ، فنادى عمر وأبو سفيان لايراه: اللهُ أعلى وأجل، لاسواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فهتف أبو سفيان: العزى لنا ولا عزى لكم. فأجابه المسلمون بتوجيه رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولى لكم. ونادى أبو سفيان بأعلى صوته: أفيكم محمد؟ فأمرهم رسول الله ألا يجيبوه. فنادى: أفيكم: ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فنادى: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، فالتفت إلى جيشه ونادى: أما هؤلاء فقد كفيتموهم؛ أي قُتلوا. فلم يملك عمر نفسه ونهض فأجاب أبا سفيان: كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يسوؤك. فناداه أبو سفيان: هلم ياعمر، أنشدك الله ياعمر، أقتلنا محمدا؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة..

بدأ المشركون يحركون رحالهم وينصرفون، ونادى أبو سفيان إن: موعدكم بدر العام القادم، فأمر رسول الله ﷺ رجلا فأجابه: هو بيننا وبينكم موعد.. وسارت جموع المشركين، فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يراقبهم ليعرف وجهة سيرهم، خشية أن يتجهوا إلى المدينة ويقتحموها، فتبعهم علي ورأهم يركبون الابل ويسلكون الطريق التي جاؤوا منها.. طريق مكة، فعاد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك.

الساحة التي شهدت معارك غزوة أُحد ويبدو في الصورة:

١ ـ جبل الرماة. ٣ ـ مسجد الشهداء.

٢ ـ مقبرة الشهداء. ٤ ـ مناطق المعركة.

نتائج المعركة ومواقف اليقين:

نزل المسلمون من الهضبة يتفقدون المصابين، وقال رسول الله ﷺ: من رجل ينظر لي مافعل سعد بن الربيع؟ في الأحياء هو أم في الأموات. فقال محمد بن سلمة: أنا يارسول الله.. ففتش عنه فوجده طريحاً يعاني سكرات الموت، فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال سعد بن الربيع: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ماجزى نبيا عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف.. ومالبث أن فارق الحياة (١). وقامت بعض الصحابيات اللواتي رافقن جيش المسلمين - منهن عائشة وأم سُليم وأم سُليط الأنصارية - بنقل الماء على أكتافهن من بركة ماء في طرف الشعب.. (٢) وشاركن في إسعاف الجرحى.. وجمعت جثث الشهداء ودفنت في موقع بساحة المعركة، وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين في ثوب واحد، ويقدم إلى اللحد أكثرهم أخذاً للقرآن، ولم يُغّسلوا ولم يصلِ عليهم.. وقد غضب غضباً شديداً لما رأى ما حل بجثة حمزة من تمثيل. وكانت حصيلة المعركة تسعة وستين شهيداً: أربعة من المهاجرين وأربعة وعشرون من الأوس وواحد وأربعون من الخزرج.. وقتل معهم مخيريق اليهودي وقزمان الأعرابي، وكانا يقاتلان مع المسلمين ولم يسلما، وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين قتيلا، وأسر منهم أبو عزة الجمحي الشاعر. وكان قد شارك في موقعة بدر وأسر فيها، وسأل رسول الله ﷺ أن يطلق سراحه وتعهد بأن لايقاتل المسلمين أبداً فأطلقه الرسول

---

١) انظر قصة استشهاد سعد بن الربيع، وتفقد النبي له وتجلي المواقف الايمانية في:(سعد بن الربيع النقيب الشهيد) محمد علي كاتبي. ص ١٤٩

٢) أنظر صحيح البخاري ك ٦٤ باب ١٨ حديث رقم ٤٠٦٤ -.

ﷺ يومئذ، ولكنه عاد لقتال المسلمين، فأمر الرسول الله ﷺ بقتله فقتل..

وبعد أن انتهى المسلمون من دفن الشهداء، صفهم رسول الله ﷺ وخطب فيهم خطبة رقيقة سأل الله فيها النصر على الأعداء، وعاد بالمسلمين إلى المدينة وفي نفوسهم كثير من الأسى لما حل بهم، وأنزل الله آيات يعاتبهم بها على مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ، ويبيّن لهم أن ماأصابهم كان بسبب تلك المعصية، ويعفو عن خطئهم هذا. (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه. حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الأخرة. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم. ولقد عفا عنكم. والله ذو فضل على المؤمنين، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكي لا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) (١). وقد ظلت ذكرى شهداء أحد في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا ذكروا تمنى لو أنه استشهد معهم (٢).

صـور إيمانـــية:

خرجت النسوة والأطفال والشيوخ من المدينة يستطلعون الأخبار ويسألون عن ذويهم ممن شارك في المعركة، وتألقت صور رائعة للإيمان وآثاره العظيمة فيهم.. فقد جاءت امرأة من بني دينار تسأل عن الأخبار، فأخبرت باستشهاد زوجها وأبيها وأخيها.. فسألت مافعل رسول الله ﷺ قالوا خيراً، وهو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه أنظرْ إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك هينة يارسول الله. وبكت العائلات شهداءها بكاء حزن ووفاء، وبكى بعض نسوة الأنصار على حمزة عندما بلغهم أن رسول الله ﷺ قال: ولكن حمزة لابواكي له، واحتسبوا مصيبتهم عند الله عز وجل. وازدادت

---

١) آل عمران ١٥٢ - ١٥٣ -.

٢) الفتح الرباني ٨٥/٢١ -.

نفوسهم إيماناً ويقيناً..

ما بعد المعركة : تأكيد القوة:

غير أن المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي انسحب قبل المعركة، واليهود، شمتوا بالمسلمين.. وبدءوا يرجفون بهم.. وأدرك رسول الله ﷺ أن الأمر قد يتطور.. فيستهين اليهود والمنافقون بالمسلمين.. وكذلك بعض القبائل المحيطة بالمدينة، وقد يغيرون عليها في هذه الحالة الصعبة، لذلك ماكاد المسلمون يستريحون في بيوتهم حتى أمر المنادي في صبيحة اليوم التالي أن ينادي بالمسلمين أن يخرج من يستطيع الخروج لمطاردة المشركين.. على ألا يخرج إلا من حضر أحدا (١)، وتجمع المسلمون وجراح بعضهم ماتزال موجعة، وساروا يتعقبون المشركين ليرهبوهم، وليزيلوا أي شعور بالهزيمة بين المسلمين، وليشعروا اليهود والقبائل المحيطة بالمدينة أن المسلمين مازالوا أقوياء...

غزوة حمراء الأسـد:

سار المسلون حتى بلغوا حمراء الأسد على مسافة ثمانية أميال من المدينة فلم يجدوا أحداً.. فأقاموا فيها ثلاثة أيام... ويروى أن بعض المشركين قد ندموا على تركهم المدينة يوم أحد فتداعوا للعودة إليها واستئصال المسلمين فيها، فلقيهم معبد الخزاعي وأبلغهم أن المسلمين خرجوا في أثرهم وخذلهم، فجدوا السير إلى مكة.

ولا شك أن هذه الحركة قد آتت ثمارا كثيرة.. فقد أبعدت عن المسلمين الشعور بالهزيمة، وخففت من آثار شماتة اليهود والمنافقين.. وشاع خروج المسلمين وراء قريش في القبائل، وأشعرت الجميع بأن المسلمين مازالوا

---

١) لم يأذن لأحد ممن لم يحضروا موقعة أحد بالخروج إلا جابر بن عبد الله الذي أخبره أنه لم يخرج إلى أحد لأن أباه خرج واستخلفه على اخواته السبع.. فأذن له بالخروج معه -.

أقوياء.

وعاد المسلمون إلى المدينة ليستفيدوا من دروس أحد، وليجلسوا إلى رسول الله ﷺ يتلقون منه الوحي الذي ينزل عليه، ويستكملوا تربيتهم الروحية بتوجيهاته وأحاديثه ﷺ.

وقد حرص رسول الله ﷺ على أن يحفظ للمسلمين في المدينة هيبتهم.. فلما بلغه أن بعض الأعراب من بني أسد يجمعون لغزو المدينة، أرسل سرية بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد إلى طلحة الأسدي من جهة نجد، فهرب طلحة ومن معه، وتركوا أموالهم غنائم للمسلمين. وأرسل عبد الله بن أنيس الجهني إلى خالد بن سفيان الهذلي، أحد قادة بني هذيل وبني أسد أيضا فقتله.

مصـــائب أخـــرى:

لم تجرؤ قبيلة هذيل على محاربة المسلمين ثأراً لقائدها خالد بن سفيان، فعمدت إلى الغدر، وأرسلت وفدا يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم بعض الدعاة والمقرئين ليفقهوهم في الدين في قبيلتهم، فأرسل ﷺ عدداً من الصحابة (سته أو سبعه) فلما بلغوا ماء الرجيع غدر بهم المشركون، فقاتل الصحابة وأسر منهم اثنان (خبيب بن عدي وزيد بن الدثِنة) وباعهما الهذليون لأهل مكة فقتلوهما.

وتكرر هذا الغدر عندما قدم عامر بن مالك -مُلاعبُ الأسِنة- إلى المدينة، ودعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم ولم يرفض الدعوة ولكنه وعد رسول الله ﷺ بحماية وفد يقوم بالدعوة بين الأعراب، فأرسل الرسول ﷺ وفدا يضم أربعين صحابيا.. فلما بلغوا بئر معونة على بعد مئة وستين كيلاً كم من المدينة هاجمهم عامر بن الطفيل في جمع من بني سُليم، فاستبسل المسلمون، وقتلوا جميعا سوى عمرو بن أمية الضمري الذي كان متأخرا عنهم، فنجا وعاد إلى المدينة وأخبر بالفاجعة.. وهكذا توالت الأحزان

والفواجع في هذه السنة على المسلمين في المدينة وهم صابرون محتسبون.

أطمـــاع يهـــودية:

طمع بعض اليهود في الاستفادة من هذه الفواجع، وقرروا الغدر بالمسلمين، وكانت المعاهدة ماتزال قائمة بينهم وبين المسلمين.. ومن نصوصها أن ينصر اليهود المسلمين إن استنصروهم ويعينوهم إن استعانوهم.. وقد حدث أن ذهب رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم على دفع دية رجلين من المسلمين قتلا خطأ، فتآمروا على قتل رسول الله ﷺ بحجر ضخم يلقونه عليه من سطح منزل كان يستظل بجواره.. إلا أن الوحي جاءه بالخبر، فقام مسرعا، وأرسل إليهم محمداً بن سلمة يأمرهم بالخروج من المدينة جزاءً على غدرهم، وعلم عبد الله بن أبي بن سلول بالأمر فأرسل يحضهم على البقاء ومواجهة المسلمين، ووعدهم بنصرتهم.. فأعلنوا رفضهم الخروج، وتحدّوا المسلمين.

المدينة تتخلص من ثاني قبيلة يهودية:

أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالخروج إليهم، فخرجوا، وتترس بنو النضير بحصونهم فحاصرهم المسلمون وأحرقوا بعض بساتينهم، ولم يجرؤ المنافقون على نصرة بني النضير، وجاء عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ يطلب منه إطلاقهم لأنهم كانوا حلفاءه، وألح على رسول الله ﷺ إلحاحاً شديداً، فسمح لهم رسول الله ﷺ بالخروج من المدينة بما تحمله الإبل، عدا السلاح، فخرجوا من المدينة وحملوا معهم مااستطاعوا حمله، واقتلعوا أخشاب بيوتهم الثمينة وأبوابها وقناطرها المزخرفة وحملوها معهم إلى الشام.. فتخلصت المدينة من ثاني قبيلة من قبائل اليهود، وتملك المسلمون ماخلفوه من أموال وبيوت وبساتين وارتدّ كيد يهود إلى نحرهم.

معركة لم تقـــع:

ازدادت مكانة المسلمين وهيبتهم داخل المدينة بعد إخراج بني النضير،

وعملوا على نشر هذه المكانة والهيبة بين القبائل خارج المدينة، وخاصة بين قريش وأحلافها.

لذا عندما حل الموعد الذي ضربه أبو سفيان للمسلمين يوم أحد، أي بعد سنة من تاريخ الغزوة، خرج المسلمون إلى منطقة بدر بألف وخمسمائة مجاهد، وانتظروا قدوم قريش.. وخرجت قريش بألفين وخمسمائة مقاتل، حتى اذا بلغوا (مر الظهران) على بعد أربعين كيلو مترا من مكة ترددوا في مواجهة المسلمين، ثم رجعوا إلى مكة بحجة أن العام جدب.. ومكث المسلمون عشرة أيام ينتظرونهم.. فلما بلغهم عودتهم رجعوا إلى المدينة مخلفين وراءهم سمعة طيبة بين الأعراب ومشركي قريش..

حملات تأديبيـــة:

واصل المسلمون في المدينة التحرك باتجاه بعض المناطق في نجد والحجاز، لتأديب الأعراب الذين كانوا يعدون لمهاجمة المدينة، وكلما وصلت سرية من المسلمين إلى إحدى مناطقهم هربوا منها، وعادت السرية بلا قتال، كما خرجت غزوة إلى دومة الجندل حيث تجمع بعض المشركين.. ولما سمعوا بالغزوة هربوا أيضا، ووادعت القبائل المجاورة المسلمين.. وكان رسول الله ﷺ يحرص على استباق الأحداث والإمساك بزمام المبادرة في سبيل تأمين المدينة المنورة وأهلها من الغزو.. فقد كان يرسل من يترصد له أخبار من أظهروا العداوة للمسلمين.. أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي إلى بني المصطلق للاطلاع على أحوالهم، واكتشف بريدة أن القوم ينوون مهاجمة

المدينة، فعاد وأخبر رسول ﷺ بماعرفه (١) وكان بنو المصطلق ممن اشترك مع قريش في غزوة أحد، وأصابوا المسلمين.

غزوة بني المصطلق:

أغرت نتيجة غزوة أحد بني المصطلق بالكر على المسلمين.. لذا خرج إليهم رسول الله ﷺ ليبادرهم بالضربة ويجهض استعداداتهم، فجمع من المسلمين (حوالي سبعمئة مقاتل) وثلاثين فارساً وفاجأهم بالهجوم، فتمكن منهم جميعاً، وقتل عدداً من محاربيهم وأسر الباقي، وغنم المسلمون غنائم كبيرة.. ومالبث المسلمون أن أطلقوا السبي عندما تزوج رسول الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث إحدى نسائهم..

كيد المنافقين... ثانية:

وفي طريق العودة من الغزوة حاول بعض المنافقين أن يحدثوا فتنة عظيمة بين المسلمين، تشق صفوفهم، وذلك ببذر الفتنة بين المهاجرين والأنصار.

فقد حدث أن رجلاً من المهاجرين تزاحم مع أحد الأنصار، فكسعه، فصاح الأنصاري ياللأنصار، وصاح المهاجر ياللمهاجرين، وكادت أن تقع الفتنة، فسمع بذلك رسول الله ﷺ فقال: دعوها فإنها منتنة، ووجد (عبد الله بن أُبيّ) رأسُ المنافقين في هذه الحادثة فرصة للفتنة، فقال : فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وأشار على الأنصار أن لايتفقوا على المهاجرين، وانتشر قوله، فقال عمر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لايتحدث

---

١) طبقات بن اسعد ٢/٦٣ -.

الناس أن محمداً يقتل أصحابه (١)، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالسير حتى أنهكهم التعب، وأذهب الله عنهم آثار تلك الفتنة. وقد ضعف مركز عبد الله بن أُبي بسبب ما فعله، وصار قومه يعنفونه كلما بدرت منه بادرة سيئة.

ولم يسكت المنافقون على فشلهم، بل حاولوا أن يثيروا فتنة جديدة تؤذي رسول الله ﷺ في أهل بيته، وتوقع الخصومة بين المسلمين، وذلك عندما أشاعوا حديث الإفك على السيدة عائشة رضي الله عنها، زوجة الرسول ﷺ. وكانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت معه إلى غزوة بني المصطلق وذلك بعد ما شرع الله الحجاب، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه، فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبونها فيه -إذ كانت صغيرة خفيفة- ومضى المسلمون إلى المدينة تاركينها في البيداء، ووجدت عائشة عقدها وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يحسوا بغيابها ويعودوا إليها، فمر بها صفوان بن المعطل السلمي، وهو من كرام الصحابة (رضي الله عنه)، فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول ﷺ.

وقد استغل المنافقون هذا الحادث وافتروا على السيدة عائشة ورموها بالإفك، وتولى كذلك عبد الله بن أبي بن سلول، وانتقل الكلام في المدينة، وكان ممن ردده وتكلم فيه مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش (٢). وقد تأذى رسول الله ﷺ مما أشاعه المنافقون، وأعلن سعد بن

---

١) عندما علم ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي بما قاله أبوه استأذن رسول الله ﷺ في قتله ، فنهاه ، وقال له : بر أباك وأحسن صحبته . ولكن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف في مدخل المدينة ومنع أباه من دخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ ، مع أنه كان من أكثر أهل المدينة برا بأبيه واحتراما له -.

٢) انظر المجتمع المدني ص ١٠٠

معاذ أنه مستعد لقتل من يروج حديث الإفك إذا كان من قبيلته الأوس، واعترض عليه سعد بن عبادة الخزرجي، وكادت أن تقع فتنة بين الأوس والخزرج، ونزل الوحي ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، فقطعت ألسنة السوء، وأقيم الحد على من ولغ في حديث الإفك، وانطفأت الفتنة (١).

وهكذا بدأ مجتمع المدينة المنورة يشهد هزات بين الحين والآخر، يثيرها المنافقون، وهي الطبقة التي أخذ يزداد عددها كلما زاد عدد المسلمين و زادت قوتهم. وكان عدد من كباراليهود يشاركون المنافقين في الإثارة. ولولا أن رسول الله ﷺ كان يجمع الصفوف دائما، ويعمق الإيمان في نفوس المسلمين، لأحدثت فتنتهم شراً عظيما في المجتمع الجديد.

غزوة الخندق : تهديد خارجي وداخلي:

ما لبث الخطر أن داهم المدينة المنورة، وهز أهلها، وكاد أن يعصف بها لولا لطف الله.. وذلك عندما تألب عليها عدوان شرسان؛ عدو من الخارج: قريش وأحلافها؛ وعدو من الداخل: يهود بني قريظة.

أما قريش، فعلى الرغم من انتصارها يوم أحد فإنها لم تحقق غايتها، أي لم تستطع كسر شوكة المسلمين، ولا حماية تجارتها إلى الشام واليمن، فقد واصل المسلمون بعد معركة أحد غاراتهم على قوافل قريش التجارية، وهددوا الطرق من جميع الجهات، من الشمال والغرب، حيث طرق المدينة وطريق الساحل إلى الشام، ومن الجنوب، حيث الطريق إلى اليمن، ومن الشرق حيث الطريق إلى نجد. ونالت سراياهم من بعض قوافلهم.. لذا قرروا القيام بعمل كبير يقضي على المسلمين، ويعيد لقريش هيبتها، ويؤمن تجارتها، وشجعهم على ذلك سادة بني النضير الذين أجلاهم المسلمون عن المدينة، فقد ذهب سلام بن مشكم وحيي بن أخطب إلى قريش، وحضاها على مهاجمة المدينة، وطافا على القبائل الحليفة وحثاها على المشاركة في الهجوم، وتعهدا

---

١) انظر سورة النور الآيات: (١٠-٢٦)

بتأليب بني قريظة -الذين ما زالوا في المدينة- على المسلمين، بل إنهما تعهدا بدفع نصف ثمر خيبر لقبيلة غطفان مقابل تحالفها مع قريش ومشاركتها في القتال، (١) فاجتمعت الصدور الموتورة من قريش وبني النضير مع الطامعين في الجوائز والغنائم من غطفان وسليم وبكر وكنانة وأشجع ومرة وبعض أهل تهامة، وعسكرت حشودهم في مر الظهران، ثم تحركت إلى المدينة، وقد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل.

وعندما بلغ الخبر رسول الله ﷺ جمع الصحابة واستشارهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف (٢). فاجتمع الرأي على التحصن بالمدينة وعدم مواجهة هذه الحشود الضخمة خارجها، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يدخل منها الجيش إلى المدينة، فتصبح المدينة مغلقة كالحصن القوي، فالحرات تحيط بها من جهاتها الأخرى، وهي صخور سوداء شديدة الوعورة لايمكن أن يسير الجيش فيها، والخندق يغلق المعبر الوحيد إليها، ولو حاول الغزاة اقتحامه فسيتكبدون خسائر هائلة ودون طائل. ولقي اقتراح سلمان القبول، فشرع المسلمون يحفرون الخندق، وبلغ طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه مابين سبعة الى عشرة أذرع. وقد وزع رسول الله ﷺ المسلمين على امتداد منطقة الحفر، فكلف كل عشرة من المسلمين بحفر أربعين ذراعا طوليا.

وصادف في تلك السنة أن كانت المدينة تتعرض لمجاعة شديدة. وكان الوقت شتاءً والبرد قارسا والطعام قليلا.. فكان طعام الجيش شعيرا مطبوخا بدهن سَنِخٍ (متغير الرائحة لقدمه) أو بعض التمر، وربما يمر اليوم واليومان

---

١) انظر فتح الباري ٣٩٣/٧

٢) كان هذا دأبه ﷺ فيما لم ينزل فيه وحي بعد، ليعلّم الصحابة الشورى وليدفعهم إلى التفكير في المشكلات الطارئة والبحث عن حلولها ، وليشعرهم بالمسؤلية تجاه القضايا العامة. انظر في ذلك: المجتمع المدني ص١١١

حتى يتوفر الطعام، ومع ذلك فإن وقدة الإيمان غلبت الجوع والبرد، وعمل المسلمون بنشاط فائق، وشارك رسول الله ﷺ بنفسه، فكان يحمل التراب، ويضرب الصخر، ويردد الأهازيج مع الصحابة، وقد شد على بطنه حجراً من فرط الجوع.. وحدثت عدة معجزات أثناء حفر الخندق (١). وتم إنجاز الخندق في ستة أيام، ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم خطة الدفاع عن المدينة.. فنقل النساء والأطفال إلى الحصون المنيعة، ورتب صفوف المقاتلين في مواجهة الخندق، وجعل ظهورهم إلى جبل سلع والمدينة ووجوههم إلى الخندق، وشكل دوريات متحركة على امتداد الخندق لتتابع الحراسة وتنقل المؤونة وتتفقد أطراف المدينة، وقد بلغ عدد المسلمين أنئذ ثلاثة ألاف مقاتل..

وما لبث جيش المشركين أن وصل إلى المدينة.. ففوجؤوا بالخندق، وما كانت العرب تعرف هذا النوع من التحصن. ونزل الجيش في الشمال الغربي عند مجمع الأسيال حيث تصب أودية المدينة، ما بين زغابة والجرف وبئر رومة، وبدءوا يفتشون عن ثغرة ينفذون منها إلى المدينة.. ولما رأى الرسول ﷺ كثرة الأحزاب فكر في أن يفتت صفوف المشركين، فيصالح بعض القبائل المشاركة في الغزو، وبالذات قبيلة غطفان، فهي أكثر القبائل عدداً في جيش الأحزاب، وقد خرجت بعد وعد اليهود إعطاءها نصف ثمار خيبر، وفكر أن يعطيها ثلث ثمار المدينة لعام واحد، فاستشار زعيمي الأوس والخزرج في ذلك. سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا له: يارسول الله أوحي من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك وهواك؟... فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ماينالون منا تمرة إلا شراء أو قرى... فعدل رسول الله ﷺ عن فكرته واهتم بمواجهة الحصار.

ونجحت الخطة المحكمة في حماية المدينة من الأحزاب فلم يستطيعوا

---

١) منها معجزة تكثير الطعام (حديث جابر بن عبد الله) وتبشيره بفتح الشام والعراق واليمن - واخباره بقتل عمار بن ياسر ..أنظر: المجتمع المدني ص ١١٤ -.

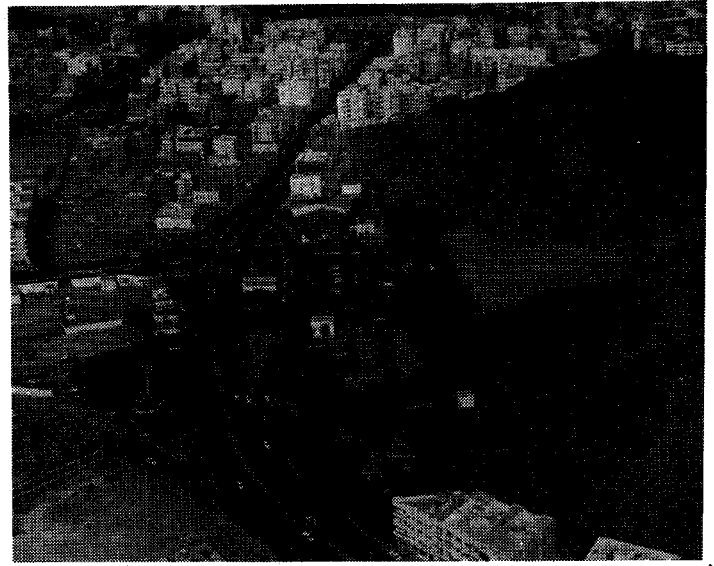
النيل من المسلمين،وحاول بعض فرسانهم اقتحام الخندق والقفز من فوقه عدة مرات،فتصدى لهم المسلمون،وقتلوا أربعة منهم. وحاولوا في بعض المرات اقتحامه بشكل جماعي، فنشب قتال طويل شغل المسلمين عن أداء صلاة العصر في وقتها،فصلوها بعد ما غربت الشمس(١).

وبعد أيام قليلة من بدء الحصار تعرض المسلمون لخطر شديد من داخل المدينة.. هذا الخطر هو خطر بني قريظة.. فقد سعى حيي بن أخطب النضري إلى تحريك بني قريظة.. وهم القبيلة اليهودية الكبيرة الباقية في المدينة، واجتهد في حملهم على نقض المعاهدة مع رسول الله ﷺ، والتحالف مع الأحزاب ومهاجمة المسلمين من خلف ظهورهم، وكان اليهود قد دخلوا حصونهم عندما وصلت الأحزاب ولم يشاركوا في الدفاع عن المدينة، رغم أن المعاهدة التي بينهم وبين المسلمين تنص على مشاركتهم في الدفاع عن المدينة إذا هددها خطر خارجي. ونجح حيي ابن أخطب في إقناع بني قريظة بالتنصل من المعاهدة والتعاون مع الأحزاب، وشعر رسول الله ﷺ بذلك، فأرسل عدداً من الصحابة ليتأكدوا من الأمر، فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس، فكشف اليهود عن غدرهم، وأعلنوا نقضهم للعهد (باستثناء بطن من بطونهم هم بنو سعية فلم ينقضوا العهد) وحاول سعد بن معاذ ثنيهم عن الغدر ، فأبوا واغلظوا له الكلام، فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بالأمر، فبشر رسول الله ﷺ المسلمين بنصر من الله وفتح قريب.. ونشطت دوريات المسلمين في الطواف قرب الخندق وحول بني قريظة، وبلغ عدد أفرادها خمسمائة رجل، يجهرون بالتكبير، لإشعار بني قريظة بوجودهم ويقظتهم ،

---

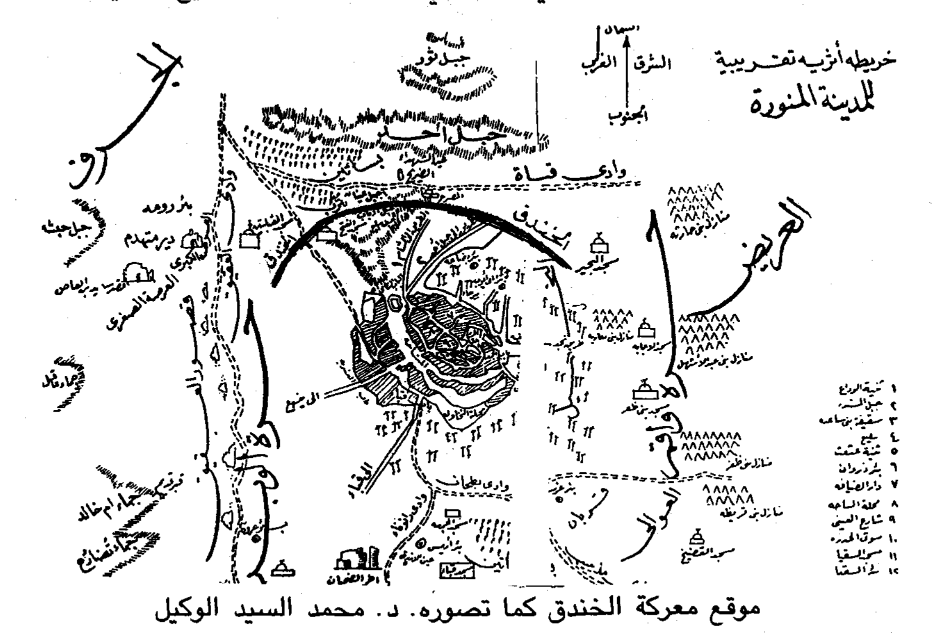
١) فتح الباري ٢/٦٨-.

١ ـ موقع الخندق كما ورد في أطلس التاريخ الإسلامي



٢ ـ صورة مصغرة من جبل سلع حيث كان الخندق يمر أمامه وقد بُنيت فيما بعد مساجد في مواقع يظن أن بعض الصحابة كانوا يرابطون فيها وتسمى السبع مساجد.

موقع الخندق كما تصوره علي حافظ في كتابه فصول من تاريخ المدينة



موقع معركة الخندق كما تصوره. د. محمد السيد الوكيل

خوفاً منهم على النساء والأطفال في الحصون (١) واشتد الحصار وطال، ولم يكن بين المسلمين والمشركين إلا التراشق بالنبال، وأصيب ثمانية من المسلمين، وحاول بعض المشركين تجاوز الخندق ثانية فصدهم المسلمون.. واشتد البرد، وهبت رياح عاصفة، ولم يكن أهل مكة والمناطق المجاورة لها يألفون هذا الجو الشتوي القارس..

وبدأ المشركون يحسون بفشل حملتهم ، فلاهم قادرون على اقتحام الخندق ، ولا يستطيعون النفاذ من جهة أخرى .. واستطاعت يقظة دوريات المسلمين المتوالية أن تخيف بني قريظة وتحول دون نزولهم من الحصون وهجومهم على المسلمين من الخلف ، وضعفت معنويات الأحزاب، خاصة وأنهم لم يجتمعوا على هدف واحد ، فبعض القبائل الأعرابية لم يكن همها إلا الإغارة السريعة على المدينة وجني الغنائم ، بينما كان هم قريش استئصال المسلمين .. لذا بدأ بعضهم يفكر في الانسحاب ، والرجوع عن المدينة.

وتنقل بعض الروايات خبر نعيم بن مسعود الغطفاني الذي هداه الله للإسلام في ذلك الوقت العصيب، ولم يكن أحد من الأحزاب واليهود يعلم بإسلامه، فأخذ نعيم يزرع الشك بين الأحزاب واليهود، وأغرى بعض اليهود بطلب الرهائن من الأحزاب كي يقاتلوا معهم، خشية انصراف الأحزاب عنهم، وأخبر قريشا أن اليهود يطلبون الرهائن لتسليمها إلى المسلمين تكفيراً عن محاولتهم السابقة بالغدر بهم، فوقع الشك بين الطرفين، ولم تخرج قريظة لقتال المسلمين.. واستمر الحصار أربعة وعشرين يوما، وشعر الأحزاب أنهم لن يحققوا شيئاً.

وفي الليلة الأخيرة هبت ريح شديدة باردة عصفت بخيامهم.. وأطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم.. فاشتد يأسهم من تحقيق أي نصر، وقرروا الرحيل، وانسحبوا عائدين إلى بلادهم.

---

١) ابن سعد ٢/٦٧ -.

وهكذا انفض الأحزاب عن المدينة، وأذهب الله شرهم ، ولم يخسر المسلمون سوى ثمانية شهداء (أحدهم سعد بن معاذ الذي جرح ولبث عدة أيام ثم توفي بعد معاقبة بني قريظة) واستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ خلال الحصار، اذ كان يدعو (اللهم منزل الكتاب وسريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم) فزلزلهم الله وهزمهم وعادوا بالتعب والخسارة لم ينالوا خيراً.

ثمار الغـزوة:

أثر هذا الانسحاب في معنويات قريش.. فلم تفكر ثانية بالهجوم على المدينة.. وأثر في الأحزاب الأخرى، فازدادت هيبة المسلمين في قلوبهم.. وأثرت على اليهود.. إذ عجّلت بنهاية بني قريظة جزاءً وفاقاً لمحاولتهم الغدر بالمسلمين.. وآتت ثماراً جيدة للمسلمين، إذ قر في نفوسهم أن قريشا وأحلافها قد كسرت شوكتهم ولن تقوم بعد ذلك بمهاجمة المسلمين.. وقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك فقال إثر انسحاب الأحزاب (الأن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم) (١).

لقد كانت وقعة الخندق نقطة تحول كبيرة في خطة العمل العسكري والسياسي عند المسلمين.. فلم يعد الأمر يقتصر على إرسال سرايا إلى طريق القوافل وبعض القبائل.. بل تحول بعد ذلك إلى غزوات كبيرة تخرج بعيدا عن المدينة فتطرق أبواب مكة، ثم تفتحها بعد حين- وتمضي إلى تبوك ومؤتة... أي أنها تأخذ بعداً شاسعاً يتعدى دائرة منطقة مكة والمدينة..

---

١)البخاري ٥/١٤٨ -

عقـوبة الـغادريـــن:

كان من الضروري تأمين المدينة من الداخل.. واجتثاث مصادر التهديد والغدر من بين أحيائها، فقد كشفت غزوة الخندق عن خطر بني قريظة واستعدادهم للغدر في أية لحظة.. بل إن غدرهم كان أخطر ما واجه المسلمين في المدينة.. لأنه جاء في أوقات عصيبة، وهو مايسمى في مصطلحاتنا الحديثة: الخيانة العظمى.

لذا لم تكد الأحزاب تنسحب من المدينة، ويرجع المسلمون إلى بيوتهم، حتى أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتوجه إلى بني قريظة.. ففي اليوم التالي مباشرة نزل عليه الوحي يأمره بذلك، فأرسل من ينادي في المسلمين: لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة... فخرجت جموع المسلمين (١) إلى منطقتهم.. وأدرك بنو قريظة أن جريمتهم لن تمر، فدخلوا حصونهم، وقرروا مناجزة المسلمين من خلالها..

وفي الليلة التالية لانسحاب الأحزاب أحاط المسلمون بحصون بني قريظة وحاصروها حصاراً شديداً.. واستمر الحصار خمسة عشر يوما.. وتروي بعض الأخبار أن سيدهم كعب بن أسد حاول أن يحملهم على الدخول في الإسلام، والنجاة من العقوبة، فأبوا، وأبوا الخروج للقتال.. وأخيرا استسلموا للمسلمين.

وحاول بعض حلفائهم السابقين من الأوس إنقاذهم.. فحكّم رسول الله ﷺ فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ، فقال سعد: «لقد آن لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم» وحَكم بأن يُقتل مقاتلوهم وتسبى ذراريهم.. ونفذ الحكم فيهم، إلا من لم يشارك في نقض العهد (كعمرو بن سعد القرظي) والذين

---

١) البداية ٤/١١٩ -.

أسلموا منهم، (١) وقتل معهم حيي بن أخطب النضري الذي أقنعهم بنقض المعاهدة والغدر بالمسلمين، وكان قد دخل معهم الحصن..

تأمين المدينة:

عندما كسرت شوكة اليهود، تخلصت المدينة من خطر كان يتغلغل بين أحيائها وينذر بالغدر في أي حين.. وانتهى شر فئة مالبثت تعاند الرسول ﷺ، وتجتهد في الإرجاف بالمسلمين وبذر الفتنة والشقاق وإذكاء النفاق فيهم. ولكن اليهود لم ينتهوا تماما من المدينة، فقد بقيت منهم بقية، وكانوا منتشرين بين الحرة الشرقية وقباء والعوالي، وعاشوا مع المسلمين إلى أن أخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته.

صارت المدينة بعد القضاء على بني قريظة مركز قوة حقيقية، ولم يعد فيها مايقلق أمنها الداخلي.. فباستثناء أولئك اليهود، لم يبق فيها أحد لم يدخل الإسلام ، حتى البطون الأوسية التي لم تكن قد أسلمت من قبل، سارعت بعد الخندق إلى الدخول في الإسلام، وكذلك فعل الذين في قلوبهم مرض، أعلنوا الإسلام وأسروا النفاق.. وقد ترفق بهم رسول الله ﷺ أول الأمر، وكان الوحي يخبره بهم، وكانوا يحضرون مجالس رسول الله ﷺ بين الحين والآخر ويصلون في المسجد معه، بل وخرجوا معه إلى الغزوات، فإذا خلا بعضهم إلى بعض خاضوا في الإسلام والمسلمين.. ومع ذلك فلم يكونوا يشكلون خطراً، إذ لم يعد في المدينة قوة تدعمهم، ومن طبيعة المنافقين أنهم جبناء، لايجرؤون على التصريح بموقفهم الحقيقي، لذا لن يجرؤوا على المواجهة المكشوفة، وكل مايفعلونه أن ينشروا الحكايات الكاذبة والإشاعات، وأن ينتهزوا أية فرصة مواتية ليفتّوا في عضد المسلمين وينالوهم بألسنة السوء، وقد أصلحت هذه الملاينة عدداً منهم، فتابوا وحسن إسلامهم، بينما اشتط آخرون.. حتى بلغ بهم الأمر أنهم أصبحوا يجلسون في المسجد

---

١) البداية والنهاية ١٢٣/٤ -.

متلاصقين يتخافتون الحديث وينفثون مافي صدورهم من حقد. ولم يَبدُ خطرهم إلا بعد ذلك بسنوات، عندما اشتد النفاق كما سنعرض بعد قليل...



المنطقة التي سكن فيها بنو قريظة تحولت إلى بساتين للنخيل

المدينـة بيـئة إسـلامية قويـة:

أصبحت المدينة قوة حقيقية تمسك زمام المبادرة في الأمور العسكرية والسياسية، وكان القادرون على حمل السلاح يسارعون للاكتتاب في أية غزوة يعلن عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقد كثر عدد المسلمين بسبب دخول معظم أهلها في الإسلام من جهة، وبسبب هجرة أعداد أخرى كبيرة إليها.. فبينما كان عدد المشاركين في أُحد من المسلمين ألف رجل وجدنا عدد المشاركين في الخندق ثلاثة آلاف رجل.. إذن تضاعف عدد المسلمين ثلاث مرات خلال سنتين.. واستمر العدد يزداد شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة.. وكما أخبر رسول الله ﷺ بعد إنصراف الأحزاب ((الآن نغزوهم ولا يغزونا)) فقد أصبحت الحملات تتجهز في المدينة من أهلها وممن حولها من المسلمين وتخرج إلى المناطق القريبة والبعيدة، وكان أول ماخرج بعد الانتهاء من أمر بني قريظة سرية أرسلها الرسول ﷺ في ثلاثمائة رجل من الأنصار والمهاجرين، يقودهم أبو عبيدة بن الجراح، لرصد قافلة لقريش على طريق البحر، وكانت السرية تأكيدا لفشل قريش في تحقيق أي هدف من أهدافها في غزوة الخندق، وفشلها حتى في حماية خطوط تجارتها..

واستطاعت سرية ثانية أن تظفر بتجارة لقريش يقودها أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وأفلت أبو العاص، ثم جاء إلى المدينة واستجار بزوجته السابقة زينب فأجارته، ورد عليه المسلمون تجارته.. فذهب بها إلى قريش وسلمهم إياها ، ثم عاد إلى المدينة وأسلم.. وتوالت السرايا والبعوث إلى الأطراف.. وكانت تغنم الغنائم وتسوقها إلى المدينة.. ولم يعد يهددالمدينة أحد..

وجاء بعض بني فِهر -من العرنيين - إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم بالعودة إلى باديتهم، فأذن لهم وأعطاهم إبلا وراعيين.. فلما خرجوا منها إلى الحرة قتلوا الراعيين ومثلوا

بهما وارتدوا كافرين.. فأرسل ﷺ في أثرهم بعض المسلمين، فقبضوا عليهم وعاقبوهم عقوبة الحرابة..

وباستثناء هذه الحادثة .. كانت الحياة تجري في المدينة المنورة هادئة، يلتفّ المسلمون حول رسول الله ﷺ في المسجد.. ويسمعون أحاديثه.. ويتلقون منه ما ينزل عليه من القرآن والأحكام.. ويأتي المدينة عدد من أهل المناطق المجاورة، ويسلم بعضهم، وتصل بعض النساء مهاجرات من مكة هرباً بدينهن فيستوعبهن المجتمع الجديد..

صلـح الحديبـــية:

وقبل نهاية هذه السنة، في ذي القعدة ، خرج رسول الله ﷺ من المدينة لأداء العمرة، وخرج معه ألف وخمسمائة مسلم من المهاجرين والأنصار.. وكان خروجهم إعلانا صريحاً عن تعظيم المسلمين لمكة المكرمة. وإقرارِ الإسلام لفريضة العمرة .. غير أن قريشاً التي كانت تعاني من فشل حملتها يوم الأحزاب، ومن آثار الحصار الاقتصادي الذي قامت به سرايا المسلمين، رأت في قدوم المسلمين مهانة لها.. وخشيت أول الأمر أن يكون قصدهم أخذ مكة عنوة.. فتأهبت للقتال .. وخرجت بجموعها لصد المسلمين.. ولكن الرسول ﷺ حرص على تجنب المواجهة وأرسل الرسل يؤكد لقريش أنه جاء معتمرا وليس محارباً، ونزل بالحديبية على مسافة إثنين وعشرين كيلاً من مكة.. وتوالت الوفود بين المسلمين والمشركين.. واقتنع المشركون أن المسلمين لايريدون حرباً، وتحوّلت المراسلات إلى اتفاق على الصلح ووضع الحرب بين الطرفين، واشترطت قريش شروطاً رآها بعض المسلمين مجحفة..

وكان رسول الله ﷺ حليماً بعيد النظر فرضي بشروط قريش للصلح، وكان أهمها أن يؤجل المسلمون عمرتهم إلى العام التالي، وأن تقوم هدنة مدتها عشر سنوات.. وأن تُترك الحرية للقبائل تحالف من تشاء من المسلمين أو قريش.. وأن يَرد المسلمون من جاءهم من القرشيين إذا طلبهم ذووهم ولا

يَرد المشركون من جاءهم فاراً من المسلمين.. واغتم كثير من المسلمين لهذه الشروط وتألموا ألماً شديداً، واجتهدوا في رفضها، ولكنّ رسول الله ﷺ قبلها وكتب المعاهدة. ورجع المسلمون إلى المدينة بعد أن أقاموا في الحديبية عشرين يوما، واستغرقت رحلتهم ذهاباً وإياباً شهراً ونصفَ شهر.. وقد رأى المسلمون بعد ذلك صحة توجه النبي ﷺ في قبوله شروط قريش، فقد خدمت المعاهدة مصالح المسلمين إلى أقصى حد.. وأرسلت قريش بعد حين ترجو رسول الله ﷺ وتناشده اللهَ والرحم بإلغاء الشرط الذي اشترطته على المسلمين برد من جاءها من أبنائهم، لأن الذين أسلموا ولم يحمهم المسلمون بهذا الشرط، وكان عددهم سبعين رجلا، فروا إلى الجبال، وشكلوا قوة تغير على قوافل قريش وتفتك بهم فتكا شديداً (وأشهرهم أبو جندل وأبو بصير) وطلبت من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم.. ومن قدم إليه منهم فهو آمن.. فأرسل إليهم رسول الله ﷺ.. وكان من فوائد هذه المعاهدة أن عدداً من القرشيين ممن حاربوا المسلمين بشدة تهيأت له فرصة للتفكير وإعادة النظر في أمره.. فقد كسرت حدة العداوة، وأصبح من الممكن أن يظهر منطق العقل.. وبالفعل أسلم بعد الحديبية خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.. وهاجرا إلى المدينة.. وكان لهما شأن في الغزوات والحروب.. كما أن المعاهدة أتاحت للمسلمين التفرغَ لشأن القبائل الأخرى غير المحالفة.. واليهود الذين تجمعوا في خيبر وفدك ووادي القرى، وبدؤوا يفكرون جديا بالهجوم على المدينة وضرب المسلمين، كما أتاح الفرصة لإعلان الدعوة إلى الآفاق البعيدة وإرسال الرسل والأمراء في أطراف الجزيرة العربية وخارجها...

كانت قريش وحلفاؤها الهمَ الأكبر.. يليهم اليهود.. فلما كسرت شوكة اليهود لم يبق إلا قريش وحلفاؤها.. لذا عندما كتبت معاهدة الحديبية وجد المسلمون فرصة كبيرة للدعوة والتحرك في الجزيرة العربية والتوجه نحو

القبائل.. فنشطوا في فترة السلم هذه للدعوة الى الله. كما نشطوا لضرب اليهود..

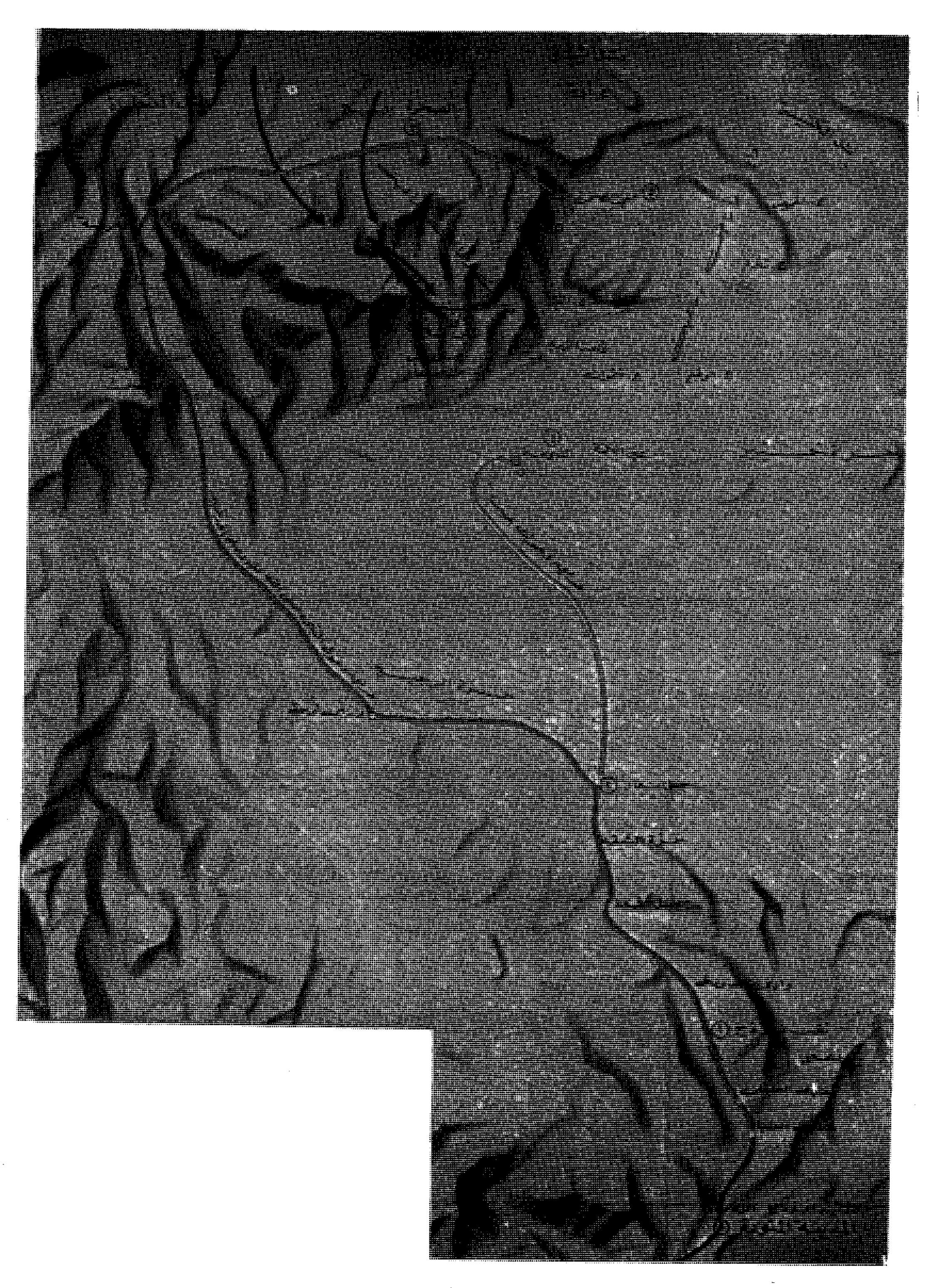
انتصار في خيبر:

اشتد أمراليهود في خيبر، وتجاوز عدد مقاتليهم عدة آلاف بعد أن هاجر إليهم بعض يهود المدينة، وكان لهم حصون منيعة.. وقد تحالفوا مع غطفان، وأصبحوا يشكلون خطراً على المسلمين، لذا انتدب رسول الله ﷺ المسلمين لقتالهم، وسار بالجيش فنزل بموقع يحول بينهم وبين حلفائهم غطفان، وبعد حصار وقتال شديدين سقطت حصون خيبر كلها، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وصالحوا اليهود على أن يبقوا في خيبر ما شاء المسلمون ذلك، ويعملوا في الأرض بالمشاركة. وعاد المسلمون إلى المدينة معززين بنصر الله.. فقد كان هذا الفتح تدعيماً لمركزهم السياسي، وضربا لأكبر تجمع بعد الأحزاب..

ولما كانت قريش في هدنة مع المسلمين، فإن ضربة يهود خيبر قد أمنت المدينة من كل الأخطار الخارجية.. كما أن غنائم هذه الغزوة قد عادت بالخير والسعة على المسلمين في المدينة، وكانت المدينة في حاجة إلى موارد جديدة، فقد كثر سكانها وأصبحت مواردها أقل من أن تفي بحاجاتهم.. خاصة وأن من المسلمين من كان يرابط للجهاد.. حتى لتقول عائشة رضي الله عنها: ماشبعنا التمر إلا بعد أن فتحت خيبر.

انتصارات أخرى:

ومرت السنة في أمنٍ ودعة.. وكانت سنة توفيق وانتصارات.. فقد خرجت عدة سرايا من المدينة إلى هوازن وغطفان، قادها كل من أبي بكر وعمر، وغالب بن عبد الله، وبشير بن سعد، واشتبك بعضها مع المشركين، بينما لم يلق بعضها الآخر قتالاً، لأن الذين قصدوهم سمعوا بهم ففروا.



فتح خيبر

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

عمرة القضـــاء:

ولما حل شهر ذي القعدة خرج رسول الله ﷺ إلى العمرة ومعه عدد كبير من المسلمين. فأخلى معظم المشركين مكة غيظاً وضيقاً.. فدخلها المسلمون واعتمروا وأقاموا فيها ثلاثة أيام ونحروا عدداً من البدن.. ثم عادوا إلى المدينة.

جهاد وشهادة في مؤته:

كان الروم لايأبهون لما يحدث في الجزيرة العربية، فلما قويت شوكة المسلمين في المدينة، بدؤوا يهتمون بالأمر، وفكر بعض أتباعهم في الأردن أن يهاجموهم.. وجاء الخبر إلى المدينة بوجود حشود في الأردن.. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إلى شرحبيل بن عمرو الغساني كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام مع الحارث بن عمير، فاستكبر شرحبيل وقتل الحارث بن عمير خلافا للعرف السائد بأن الرسل لاتقتل، فغضب رسول الله ﷺ وجهز جيشاً بقيادة زيد بن حارثة فيه ثلاثة آلاف مجاهد، منهم جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد وغيرهم من كبار الصحابة.. فسار الجيش إلى مؤتة ولقيه جمع هائل من الروم قدره الواقدي بمئة ألف.. وأصيب المسلمون وقتل زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة.. وتسلم القيادة خالد بن الوليد فأعاد تنظيم الجيش، واستطاع أن يوهم الروم بأن مددا قد جاءه وانسحب بسلام من المعركة وحقن دماء بقية المسلمين.. وقد اغتم المسلمون في المدينة لنتائج هذه الموقعة، حتى أن بعضهم أخذ يحثو التراب في وجوه العائدين من مؤتة.. ويتهمهم بأنهم الفرارون، ولكن رسول الله ﷺ قال: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرار إن شاء الله.. وقد أفاد المسلمون من هذا اللقاء الصعب مع الروم دروساً وخبرات كبيرة استثمروها في حركاتهم الجهادية التالية: تعرفوا على عدوهم وأساليب قتاله، والأرض التي يقاتل عليها.

حملات وقائـــية أخـرى:

خلفت غزوة مؤته بعض الآثار السـلبية، أخطرها أن بعض القبائل استهانت بالمسلمين، وبخاصة قبيلة قضاعة، التي قاتـل بعض أبنائها مع الروم ضد المسلمين.. لذا بدأت تجهز لغزو المدينة..

فأراد رسول الله ﷺ أن يبادرها بضربة وقائية، وأمر بتجهيز حملة سريعة، فتجهزت حملة قوامها خمسمئة مجاهد، أسرعت إلى منطقتهم، وعلم القضاعيون بالحملة ففروا وتشتت جمعهم.. ولم تعد قضاعة تفكر في غزو المسلمين، وأسلمت بعض القبائل المحيطة بها أو حالفت المسلمين، فازدادت المدينة منعة ، وصارت مركزاً كبيراً يؤمه الناس من الأطراف لوجود رسول الله ﷺ فيها، ولأنها مركز الحركة العسكرية والسياسية الواسعة..

الفتـح المبـــين:

ومـرت الشهور، وشاء الله أن تحدث حادثة تهتز لها المدينة، ويخرج المسلمون ليكتبوا صفحة جديدة وواسعة من التاريخ الإسلامي، هذه الحادثة هي موقعة وقعت بين بني بكر حلفاء قريش، وبني خزاعة حلفاء المسلمين.. وتجاوز القرشيون شروط عهد الحديبية، وأعانوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء المسلمين.. فجاء الصريخ إلى المدينة المنورة يشكو إلى رسول الله ﷺ ما حل بخزاعة.. وكان بعضهم قد أسلم وأقام شعائر الإسلام، عندئذ رأى رسول الله ﷺ أن قريشاً بفعلها هذا قد نقضت العهد، وآن الأوان أن يستأصل الشرك فيها.. وأدرك القرشيون فداحة خطئهم، فحاولوا تداركه، وجاء أبو سفيان إلى المدينة محاولاً تجديد الصلح دون فائدة، فقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالمدينة أن يتجهزوا للخروج.. ولم يعلمهم بوجهته -خلافاً لما كان يفعله في الغزوات السابقة- وأرسل إلى القبائل المسلمة حول المدينة ليخرجوا معه.. فأدركه بعضهم في المدينة ولحقه بعضهم الآخر خارجها، وسار بالجيش، ولم تنتبه قريش للأمر إلا عندما وصل جيش

المسلمين إلى مرْ الظهران قرب مكة.. وأُسقط في يد المشركين، وخرج سادة مكة: أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، فلقيهم العباس عم الرسول ﷺ، وذهل هؤلاء لعدد الجيش الذي بلغ عشرة آلاف مسلم.. وهذا أكبر عدد يخرج في غزوة إلى ذلك الحين، فأسلم أبو سفيان وعاد يحذر قومه من مواجهة المسلمين ويطلب منهم الاستسلام، غير أن بعض القرشيين أبوا ذلك، وجمعوا بعض أحلافهم من القبائل، ووقفوا في وجه الجيش الفاتح، وكان عددهم ضئيلا فتغلب عليهم المسلمون بسهولة، ودخل رسول الله ﷺ مكة من جهة كُدي، ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة، وبلغ عدد القتلى أربعة وعشرين قتيلا من المشركين، وكان رسول الله ﷺ قد أمر القادة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم سوى أربعة من الرجال أهدر دماءهم، وقد تمكن المسلمون من اثنين منهم هما: عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة، ونجا اثنان هما عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي سرح وأسلما بعد ذلك.. وأباح الرسول ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح، فلما كان العصر أعلن وقف القتال، وأعلن حرمة مكة.. ثم جمع عامة أهل مكة وعفا عنهم..

وخشي أهل المدينة أن يكون الأمان الذي أعطاه الرسول ﷺ لقريش دليلا على رغبته في البقاء فيها.. ولكن الرسول ﷺ طمأنهم بقوله: المحيا محياكم والممات مماتكم..

وأمر رسول الله ﷺ بتحطيم الأصنام والأوثان وتطهير البيت الحرام ولم يدخل الكعبة إلا بعد أن طهرت منها... وهكذا سقطت الوثنية من أقدس مركز وأكبره، وتوافد كثير من أهل مكة على رسول الله ﷺ فأسلموا بين يديه.

ملاحقة الشرك حول مكة:

تحول ثقل الشرك بعد فتح مكة إلى قبيلتي هوازن وثقيف خارج مكة، وسارعت هاتان القبيلتان إلى جمع جموع المشركين والاستعداد لمواجهة المسلمين.. فلم يكن للجيش الإسلامي الذي خرج من المدينة وما حولها بد من

أن يتجه إلى تلك الجموع، ويضربها بقوة قبل أن يعود إلى المدينة.. وتمهيداً لتلك الضربة توجهت سريتان إلى ديار ثقيف وهوازن فأصابت من أطرافهم وعادت بأخبار استعداداتهم لمواجهة المسلمين.. ولما مضى نصف شهر على فتح مكة انتدب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدر السلمي ليذهب إلى أماكن تجمع القبيلتين، فذهب ومكث فيهم يومين ورصد أخبار المشركين وعاد بالخبر إلى المسلمين.. وقد قدر تلك الجموع بعشرين ألف مقاتل: أي ضعف عدد المسلمين الذين فتحوا مكة.. فأمر رسول الله ﷺ بالمسير إليهم، واستعار بعض السلاح من صفوان بن أمية، وكان ما يزال على الشرك.

شوائب في جيش المسلمين:

انضم إلى الجيش المتجه إلى ثقيف وهوازن عدد من طلقاء مكة الذين أسلموا حديثا، يقدر عددهم بألفي رجل.. وكان لمشاركتهم آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتخلصوا من رواسب الجاهلية بعد، حتى إنهم لما رأوا في الطريق إلى حنين شجرة تعرف بذات أنواط يعلق عليها المشركون أسلحتهم استفتاحا للنصر، قال بعضهم: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: سبحان الله، كما قال قوم موسى اجعل لنا إلاهاً كما لهم آله - والذي نفسي بيده لتركبن سنة من قبلكم(١).. وكان بعض الذين خرجوا مع الجيش منهم ومن الأعراب إنما خرجوا طلباً للغنيمة، ولم يفهموا بعد معنى الجهاد، وأصاب بعضهم العجب لكثرة عدد الجيش، فقالوا، لن نغلب اليوم من قلة. وقد سبقت جموع المشركين إلى وادي حنين ونصبوا كمائن للمسلمين في مرتفعاته، فلما دخل المسلمون في الوادي اشتبك معهم بعض فرسان المشركين واستدرجوهم إلى داخله.. وظن المسلمون أن المشركين قد هزموا فتبعوهم داخل الوادي، ففاجأتهم الكمائن بوابل من السهام.. أحدثت ذعراً في صفوف الجيش، واضطرب الكثيرون.. وبدأ حديثو

---

١) أنظر مسند أحمد ٢١٨/٥ -.

العهد بالإسلام والأعراب بالفرار، وصمد رسول الله ﷺ ومعه فئة قليلة، ووقف العباس ينادي بصوته الجهوري في المسلمين ليرجعوا ويلتفوا حول رسول ﷺ، وثبت المسلمون رغم ما أصابهم من جراحات كبيرة.. وبدأ بعض الفارين بالعودة.. وتكاثروا، واشتد القتال وبدأت جولة ثانية حامية حمل فيها المسلمون بصدق على المشركين، ودعا رسول الله ﷺ بحرارة.. ولم تصمد جموع هوازن وثقيف طويلاً فبدأت بالفرار.. وتعقبهم المسلمون إلى أوطاس، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا أموالا ضخمة كانت أكبر غنيمة تقع في يد المسلمين حتى ذلك الوقت، واستشهد أربعة من المسلمين فقط وجرح الكثيرون..

تابع المسلمون طريقهم إلى الطائف وكانت شديدة التحصين، فحاصروها بضع عشرة ليلة، وأصيب في الحصار عدد من المسلمين، ولم يكن الرسول ﷺ يقصد فتحها، بل كسر شوكة ثقيف وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاؤوا دخلوها، وما كان الرسول ﷺ ليشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء لفتح بلد حصين يحيط به الإسلام من كل مكان، وليس له إلا الإسلام والاستسلام طال الوقت أم قصر ، كما أنه كان يحرص على ثقيف حرصه على قريش من قبل، فهم إن تحولوا إلى الإسلام عن طواعية كانوا مادة له.. وقد سأله بعض الصحابة أثناء الحصار أن يدعو على ثقيف فدعا: اللهم أهْدِ ثقيفاً(١)، لذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بفك الحصار والعودة إلى المدينة.

استعلاء الايمان:

وفي طريق العودة، ظهرت آثار تربية الرسول ﷺ للأنصار في المدينة المنورة.. واستعلت قوة الإيمان فيهم أيما استعلاء.. ذلك أن الرسول ﷺ كان قد أمر بحبس غنائم معركة حنين في الجعرانة ومضى إلى الطائف ولم

---

١) المجتمع المدني ص٢١٣

يقسمها.. وفي طريق العودة توقف في الجعرانة ووزع الأموال بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك، فأعطى طلقاء مكة والأعراب عطاءً ضخما يتألفهم، لأنهم حديثو عهد بالإسلام ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد، وخص زعماء القبائل بمئة من الإبل لكل منهم، فأثرت فيهم هذه الأعطيات الضخمة، وزادتهم رغبة في الإسلام، وحسن بلاؤهم فيما بعد: وهم الأقرع بن حابس وأبو سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والعباس بن مرداس... وقد قال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي(١).

وقد تأثر بعض الأنصار إذ لم يصبهم شيء من تلك الأعطيات، وتحدثوا في الأمر.. وبلغ الحديث رسولَ الله ﷺ فجمعهم وخطب فيهم قائلا: ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف بين قلوبكم؟ قالوا، بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال : ألا تجيبوني يامعشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما والله لوشئتم لقلتم ولصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصار وأبناءَ أبناءِ الأنصار..... فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا

---

١) صحيح مسلم ١٨٠٦/٤ -.

رضينا برسول الله قَسْماً وحظا(١). وعاد المسلمون إلى المدينة وهم في ذروة الإحساس بنصر الله...

المدينــة تنمــو:

عاد مـع الجيش الذي خرج من المدينة أعداد كبيرة ممن أسلموا وقرروا مجاورة الرسول ﷺ في المدينة.. والمشاركة فيما ينتدب إليه للجهاد.. فكسبت المدينة أعداداً جديـدة من المسلمين، وعظم شأنها في الجزيرة العربية كلها، خاصة بعد أن سقط الشرك في مكة المكرمة، وطهر بيت الله الحرام من الأصنام.. ولم يعد لقريش الوثنية مكانة في القبائل التي لم تسلم بعد...

المدينــة تستقبل الوفـود:

اتجهت الأنظار إلى المدينة المنورة حيث رسول الله ﷺ يدير أمور المسلمين ويرسل البعوث والسرايا والدعاة، وبدأت القبائل ترسل الوفود إلى المدينة، فوصل في هذه السنة عدد من تلك الوفود.. كان من أهمها وفد ثقيف التي حاصرها المسلمون في الطائف.. وقد أكرم الرسول ﷺ وفادتهم، وضرب لهم خيمة في طرف المسجد، وحاول الوفد الحصول على تنازلات عقدية مقابل دخولهم في الإسلام، فقد طلبوا إعفاءهم من الصلاة، وأن يبقى لهم صنمهم اللات، ولكن رسول الله ﷺ أبى ذلك، وأخيرا دخلوا في الإسلام وطلبوا ألا يكسروا صنمهم بأيديهم، فأرسل رسول الله ﷺ معهم بعض الصحابة من المدينة ليكسروه.. وكان ماأمله رسول الله ﷺ من ثقيف حين فك الحصار عنها، فقد جاءت طائفة منهم ودخلت الإسلام عن رغبة...

العســرة والجهــاد:

وشاء الله في ذلك العام أن يقل المطر ويحدث قحط ومجاعة، وتأثرت المدينة لذلك، فمن جهة كثر عدد سكانها، واشتغل كثير منهم بالجهاد، ولم تعد المحاصيل كافية... لذا اشتد الأمر على المسلمين..

---

١) ابن هشام ١٣٨/٤ -.

وفي هذا العام أمر الرسول ﷺ بالتجهيز لغزو الروم في تبوك، ولم يكن لدى بعض المسلمين ما يتزود به للرحلة الطويلة ولا مايركبه، وظهرت صعوبات في تجهيز الجيش.. خاصة وأن الصيف قد حل بحرارته الشديدة، والموسم قليل العطاء.. ولكن التربية الإيمانية العظيمة جعلت المسلمين يتغلبون على كل الصعوبات.. فقد تسابقوا بمالديهم لتجهيز الجيش، فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار وصبها في حجر رسول الله ﷺ فراح النبي ﷺ يقلّبُها ويقول: ماضرّ عثمانَ مافعل بعد اليوم، وأنفق عبد الرحمن بن عوف نصف ماله، وجاء آخرون بما قدروا عليه، وقد محص هذا الموقف الصعب نفوس كثير من الناس في المدينة، وأظهر دخائل المنافقين الذين وجدوا فرصة في لمز المسلمين والنيل منهم بألسنتهم.. وكان قد كثر عددهم بسبب قوة المسلمين وخوف ضعفاء النفوس من أن يجهروا بموقفهم الحقيقي.. فأبطن هؤلاء النفاق وأظهروا الإسلام.. ولم يكن لهم مركز يجمعهم، وعندما ازداد عددهم حاولوا جمع شتاتهم، واجتهد أحد الحاقدين على الإسلام في جمعهم وتقوية شأنهم وهو أبو عامر الفاسق، فأرسل إليهم أن يبنوا مسجدا ويتجمعوا فيه، وأخبرهم أنه سيسافر إلى الروم ليقنع القيصر بإرسال حملة معه إلى المدينة لاستئصال المسلمين، وعليهم أن يكونوا مستعدين لضرب المسلمين من الداخل إن جاء بالحملة.. فبنى المنافقون مسجدا وزعموا أنه للمنفعة العامة والتوسعة على المسلمين، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه، فاستمهلهم رسول الله ﷺ إلى أن يعود من تبوك،

وخلال مدة قصيرة تجهز الجيش، وبلغ عدده ثلاثين ألف رجل(١).

سار الجيش بقيادة رسول الله ﷺ حتى وصل إلى تبوك فلم يلق الروم، وأرسل رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد في كتيبة إلى دومة الجندل، فأسر أميرها، ثم صالحه على الجزية. ومكث المسلمون عشرين ليلة في تبوك، ووادعتهم القبائل المجاورة، ثم عادوا إلى المدينة المنورة.

تدمير مركز المنافقين:

وقبل أن يدخل الجيش العائد المدينة أوحى الله إلى رسوله ﷺ بأمر مسجد المنافقين، وسماه القرآن الكريم مسجد الضِرار، وبين سوء طوية مؤسسيه ((والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، ولَيحْلِفُنّ إِنْ أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون..))(٢) فأرسل رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة وأمرهم أن يسبقوه إلى المدينة ويحرقوا ذلك المسجد، فأحرقوه..

نتائج طيبة:

حققت غزوة تبوك أهدافها.. فنشرت هيبة المسلمين شمالي الجزيرة العربية وجعلت تلك المنطقة تابعة للمدينة المنورة، وكان ذلك تمهيدا لفتوح الشام فيما بعد.. كما أن القبائل التي لم تسلم بعد في سائر أنحاء الجزيرة أدركت أن الإسلام قد أصبح القوة العظمى، وأن المدينة المنورة أصبحت عاصمته.. فبدأت بإرسال الوفود المتوالية إليها تبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، وترسل صدقاتها إلى بيت مال المسلمين في المدينة، فمنذ مطلع العام التاسع للهجرة توالت وفود القبائل على المدينة.. ولم تبق قبيلة في شرق الجزيرة أو شمالها أو جنوبها إلا وبعثت وفودا إلى المدينة المنورة...

إضافة إلى تلك الأهداف، حققت الغزوة هدفا تربوياً آخرَ بدا في قصة

---

١) فتح الباري ١١٨/٨ - الواقدي ٩٩٦/٣ -.

٢) التوبة ١٠٧ -.

الثلاثة الذين خُلِفّوا، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فلم يخرجوا مع المجاهدين ولم يكن لهم عذر، وندموا ندماً شديداً على تخلفهم، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فقاطعوهم مقاطعة تامة، وحبس الثلاثة أنفسهم في بيوتهم يستغفرون الله ويبكون، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وبعد أربعين يوما نزل الوحي بقبول توبتهم.. فكان ذلك درساً من دروس الإيمان والطاعة...

المدينة في العام الهجري التاسع:

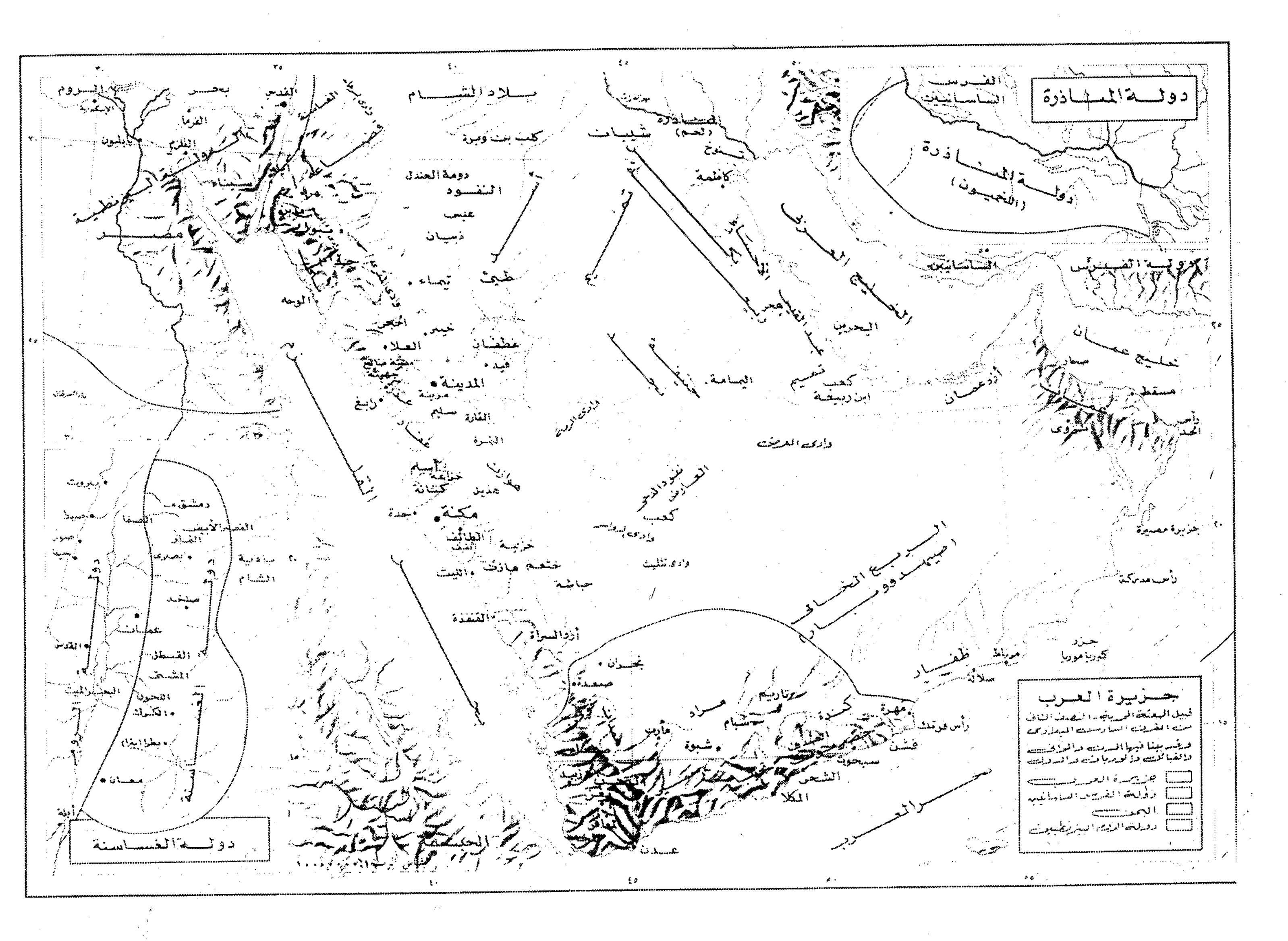
شهدت المدينة في هذا العام حركة (دبلوماسية)، نشطة فقد توالت عليها الوفود من المدن والقبائل القريبة والبعيدة لتلقى رسول الله ﷺ وتسأله في أمر الدين الجديد، بعد أن كتب الله له الانتصار والانتشار، فيسلم بعضها ويحمل الإسلام إلى قومه، ويطلب بعضها الآخر مهلة للتفكير، ويسالم بعضها الآخر ويدفع الجزية.. وقد سمى المؤرخون هذا العام عام الوفود، فقد بلغ مجموع تلك الوفود أكثر من ستين وفدا(١)، وكان من بين الوفود وفد من نصارى نجران، دعاهم رسول الله ﷺ للإسلام فأبوا، ودعاهم إلى المباهلة فرضوا أول الأمر، ثم خافوا أن تصيبهم لعنة الله فطلبوا المصالحة على أن يدفعوا الجزية.. وقد كان دفعهم للجزية بمثابة تقديم الولاء لدولة الإسلام والتحول عن دولة الروم التي كانت صلاتهم بها وثيقة... كما قدمت وفود من اليمن معلنة الإسلام.. وهكذا أصبحت المدينة العاصمة الكبرى لدولة إسلامية تغطي شبه الجزيرة العربية..

الدولة الإسلامية القوية:

ومالبثت سلطة هذه الدولة أن تعززت بشكل نهائي عندما نزلت سورة براءة.. وكان رسول الله ﷺ قد انتدب أبا بكر ليخرج بالناس إلى الحج.. فأتبعه بعلي بن أبي طالب ليقرأ السورة ويعلن نهاية العهود مع المشركين،

---

١) سيرة ابن هشام ٢٣٥/٤



المدينة مركز الدولة الإسلامية القوية ووسط القبائل العربية

مصور للقبائل العربية في الجزيرة العربية وقد اسلم بعضها ووادع بعضها الآخر المسلمين

المصدر: اطلس التاريخ الإسلامي

وإمهالهم أربعة أشهر ومنعهم من الحج في العام القادم.. ومن له عهد إلى مدة ينتهي العهد بانقضاء المدة ولا يجدد له.. وكان هذا إعلاناً حاسماً بالقضاء على الشرك واستواء الدولة الإسلامية القوية ، عاصمتها المدينة المنورة..

أيـــام قبل الوداع:

ومرت الأيام القليلة الباقية من حياة رسول الله ﷺ على المدينة المنورة وهي تعيش أسعد أوقاتها، ومات رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول.. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراج المنافقين من المسجد.. فأُخذوا أخذاً عنيفا وطردوا منه، وأفاء الله على المدينة خيرات وافرة.. ووردت أموال الزكاة من جهات كثيرة لتسد حاجة بيت المال، ولتقوم بأمر المدينة التي اتسعت وكثر سكانها، وانصرف بعض الساكنين إلى التجارة والزراعة، فكانوا يعملون فيها بعض النهار، ويسرعون إلى مسجد رسول الله ﷺ في أوقات الصلوات وحين يجلس للناس.. أو يدعو لأمر من الأمور.. وعندما أعلن رسول الله ﷺ أنه يعتزم الحج في العام العاشر من الهجرة خرج معه جمع غفير من المدينة وماجاورها.. ولحقه أناس آخرون من الطريق، حتى قُدر عدد الجمع بأربعين ألفا ، وتعلموا منه مناسك الحج، وسمعوا خطبة الوداع، وكان فيها دروس عظيمة للمسلمين.. وعندما عاد الحجيج إلى المدينة المنورة بدأ رسول الله ﷺ تجهيز جيش يسير إلى الشام.. وأمّر عليه أسامة ابن زيد الذي استشهد والده في مؤتة، وأمره بالتوجه إلى البلقاء وفلسطين، وتجهز الناس للخروج وفيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان.. وتكلم بعض الناس في إمارة أسامة على كبار المهاجرين والأنصار وهو صغير السن.. ولكن رسول الله ﷺ ثبته في الإمارة وأوصى به خيراً.. وكاد الجيش أن يتحرك عندما بدأ مرض رسول الله ﷺ فرابط بالجرف.. وجزع الناس لمرض الرسول ﷺ، وبدءوا يتوافدون على المسجد وينتظرون

رؤيته عندما يخرج للصلاة ليطمئنوا عليه، ولما ثقل عليه المرض لم يستطع الخروج إلى الصلاة، وأوصى أن يصلي أبو بكر بالناس، وراجعته عائشة فقالت: إن أبابكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فأصر رسول الله ﷺ على ذلك، فصلى أبو بكر بالناس، وخرج الرسول ﷺ مرة إلى المسجد يتوكأ على العباس وعلي، فخطب وأثنى على أبي بكر ، ثم ألمح إلى دنو أجله فقال: إنّ عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة. ففطن أبو بكر وبكى، وتعجب الذين لم يفطنوا إلى مافطن إليه لبكائه..

واهتم الناس اهتماماً شديداً لمرض رسول الله ﷺ، وفي أخر يوم من حياته أحس بشيئ من النشاط، وكان قد استأذن نساءه أن يمكث في بيت عائشة، فتحامل على نفسه إلى باب الحجرة وكشف سترتها، ورأى الناس صفوفا في صلاة الفجر، فتبسم، ثم ضحك وكأنه يودعهم، وأحس المسلمون به فكادوا أن يفتتنوا فرحا، وفرجوا الصفوف ، وتأخر أبو بكر ظناً منه أن الرسول يريد الخروج للصلاة، فأشار إليهم ﷺ أن يتموا صلاتهم.. ثم أرخى الستره ودخل الحجرة.

إلـى الرفـيق الأعلـى:

بعد ساعات قليلة اشتد عليه المرض، ودخلت عليه فاطمة فقالت: واكَرب أباه، فقال لها: ليس على أبيك كَرب بعد اليوم.. ودخل عليه أسامة بن زيد فدعا له بالإشارة، وكان يدخل يده في إناء فيه ماء ويمسح وجهه ويتمتم: لاإله إلا الله ، إن للموت سكرات، وأخذته بحة وهو يقول: اللهم في الرفيق الأعلى.. مع الذين أنعم الله عليهم، وأخذته عائشة رضي الله عنها في صدرها، ومالبثت أن فاضت روحه الشريفة إلى الرفيق الأعلى..

كان الناس خارج الحجرة مجتمعين في المسجد وحوله، وقد اشتد الضحى وكثر لغطهم.. فلما بلغهم الخبر بوفاته ﷺ زُلزلوا زلزالاً شديداً.. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشدهم تأثراً ولم يصدق الخبر، وهدد

من يقول إن رسول الله ﷺ قد مات بالقتل.. وكان أبو بكر غائبا في السُنْح، إذ كان قد استأذن رسول الله ﷺ عندما رأى نشاطه في الليلة السابقة أن يبيت في بيت له هناك فأذن له، وجاء أبو بكر فدخل الحجرة الشريفة، وكشف الغطاء عن وجهه رسول الله ﷺ وأكبّ عليه وقبله، وقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله طبت حيا وميتا.. ثم خرج إلى الناس، ورأى مابهم من زلزلة فاجتمعوا عليه، فوقف بثبات عظيم، وقال لهم أما بعد: من كان منكم يعبد محمدا فان محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لايموت، ثم تلا الآية الكريمة (وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين)(١). فسكن الناس وكأنهم لم يسمعوا تلك الآية من قبل. وجلس عمر على الأرض لاتحمله قدماه. وساد المدينة حزن عميق..

وانتهت بوفاته ﷺ أهم مرحلة في تاريخ المدينة المنورة وأعظمها على الإطلاق.. مرحلة بناء المجتمع الإسلامي الأول والدولة الإسلامية الأولى..

---

١) آل عمران الآيه ١١٤

الجانب السياسي للمدينة المنورة في عهد النبوة

كان وصول رسول الله ﷺ الى المدينة بداية الانعطاف الكبير في الحياة السياسية للمدينة، فالمسلمون الذين أصبحوا يشكلون نسبة مهمة بين السكان (١)ألقوا مقاليدهم الى رسول الله ﷺ فور وصوله. ولم يكن في المدينة أي تنظيم سياسي يمكن أن ينازع على الرئاسة أو ينضوي تحته من لم يسلم.. باستثناء اليهود الذين ظلوا في تجمعاتهم الخاصة، وتدبير شؤنهم بأنفسهم وبزعاماتهم الدينية..

ولم تكن الحياة آنئذ معقدة بحيث تصطدم المصالح، فالعلاقات الداخلية تقتصر على شؤون الحياة اليومية في الزراعة والتجارة والصناعات المحدودة، والتي يصح أن نقول انها أشبه بمصانع صغيرة -كما سنرى في بحث قادم- وهذه العلاقات مجموعة أعراف قديمة متوارثة.. وان حصل فيها تجاوزات معينة، كامتناع مدين عن دفع الدين. أو اعتداء أو سرقة... فان الرئاسات القبلية كانت تحكم في تلك التجاوزات. وكان الأفراد ينفذون الأحكام طواعية أو بواسطة بعض أشداء القبيلة.. فالمعتدي اذا ثبت عليه الجرم يعاقبه رئيس القبيلة أو يتتدب من يفعل ذلك عنه....

اذن لم تكن هناك هيئات تتبع الرئاسة على نحو ما ظهر فيما بعد من هيئات الشرطة أو الحرس أو الجند.. بل كان الأفراد العاديون يقومون مقام الهيئات طواعية وبحكم الولاء القبلي والأعراف.

وقد توطدت السلطة الداخلية للرسول ﷺ وكانت استجابة المسلمين في الذروة، ولايمكن أن تعرف دولة أو مدينة استجابة لرئاستها وحماسة في تطبيق توجيهاتها على نحو ماظهر بين المسلمين.. ذلك لأن الدافع العقدي

---

١) انظر قول ابن هشام: فلم يبق بيت الا وفيه الاسلام الا ماكان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف. ابن هشام ٢/٨٥.

الذي يربط المسلمين بالرسول ﷺ ينشيء في المسلمين عاطفة إيمانية عالية ، تجعلهم يتسابقون لتطبيق أي توجيه نبوي(١). وهذه الحالة لايمكن أن تصل اليها أية سلطة مدنية لاتدعمها روابط عقدية. وما لبثت هذه السلطة أن امتدت إلى بعض اليهود المتقوقعين في حصونهم، فقد لجؤا الى رسول الله ﷺ ليقضي بينهم في الجنايات التي وقعت بين اليهود أنفسهم، وقد حكم رسول الله ﷺ بحكم الله وطبق الحكم قرب المسجد..(٢). ولاشك أن احتكامهم إلى رسول الله - وترك تنفيذ العقوبة له هو إقرار غير مباشر بأنه المرجع الأكبر في المنطقة..

غير أن اليهود لم يكونوا يرجعون في شؤون حياتهم الأخرى اليه. ثم ان الأحداث المتسارعة وجلاء بني قينقاع ثم بني النضير في السنوات الأولى من الهجرة لم يتح لليهود فرص الانضواء تحت السلطة السياسية الجديدة في المدينة. وبعد القضاء على بني قريظة إثر غزوة الخندق لم يعد في المدينة غير السلطة الإسلامية الجديدة، مع أنه بقيت أبيات من اليهود لم يغدروا بالمسلمين.

ونجم النفاق، ولكن المنافقين لم يكونوا ليجرؤوا على الخروج عن السلطة الإسلامية اطلاقا.. وكان معظمهم يشاركون في الغزوات -كما رأينا- وهذه أكبر استجابة للسلطة...

---

١) يقول الطبري عن تسابق المسلمين لانفاذ أوامر الرسول ﷺ والمبادرة الى ما يسره : كان مما صنع الله لرسوله أن هذين الحيين _ الأوس والخزرج - عندما قتل الأوسيون كعب بن الأشرف اجتهدت الخزرج في عمل مماثل ، وتشاورت ورأت قتل سلام بن أبي الحقيق في خيبر فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فأذن لهم ٢/٤٩٦

٢) جاء اليهود الى الرسول صلى الله عليه وسلم في رجل وامرأة زنيا ، فحكم عليهما بالرجم ورجما عند طرف المسجد . انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢/١٨٨

وأما الشؤون الخارجية فلم تعرف المدينة قبل الإسلام تنظيمات سياسية تعالج العلاقات مع الآخرين على نحو ماعرفته بعد أن دخل اليها الاسلام..

وكما رأينا، لم تُنشىء يثربُ مملكةً لها علاقات خارجية، وعندما وصل اليها اليهود تقوقعوا على أنفسهم في أحيائهم التي بنوها، ولا نعرف لهم صلات خارجية تذكر، اللهم الا زياراتهم وتجاراتهم مع اليهود الآخرين في تيماء وفدك ووادي القرى. ولانجد في تاريخهم تحالفات أو سفارات تصدر عن كيان سياسي منظم....

وعندما وصل الأوس والخزرج تحالفوا معهم حلف جوار ومعايشة ثم استعلوا عليهم. ولئن صح أن (الفطيون) كان ملكهم فاننا لانعرف هل كان له كيان سياسي على شاكلة ملوك حمير وسبأ وتدمر، أم كان مجرد زعيم لطائفة غالبة على يثرب... وليس له امتدادات خارجية تذكر، وان كان السياق التاريخي يرجح الاحتمال الثاني، ولكن زوال السلطان السياسي الداخلي لليهود بقتل ملكهم وعدد من ساداتهم يدل على محدودية النظام والسلطة آنئذ...

كذلك لم يؤد اجتماع الأوس والخزرج على مالك بن عجلان بعد أن كسروا شوكة اليهود إلى بناء كيان سياسي ذي علاقات خارجية واضحة، بل كان الكيان العشائري هو السائد.. وسرعان مادب الشقاق بين القبيلتين الأختين، فضاعت آخر فرص انشاء كيان وسلطة سياسية. وعندما اشتدت الفتنة ووقعت الحروب بين القبيلتين راح كل منهما يلتمس الأحلاف داخل المدينة وخارجها، فنقرأ أن الأوس حالفت بني قريظة وبني النضير، والخزرج حالفت بين

قينقاع، وذهب رؤساء من الأوس لمحالفة قريش(١) وقامت محالفات محدودة مع قبائل مجاورة على هذه الشاكلة، فلم تكن ليثرب شخصية موحدة تقيم على أساسها العلاقات الخارجية والمحالفات.

وعندما جاء الرسول ﷺ وأمر بكتابة وثيقة المعاهدة بين أهل المدينة بعامة المسلمين واليهود والمشركين، كانت الوثيقة أول تجميع لليثربين في شخصية قوية موحدة، وكان مظهر تلك الوحدة هي النصوص التي تبين أن أهل يثرب يد واحدة على من سواهم، يتناصرون في الدفاع عن المدينة، ويتفقون جميعا في ذلك، كما أنهم يد واحدة على من أراد فتنة داخل المدينة...

ومنذ السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله ﷺ الى الأبواء فوادعته القبائل فيها، أي حالفته وعاهدته على عدم الاعتداء، ورغم أن المسلمين لم يكونوا وحدهم في المدينة آنئذ فان مفعول المعاهدة كان يشمل المدينة بكل من فيها، لذا لم تشهد المدينة غارة من تلك القبائل.....

واستمر الحال على هذه الشاكلة، كانت القبيلة توادع رسول الله ﷺ باعتباره رئيسا للكيان السياسي الكبير الذي يمثله المسلمون، وينضوي تحته كل من سكن المدينة وكل ما وصل اليه نفوذ المسلمين، ومن حالفهم، ويبدو هذا الأمر واضحا في معاهدة الحديبية مع قريش، فقد ورد في أحد بنودها نص يتيح للقبائل أن تختار التحالف مع المسلمين أو قريش، فاختارت خزاعة التحالف مع المسلمين، واختار بنو بكر التحالف مع قريش.. وعندما اعتدت بنو بكر على خزاعة أعانتها قريش بالسلاح ، فاعتبر المسلمون ذلك عدوانا عليهم، وأحس القرشيون بخطورة ما فعلوه، وسعى أبو سفيان للاعتذار وتجديد العهد، ولكنه أخفق، وسار الجيش الاسلامي انتقاما لخزاعة وكان فتح مكة ومعاقبة بني بكر.

وقد بلغ الكيان السياسي للمسلمين ذروته آنئذ.. وغدت المدينة المنورة

---

١) ابن هشام ٧٦/٢.

عاصمة لذلك الكيان، فتسابقت اليها وفود القبائل معلنة اسلامها. فتصبح بذلك امتداداً للكيان السياسي المتنامي، أو حليفة لذلك الكيان، أو مسلمة له بالسيادة تدفع الجزية ، كنصارى نجران..

ومع نمو الكيان السياسي للمسلمين كانت التجمعات الخارجية تشكل بعض الخطر على هذا الكيان، وقد أمسك رسول الله ﷺ زمام القيادة دائما، فكان يضرب تلك التجمعات ضربات وقائية أول ما يسمع بخبرها، وقبل أن تتكامل قوتها، فقد توجه إلى غطفان عندما سمع أنها تعد لغزو المدينة، وتوجه إلى بني المصطلق وبادرهم بضربة وقائية، وكان التهديد الآخير متمثلا في اليهود خارج المدينة بعد أن جلا أوقُتل من بداخلها، وهم يهود خيبر وفدك ووادي القرى. وقد سارع رسول الله ﷺ إلى كسر شوكتهم.... وكان توجهه إلى خيبر مثار اهتمام القبائل، وبالذات قريش، لأن يهود خيبر كانوا أشداء، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهي حليفة لغطفان..... ويروي الطبري أن قريشاً عندما سمعت بخروج المسلمين إلى خيبر، وكانت في معاهدة الحديبية، توقعت هزيمة المسلمين، وكان رجال من قريش يخرجون إلى ظاهر مكة ينتظرون الأخبار على أحر من الجمر(١).

وكانت رسائل رسول الله ﷺ الى الملوك في أطراف الجزيرة العربية وخارجها إعلاناً واضحاً عن تكامل البنيان السياسي للدولة الاسلامية.. هذا الكيان الذي يبدأ بعبارة واضحة في الوثيقة التي أمر بكتابتها رسول الله ﷺ بعد وصوله الى المدينة، والتي تقول: إن المسلمين أمة واحدة.....

وقد تولى رسول الله ﷺ قيادة هذا الكيان السياسي ونظم أموره العسكرية والاقتصادية والاجتماعية. فكان يعقد الألوية ويرسل السرايا ويقود بنفسه الغزوات وبعض السرايا، وقد بلغ عدد سراياه ستين سرية، وفي

---

١ الطبري ١٨/٣.

رواية سبعين، وبلغ عدد غزواته سبعاً وعشرين غزوة(١)،

وكان يعين القادة والولاة ورؤساء القبائل بعد إسلامها، فإما أن يقر من عليها أو يعين شخصاً جديداً.. وقد عين بنفسه جميع قادة السرايا التي لم يذهب فيها، وعين من يدير شؤون المدينة عندما يخرج منها... وعندما جاءه زيد الخيل وافداً من قبيلة طيء وأسلم أعطاه كتاباً يعيّنه فيه رئيساً للقبيلة. وعندما جاء وفد الطائف وأعلنوا إسلامهم اختار أصغر أفراد الوفد وعينه أميراً على قومه، ولم يكن أميراً من قبل ، ولكنه تفرس فيه النجابة لما رآى حرصه على التفقه في الدين.... وأرسل علياً الى اليمن.. وأرسل من يجبي الزكاة من القبائل المتفرقة....

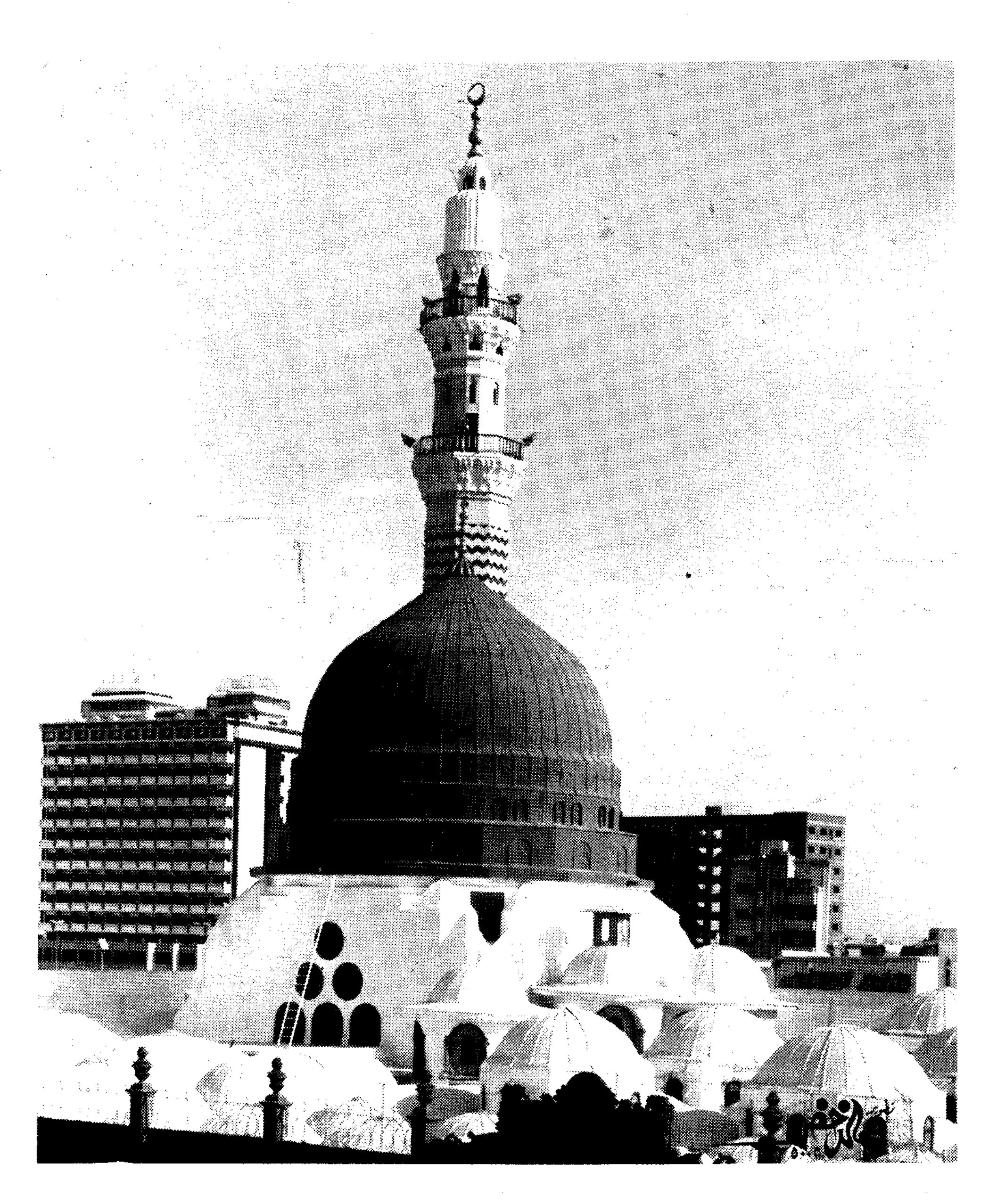
وكان رسول الله ﷺ يستشير صحابته في كثير من أمور السيادة التي يتصرف فيها القائد عادة، مع أنه مؤيد بوحي الله، ولكن ليشيع الشورى بينهم تطبيقا للآية الكريمة (وأمرهم شورى بينهم) فقد دعاهم للشورى في غزوة بدر، واستشارهم في وضع الأسرى، واستشارهم في الخروج يوم أحد، وكذا يوم الخندق.. وكان في حالات كثيرة يقول: اشيروا علي أيها الناس، وكان يأخذ برأي أصحابه إلا ما يلهمه الله خلاف رأيهم، ويرى بفراسته أبعد مما يرون، كما حدث يوم الحديبية حيث كان رأي الصحابة عدم تأجيل العمرة إلى العام التالي كما طلبت قريش، وعدم الاستجابة لطلبها بتسليم من يأتي من المشركين مسلماً ويطلبه ذووه.. ولكنه ﷺ لم يأخذ برأي الصحابة ، ووافق على طلبات قريش.. وأثبتت الأيام صحة مااختاره ﷺ .. فهو اختيار النبوة...

لقد أصبحت المدينة المنورة، ولأول مرة في تاريخها، كياناً سياسياً متكاملاً وقوياً بفضل الاسلام، وتحولت من مدينة صغيرة في زاوية التاريخ إلى مركز لصنع الأحداث والقرارات، بل ولصنع التاريخ نفسه، فهي عاصمة الدولة

---

١) أبو الحسن الندوي السيرة النبوية ص ٢٤٧.

الاسلامية التي أنشأها رسول الله ﷺ، تقصدها الوفود، وتعقد معها المعاهدات، وتخرج منها السرايا والجيوش لتغير خريطة المنطقة، ولتتغير بفضل هذه التغييرات فيما بعد خريطة وأنظمة وعقائد أمم بأكملها.



اقتصاديات المدينة المنورة في عهد النبوة

رأينا أن يثرب كانت مجموعة قرى متجاورة تعتمد على الزراعة في المقام الأول، ثم ما تستفيدة من القوافل العابرة، وعلى شيء من الصناعات الخفيفة أو البسيطة التي كانت أشبه بمصانع محدوده.

وكانت اقتصادياتها تتذبذب وفقاً لتغير الأوضاع الزراعية، فتسوء عند الجدب ويزيدها سوءاً الحروب التي تنشب بين أهلها. وتزدهر في سنوات الخصب والسلام، ونظراً لقلة عدد سكانها فإنها تميل في الغالب إلى الاكتفاء الذاتي أو إلى شيء من الوفرة. وعندما بدأت الهجرة إليها كانت الأحوال الاقتصادية عادية لاتشكو من جدب، وليست في درجة عالية من الثراء والوفرة أيضا. ولاشك أن الزيادة المفاجئة في السكان قد أثرت على اقتصادياتها، خاصة وأن المهاجرين كانوا في الغالب فقراء، أو لم يستطيعوا إخراج أموالهم معهم، كما حدث لصهيب الرومي عندما تنازل عن كل ماله لقريش مقابل أن تتركه يهاجر، وكما حدث لآل عبد الله بن جحش الذين استولى أبو سفيان على دارهم...

وقد استعلت الأخوة الاسلامية على جميع الظروف الاقتصادية، واستضاف الأنصار العائلات المهاجرة وتوزعوها فيما بينهم. ومع أن المهاجرين لم يكونوا أصحاب مهن صناعية، ولم تكن لهم الخبرة بالزراعة -العمل الأساسي لأهل المدينة- فإن معظمهم قد سارع للعمل، فعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المزارع يسقي الماء من الآبار مقابل شيء من التمر. وفي ظني أن عدداً لابأس به من المهاجرين عملوا على شاكلته في المزارع، ومزارع النخل تحتاج إلى أيد عاملة في مواسم معينة، تحتاجها لتأبير النخل ولحرث الأرض وتقليب التربة وتعشيبها، وتحتاجها للسقي والنضح من الآبار بين الحين والآخر ولاسيما في مواسم الصيف، وصيف المدينة طويل، وتحتاجها

عند جني المحصول. لذا فإن الزراعة ستستوعب عدداً من الأيدي العاملة المهاجرة.

ومثلما اتجه بعض المهاجرين إلى المزارع اتجه بعضهم الآخر إلى الأسـواق التجارية، فقد اتجه عبد الرحمن بن عوف إليها ليتاجر فيها، وكان ماهراً في التجارة، استطاع خلال فترة وجيزة أن يجني أرباحا وافرة، حتى إنه تزوج إحدى الأنصاريات وأمهرها وزن نواة من الذهب. وكان سعد بن أبي وقاص يبري السهام ويبيعها في السوق.

وبقدر ما كانت ضيافة الأنصار كريمة تؤثر المهاجرين وتعطيهم بسخاء، كان تعفف المهاجرين كبيراً، فكانوا يأخذون أقل الحاجة، ويجتهدون في العمل والكسب.

وعندما كثر عدد المهاجرين وجه رسول الله ﷺ عدداً منهم إلى السرايا والغزوات. ففي السنة الثانية للهجرة خرجت عدة سرايا تتألف من المهاجرين فقط، وكانت أول غنائم تصل إلى المدينة هي الغنائم التي أحرزتها سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة -طريق التجارة إلى اليمن- حيث غنمت قافلة لقريش. ولم يأخذ رسول الله ﷺ الغنائم أول الأمر، لأن الحادثة وقعت آخر أيام رجب -الشهر الحرام- وعندما نزل الوحي بإجازة مافعلت السرية أخذ الغنائم، وتلتها غنائم بدر فكانت أوفر دخل تحقق للمدينة المنورة حتى ذلك الوقت. ونزلت سورة الأنفال فبيّنت كيفية توزيع الغنائم، وحظي المجاهدون بأربعة أخماسها، وخصص الخمس الآخر للقيادة.. وكما قال رسول الله ﷺ: (ليس لي إلا الخمس، وهو مردود عليكم) أي ينفق عليهم أيضا.

وقد رفعت غنائم الغزوات اقتصاد المدينة وساعدتها على مواكبة الزيادة السكانية فيها، فجاءت غزوة قرقرة الكدر بخمسمئة من الإبل، وغزوة القردة أصابت قافلة لقريش كانت تحمل ثلاثين ألفا من الفضة، وكانت قيمة القافلة مئة ألف درهم.

وكانت غنائم غزوة بني المصطلق ألفي بعير وخمسة آلاف شاة، فضلا عن الأمتعة الشخصية والسلاح. ومع أن الغنائم لم تكن قط هدفا من أهداف الجهاد، فإن عائداتها قد أفادت المسلمين في المدينة ، فأعانتهم على مواجهة الزيادات السكانية.

وفي غزوة حنين وزع رسول الله ﷺ أموالاً طائلة على المؤلفة قلوبهم. وقد بلغ عدد الإبل الموزعة أربعة وعشرين ألفا، والأغنام أكثر من أربعين ألفا، والأموال من الفضة أربعة آلاف أوقية. وبعد أن أعطى المؤلفة قلوبهم أعطى ما بقي لمن اشترك في المعركة، فكان نصيب الراجل أربعة من الإبل وأربعين شاة ، ونصيب الفارس اثنا عشر بعيراً ومائة وعشرين شاة(١)وكان خروج اليهود من المدينة -ولا سيما بنو النضير وبنو قريظة- رافداً لهذا الدخل، فقد غنم المسلمون مساكنهم ومواشيهم وأسلحتهم وما لم يحملوه من متاعهم، فغنموا من بني النضير ثلاثمئة وأربعين سيفاً وخمسين درعاً وخمسين بيضة (خوذة للرأس)، وغنموا مزارعهم وبيوتهم ومواشيهم.(٢) وعندما أراد رسول الله ﷺ توزيع الأراضي والدور، جمع الأنصار، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في دورهم، وإيثارهم على أنفسهم، ثم قال: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علي من بني النضير، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يارسول الله، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يارسول الله فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار... وقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحدا من

---

١) المختصر ٣٥٩.

٢) الواقدي ١/٣٧٧.

الأنصار من ذلك الفيء شيئا، إلا رجلين كانا محتاجين هما: سهل بن حنيف وأبو دجانة(١) وكانت الغنائم من بني قريظة ألفاً وخمسمئة سيف وثلاثمئة درع وألفى رمح وألفاً وخمسمئة ترس، فضلا عن الأمتعة والأموال والماشية. وقد قسمت بساتين النخل، وكانت كثيرة فنال منها معظم الأنصار.

غير أن هذه الغنائم لم تكن لتبني ثروات للمسلمين، لأن المسلمين لم يكن هدفهم من الجهاد كسب المال وجمع الثروات من جهة، ومن جهة آخرى لأنهم كانوا يتزايدون في المدينة، فرغم تزايد حجم الغنائم فإن نصيب المجاهد منها لم يكن كبيراً لكثرة عدد المجاهدين، فالذين شاركوا ببدر كانوا ثلاثمئة وأربعة عشر، بينما الذين شاركوا في بني قريظة جاوزوا ثلاثة آلاف، لذا عندما خرج المسلمون إلى غزوة خيبر لم يكن لديهم شيء من الثروة، بل نجد بعضهم يشكو من الجوع، وعندما طال حصار خيبر عدة أيام اشتد بهم الجوع حتى إنهم نحروا الحمير وطبخوها ليأكلوها، فلما علم رسول الله ﷺ أمر بها فاهرقت القدور، وذبحوا بعض خيولهم وأكلوا لحومها إلى أن فتح الله عليهم خيبر(٢).

وكانت السنوات المجدبة تترك آثاراً ثقيلة على المسلمين. ففي غزوة الخندق اجتمع الشتاء القارس وجدب السنة السابقة، فعانى المسلمون من الجوع وربطوا على بطونهم الحجارة... وفي السنة الثامنة عندما جهز رسول الله ﷺ الجيش لغزوة تبوك، كان الناس في ضيق شديد حتى سميت بغزوة العسرة، وكان بعض الصحابة لايجد مايسهم به إلا صاع التمر يأخذه من قوت عياله.. ولكن بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالتجارة جمعوا قدراً من المال، وعندما دعا الرسول ﷺ لتجهيز الحملة دفعوا أموالهم بسخاء. فجاء عثمان ابن عفان بألف دينار وصبها في حجر رسول الله ﷺ، وجاء عبد الرحمن بن

---

١) الواقدي ١/٣٧٩.

٢) الواقدي ٢/٦٦١

عوف بنصف ماله وجاء أبو بكر بماله كله...رضي الله عنهم أجمعين.

لقد حققت غنائم الغزوات مكاسب للمسلمين في المدينة. ولكنها لم تكن المكاسب الواسعة التي تصنع الثروات. ثم إن انشغال المسلمين بالغزوات والسرايا المتوالية جعل فرص تثمير الأموال قليلة، وما كان همّ المسلمين قط أن يثمروا الأموال ويتفرغوا للدنيا، إنما كان همهم أن يجدوا مايستعينون به على الجهاد في سبيل الله، وقد كان إنفاقهم على الفقراء والمساكين واليتامى المغنم الأكبر الذي يربحونه.. ولنذكر أن المدينة كان بها عدد كبير من الفقراء، وأن تدافع المسلمين إلى الجهاد والشهادة جعلهم يخلفون نساء وأطفالا في حاجة إلى الإنفاق عليهم، فضلا عن الذين لايستطيعون الكسب لأسباب كثيرة.. وكان المسلمون يتسابقون لذلك. وقد خصص رسول الله ﷺ مكاناً في مسجده للفقراء والمساكين سُمي (الصفة)، وكان عليه السلام يجلس مع أهل الصفة ويؤاكلهم، وكان يفرقهم أحيانا على الصحابة فيأخذ كل منهم واحداً أو أكثر إلى بيته ليتعشى معه ويبيت عنده زيادة في الألفة والمودة... ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في هذا الجانب فلم يكن المال همهم قط.. ولم تكن الثروة غاية من غاياتهم.

الزراعـــــة:

إن طبيعة المدينة المنورة تجعل الزراعة مورداً رئيسيا لسكانها، وقد كانت كذلك في الجاهلية، واستمرت عليها في الإسلام. وكان لمعظم أهل المدينة بساتين صغيرة تسقى من آبار حفرها أصحابها، أو من مياه الأودية التي تمر بجانبها، وتنتشر أشجار النخيل في معظم البساتين، فالتمر هو المحصول الرئيسي لسكانها، وهو قوتهم، ومؤونتهم، وطعامهم في الغزوات والسرايا، والسلعة الأولى في تجارتهم مع الآخرين.

وقد لقي النخل في الإسلام عناية وتكريما يزيد عما كان عليه في الجاهلية، فقد شبّه رسول الله ﷺ النخلة بالمسلم لبركتها ومكانتها، ورد

١ ـ النخيل: الزراعة الأولى في المدينة. وتنتشر مزارع النخيل في كـافة أرجائها،



٢ ـ بساتين المدينة مصدر انتاج الحبوب والخضار والفواكه لسكان المدينة طوال قرون كثيرة.

في صحيح البخاري: من الشجر شجرة تكون مثل المسلم، وهي النخلة(١)، وعندما وفد المهاجرون إلى المدينة عمل بعضهم في بساتين النخل، وزادوا أغراسها ثم تملكوا بعضها. ولما آلت بساتين بني النضير وبني قريظة للمسلمين استثمروها، وكانت بساتين بني النضير التي في العالية خالصة لرسول الله ﷺ، يعمل فيها غلمانه ويوزع محصولها على زوجاته ليكون طعامهم، وما فضل جعل في الكراع والسلاح. وأما بقية بساتين بني النضير فقد وزعت على المهاجرين واثنين من الأنصار.. كما وزعت بساتين بني قريظة على المهاجرين والأنصار، فوضعوا فيها عبيدهم وعمالهم لانشغالهم بالجهاد. ولما فتحت خيبر و فدك ووادي القرى تركت البساتين والمزارع بأيدي اليهود يعملون فيها ويتقاسمون المحصول مع المسلمين،(٢) وكان رسول الله ﷺ يرسل في وقت جني المحصول من يأتي بحصة المسلمين، وكان عبد الله بن رواحة يجعل المحصول في كومين ثم يخير اليهود أن يأخذوا أيهما شاؤوا.

ولم تكن بساتين المدينة تكفي الأعداد الكبيرة التي قدمت إليها، ويروي ابن عمر رضي الله عنهما أنهم ماشبعوا من التمر إلا بعد أن فتحت خيبر(٣).

ويأتي بعد التمر الشعير. حيث يزرع وسط بساتين النخل أحيانا، وفي حقول مستقلة غالباً. وكان أهل المدينة يحصلون منه على خبزهم، فلم يكن القمح منتشراً، ويروى أن طلحة بن عبد الله التميمي كان أول من زرعه في المدينة(٤) ومالبثت زراعته أن انتشرت في بساتين شمالي المدينة على أطراف

---

١) انظر صحيح البخاري، باب بركة النخلة رقم الحديث ٥٤٤٨. وفتح الباري ٥٧٢/٩

٢) أنظر صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب ٤٠

٣) أنظر صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، الحديث ٤٢٤٢ و ٤٢٤٣

٤) ابن سعد ٢٢٢/٣.

وادي قناة، ثم بمجمع السيول...

ويأتي بعده العنب. وكانت كروم العنب منتشرة حول وادي العقيق وفي العالية، وكذلك منتجات البستنة من البقول والدباء والبصل والثوم والعدس..... الخ. وقد تأثرت الزراعة بانشغال الصحابة بالجهاد وبتقلبات المناخ، فأعوام القحط جعلتها قليلة المحصول، ومرت أوقات شحت فيها الغلال وجاع الناس وشدوا على بطونهم الحجارة، كما حدث عام الخندق وعام تبوك. وقد أرسل الصحابة من يتجر لهم ويأتيهم بقوافل الغلال من نجد والشام، وجاء بعض التجار النصارى بالقمح فاستقبلتهم المدينة، وباعوا قمحهم واشتروا التمر(١) وقد تحسنت أحوال المزارع عندما صار للمسلمين عبيد وموال يؤثرون العمل في المزرعة، ولكنها لم تكن كافية لتأمين حاجة العدد الكبير المتزايد من الوافدين إلى المدينة للإقامة فيها، فتكفلت قوافل التجار بسد النقص وتأمين الحبوب بالدرجة الأولى...

تربية الماشية:

فضلا عن الزراعة كانت في المدينة أنشطة اقتصادية آخرى منها الرعي، فقد تنامت الثروة الحيوانية في المدينة نتيجة الغنائم المتوالية، وظهرت ثروة جديدة هي أموال الصدقة من الإبل والغنم والخيول المعدة للجهاد.. وقد شجع الرسول ﷺ على اقتناء المواشي المنتجة وركائب الحرب. وكان لهذه المواشي رعاة يأخذون الأجر على رعيها(٢).

---

١) انظر الاصابة ٢/١٠٤.

٢) ابن حجر ٣/٥١٠.

الصناعة:

كانت الصناعة في المدينة المنورة محدودة يعمل فيها اليهود والموالي وقليل من المسلمين الآخرين، ولم يكن الأوسيون والخزرجيون يمتهنونها.. وأهم الصناعات: صناعة الحدادة، التي تنتج سكك الحراثة والسيوف والتروس ورؤس الرماح والنبال والسكاكين وبعض مستلزمات البيوت. ويروى أن خباب بن الأرت كان حداداً، وعندما خرج اليهود من المدينة قلت دكاكين الحدادة، واشترى الناس حاجاتهم من تلك الأدوات من القوافل التجارية القادمة من الشام واليمن. لذلك عندما فتحت خيبر وأسر المسلمون ثلاثين حداداً استبقاهم الرسول ﷺ بين المسلمين للانتفاع بصناعتهم وبخاصة صناعة الأسلحة (١) كذلك كانت صياغة الحلي مزدهرة في السنتين الأوليين من الهجرة، فلما نزح بنو قينقاع ضعفت إلى درجة كبيرة، ولمّا خرج بنو النضير وقتل بنو قريظة لم يبق من دكاكين الصياغة إلا ماندر..

إلى جانب ذلك كان في المدينة حياكة النسيج وصباغة بعض المنسوجات، وكانت النساء تقوم بها. وقد أهدت إحدى الأنصاريات لرسول الله ﷺ بردة نسجتها بيدها فقبلها منها(٢)وكان في المدينة أيضا النجارون والبناؤون والخياطون الذين يسدون حاجة أهل المدينة، كما وجدت صناعات يدوية بسيطة كصناعة السلال والحصر.. ويروى أن سلمان الفارسي كان يصنع الخوص ليأكل من كسب يده(٣).

إضافة إلى تلك الصناعات البسيطة كان في المدينة مهن آخرى مثل الجزارة والخرازة والسقاية يعمل فيها الموالي والعبيد، وقد عمل بالسقاية والخرازة بعض المهاجرين عند قدومهم إلى المدينة.

---

١) انظر التراتيب الادارية٢/٧٤.

٢) فتح الباري ٤/١٤٣.

٣) انظر التراتيب الادارية ٦٣.

التجـــــارة:

أما التجارة فكانت عاملاً اقتصاديا نشطاً في المدينة، وخاصة بعد أن قدم إليها المهاجرون من مكة، وكان لبعضهم مهارات فائقة فيها، كأبي بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص وطلحة بن عبيد الله وآخرين، وقد أسهم المهاجرون في العمل التجاري، وكانوا يتاجرون في سوق المدينة بأنواع من الثياب أول الأمر، ثم ثمّروا أموالهم في قوافل تجارية من الشام واليمن، ويروى أن قافلة كانت لعثمان بن عفان بلغت مائتي بعير تبرع بها للجهاد(١)وكان لليهود في السنوات الأولى من الهجرة أثر مهم في التجارة، وكانوا يستوردون سلعاً كثيرة ويبيعونها في سوق بني قينقاع وفي بعض آطام بني النضير وبني قريظة... فلما جلا بنو قينقاع اضطربت السوق أول الأمر.. ولكن وجود المهاجرين ذوي الخبرة العالية بالتجارة سد الفراغ الذي أحدثوه بسرعة.

وعندما خرج بنو النضير وبنو قريظة لم يحدث أي خلل في السوق التجاري لأن المسلمين كانوا قد أمسكوا زمام الأمور وصارت لهم سوقهم الخاصة.

الأسـواق التجـارية في المدينة المنورة:

كانت الأسواق التجارية بيد اليهود، أو كان معظمها كذلك قبل الهجرة، وكان أضخم أسواقها وأكثرها أهمية سوق بني قينقاع... وقد رغب رسول الله ﷺ في أن يجعل للمسلمين سوقاً خاصة بهم، وكره أن يجعل سوق

---

١) المختصر٣٩١.

المسلمين في موقع سوق بني قينقاع بعد إجلائهم(١) فاختار منطقة تقع غربي المسجد النبوي وتمتد من الشمال إلى الجنوب يقدر طولها بخمسمئة متر تقريبا وعرضها أكثر من مئة متر. وفي بعض الأخبار أن أحد الصحابة أشار على رسول الله ﷺ بمكان قريب من هذا أول الأمر، فاختاره، وضربت فيه خيمة، وكان جزء من ذلك الموقع لكعب بن الأشرف اليهودي، فجاء كعب وقطع أطناب الخيمة.. فلم يتعرض له رسول الله ﷺ بل قال: لاجرم، لأنقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا . ثم انتقل إلى المنطقة التي تسمى الأن بالمناخة ، وضرب بقدمه الأرض وقال: هذه سوقكم ، فلا ينقص منه ولا يضربن عليه خراج (٢) وكانت بعض الأراضي المجاورة لبني ساعدة فيها مقابرهم ، فسألهم رسول الله ﷺ أن يتنازلوا عنها للسوق ففعلوا، فازدادت مساحة السوق وصارت تكفي أهل المدينة والوافدين إليها من الجوار، والقوافل القادمة من الجهات البعيدة.

ولاشك أن جعل السوق مجانية لكل من يريد التجارة يشجع التجار على المجيء إليها، خاصة وأن نظام السوق يجعلها غير مملوكة لأحد. فلا يجوز البناء فيها، ويروى أن رسول الله ﷺ مر بالسوق فوجد خيمة قد ثبتت فقال: ماهذه الخيمة. فقالوا: هي لرجل من بني الحارثة يبيع فيها التمر، فقال: حرقوها، فحرقت(٣) والمواضع لمن سبق إليها كل يوم، فيأتي التاجر ببضاعته فينزلها في الموضع الذي يجده فارغا ويبقى في تجارته إلى الليل ثم يحمل ما يبقى منها إلى مأواه ليعود في اليوم التالي.

وهكذا تكون السوق متحركة، يستطيع أي فرد أن يأتي بما لديه ويفرش بساطه ويبيع ويشتري، ولا يستطيع أحد احتكار الموقع أو البضاعة.

---

١) وفاء الوفاء ٢/٧٤٧.

٢) وفاء الوفاء ٢/٧٤٨.

٣) السمهودي ٢/٧٤٩.

ولا شك أن اختيار موقع السوق في أرض فضاء بعيدة عن السكن تعطي التجار القادمين وإبلهم فرصة أكبر للحركة، وتحفظ البيوت من ضوضاء البيع والشراء وجلبة السوق وما تسببه المخلفات من روائح مؤذية أحيانا...

وكان رسول الله ﷺ يتفقد السوق بين الحين والآخر، ويمر على التجار، ويروي أبو هريرة أنه ﷺ مر على صرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال ماهذا ياصاحب الطعام، قال: أصابته السماء يارسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشنا فليس منا(١) وكان يفد إلى السوق تجار من خارج المدينة، من الشام واليمن ونجد يحملون إليه سلعا متنوعة، فيحمل تجار الشام الزيت والبر والشعير والتين والقماش والدقيق والسمن والعسل. وقد يأتي تجار من مكة ليشتروا التمر ويحضروا بعض ما يصلهم من بضائع الصين والهند كالطيب والبرود والعمائم والأواني المنزلية...

ونظراً لانشغال المسلمين في المدينة بالجهاد فلم يكن أحد منهم يسافر إلى التجارة في الآفاق، كما كان أهل مكة يفعلون، إلا في القليل النادر ، بل كانوا يوظفون أموالهم في التجارة.

وقد ذكر أن أبا معلق الأنصاري كان يسافر بمال له ولغيره يتاجر في الشام وفارس(٢)وكان قسم من السوق مخصصاً لبيع المواشي فكان بنو سليم يجلبون إليه الإبل والخيل والغنم والسمن.. وكانت بعض النساء تبيع فيه السمن والصوف والعطور والقماش....

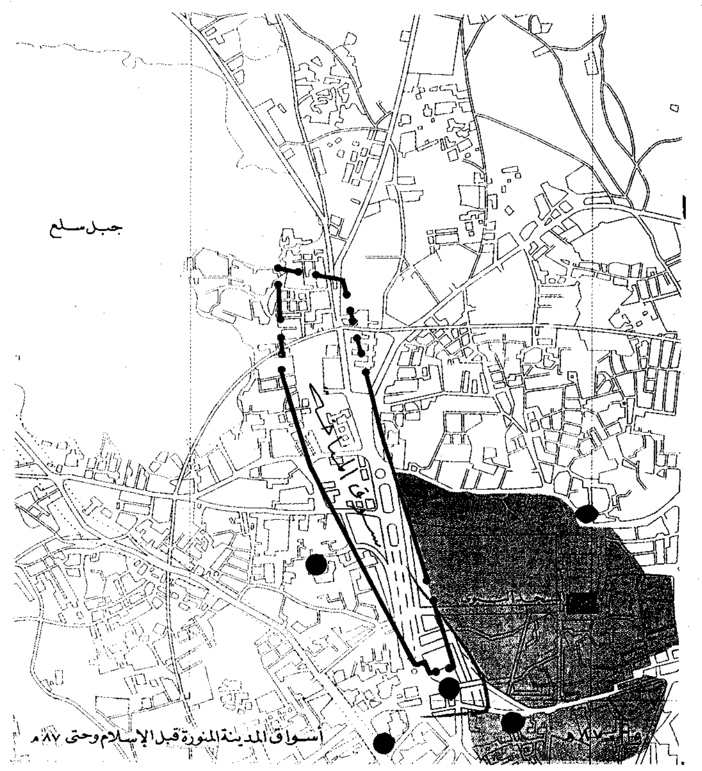
ولاشك أن التشريعات الإسلامية العظيمة للمعاملات بعامة قد جعلت الاقتصاد ينمو في اتجاه صحيح ونظيف. ولئن كانت فترة السنوات العشر الأولى من الهجرة مليئة بالغزوات والحروب وبعض سنوات القحط والجفاف،

---

١) صحيح مسلم ١١/٢.

٢) فتح الباري ١٨٢/٤.

فإنها رغم ذلك كله قد صنعت ركائز اقتصادية جديدة للمدينة المنورة، أساسها التعامل الإنساني الشريف الذي لايستغل فيه الإنسان إنساناً آخر ولا يغشه ولا يكذب عليه ولا يروج تجارته بحلف كاذب، ولا يسلط ذو الوفرة سيف الربا على الذين لايجدون سيولة مالية.. لذا فقد عرفت المدينة المنورة في تلك السنوات العشر بداية لأعظم نظام اقتصادي عرفه البشر، نظام يخدم المجتمع لافئة قليلة، ويساعد المجّد النشيط أن يبني ثروة نظيفة بشرف وأمانة..



أسواق المدينة في العهد النبوي وتضم الأسواق التي كانت قائمة قبل الإسلام وسوق المناخة وهو السوق الطويل

السكان والعمران

أ ـ السكان:

رأينا أن يثرب في آخر عهدها بالجاهلية كانت قرية كبيرة تضم ثلاث فئات من السكان هم: فئة اليهود، وفئة الأوس والخزرج، وفئة بقايا قبائل آخرى أو بطون قبائل هاجرت إلى المدينة ووالت إحدى الفئتين السابقتين..

ولانملك إحصاءاً دقيقاً أو قريباً من الدقة لعدد السكان، غير أن بعض الروايات تذكر عدداً تقريبيا تستنتجه من إشارات متفرقة لعدد المقاتلين والحصون.. هذا العدد هو ثلاثة آلاف، ينتشرون على مساحات طويلة ممتدة ومتفرقة، بحيث تجتمع مساكن كل قبيلة أو بطن قبيلة في منطقة معينة تفصلها عن جوارها بعض البساتين أو الحرار أو الأرض الفضاء، فقد كانت يثرب مجموعة قرى متقاربة لاقرية واحدة، ولكنها بمجموعها تشكل قرية كبيرة أو مدينة صغيرة.

وعندما بدأ المسلمون يهاجرون كانت الحرب المدمرة بين الأوس والخزرج قد توقفت، ولكن آثارها مازالت في النفوس، حتى كان الأوسي لايأمن أن يدخل دار الخزرجي، والخزرجي يخاف أن يدخل دار الأوسي، مالم تكن بينهما قرابة أو صداقة، وطالت هذه الآثار وامتدت إلى مابعد مجيء رسول الله ﷺ بفترة وجيزة. وتروي الأخبار أن رسول الله ﷺ كان نازلا في حي الخزرج، فسأل عن سعد بن زرارة (من الأوس) فجاء سعد إلى النبي ﷺ متقنعا، وبات عنده حتى أصبح، ثم غدا، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن خيثمة ورفاعة وميسرة ابني عبدالمنذر: أجيروه قالوا: أنت يارسول الله فأجره، فجوارنا في جوارك. فقال رسول الله ﷺ: يجيره بعضكم، فقال سعد بن خيثمة: هو في جواري. ثم ذهب سعد بن خثيمة إلى سعد بن زرارة في

بيته فجاء به مخاصرة يده في يده(١) وهذه الحالة من التوتر تبطىء الاندماج السكاني بين أهل المدينة، فضلا عن اليهود الذين كانت لهم صداقات مع الأوس والخزرج، ولكن لم يحدث أن اندمجوا بهم.

وعندما بدأ المهاجرون يتوافدون بدت الزيادة السكانية بسيطة أول الأمر، فقد استوعبها الأنصار في بيوتهم، فالمجموعات الأولى التي وصلت خلال الشهرين الأولين من بدء الهجرة لاتتجاوز خمسين عائلة، وعندما وصل رسول الله ﷺ وآخى بين المهاجرين والأنصار كان عدد المتآخين تسعين أو مئة من الطرفين. ولكن مالبث المسلمون أن بدءوا يندمجون بالتزاوج، فتزوج كل من أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف من الأنصار بعد مدة وجيزة من وصولهم إلى المدينة، و شاع التزاوج بعد ذلك بين المهاجرين والأنصار وبالاتجاهين.

وخلال الفترة الممتدة مابين غزوة بدر وصلح الحديبية، أي من نهاية السنة الثانية إلى منتصف السنة الثامنة، شهدت المدينة حركات مد وجزر متوالية في السكان، كانت محصلتها النهائية تضاعف عدد سكانها ومساكنها أضعافا عدة.. فقد ازداد عدد المهاجرين إلى المدينة، إذ كان الذين يسلمون يرحلون إلى المدينة ليتخلصوا من اضطهاد المشركين، وليعيشوا في بيئة إسلامية يستطيعون أن يمارسوا فيها عباداتهم بحرية، وكان رسول الله ﷺ يشجع الهجرة قبل الفتح ليدخل المسلمون الجدد - ومعظمهم من الضعفاء - في حماية إخوانهم المسلمين.

ونزلت الآيات في سورة الأنفال تبرىء الرسول ﷺ من مسؤلية الذين يسلمون ويظلون في ديار المشركين المحاربين (والذين آمنوا ولم يهاجروا

---

١) وفاء الوفاء ١/ ٢٥٠.

مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا)(١) ولم تُعف الآيات من المسؤلية المستضعفين الذين يبقون في ديار الشرك، وهم قادرون على تركها، فهؤلاء يظلمون أنفسهم (إنّ الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا)(٢).

ولم تقتصر الهجرة على أهل مكة، فقد هاجر عدد من الذين أسلموا في القبائل إلى المدينة، فجاء أبو هريرة مع جماعة من رهطه، وكان رسول الله ﷺ في خيبر فلحقه إليها ثم عاد معه وأقام في المدينة، وكان كثير من أهل الصفة من القبائل والبادية(٣)، وكان عدد من المقيمين في أطراف المدينة وبعيدا عنها يرغبون في صحبة النبي ﷺ وملازمته والجهاد معه فيقدمون إلى المدينة ويقيمون معه كما فعل أبو ذر الغفاري..

وبالمقابل شهدت المدينة تناقصا متواليا في عدد اليهود الذين كانوا فيها، خرجت قبيلة قينقاع في السنة الثالثة، وكان عدد رجالهم كما قال عبد الله بن أبي في شفاعته بهم عند رسول الله ﷺ سبعمائة رجل.. وهذا يعني أن عددهم الكلي يبلغ ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمئة فرد. ثم أُخرجت قبيلة بني النضير في السنة الرابعة للهجرة، وكان عددهم يقارب عدد بني قينقاع . وفي السنة الخامسة للهجرة قُتل مقاتلو بني قريظة ، ويقدر ابن كثير عددهم ما بين ستمئة وسبعمئة. أي أن عددهم مع ذراريهم كان قريبا من عدد بني النضير وبني قينقاع أيضاً، وبذلك يكون مجموع اليهود الذين أفُرغت منهم المدينة ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف....

---

١) الأنفال ٧٢.

٢) النساء ٩٨.

٣) كأبي موسى الأشعري ورهطه وأبي ذر الغفاري...

غير أن هذا التفريغ السكاني كان أقل بكثير من الزيادة التي طرأت على المدينة بعد أن أقبل عليها المسلمون من مكة والأرياف وأقاموا فيها لصحبة رسول الله ﷺ وللإسهام في الغزوات والسرايا.... وفضلاً عن هؤلاء، كانت زيادات طارئة مؤقتة تأتي من البادية وتقيم لبعض الوقت في المدينة، ثم تعود إلى موطنها الأول، ذلك أن سكان البادية الذين اهتدوا للإسلام وجاؤوا إلى المدينة يسألون عنه، كانوا يستوخمون مناخها، وقد أورد المؤرخون أخباراً عن عدد من الوفود الكبيرة والصغيرة والأفراد الذين جاؤوا من البادية، ومنهم رهط من عكل ورهط من مزينة جاؤو إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله إنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا المدينة ، فأمر لهم النبي ﷺ بزود وراع وأمرهم أن يخرجوا منها(١)وظلت المدينة تستقبل الوافدين إليها بعد صلح الحديبية فكان الذين يسلمون يهاجرون إليها كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعندما فتح الله على المسلمين أوقف رسول الله ﷺ أمر الهجرة (لاهجرة بعد الفتح) أي لم يعد مطلوبا من الذين أسلموا أن يهاجروا، لأن الشرك اندحر في معظم الجزيرة العربية، ولم يعد المسلمون في أية بقعة منها يخشون اضطهاداً، وقد عمل رسول الله ﷺ على تخفيف الهجرة إلى المدينة مع تباشير الفتح، فيذكر الواقدي أن الصحابي بريدة بن الحصيب جاء بقبيلة أسلم إلى رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى فتح مكة فقال: يارسول الله هذه أسلم، وهذه محالها، وقد هاجر إليك من هاجر منها وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم. فقال رسول الله ﷺ: أنتم مهاجرون حيث كنتم(٢) غير أنه ﷺ لم يمنع أحدا من الإقامة في المدينة بعد الفتح ، فقد جاءها أبو سفيان وأقام فيها بعد إسلامه، وجاء عدد من أهل مكة بعد الفتح ليلازموا رسول الله ﷺ فظلت أعداد السكان في ازدياد. ويقدر الشيخ أبو الحسن

---

١) انظر جامع البيان ٦/٢٠٦ - ٢٠٧.

٢) الواقدي ٢/٧٨٢.

الندوي عدد سكان المدينة عند وفاة الرسول ﷺ بثلاثين ألفاً. (١) واعتقد أن هذا العدد يدخل فيه بطون القبائل التي كانت تسكن في جوار المدينة وتشارك في الغزوات، وقد شاركت في غزوة تبوك وفتح مكة وحجة الوداع، وكانت في الغالب تمكث قرب المدينة مدة ثم تعود بعد انتهاء مشاركتها إلى مواطنها الأصلية. وكانت مواطنها في واحات وقرى منتشرة بين المدينة وينبع جنوبا وغربا وبعض الأماكن شمالي المدينة، وكانوا يفضلون العودة إليها لنقاء هوائها....

ومما يدل على أن الوافدين إلى المدينة كثروا حتى فاقوا عدد السكان الأصليين وصية رسول الله ﷺ بالأنصار قبل وفاته، ففي مرضه الذي توفي فيه خرج يوماً إلى المسجد واستغفر لأهل أحد وذكر من أمرهم ماذكر وقال: يامعشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لاتزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم(٢).

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ميز المسلمين عن سواهم من سكان المدينة بأمور عدة، أولها: بناء مسجد جامع يلتقون فيه جميعا، ويظهر فيه كيانهم الموحد، الذي يستعلي على الكيانات العشائرية والطبقية والمالية، هذا الكيان هو المسجد النبوي، فالمسلمون في صلواتهم وجلساتهم ولقائهم وحدة متماسكة. وقد تعززت هذه الوحدة بالمؤاخاة التي أجراها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكانت المؤاخاة أول الأمر تتجاوز جانب العواطف والمشاعر إلى القرابة الحميمة التي يرث فيها الأخ أخاه.. وقد نُسخ التوارث بين المتآخين بعد ذلك.. وظلت الروابط المعنوية كبيرة....

---

١) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص١٣٣.

٢) ابن هشام ٤/٣٠٠.

أما غير المسلمين، اليهود والذين لم يسلموا بعد من أهل يثرب، فقد أقامت المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ نوعاً من التحالف معهم، يلتزم كل فريق فيه بعدم الاعتداء على الفريق الآخر، وبالدفاع عنه إذا تعرض لخطر خارجي. وبذلك يصبح سكان المدينة في حالات معينة وحدة اجتماعية متماسكة.. وهي حالات الخطر الخارجي وتهديد المدينة.. وأما في غير هذه الحالات فالمسلمون وحدة متميزة تتعامل مع اليهود وغير المسلمين وفق قواعد التعامل التي قررها الإسلام آنئذ. وقد أبقى الرسول ﷺ على التقسيمات القبلية للمسلمين وغير المسلمين، وتعامل مع تلك التقسيمات في حالات الحرب والسلم تعاملاً يستفيد من إيجابياتها ويتجنب سلبياتها أو يواجهها ويلغيها.. ونجد في المعاهدة التي كتبت بين أهل المدينة بعامة ذكراً وافيا لأسماء القبائل وبطونها.. سواءً كانت مسلمة أو مشركة أو يهودية...

أما القبائل اليهودية فقد ذكرت باسماء مواليها حيناً (يهود بن عوف، يهود بني النجار، يهود بني الحارث، يهود بني ساعدة، ويهود بني خِشم) وذكرت باسماء قبائلها حينا آخر (وإن لبني الشطية مثل ماليهود بني عوف) وذكر القبائل مفردة على هذا النحو يجعل معاهدة كل قبيلة منها على حدة، ولو كان نص المعاهدة واحداً..

ولهذا التقسيم القبلي فوائد جمة للمسلمين منها: إبقاء اليهود في مجموعات منقسمة وعدم جمعهم صفاً واحداً على المسلمين... وإذا نقضت قبيلة العهد لم يسرِ النقض على القبائل الأُخرى، وعاقبها المسلمون منفردة.. وهذا يستفيد منه اليهود أيضا، بأنهم لايؤخذون بجريرة القبيلة الناكثة ما داموا محافظين على العهد....

وأما التقسيمات القبلية لغير اليهود، فقد كانت بعض البطون القبلية مسلمة بكاملها، كبني عبد الأشهل، وبني عوف، والمحافظة على كيانها القبلي إنما يأتي في جانب التكافل الاقتصادي والاجتماعي، وقد نصت المعاهدة على

أن أفراد كل قبيلة منها يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

الانتماء القبلـــي:

الترابط القبلي قديم عند العرب، ومن ثمرات هذا الترابط ظهور التكافل بين أفراد القبيلة، ومن المفيد الإبقاء على هذا الترابط في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن الأقربين أولى بالمعروف، وروابط الدم تساعد على مزيد من السخاء..

ولقد حرص رسول الله صلى ﷺ على أن يبني في المدينة مجتمعاً موحداً يتآخى فيه المسلمون، ويتجاوزون القيم العصبية والطبقية والمالية التي كانت سائدة في الجاهلية، وينضوون في تنظيم جديد تحكمه قواعد الأخوة الإسلامية. وكان التقسيم القبلي هو الذي يحكم المجتمع العربي في بيئاته كلها، وكان هذا التقسيم أساساً لنظام الحكم داخل القبيلة والدفاع عن الأفراد والثأر والتكافل الاجتماعي بعامة...

ولهذا النظام إيجابياته وسلبياته، فهو من جهة يربط الفرد بالآخرين داخل القبيلة معتمداً على صلة القرابة، وهي صلة طبيعية ترتبط بمشاعر فطرية عند الإنسان.. لأن الإنسان يميل إلى أهله وأقربائه فطرة.

كما أن هذا النظام يجعل التكافل بين أفراد القبيلة قوياً، يدافع المرء عن قريبه ويقاتل من أجله ويثأر له ويعينه بماله إن احتاج المال..

ولكن لهذا النظام سلبيات مؤذية أيضا، أهمها العصبية العمياء والتي سماها الإسلام: العصبية الجاهلية، ووصفها الرسول ﷺ بـأنها منتنة. وهذه العصبية نوع من (الأنانية الجماعية) تتقوقع فيها كل مجموعة على نفسها وتعتقد بأفضليتها المطلقة على المجموعات الأخرى، فتضعف الروابط بين هذه المجموعات -القبائل أو العشائر أو البطون- وقد تفسد وتتحول إلى صدامات دامية. وقد أنشأت هذه الأنانية الجماعية في العصر الجاهلي سلسلة

من المنافرات بين أبناء القبائل والبطون، وهيأت النفوس للخصومات وأنشأت فيها استعداداً دائما للصدام، وتسببت في حروب طويلة دامية كحروب عبس وذبيان وحروب الأوس والخزرج... وأخطر ما في هذه العصبية النصرة العمياء لابن القبيلة أو العشيرة.. حتى ولو كان باغيا وظالماً للآخرين.. فلايكون للحق أي اعتبار في المناصرة والخصومة. وكذلك الثأر الأعمى من أي فرد في قبيلة الخصم ولو لم يكن له ذنب أو علاقة بالخصومة، فإذا قَتل امرؤ من الأوس مثلاً رجلاً من الخزرج أصبح جميع الأوسيين عرضة للثأر.. وهذا ظلم فادح..

وعندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة حرص على تكوين بيئة جديدة للمسلمين، فنص في وثيقة العهد أن المسلمين (أمة من دون الناس). ولم يكن من السهل ولا من المصلحة أن يلغي الإسلام التنظيمم القبلي، الذي عاشت عليه القبائل أجيالا طويلة لايعلمها إلا الله، بقرار مفاجيء. لذلك عمد إلى حل حكيم عظيم، هو الاستفادة من إيجابيات التنظيم القبلي واستثمارها فيما يخدم الدعوة الإسلامية والبناء الجديد للمجتمع المسلم، ومحاربة سلبياته المؤذية. فأبقى على الانتماءات القبلية وحض على حفظ الأنساب، ولكنه جعل الانتماء إلى الدين مقدما على الانتماء القبلي ومحكما فيه. (لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) فإذا تجاوزنا قضية الانتماء وتحكيم القيم والقواعد بقي لنا ماتنشئه الروابط القبلية من تماسك وتكافل وضبط وربط.. وقد استفاد الإسلام من هذه الروابط في الدعوة ونشر الإسلام، فكانت بعض القبائل تدخل جميعها في الإسلام إذا أسلم سيدها، أو أسلم فيها رجل شريف مطاع، وقد دخل بنو عبد الأشهل في الإسلام جميعا عندما أسلم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ.. واستفاد في دعم الترابط بين المسلمين والمحافظة عليه، فجعل رسول الله ﷺ لكل قبيلة أو بطن من بطونها مسجدا في منطقتهم يلتقون فيه ويصلون أوقاتهم، وخط لكثير منهم مساجدهم

بنفسه، وحدد لهم القبلة وصلى في بعضها وعين لهم أئمة منهم، وكان مسجد قباء أول مسجد خطه بيده لبني عمرو بن عوف. بعد ذلك خط مسجد بني جهينة وصلى لهم فيه، وخط مسجد بني سلمة، وخط مساجد لكل من بني بياضة وبني الحبلى وبني عطية وبني دينار وبني حارثة وبني ساعدة وبني عبد الأشهل(١) وكان أبناء هذه البطون يصلون معظم أوقاتهم في مساجدهم ويصلون بعض الصلوات مع رسول الله ﷺ.. أما صلاة الجمعة فلم يكونوا يصلونها إلا في المسجد النبوي.

واستفاد في المعارك مع المشركين، فكان تنظيم الجيش حسب القبائل والبطون ولكل قبيلة أو بطن راية أو لواء أو أكثر يلتف حوله المجاهدون من أبناء هذه القبيلة ويعضد بعضهم بعضا. فالتوزيع القبلي نوع من التنظيم من جهة، ووسيلة من وسائل رفع المعنويات من جهة آخرى، لأن وجود عائلات تربطها قرابة العقيدة تزيد من استبسال المجاهدين(٢) وكذلك جباية الزكاة في كل قبيلة تكون على يد أحد أبنائها ما أمكن ذلك، لأنه أدرى بأحوال أهل قبيلته، وتكون مصاريف الزكاة داخل القبيلة نفسها في مصارف الزكاة الشرعية، وما فاض عن القبيلة يرسل إلى المدينة.

ومثلما استفاد من إيجابياتها واجه سلبياتها بحزم، فالعصبية القبلية كانت تذر قرنها حين يقع الخلاف بين فردين من قبيلتين مختلفتين.. ويتحول الخلاف إلى خصومة وقتال ضار، كما كان يحدث بين الأوس والخزرج في الجاهلية.

وقد حاول اليهود النفاذ إلى صفوف المسلمين وتشتيتهم بهذه الوسيلة، فدسَّ (شاسُ بن قيس) في أحد المجالس من يثير العصبية القبلية بين الأوس والخزرج بخبث شديد، ونجحت المؤامرة أول الأمر، وكادت المعركة أن تقع

---

١) انظر: تاريخ المدينة المنوره: ١/٥٧ ، ٦٤ ، ٧٤

٢) انظر: فتح الباري ١/٤٥٢ ٣/٢٧٣ و ٤٤٦.

بين الفريقين الأنصاريين، فتصدى لها الرسول ﷺ وأطفأ الفتنة. وكرر رأس المنافقين عبد الله بن أبي المحاولة بين المهاجرين والأنصار في غزوة بني المصطلق.. فعالج رسول الله ﷺ الأمر بحكمة بالغة وأخمد العصبية الجاهلية..

وهكذا استفاد المسلمون من الروابط القبلية فجعلوها نوعاً من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والعسكري في السلم والحرب، وتجنبوا سلبياتها التي تؤدي إلى تفتيت المجتمع وتناحر أبنائه.

ب ـ العمـــــران :

تطور العمران في المدينة خلال السنوات العشر بعد الهجرة ليستوعب الزيادة السكانية الكبيرة، وقد ساعد على هذا التطور طبيعة البنية المعمارية ليثرب الجاهلية. فقد كانت متناثرة على شكل مجموعات سكنية، تلتف كل مجموعة حول بعضها ثم تنفصل عن المجموعة الآخرى بجملة بساتين أو حرات أو جبال أو أرض فضاء... وتكون المجموعة الواحدة أحياناً متخلخلة يفصل بين دورها بساتين صغيرة أو كبيرة(١) وقد سمح هذا التخلخل بإقامة مساكن جديدة في الأراضي الخالية وسط المدينة وفي جميع نواحيها..

وقد بدأ التغير في البنية المعمارية للمدينة عندما خط رسول الله ﷺ المسجد النبوي.. وبناه مع الصحابة رضوان الله عليهم، وكان المسجد في منطقة تتوسط المجموعات السكنية المتناثرة وكأنه قلبها، فمن الجنوب العوالي وقباء، ومن الغرب حرة الوبرة، ومن الشمال أحد والجرف، ومن الشرق حرة واقم (الحرة الشرقية)، فموقع المسجد هو موقع قيادة المجتمع الجديد..

وكانت الأرض المحيطة بالمسجد خالية من السكان بعضها خرائب مهملة ليس لها مالك وفيها بقايا نخل، وبعضها الآخر مملوكة لبعض الأنصار، فخط لبعض المهاجرين قطعا ليبنوا عليها مساكنهم (فما كان من عفائن الأرض فإنه

---

١) انظر مصور التوزع السكاني ليثرب قبيل الهجرة.

أقطعهم إياها، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوها له، فكان يقطع ذلك من يشاء)(١)وقد أقطع ﷺ أبا بكر أرضا غربي المسجد، وأقطع عبد الرحمن بن عوف أرضا شماليه، فبناها عبد الرحمن بن عوف بسرعة ووسعها، وكانت أول دار بناها المهاجرون، ومالبث أن جعلها دار ضيافة ينزل فيها ضيوف رسول الله ﷺ. ويروى أن الرسول ﷺ عمل فيها مع عبد الرحمن بن عوف بيده.(٢) وأقطع عمه العباس بن عبد المطلب أرضاً غربي المسجد أيضا فبناها العباس باللبن والحجارة، وأقطع عبد الله وعيينة ابني مسعود الهذليين أرضاً قرب المسجد أيضاً، وخط أرضا لعثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب، وكانا مهاجرين في الحبشة، فلما عاد عثمان إلى المدينة بناها، وأما جعفر فلم يبنها لأنه وصل بعد عودة المسلمين من خيبر ثم استشهد في مؤتة، واشترى عمر أو عثمان نصف الأرض ليوسع بها داره،(٣) وخط للمقداد بن الأسود أرضا فبناها المقداد وسكنها، وخط لبني زهرة شمالي المسجد أرضا فبنوها وسكنوها(٤) وظل عليه الصلاة والسلام يخط في المنطقة القريبة من المسجد للمهاجرين إلى قرب عام الفتح، فعندما جاء خالد بن الوليد خط له أرضا مما بقي، فبناها ووجدها صغيرة، فشكى صغرها إلى رسول الله ﷺ فوجهه إلى أن يرفعها في السماء (يبني طوابق عليا)(٥)وهكذا ظهرت كتلة معمارية متراصة تتجاور فيها المساكن وتتلاصق وتحيط جميعها بالمسجد النبوي. ولم تمض السنوات العشر حتى امتلأت المنطقة بالمساكن، وامتدت إلى منطقة بني ساعدة شمالا وإلى بداية العوالي

---

١) وفاء الوفاء ٢/٧١٧.
٢) السابق ٢/٧٢٨.
٣) السابق ٧١٨
٤) السابق ٢/٧١٨.
٥) السابق ٢/٧٣٠.

وقباء جنوبا. واتصلت بالبقيع شرقا واقتربت من السوق غربا. إذ كان المسلمون يتسابقون إلى القرب من المسجد.. وقد همّ بنو سلمة أن يتركوا موقعهم غربي جبل سلع وينتقلوا قرب المسجد، فنهاهم رسول الله ﷺ وقال لهم: مساكَنكم تُكتبْ لكم خطواتكم. فبنوا مسجدهم وصاروا يصلون فيه. واشتكى بنو زهرة من دور اشتروها وسكنوها فقالوا: يارسول الله اشترينا ونحن جميع فتفرقنا، وأغنياء فافتقرنا. فقال الرسول ﷺ: اتركوها فهي ذميمة، فتركوها(١)وشكا بعض بني حرام أن مسجدهم يحول بينه وبينهم واد. وكان يسيل بالماء حين ينزل المطر، فقال لهم رسول الله ﷺ: ماعليكم لو تحولتم إلى سفح الجبل -يعني جبل سلع- فتحولوا. فدخلت حرام الشعب وصارت سواد وعبيد إلى السفح(٢)إضافة إلى الكتلة المعمارية حول المسجد، بنيت مساكن في الأراضي الخالية بين المسجد والتجمعات السكنية الآخرى.. وقد بنى المهاجرون عدداً من المساكن هناك وخاصة عندما كانوا يتزوجون، فأبو بكر بنى منزلا في السُنْح وتزوج فيه، وعمر بنى في طرف العوالي، وعبد الرحمن بن عوف بنى منزلاً آخر غير منزله الذي في جانب المسجد. وتواصل البنيان حتى اتصلت قباء بمنطقة المسجد ولم تعد قرية منفصلة عنها، فكان أهل قباء يصلون الجمعة في المسجد النبوي(٣)ورغم هذا الاشتباك فقد بقيت المدينة مفتوحة ليس لها سور يجمع مساكنها خلف جدرانه.. وظلت بعض البساتين تتخلل الدور هنا وهناك.. وظلت منطقة سلع وما بعدها مفصولة أيضا ببعض البساتين عن منطقة المسجد النبوي. كما أن خلخلة أخرى قد حدثت عندما هاجر بنو قينقاع وتركوا دورهم، فسكن المسلمون بعضها وبقي بعضها الآخر مهجوراً. أما دور بني النضير وبني قريظة فكانت متطرفة فلم

---

١) السابق ٢/٧٢٤.

٢) تاريخ المدينه المنوره ١/٧٨١.

٣) انظر مصنف عبد الرزاق ٥/٣٦٣.

يُسكن منها بعد زوالهم إلا القليل، سكنها جيرانهم من بني ظفر وبني عبد الأشهل. ويقدر بعض الباحثين عدد المساكن في العام السادس للهجرة بثمانمائة مسكن(١) ولو أخذنا بالنسبة المتصاعدة لزيادة السكان في المدينة فإن عدد المساكن في السنة العاشرة ينبغي ألا يقل عن ألفين إلى الفين وخمسمئة مسكن، وكل مسكن يضم عائلة يتراوح عدد أفرادها بين خمسة الى عشرة أفراد... وهذه الأعداد تخمينية وليست دقيقة..

نخرج من ذلك كله إلى أن تغيراً قد حدث في السكان والعمران، فقد تضاعفت المدينة سكانا ومساكن عدة أضعاف، وظهرت كتلة المسجد النبوي وما حولها من المساكن، فصارت مركز المدينة وقلبها.. ولم تعد الامتدادات العمرانية تبعد أبعد مما كانت عليه.. بل راحت تصل المناطق البعيدة بكتلة المسجد النبوي وتستفيد من الأراضي الخالية بينها.. بينما ظل سوق المدينة على طرفهاالغربي خارج السكن، وتخلخلت مناطق اليهود وفرغت معظمها من سكانها وبالذات مناطق بني قريظة وبني النضير..

---

١) المدينة المنوره، تطورها العمراني ص ١٢.

المدينـــة المنورة فـــي العهـــد الراشـــدي

البحث عن خليفة:

أحس رؤساء الأنصار أن وفاة الرسول ﷺ قد تركت المدينة بلا قائد يوجه أمورها، وأن الساعات القادمة عصيبة، ولابد أن يكون للمسلمين خليفة يحمل المسؤولية، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وأخذوا يتشاورون من يتولى الأمر، واتجهت العيون إلى سعد بن عبادة، وكان فيه بقايا مرض ألمَّ به قبل أيام، وكاد الحاضرون أن يبايعوه، فذكر بعضهم غيبة إخوانهم المهاجرين، وأنه لابد من حضورهم، واعترض بعضهم الآخر، واقترح فريق ثالث أن يختار الأنصار أميرهم ويتركوا للمهاجرين أن يختاروا أميراً منهم فيكون للمسلمين أميران، واحد من الأنصار وواحد من المهاجرين، ورفض بعضهم هذا الرأي، فلا يصلح أن يكون للمسلمين أميران.

وبينما الأنصار في مداولاتهم وصل الخبر إلى المهاجرين، ونقله بعضهم إلى عمر بن الخطاب، وكان جالساً قُرب حجرة رسول الله ﷺ في حزن شديد، فلما بلغه خبر اجتماع الأنصار في السقيفة أدرك أن الأمر يقتضي تصرفا سريعا كي لاتحدث فتنة بين المسلمين، فلو بايع الأنصار رجلاً ولم يرضه المهاجرون -وقد أصبحوا أكثرية تفوق الأنصار عدداً- فسوف تضطرب الأمور، فأرسل من ينادي أبا بكر، وكان أبو بكر بجانب جثمان الرسول ﷺ في حجرته، فلم يرد عليه ، فأرسل ثانية وثالثة، فخرج أبوبكر، وحدثه عمر بالأمر وضرورة الإسراع إلى السقيفة، فوافقه أبوبكر ومضيا إلى السقيفة.

وفي الطريق لقيا أبا عبيدة بن الجراح فصحبهما.. وقبل أن يصل الثلاثة إلى السقيفة التقوا برجلين من الأنصار شهدا بدراً هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، وأشار الأنصاريان عليهم بالرجوع إلى المهاجرين ليصنعوا كما صنع الأنصار، أي أن يختاروا أميراً منهم، فأبى الثلاثة ذلك، وأصروا على الذهاب إلى السقيفة، ودخلوها وقد اجتمع أمر الأنصار على سعد بن عبادة، وقام أحدهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وأمابعد، فنحن الأنصار وكتيبة

الإسلام، وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا، تمتّ إلينا من قومكم دافة.

وهمَّ عمر بن الخطاب أن يقف ليرد على الأنصاري، فأمسكه أبو بكر، وقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله بعث محمدا رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمته، ليعبدوه ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والايمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم له، وتكذيبهم إياه، وكل الناس لهم مخالف، وزارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم. فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله والرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا يُنكر فضلهم في الدين، ولاسابقتهم العظيمة للإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور.

واعترض الحباب بن المنذر، واقترح أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير، فبيّن لهم عمر أن ذلك لايصح. وكاد النقاش أن يحتد ويزيد الخلاف، وتكلم أبوعبيدة فقال: يامعشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من غير وبدل. فقام بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه ـمن سادة الخزرج ـ فقال: يامعشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذاالدين، فما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمدا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لايراني الله أنازعهم هذا الأمرأبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم. فقال أبو بكر: هذا عمر

وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا. فقال عمر وأبو عبيدة: لاوالله، هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك، أو يتولى هذاالأمر عليك، ابسط يدك لنبايعك.

مبايعة أبي بكر:

أثرت كلمات بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه في الحاضرين، وأَتْبَعَ بشيرُ بن سعد كلامه بالتنفيذ الفوري، فتقدم إلى أبي بكر وأمسك بيده وبايعه، ثم تلاه عمر وأبو عبيدة ثم أُسيد بن حضير، ثم توافد عليه من في المجلس يبايعونه (١)وانفض المجلس وانتشر الخبر في المدينة ببيعة أبي بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين.

وفي اليوم التالي جُهز الرسول ﷺ للدفن، وتوافد الناس إلى حجرته فصلوا عليه فرادى لايؤمهم أحد... حتى إذا فرغوا من حفر قبره الشريف في المكان الذي توفي فيه، ووري جسده الشريف في اللحد، أقبل الناس إلى المسجد يبايعون أبا بكر، حتى إذا فرغوا قام أبو بكر فخطب في الناس مبيّنا موقفه في الخلافة وسياسته، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني...الخ(٢)

إنفـاذ الجيـش:

كان أول أمر شغل أبا بكر هو إنفاذ جيش أسامة بن زيد الذي أوصى رسول الله ﷺ قبل موته بإنفاذه، لذا أمر أبو بكر منادياً ينادي في أحياء المدينة وضواحيها: ألا يبقى بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف.. وجاءت الأخبار إلى المدينة، والجيش يتجمع في الجرف،

---

١) الطبري ٣/٢١٨.

٢) انظر نص الخطبة في الكامل ٢/٢٢٤

بأن خبر وفاة الرسول ﷺ قد هز المنطقة كلها، وأن كثيراً من الأعراب حول المدينة قد نافق أو ارتد. وتوالت الأخبار عن ارتداد قبائل بأكملها وأفراد من قبائل أخرى. ولم يبق على بيعة الإسلام إلا المدينة ومكة والطائف.

أحس أهل المدينة بالخطر يحيط بهم من كل جانب، واستشعر بعضهم الشر من الأعراب المنافقين والمرتدين، وأحسوا أنهم لابد أن يهاجموا المدينة قريباً، فمشوا إلى أبي بكر يسألونه أن يوقف إرسال جيش أسامة، وأن يبقيه في المدينة تحسبا ممن حولها من الأعراب والقبائل المرتدة.. فأبى، فقال له الناس إن هؤلاء (الذين في الجيش) جل المسلمين، والعرب على ماترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته. فلما رأى أهل المدينة إصراره على إرسال الجيش امتثالا لأمر الرسول ﷺ أطاعوه، وخرج معظم الصحابة إلى المعسكر، وفيهم عمر بن الخطاب. وطلب بعض الصحابة من الخليفة أن يغير الأمير لحداثة سنه (كان ابن ستة عشر عاما)، ولوجود كبار الصحابة في جيشه، فأبى، وخرج ليودع أسامة والجيش، وسار إلى الجرف. وبدأ الجيش المسير فسار معهم أبو بكر مسافة على قدميه، وكان أسامة راكبا فرسه فقال له: ياخليفة رسول الله لتركبن أولأنزلن، فقال والله لاتنزل ووالله لاأركب، وماعلي أن أغبرّ قدمي في سبيل الله ساعة.. ثم وقف وخطب في الجيش وأوصاهم وصية تُعَدُّ مِنْ قواعد السلوك الإسلامي في الحرب فقال: ياأيها الناس قفوا أوصكم بعشر، فاحفظوها عني: لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم بآنية

فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وستلقون أقواماً مخضوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب. فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله(١) ثم ودع أبو بكر أسامة واستأذن في أن يترك له عمر بن الخطاب ليساعده فأذن له.

الخطر يهدد المدينة:

عاد أبو بكر إلى المدينة ليجد مزيداً من الأخبار عن ردة القبائل، وأن بعضهم قد ائتمروا على مهاجمة المدينة، وأنهم يجمعون جموعهم لذلك، ولم يكن للمدينة أية حماية، ولم يعد بها بعد أن خرج جيش أسامة إلا عدد قليل من الرجال.

وبعد أيام قليلة تجمعت حشود من بني أسد وغطفان وطيء، وتوزعت حول المدينة واقتربت منها إلى ذي القصة (على مسافة خمسة وثلاثين كيلاً من المدينة) وأرسلت وفداً إلى المدينة ليطلب من أبي بكر إسقاط الزكاة عنهم، وليتحسسوا أمر المدينة أيضا، وجاء الوفد وحاول أن يستخلص من الخليفة ما أرادوه، فأبى أبو بكر بشدة وقال مقالته الشهيرة: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه. ورجع الوفد وقد رأوا قلة الرجال في المديتة فأخبروا عشائرهم وأطمعوهم فيها. شعر أبو بكر بما في نفوس الوفد ومن خلفه، فسارع إلى تشكيل مجموعات حراسة وحماية، فشكل ست مجموعات، ووضع عليها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص، وجعلهم على مداخل المدينة، وكلفهم أن يعدوا مراسلا ليخبره بأي جديد.

باتت المدينة تترقب غارة قادمة، وسهرت مجموعات الحماية تحرس المنافذ، ولم يمض يومان حتى عبأت القبائل المحتشدة أفرادها، وانقسمت إلى مجموعتين: مجموعة متقدمة تتحرك ليلا، ومجموعة ترابط خارج المدينة (عند

---

١) الطبري ٣/٢٢٦.

ذو حس) لتكون ردفا للمجموعة الأولى ولتهاجم في الوقت المناسب.

وفي الليلة الثالثة زحفت طلائع القبائل إلى المدينة لتباغت المسلمين، وأحست مجموعات الحماية بهم، فتصدت لهم وأرسلت الخبر إلى أبي بكر، وسارع أبو بكر إلى المسجد، وكان فيه عدد من المسلمين، فخرج بهم على الإبل لقتال الغزاة.. وانكسرت شوكة المهاجمين وأخذوا يتراجعون، فتبعهم المسلمون حتى إذا وصلوا إلى (ذو حس) خرجت المجموعة الثانية من القبائل، وعمدوا إلى حيلة يخيفون بها إبل المسلمين.. إذ نفخوا قربا من الجلد وأخذوا يدحرجونها أمام الإبل، فنفرت إبل المسلمين حتى لم يعد الراكبون عليها يملكون أمرها.. وقفلت راجعة إلى المدينة، وسلم الله المسلمين جميعاً فلم يُصب منهم أحد.

ظن الغزاة أن أمر المسلمين قد تضعضع نتيجة لهذه الغارة، لذا أرسلوا إلى حشودهم في ذي القصة أن يتقدموا إليهم ليهاجموا المدينة معا في الصباح، فتحرك الحشد آخر الليل.

أما المسلمون؛ فبعد أن عادوا إلى المدينة لم يركنوا إلى الراحة، وقام أبو بكر يستنهض الناس آخر الليل للخروج معه، فخرجوا، وساروا في ظلمة الليل متخافتين لايحدثون ضجة، ومع طلائع الفجر فاجأ المسلمون جموع الغزاة واشتدوا عليهم، فما ذر قرن الشمس حتى هزموهم، واستولوا على معظم إبلهم وتبعهوم إلى ذي القصة، فتشتتوا، وكان ذلك أول الفتح(١).

وبعد تشتيت جموع الغزاة وضع أبو بكر حامية بقيادة النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، وعاد ببقية الرجال إلى المدينة سالمين غانمين. وجاءت الأخبار في الأيام التالية بأن عدداً من القبائل التي ارتدت تهاجم الأفخاذ والأفراد الذين لم يرتدوا وتقتلهم، فصمم أبو بكر على قتال المرتدين والانتقام للمسلمين المغدورين، وأرسل الرسائل إلى من لم يرتد يطلب منهم

---

١) الطبري ٣ /٢٤٦

أن يحشدوا ما لديهم من المسلمين لقتال المرتدين، وأن يقاتلوا زعماء الردة إن استطاعوا أو يشاغلوهم إلى أن يعود جيش أسامة، وشدد الحراسة على المدينة وأرسل مجموعات الحماية إلى ماحولها زيادة في الحيطة لضمان سلا مة المدينة ومن فيها.

كان الموقف الذي يواجهه أبو بكر صعباً جداً، فالقبائل المرتدة تحيط بالمدينة، وليس في بيت المال أموال تعين على التعبئة، خاصة بعد أن توقفت القبائل عن إرسال الزكاة..

غير أن هذه الضائقة لم تطل، فقد وصل إلى المدينة بعد أقل من شهرين ثلاثة من أمراء الصدقات صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر وعدي بن حاتم الطائي يحملون زكاة قبائلهم. فاستبشر المسلمون خيراً، وبدأ من في المدينة يتجهز للجهاد، وبعد عشرة أيام وصل جيش أسامة بن زيد يحمل غنائم كسبها المسلمون من أعدائهم، ففرح بهم المسلمون.. وأمر أبو بكر أسامة وجيشه أن يستريح من وعثاء السفر، واستنفر الذين لم يذهبوا مع أسامة للخروج معه، وجاءه علي بن أبي طالب يناشده أن يبقى في المدينة ويستخلف غيره على الجيش، فأبى أبو بكر، وأصر على أن يذهب مع الجيش ويقاتل، واتجه الجيش إلى (ذو القصة) فاصطحب الحامية هناك ومضى إلى الربذة، حيث لقي تجمع المرتدين فقاتلهم قتالاً شديداً، ونصر الله المسلمين، وهربت القبائل المرتدة وخاصة عبس وذبيان، وأعلن أبو بكر أن الربذة حمى لإبل المسلمين وخيولهم، ومنع القبائل من الإقامة فيها، ثم رجع إلى المدينة مكللا بالنصر. فارتفعت الروح المعنوية للمسلمين في المدينة، وازداد إصرارهم على الجهاد والقضاء على الردة وإعادة الجزيرة العربية إلى الإسلام.

مطاردة المرتـــدين في ديارهـم:

جاءت أموال أخرى إلى المدينة فوزع أبو بكر بعضها على الناس، وخصص البقية لتجهيز المجاهدين لقتال المرتدين، ثم جمع الصحابة الكرام

حروب الردة
أيام أبي بكر الصديق
١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ

هجوم أبي بكر على عبس وذبيان
جيش خالد بن الوليد إلى طيء ثم أسد ثم تميم ثم حنيفة
جيش عكرمة بن أبي جهل إلى بني حنيفة
جيش شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة إلى بني حنيفة
جيش طريفة بن حاجز إلى سليم وهوازن
جيش عمرو بن العاص إلى قضاعة ووديعة والحارث
جيش خالد بن سعيد إلى مشارف الشام
جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين
جيش حذيفة بن محصن إلى دبا بعمان
جيش عرفجة بن هرثمة إلى مهرة
جيش المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء ثم حضرموت
جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن

البحر الأحمر
الخليج العربي
بحر العرب
خليج عمان
مسقط
دبا
صحار
عدن
بوشهر
الإسكندرية
بحر الروم

الكتائب التي خرجت من المدينة المنورة للقضاء على الردة في عهد أبي بكر الصديق

رضي الله عنهم وشكل إحدى عشرة فرقة مقاتلة عقد لها أحد عشر لواء، وجعل على كل منها واحداً من الصحابة الأشداء في الجهاد، كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أمية وخالد بن سعد بن العاص وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة. واكتتب معظم القادرين على الجهاد من أهل المدينة في هذه المجموعات، كما اكتتب فيها عدد ممن رجعوا إلى الإسلام من أطراف المدينة، وتحولت منطقة الجرف إلى معسكر كبير نصبت فيه الألوية، وتوزعت الكتائب، وتجمع المجاهدون استعداداً للرحيل، وكتب أبو بكر لقادة الألوية كتاباً موحداً أوصاهم فيه بتقوى الله والجهاد في سبيله وقتال المرتدين، واشترط عليهم ألايقاتلوا أحداً إلا بعدأن ينذروه ويدعوه إلى العودة عن ردته، فإن تاب ورجع إلى الإسلام أمسكوا عنه، وإلا قاتلوه. وكتب رسائل إلى المرتدين يدعوهم فيها إلى العودة عن غيهم، ويبين لهم ما أمر به قادته، وما يكون حالهم إن تابوا وعادوا عن ردتهم، وما يكون حالهم أيضاً إن رفضوا.

وانطلقت الكتائب الإسلامية في أرض الجزيرة العربية، تستأصل الردة وتقضي على الكفر.. وقد نصرها الله نصراً مؤزراً، فعاد من عاد إلى الدين الحنيف دونما قتال، وأبى عتاة الكفار ورؤس الردة الكبار إلا القتال، فقتل بعضهم كمسيلمة، وهرب بعضهم، كسجاح التي فرت ثم تابت.

وتوغلت الكتائب في الجزيرة فوصلت إلى البحرين وعمان واليمن وقضت على الردة نهائياً، ولم تمض سنة حتى عادت القبائل في الجزيرة العربية كلها إلى دين الله أفواجاً، ونصر الله جنده، واستأثر بالشهادة أكثر من سبعمئة

رجل من المدينة، معظمهم من حفظة القرآن(١).

وبالمقابل وردت إلى المدينة غنائم كثيرة فيها أعداد كبيرة من السبي، وفيها أموال وإبل وأغنام، فكان الخليفة يوزع بعضها على الناس ويمسك بعضها لتجهيز الجيوش.

المدينـة منطلق الفتوح:

ما أن استتب الأمر في الجزيرة العربية حتى أمر الخليفة قادته أن يتوجهوا إلى أطراف الفرس والروم، وأن يبدؤوا الجهاد في العراق والشام، واستنهض الناس فنهضوا، وتوافد أفراد وبطون من القبائل التي عادت إلى الإسلام على المدينة يطلبون من أبي بكر أن يرسلهم إلى الجهاد في سبيل الله ليكفروا عما وقعوا فيه... عادت المدينة معسكراً كبيراً يستقبل المتطوعين... وكان الجرف موقع تجمع المرابطين، حيث يقدم لهم الطعام ويزودون بالسلاح، وكلما تجمع عدد منهم سيرهم أبو بكر مدداً لأحد القادة...

وتوجهت الكتائب المتوالية شمالا، وانتشرت ما بين الشام والعراق.. ووفدت بطون جديدة من أطراف نجد والطائف ونجران واليمن وعمان وحضرموت إلى المدينة حيث انتظمت في كتائب، وتوجهت مدداً تلو المدد إلى خالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح، والقعقاع بن عمرو، وسائر القادة الآخرين ليشاركوا في الفتوح.

وما لبثت الغنائم من فارس والروم أن وصلت إلى المدينة، وكان أولها غنائم وقعة عين التمر التي كان يسيطر عليها الروم، وقد نصر الله الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد، وغنم خالد أموالاً كثيرة، فعزل الخمس وأرسله إلى المدينة، فوزع أبو بكر الأموال، وأصاب كل رجل في المدينة دينارا روميا، وكان الدينار الرومي آنئذ مبلغا ذا قيمة كبيرة.

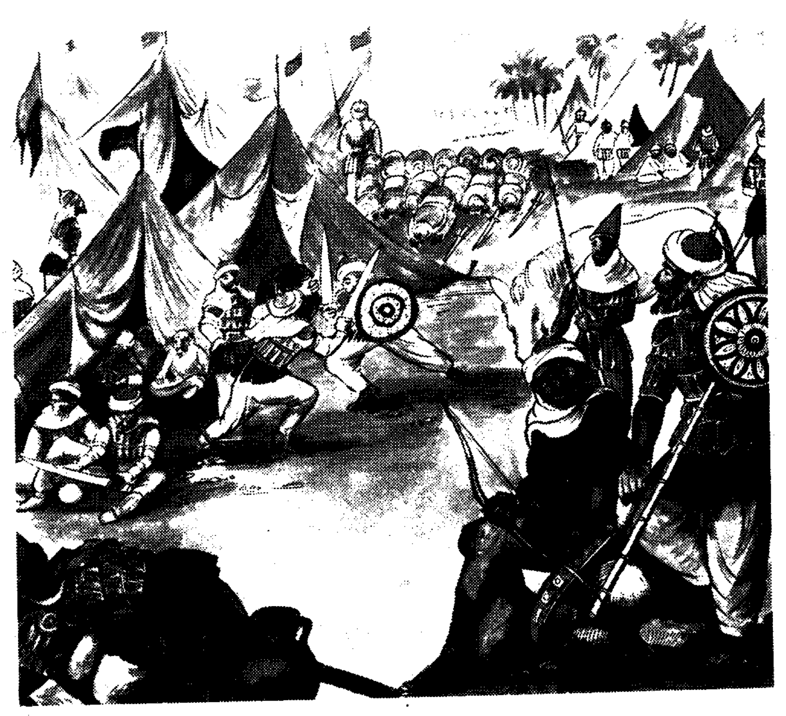
وهكذا مضت السنة الثانية من خلافة أبي بكر والمدينة بين مد وجزر في

---

١) ابن خلدون ٥٠٣/٢.

حركة جيوش الفتح التي خرجت من المدينة في العصر الراشدي

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



معسكر الجرف كما تصوره الرسام

السكان، يكتتب رجالها في الجهاد، ويأتيها المكتتبون من الأطراف أيضا ،فتمتلىء بهم شوارع المدينة ومسجدها، ويمتلىء معسكر الجهاد في الجرف، ثم ما يلبث أن يخلو برحيلهم إلى مواطن الجهاد. وتحولت المدينة من عاصمة هادئة إلى مركز يضج بالمجاهدين والعابرين، وبالمراسلين يأتون من مناطق القتال، ويخرجون إليها، وبالغنائم والسبايا والأسرى يرسلهم القادة إلى الخليفة، فيوزعها على بيوت المدينة. ولأول مرة عرفتِ المدينة مجموعات من الأسرى الفرس والروم من الرجال والنساء. وقد أعتق أهل المدينة عدداً كبيراً منهم، وتزوجوا بعض السبايا اللواتي أُعتقن، ليظهر جيل جديد بعد حين، تختلط فيه الدماء العربية بالفارسية والرومية....

ولم تمض أشهر قليلة من السنة الثالثة عشرة للهجرة حتى كانت المدينة عاصمة لمنطقة تشمل الجزيرة العربية كلها، والأردن وطرفا من فلسطين وجنوب بلاد الشام وشرق العراق، وكان أهلها إما مسلمين وأما معاهدين يدفعون الجزية.

عهدٌ للخليفة القادم:

في السابع من شهر جمادى الآخرة عام ثلاثة عشر للهجرة مرض أبو بكر، فأمر عمر أن يصلي بالناس مكانه واستدعى كبار الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ليستشيرهم فيمن يتولى الأمر بعده، كي لايتبلبل المسلمون أو يختلفوا، وبعد مشاورات متوالية استقر رأيه على تولية عمر بعده. فلما اشتد عليه المرض استدعى عثمان بن عفان وأملى عليه كتابا يوصي فيه المسلمين بخلافة عمرعليهم، جاء فيه: «هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن بها الكافر ويوقن بها الفاجر. إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا وأطيعوا، ولم آلُ بكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به، وإن غيرّ وبدّل فلا علم لي بالغيب. والخيرَ أردت. ولكل امرىء

ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». ثم ختم الكتاب وأمره أن يخرج به إلى الناس مختوما، وقد تجمع عدد كبير من أهل المدينة عندما علموا بثقل مرض أبي بكر. وخرج عثمان إليهم ومعه أسيد بن حضير وعمر، وتحامل أبو بكر على نفسه تسنده زوجته أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وأشرف على الناس من كوة في بيته، فقال: أيها الناس: إني قد عهدت عهداً أفترضونه؟ قالوا: بلى، ثم عاد إلى بيته، وأوصى أن تفرق أمواله وأن ترد إلى بيت المال رواتبه التي حمله الصحابة على أخذها. (١).

وفي مساء يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام ثلاثة عشر للهجرة فاضت روح أبي بكر الصديق إلى بارئها، ودفن إلى جوار رسول الله ﷺ. وانتقلت الخلافة إلى عمر... وجاء أهل المدينة إليه في المسجد يبايعونه ماتخلف منهم أحد.

---

١) كان أبو بكر تاجراً، فلما بويع بالخلافة ظل في تجارته يحمل أثوابا ويبيعها بالسوق، فاعترض الصحابة عليه وطلبوا منه أن يترك التجارة ويتفرغ لشؤون المسلمين ويأخذ نفقته ونفقة عياله من بيت المال. وفرضوا له ستة الاف درهم في السنة ، فلما مرض مرض الموت طلب أن يرد إلى بيت المال كل مايأخذه من رواتب.

المدينـــة في خـــلافـــة عمر بن الخطاب

أصبحت المدينة بعد أن دفن أبو بكر رضي الله عنه في إمرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومضى الناس إلى بيوتهم بعد أن بايعوه، وهم يعلمون ما لعمر من الحزم وضبط الأمور. فلما كانت الغداة واجتمع الناس للصلاة وقف عمر يخطب فيهم ويبين لهم سياسته.

ولم تكن سياسة عمر غريبة عن أهل المدينة، فقد عرفوا شيئا من حزمه واصراره على الحق في عهد النبي ﷺ، وعرفوها أكثر وأكثر في عهد أبي بكر، إذ كان صاحبه الذي لايكاد يفارقه، وكان أبو بكر يستشيره، ويرى الناس ذلك، وربما بادر عمر أبا بكر بالرأي، حتى كان بعضهم يتمنى أن يحظى بلين أبي بكر بعيداً عن عمر، وقد حاول بعضهم أن يستثير أبا بكر في ذلك فقال له: أأنت الخليفة أم عمر. فقال أبو بكر: هو إن شاء...

وسرعان ما بدت آثار سياسة عمر في وضع المدينة بخاصة، وأوضاع المسلمين بعامة.. كان أول ما اهتم به عمر أن يتابع حركة الفتوح التي بدأت في عهد أبي بكر. لذا راح يستحث الناس للخروج إلى الجهاد، ويرسل الرسل من المدينة إلى القبائل في الجزيرة العربية كي ينهض الناس إلى الفتوح، ولبى المسلمون داعي الجهاد، وواصلت منطقة الجرف استقبالها لجموع المكتتبين في الجهاد، فكان يخرج إليهم عمر، ويوصيهم بتقوى الله والبلاء في الجهاد، ثم يؤمر عليهم أميراً ويرسلهم في بعث إلى الشام أوالعراق، ليعضدوا الجيوش الغازية هناك في مواجهة الروم والفرس. ولما جاءت الأخبار إلى المدينة بأن المسلمين الذين يجاهدون الفرس في العراق أصيبوا يوم الجسر، وبأن الفرس قد حشدوا حشودهم ليقضوا على المسلمين، أمر عمر أن ينادى في شوارع المدينة وضواحيها بالتجهز ولا يبقى إلا صاحب عذر، وكتب إلى القبائل ، فوفد عليه عدد كبير، وخرج من المدينة خلق كثير حتى لم يبق فيها

إلا صاحب عذر، وخرج معهم عمر وسار حتى نزل على ماء يقال له صرار، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة الآخرين، وعزم أن يغزو بهم العراق، واستشار الصحابة، فتحمس بعضهم لذلك ووافقوه، وعارضه بعضهم الآخر، ثم وقف عبد الرحمن بن عوف وقال له: إننى أخشى إن كُسرت أن يضعف المسلمون فى سائر أقطار الأرض، وأرى أن تبعث رجلا وترجع أنت إلى المدينة.. واستحسن الجميع رأيه ، فقبله عمر، وعين سعد بن مالك الزهري أميراً على الجيش، وسار معهم حتى بلغوا مكانا يقال له الأعوص، فخطب فيهم وأوصاهم بتقوى الله وحسن البلاء والزهد في الدنيا، وودعهم ورجع إلى المدينة ومعه عدد قليل من كبار الصحابة استبقاهم ليكونوا عونه ومجلسه الاستشاري. وقد بلغ عدد الذين مضوا إلى الجهاد من أهل المدينة أكثر من ألف مجاهد، فيهم ثلاثمئة وبضعة وعشرون صحابياً، منهم بضعة وسبعون ممن شهدوا غزوة بدر، وسبعمائة من أبناء الصحابة (١)وقد فتح الله عليهم في القادسية فتوحاً عظيمة.. وظل أكثرهم في الجهاد من موقعة إلى موقعة إلى أن استشهد معظمهم.

رعـاية أسـر المجـاهدين:

عندما عاد عمر إلى المدينة طاف على بيوت المجاهدين يسألهم عن حاجتهم، ويعطيهم ما يلزمهم من المال والطعام، ولم تكن المدينة قد وصلتها وفرة من المال والطعام بعد، وكان يذهب بنفسه إلى السوق فيشتري لهم مايطلبونه، ويرسل إليهم مواليه، وقد جعل رعاية أسر المجاهدين من أعماله

---

١) البدية والنهاية ٣٧/٤.

الدورية، وربما صحب معه أولاد المجاهدين وجواريهم ليؤانسهم(١).

تنظيم الخدمة البريديـة:

اعتنى عمر بالبريد، فاختار له رجالا يتجلدون في السفر ويحسنونه، ونظمه تنظيماً دقيقاً بحيث تنقل الرسائل بينه وبين الجيوش في الأمصار البعيدة بسرعة قياسية بالنسبة لذلك العصر، لذا سهل على القادة أن يستشيروه في أمور كثيرة وأن يرسلوا إليه الأخبار المتوالية.

وجعل عمر من مهمات البريد أن يحمل الرسائل من المجاهدين إلى عائلاتهم.. فكان إذا وصل البريد إلى المدينة أنفذ الرسائل التي بعثها المجاهدون إلى بيوتهم ، وأرسل معها قارئا ليقرأ الرسالة إن لم تكن زوجة المجاهد أو أبناؤه يحسنون القراءة، وإذا عزم على إرسال البريد إلى جهة ما أرسل من ينادي في الأحياء أن البريد سيخرج في وقت كذا إلى جهة كذا وكذا، فمن كان يريد إرسال رسائل فليأت بها قبل أن يخرج البريد، وقد وجدت أسر المجاهدين بذلك راحة كبيرة.

مجتمع الأمن والوفـرة:

شهدت المدينة أمراً يزيد من إحساس أهلها بالأمن والطمأنينة وسلطان الدولة، فقد شاهدت الخليفة يطوف في الليل على الأحياء ورفيقه غالباً، أحدُ الصحابة أو أحد مواليه، يستتر من الناس كيلا يعرفوه، فإن وجد صاحب حاجة أسرع بتلبية حاجته، وإن وجد فقيراً أعطاه، وإن وجد مذنباً أخذه بذنبه، وربما ينتدب من يفعل ذلك.

وفي الصباح كان الخليفة يجلس للناس، ومعه مستشاروه من كبار الصحابة، كعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، فيأتيه الرجل في حاجته، وتأتيه المرأة في حاجتها، ويقصده المتخاصمون ليقضيَ بينهم، ويأتيه الناس بمن أذنب أو ارتكب جريرة تقتضي أن يقام عليه الحد،

---

١) التاريخ الإسلامي ٣/٢٠٨.

فيستشير مجالسيه ويقضي فيهم أو يوكل القضاء إليهم، وكان أكثر ما يأخذ من الآراء رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان يوكل إليه القضاء في أمور كثيرة، كما كان يوليه على المدينة في غيبته.

واستتب الأمن في المدينة، حتى ليروى بعضهم أنه مرت سنة كاملة وما عرض على عمر شيء من خصومة أو جريرة(١)، ولعل من أسباب ذلك أن عمر كما كان يعس في الليل كان يطوف في النهار، ويذهب إلى أسواق المدينة ويراقب المعاملات فيها، ويرقب قدوم القوافل، وكانت هيبته والدرة التي يحملها (٢) ويخفق بها من يرى فيه أدنى عوج، فكان ذلك كفيلاً باستقامة الأمور وردع المفسدين، وتروي الأخبار أن عمر رأى رجلاً في السوق يكاسر الأسعار ليؤذيَ غيره من التجار فخفقه بالدرة وأمره أن يبيع بسعر التجار أو يرحل عن السوق(٣) ووصلت مرة إلى المدينة قافلة عظيمة قبيل الغروب، فلما جن الليل طلب من عبد الرحمن بن عوف أن يصحبه للسهر على القافلة وحراستها، فصحبه وأمضيا الليل عندها...

وهكذا نعمت المدينة بحالة من الأمن والأمان لم تشهد لها مثيلا من قبل، وتفرغت لاستقبال رسل قادة الفتح في الشام والعراق، وتجهيز المجاهدين، وإرسالهم إلى الآفاق. وتوالت الرسل والرسائل بأخبار المجاهدين المبشرة، فقد كانوا ينتقلون من نصر الى نصر.. في العراق حيث تتهاوى الإمبراطورية الفارسية تحت ضربات سيوفهم، وفي الشام حيث تم فتح سورية كلها مدينة مدينة، وتوافدت على المدينة أخماس الغنائم، حيث كان القادة يجمعون ما يغنمونه بعد المعركة ويوزعون أربعة أخماسه على المجاهدين ويرسلون الخمس الباقي إلى المدينة المنورة، وأول ماوصل منها خمس غنائم القادسية

---

١) المصدر السابق

٢) الدرة عصا قصيرة في رأسها مثل الكرة

٣) المصدر السابق

يحملها زياد ابن أبيه، وقد بلغ ستة ملايين، وكميات من الياقوت والحرير واللؤلؤ والذهب لايعرف قيمتها، ولم تكن المدينة قد شهدت مثل هذه الثروة من قبل، فوضعت في المسجد كومة كبيرة وغطيت بثياب، وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانها، وفي الصباح جمع عمر أهل المدينة وكشف لهم عن المال فبهر الناس بما رأوا.. وبكى عمر خشية أن يفتن المال الناس، ثم قسم المال على أهل المدينة جميعاً(١)وجاءه مرة مال كثير ومعه بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه مثل ذلك، كانت الأكاسرة إذا هبت الرياح بعد الشتاء شربوا عليه، فكأنهم في رياض، فيه طرق كالقصور وفصوص كالأنهار، أرضه مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدرر وفي حافاته كالأرض المزروعة، مصنوعة من الحرير والذهب والجواهر، فاستشار المسلمين فيه فأشاروا بقطعه، فقطعه بينهم، فأصاب علي بن أبي طالب قطعة منه فباعها بعشرين ألفا ولم تكن أجود من غيرها(٢)ووفدت بعد ذلك كنوز كسرى الأخرى، وفيها سواراه وتاجه وقفة مليئة بالجواهر، مصداقاً لنبوءة رسول الله ﷺ أيام الخندق عندما بشرهم بقصور كسرى وجواهره، فدعا عمر سراقةَ بنَ مالك، وكان رسول الله ﷺ قد وعده بسواري كسرى، فأعطاه اياهما. وكانت الغنائم الوافدة إلى المدينة توزع مباشرة على بيوتها، وقد آلى عمر نفسه ألا يُبقي منها شيئا البتة، وعندما أشار عليه بعضهم أن يستبقي شيئاً منها لطارىء يحدث، أبى إباء شديداً(٣).

وعاشت المدينة على أخبار الفتوح وقصص البطولات، وكانت الرسل تحملها إلى عمر، فيجمع الناس في المسجد ويبشرهم بما وصله من أخبار الفتوح، وقد يطلب من الرسول نفسه أن يقف ويحدث الناس عن تفاصيل

---

١) انظر نهاية الأرب ١٩/٢٣٣.

٢) السابق ١٩/٢٢٩.

٣) السابق ١٩/٣٣٦.

المعركة(١) وكأنهم يرونها رأي العين، فيسر الناس لذلك وينقلون الأخبار إلى أهليهم وأبنائهم ومن لم يسمعها بعد، وفي الوقت نفسه تحمل الأخبار أسماء من رزقهم الله الشهادة، فيرثِيهم المسلمون ويتقبل أهلهم العزاء فيهم.

توحيد صلوات التراويح:

وفي رمضان من العام الرابع عشر للهجرة توافد الناس إلى مسجد رسول الله ﷺ فصلّوا العشاء وتفرقوا في أطراف المسجد ليُصلّوا السنن والتراويح، وكانوا يصلونها متفرقين، فوقف عمر وطلب منهم أن يجتمعوا وأن يُصلّوا صلاة القيام جماعة، وأن يكمل من شاء معه إلى عشرين ركعة، وانتدب أبي بن كعب لإمامتهم، وهو رابع أربعةٍ كانوا أعلمَ الناس بالقرآن وتلاوته، ففعل الناس ذلك، وأمضوا بقية ليالي رمضان يصلّون التراويح جماعة، وكتب عمر بذلك إلى الأمصار، فصارت سنة في المسلمين.

عطاء للجميع:

في العام الخامس عشر صارت الغنائم وافرة، ورأى عمر أن الأموال تتوالى على المدينة، فاستشار بعض الصحابة في أن يجعل للناس أرزاقاً ثابتة توزع عليهم كل سنة، فاستحسنوا ذلك، وأشار عليه بعضهم أن يتخذ السجلات ويسجل فيها أسماء المسلمين ومراتبهم وعطاء كل منهم، فاستحسن الرأي، وانتدب لذلك بعض أعوانه، واتخذ لهذا العمل اسما خاصا هو ديوان العطاء، ونادى في الناس لتسجيل أسمائهم فيه، وبادر هو فسجل من يعرف أسماءهم من الصحابة وقدّر لكل منهم عطاءه، ووضع مقياسا متميزا لهذا التوزيع هو: مكانة الرجل في الإسلام ومدى بلائه فيه، وقد بدأ بالعباس بن عبد المطلب عَم رسول الله ﷺ، فجعل له خمسة وعشرين ألف درهم، ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ، وفرض لكل من زوجات رسول الله ﷺ عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين لأن الرسول ﷺ كان يحبها ، فلم

---

١) السابق ١٩/٢٣٢.

تأخذها عائشة. ثم أهل بدر، وفرض لكل منهم خمسة آلاف، وألحق بهم أربعة أشخاص لم يشهدوا بدراً اعتبرهم في رتبتهم وهم: الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنه، وأبو ذر وسلمان الفارسي. وجعل لمن أسلم بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف، ومن أسلم بعد الحديبية إلى قتال المرتدين ثلاثة آلاف، ومن شهد المواقع بعد ذلك إلى القادسية ألفين، ومن عرف بالبطولة والأعمال المتميزة ألفين وخمسمائة، ومن بعد القادسية واليرموك ألفاً، وفرض للنساء والأطفال. وكتب إلى الأمصار أن يفعلوا ذلك وفق المقاييس التي اعتمدها، وأن يتخذ كل أمير ديواناً للعطاء ويسجل فيه أسماء المسلمين ومقدار أعطياتهم ويصرفها لهم سنوياً.

وفي إحدى الليالي بينما كان يعسّ سمع بكاءً شديداً لطفل صغير، فطرق الباب على أهله وصاح بأمه: اتقِ الله تعالى وأحسني إلى صبيانك. ولكن الصغير لم يهدأ. فأعاد عمر الطرق والتنبيه.. ومرت مدة من الوقت ولم يسكت الصغير فعاد عمر إلى أمه وقال لها: ويحك إنك أم سوء، مالي أرى ابنك لايقر منذ الليلة من البكاء، فقالت ياعبد الله إني أريد أن أفطمه فيأبى ذلك، فقال لها: وكم عمر ابنك، قالت: كذاو وكذا شهراً، فقال لها: ويحك لاتعجليه على الفطام، فقالت: إن عمر لايفرض إلا للمفطوم... فبكى عمر بشدة وانطلق وهو يقول: بئسما لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين. وصلى بالناس الصبح وقراءته لاتستبين من البكاء، ثم أمر مناديا فنادى: لاتعجلوا صبيانكم على الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الاسلام، ثم كتب إلى الولاة ليطبقوا ذلك(١).

وقد عادت هذه العطاءات على أهل المدينة بخاصة والمسلمين بعامة بشيء من الوفرة، وصار لكل فرد دخل يأتيه من الدولة، فيجتمع للأسرة عطاء الرجل وعطاء المرأة وعطاء الأولاد فيكون دخلاً جيداً يوفر لها حياة كريمة... ولا شك أن هذا المال، إضافة إلى ما يرد من غنائم، أنعش الحياة الاقتصادية

---

١) انظر البداية والنهاية ١٤٠/٤.

في المدينة ونمّى أسواقها ورفع القدرة الشرائية للناس. ولكن هذه الأموال لم تنقلهم إلى حياة الترف بعد، فما زال في العيش شيء من الخشونة، ومازال منادي الجهاد يستحث الناس للخروج مرة بعد مرة فيتدافعون بلا تردد.

ومثلما وفق الله عمر إلى أن يفرض للصبي قبل فطامه بسبب ما سمعه خلال العس، وفقه إلى أن ينظم اجازات المجاهدين بسبب ما سمعه خلال العس أيضا، ففي إحدى جولاته الليلية سمع امرأة تتغنى بشعر تقول فيه:

فواللهِ لولا الله تُخشى عواقبه   لزلزل من هذا السرير جوانبه

فأحس عمر بأثر غيبة المجاهدين الطويلة على زوجاتهم، وأدرك أن هذا قد يسبب فتنة في الأُسَر، فسأل ابنته حفصة: كم تصبر المرأة على فراق زوجها، فأجابته حفصة: أربعة أشهر (وفي بعض الروايات ثلاثة وفي بعضها ستة) فكتب إلى قادة الجند ألا يحبس المجاهد عن أسرتة أكثر من هذه المدة، وأن يعطى إجازة يعود فيها إلى عائلته.

وقد أدخلت هذه البادرة الكثير من الحيوية على البيوت، ليس في المدينة وحدها، بل في سائر الأمصار التي تشهد بين الحين والأخر عودة مجموعات من المجاهدين ليمضوا مدة من الوقت مع زوجاتهم وأبنائهم ويحدثوا الناس بأخبار الفتوحات والبطولات ونصر الله ثم يعودوا إلى ثغورهم.

أول مؤسسة تعليمية حكومية:

أمر أخر شهدته المدينة أولا، ثم الأمصار الإسلامية الأخرى، وعاد عليها بالنفع الكبير، وهو كتاتيب التعليم.

فكما رأينا، لم يكن المسلمون فيما سبق يتخذون دوراً خاصة للعلم، بل كان الرجل يعلم ابنه أو ابنته بما لديه من الوقت، وباستثناء بعض أسرى بدر الذين كان فداؤهم تعليم صبيان المسلمين، لم يكن في المدينة من يعلم أبناء المسلمين.

وفي عهد عمر عندما كثرت غيبة أرباب الأسر في الجهاد، وكثر صبيان

المسلمين سواء من زوجاتهم الحرائر أو من السبي الوافد، وكثير منهم لا يجد من يعلمه، فأمر عمر باتخاذ كتاتيب في كل حي يغدو إليه الصبيان يتعلمون فيه كتاب الله ومبادىء القراءة والكتابة، وجعل للمعلم المتفرغ لذلك أجراً على عمله... فاستحسن الناس هذا الصنع، وانتشرت الكتاتيب في أحياء المدينة وضواحيها، وكان عمر يمر عليها وينظر مافيها من تعليم ، فسره ما رآه فيها، وكتب إلى الولاة في الأمصار أن يتخذوا الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين ويعينوا المعلمين ويخصصوا لهم الأرزاق المناسبة، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ التعليم عند المسلمين ، وولدت أول مؤسسة تعليمية حكومية، وأعرق مركز تعليمي اسلامي للأولاد والبنات على امتداد العصور(١).

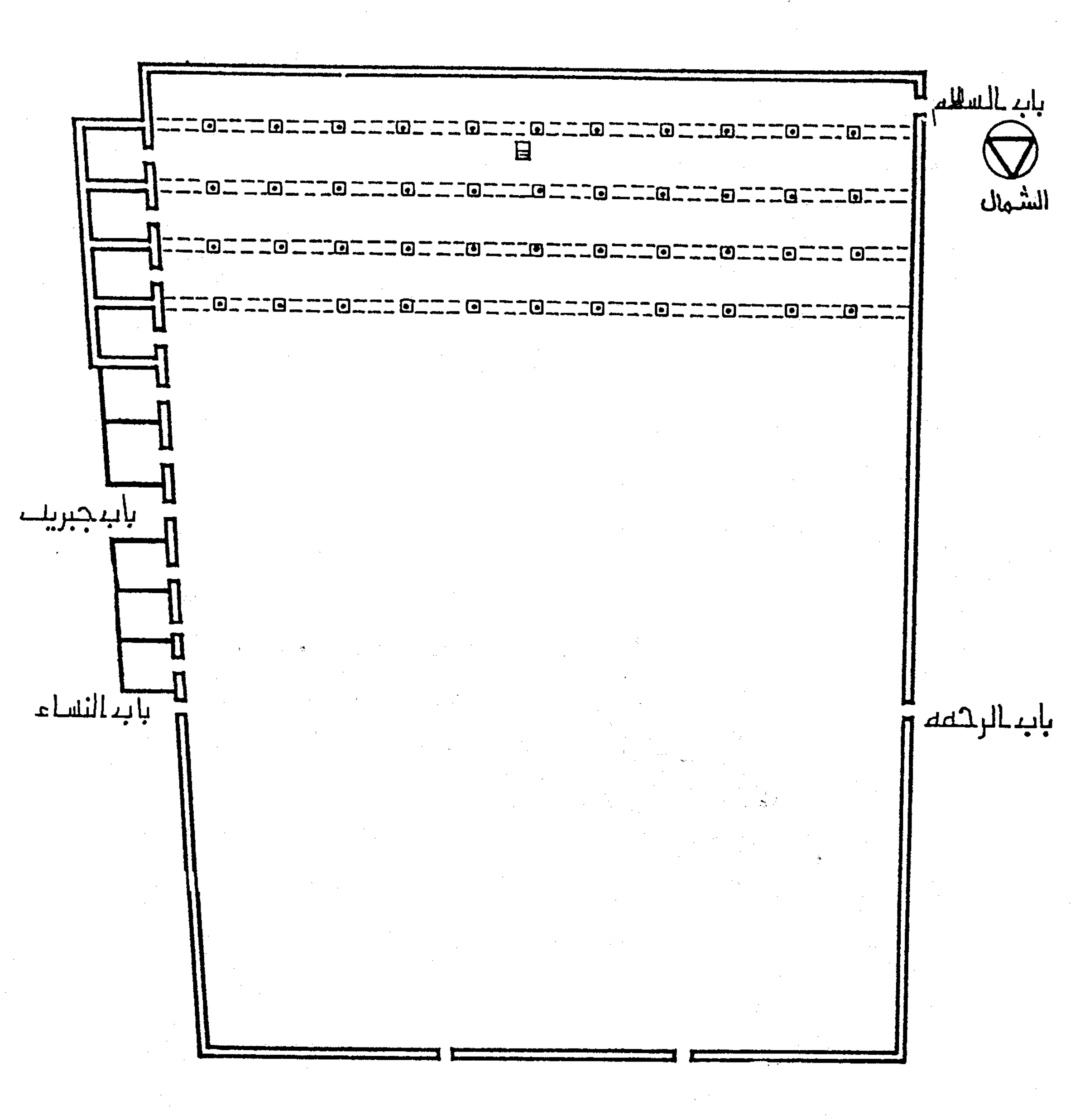
ومع هذه التغيرات المتوالية في حياة المدينة أصبحت الأحياء تمتلىء بسكانها مدة من الوقت.. ويقل عددهم عندما يخرج الكثيرون منهم للجهاد... وكان بعضهم المسلمين يقسمون أيامهم بين الاقامة في المدينة والسفر إلى الجهاد، لذا عادت المدينة إلى الازدهار.. وبدأت تظهر بيوت جديدة هنا وهناك.. خاصة عندما يكبر الفتيان ويتزوجون، أو يتزوج الرجل زوجة أخرى ويبني لها بيتا جديداً، وترد الغنائم فيها الأموالُ والنساء والأطفال فتوزع على البيوت، وقد ازداد عدد سكان المدينة رغم خروج الكثيرين، واستشهاد بعضهم فيه.

توســعة المسـجد النبوي:

لم يعد المسجد النبوي يسع الأعداد المتزايدة من المصلين، ويشتد الضيق في موسم الزيارة قبل الحج وبعده، كما أن بعض سواريه ـ وهي من جذوع النخل ـ قد نخرت، لذا قرر عمر أن يعيد بناءه ويوسعه. فطلب من أصحاب الدور المجاورة من جهاته الشمالية والغربية والجنوبية أن يبيعوها ليدخلها في المسجد، فباعه بعضهم وتصدق بعضهم الأخر، وامتنع العباس بن عبد

---

١) انظر التراتيب الادارية ٢/٢٩٣.



المسجد النبوي الشريف في عهد عمر بن الخطاب

المصدر: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري

صالح لمعي مصطفى

المطلب أول الأمر، لأن البيت الذي يسكنه أقطعه إياه رسول الله ﷺ ودعا له فيه بالخير، ولأنه ظن أن عمر سيأخذه منه غصباً، ولكنه مالبث أن تصدق بالبيت كله، فكافأه عمر ببيت بديل بناه له من بيت المال.

وبدأ العمل في المسجد في العام السابع عشر للهجرة، فهدمت الدورالمجاورة من جهاته الثلاث، وأُعيد تخطيط المسجد وبناؤه على هيئته التي كان عليها، ولكن بحجم أكبر، وجُعلت جدرانه من اللبن، وسواريه من الحجارة(١)، ولم ينتهِ العام حتى عاد الناس يصلون في المسجد وقد اتسعت رحبته وفُرشت أرضه بالحصير، وكان مفروشا بالحصى من قبل، وخصصت خارج المسجد في جهته الشمالية الشرقية ساحة لمن يريد أن يجلس ويتحدث ويتناشد الأشعار، للحفاظ على هيبة المسجد بعيداً عن لغط الحياة اليومية والأصوات العالية.

عام الرمادة:

وفي العام التالي، سنة ثماني عشرة للهجرة، شهدت المدينة المنورة وسائر مناطق الحجاز ونجد مناخاً قاسياً، فشح المطر، وكثرت العواصف الرملية، واضطربت قوافل التجارة، وقلت المواد الغذائية التي كانت ترد إلى المدينة كالقمح والشعير والسمن والزيت وغير ذلك. ولم يأت محصول ذلك العام بشيء يذكر، وهلكت قطعان الماشية، واستمرت الضائقة تسعة أشهر(٢) وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً، وأصبح الناس في ضيق شديد لايجدون طعاماً يكفيهم، فبعث عمر الرسائل إلى ولاته في مصر والشام والعراق يطلب منهم أن يرسلوا ما يمكنهم إرساله من الطعام إلى المدينة.

واشتد الجوع بالناس والبهائم (حتى كان الوحش يأوي إلى الأنس، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، فأقسم عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا

---

١) انظر مصور هذه التوسعة في المصور المرافق.

٢) البداية والنهاية ٤/٥٢٠.

لحماً حتى يحيى الناس)(١). وأقبل سكان البادية يطلبون الطعام وضربوا خيامهم في أطراف المدينة، وأقام عمر موائد جماعية، وبسط السماط للناس ، وكان يقف بنفسه عليه ويدعوهم ويجلسهم ويوزع الطعام عليهم(٢)، وما زال عمر ينفق من بيت المال حتى نفد مافيه.

وتدارك الله الناس برحمته، فوصلت قوافل الإغاثة من أمراء البلاد الأخرى، وكان أولها قافلة يقودها أبو عبيدة بن الجراح فيها أربعة آلاف راحلة، فأمره عمر أن يوزعها على النازلين في أطراف المدينة وضواحيها، وقد قدمهم عمر لِمَا بلغ بهم من جهد، ولأنهم لايملكون أي مخزون. ووصلت القافلة الثانية وقد أرسلها عمرو بن العاص من مصر فوزعها عمر على بيوت المدينة، واستمر في إقامة السماط.

وجاء أهل المدينة إلى عمر يسألونه أن يستسقي لهم المطر عسى أن يغيثهم الله، فنادى في الناس أن يخرجوا لصلاة الاستسقاء إلى ظاهر المدينة، وطلب من العباس عم الرسول أن يخرج معهم، واجتمع الناس خارج المدينة فخطب، وأوجز وصلى، ثم جثا على ركبتيه وقال: اللهم عجزتْ عنا أنصارُنا وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزتْ عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك. اللهم فاسقنا، وأحي العباد والبلاد. ثم أخذ بيد العباس وقال: اللهم إنا نتقرب اليك بعم نبيك وبقية آبائه وأكبر رجاله. وإنك تقول وقولك الحق (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة)، فحفظتهما بصلاح أبيهما. فاحفظ اللهم نبيك في عمه، فقد دعونا إليك مستشفعين ومستغفرين.

وبكى العباس حتى اخضلت لحيته وهو يقول: اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالة، ولاتدع الكبير بدار مضيقة، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغننا بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا

---

١) نهاية الارب ٣٥/١٩.

٢) انظر البداية والنهاية ١٣٤/٤.

فانه لاييئس إلا القوم الكافرون.

ولم يبرح الناس موقفهم حتى أغاثهم الله بالمطر الكثير، ففرحوا فرحاً شديداً واستشعروا بداية الفرج... وتوالت على المدينة بعد ذلك الأرزاق وهطلت أمطار أخرى وأمرعت الأرض، فعاد سكان الضواحي والبدو إلى مناطقهم، وعاد الخصب والهناء إلى النفوس.

ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى وردت إلى المدينة أخبار طاعون عمواس الذي انتشر في الشام وحصد خمسة وعشرين ألف نفس، فيهم كثير من المجاهدين الذين خرجوا من المدينة المنورة،(١).

ولم تنقض هذه السنة -وهي سنة شدة بحق- حتى انفجر بركان صغير في حرة ليلى، وهي إحدى الحرات الواقعة في غرب المدينة، وظهرت النار في السماء وسالت بعض الحمم على سطح الحرة، وفزع الناس، فخرج إليهم عمر وأمرهم بالدعاء والصدقة، ولم يلبث البركان أن هدأ وانطفأ.

الفــرج بعد الشـدة:

وصلت إلى المدينة دفعات أخرى من الغنائم فوزع عمر بعضها على الناس ورد الباقي إلى بيت المال، وأخصبت الأرض حول المدينة، وجاء المحصول وافراً، واستفاد عمر من محنة المجاعة التي مرت في العام السابق، فقررأن يوفر للمدينة احتياطياً ثابتاً من الطعام، وأمر ببناء مخازن للحبوب والسمن والزيت...الخ، وجعل ينفق منها، ويعوض ما ينفقه أولاً بأول، وجاء التجار ومعهم المواشي فاشترى الناس ماعوضوا به عما فقدوه من ماشيتهم، واستعانوا بالرقيق الوافد للعناية بها كما استعانوا بهم في العمارة والتجارة والحدادة، وكان بعضهم يتقن هذه المهن.

إجـلاء غير المسـلمين:

أرسل عمر بن الخطاب أحد الأنصار إلى خيبر ليحضر نصيب المسلمين

---

١) البداية والنهاية٤/٧٩.

من غلالها وفق المعاهدة التي عقدها الرسول ﷺ مع يهود خيبر، فُقتل الأنصاري غيلة، ولم يعرف قاتله، وشك عمر في أن يكون اليهود قد قتلوه.. ثم ذهب عبد الله بن عمر الى خيبر فتآمروا على الفتك به وآذوه، فأخبر الخليفة بذلك، فقرر عمر أن ينفذ وصية رسول الله ﷺ قبل موته: ألايجتمع في جزيرة العرب دينان... واستشار الصحابة واستتوثق منهم الحديث فوثقوه له، وأشاروا عليه بذلك ولم يكن قد بقي في المدينة إلا عدد ضئيل من اليهود يدفعون الجزية ولايأثرون في حياتها اليومية. فقرر عمر اجلاء اليهود، وأمر مَنْ في المدينة منهم بالخروج فخرجوا، وأرسل إلى يهود خيبر إن الله قد أذن لي في إجلائكم، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء.

وركب عمر في عدد من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، ووزع أراضي خيبر على أهل المدينة، فتملكوها، ووضعوا فيها بعض مواليهم وعمالهم ليستثمروها لهم، وصار للمدينة دخل جديد يأتيهم كل سنة من تمر خيبر الجيد ومحاصليها الزراعية الأخرى، وبنى بعضهم في البساتين بيوتاً وصار يخرج إليها بين الحين والآخر. ومالت الحياة في المدينة إلى شيء من الراحة والوفرة، فالأعطيات ثابتة، بل إن عمر فكر في زيادة الحد الأدنى وجعله أربعة الاف درهم لكل فرد، ولكنه قضى قبل أن ينفذ فكرته....

شهادة في المدينة:

منع عمر غير المسلمين من دخول المدينة بعد أن أخرج منها البقية الباقية من اليهود، وأمر أن ينظر في السبي، فمن بلغ الحلم من الذكوّر ولم يسلم فيخرج منها أيضا، كما منع الموالي والتجار غير المسلمين من الإقامة فيها.

غير أن أهل المدينة احتاجوا إلى بعض الحرفيين، ولم يكن فيهم من يسد حاجة الناس من تلك الحرف، فسألوا عمر أن يسمح لبعض الصناع من غير

المسلمين بالبقاء فيها، فسمح لأعداد ضئيلة.

وكان من بين الذين سمح لهم رجل من سبي فارس وقع في سهم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يتقن الحدادة والنجارة اسمه (أبو لؤلؤة)، ظل على مجوسيته ولم يسلم، فاستأذن المغيرة عمر أن يبقى هذا الرجل في المدينة ليستفيد أهلها من مهارته فأذن له عمر، وقد ترك المغيرة (لأبي لؤلؤة) حرية العمل والكسب من الحرف التي يتقنها، على أن يدفع له مئة درهم كل شهر، فعمله يدر عليه ربحاً وافراً. وكان (أبو لؤلؤة) لعنه الله حاقداً على الاسلام والمسلمين، ويبدو أن حياتة في المدينة لم تخفف حقده، وكان يتبرم مما يدفعه لسيده المغيرة.

وبينما كان عمر يجول في الأسواق لقيه (أبو لؤلؤة) وشكا إليه مايدفعه، فسأله عن عمله فأخبره أنه نجّار وحدّاد ونقّاش، فرأى عمر أن هذه المهن تدر عليه أرباحاً كثيرة، وأن ما فرض عليه ليس بالكثير قياسا على مايحققه من دخل، لذلك لم يسقط عنه شيئا ، فاغتاظ (أبو لؤلؤة) وأضمر في نفسه الشر لعمر.

وعند صلاة الفجر خرج عمر إلى المسجد وتجمع الناس وأقيمت الصلاة ووقف عمر يسوي الصفوف بيده.. ثم كبر وبدأ الصلاة، وفجأة شقّ الصفوف (أبو لؤلؤة) وهو يحمل خنجرا مسموما ذا حدين، ووصل الى عمر، فانهال عليه بطعنات غادرة شق باحداها ماتحت سرته، فسقط عمر في المحراب، وانطلق (أبولؤلؤة) لعنه الله هائجا يضرب بين الصفوف ليخرج، فأصاب عددا من المسلمين الذين أخذتهم المفاجأة، ووقع الهرج ، وكاد (أبو لؤلؤة) أن يخرج من الصفوف، فأدركه عبد الرحمن بن عوف وكان يلبس (برنساً) (ثوب فضفاض له غطاء للرأس) فخلعه وألقاه عليه ليتفادى خنجره، وهجم عليه وهو يعالج البرنس، فلما أحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ طعن نفسه بخنجره فخر في البرنس، وأسرع الناس إلى عمر، فأشار إلى عبد الرحمن بن عوف أن

يصلي في الناس كي لاتتأخر الصلاة، فصلى عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، وحُمل عمر إلى بيته وجراحه تدمى.

وهرع الناس يستجلون الخبر، وجاء الطبيب فرأى إصابتة بالغة ، وسقاه لبنا فخرج اللبن من جرحه، فأخبر الصحابة أن الإصابة قاتلة، وغاب عمر عن الوعي، ثم صحا وسأل عن قاتله فلمّا أُخبر أنه (أبو لؤلؤة) حمدِ الله ألايكون قاتله مسلماً سجد لله سجدة واحدة... وأقبل الصحابة يسألون عمر أن يستخلف عليهم من يراه، فأبى عمر أن يُسميَ شخصاً بعينه، واستدعى ستة من الصحابة الذين توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم وهم: عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وكان طلحة غائباً، فجاء الخمسة فطلب منهم أن يتشاوروا فيما بينهم ويختاروا أحدهم للخلافة. واستدعى المقداد بن الأسود وطلب منه أن يجمع الستة، بعد دفنه، في بيته، وأن يمهلهم ثلاثة أيام حتى يختاروا خليفة منهم. وأمر صهيباً أن يصلي بالناس إلى أن يتم اختيار الخليفة.

وذهلت المدينة للحادث وتجمع الناس حول بيته ينتظرون الخبر اليقين، واشتدت وطأة الجراح على عمر فأرسل إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يستأذنها أن يدفن في حجرتها إلى جنب الرسول ﷺ وأبي بكر، وجاء الرسول فوجد عائشة تبكي لِمَا علمت من الأمر فقالت: لقد كنت أعددت المكان لنفسي، ووالله لأوثرن أمير المؤمنين.... وعاد الرسول الى عمر بالإذن، فظهر السرور على وجهه، وتجمع أبناؤه وزوجاته حوله يذرفن الدموع، فلمّا صحا ورآهن نهرهن وشددّ عليهم ألا ينوحوا عليه. ومرت ثلاثة أيام وعمر بين الموت والحياة، واشتدت الجراح عليه وكثر إغماؤه. فكان كلما صحا يسأل عن الصلاة وعن الناس ثم يعود إلى الغيبوبه...

وذكر الناس دعاء كان يدعو به عمر ويقول: اللهم اني أسألك شهادة في

سبيلك، وموتاً في بلد رسولك. وذكر الذين صحبوه إلى الحج في ذلك العام أنه نزل في الأبطح ودعا دعاء طويلا شكا فيه إلى الله سبحانه وتعالى ضعف قوتة وانتشار رعيته وخوفه من التقصير، وسأله أن يقبضه إليه وأنّ يمن عليه بالشهادة في بلد النبي ﷺ، وشاء الله أن يستجيب له دعاءه فما إن مرت أيام ثلاث على اصابته حتى فاضت روحه الطاهرة، وخرج الناعي يطوف أحياء المدينة ويخبر بوفاته، فبكى الناس بكاءً شديداً وتقاطروا إلى المسجد للصلاة عليه. وهكذا رحل عمر مع رحيل السنة الثالثة والعشرين للهجرة ودفن في أول محرم عام أربعة وعشرين للهجرة، وفقدت المدينة، بل فقد المسلمون كافة ، قائداً عظيماً وحاكماً لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

شكل القبور الشريفة بعد دفن عمر بن الخطاب

على رواية القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

طول جدار الحجرة الشمالي ١١ ذراعاً وربع وسدس ذراع وتعادل = ٥٢٥ سم

عرض جدار الحجرة الغربي ٧ أذرع ونصف وثمن ذراع وتعادل = ٣٤٣ سم

عرض جدار الحجرة الشرقي مثل الغربي

طول جدار السيدة عائشة نحو ٥٠٤ سم

قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه

١٧٠ سم
قبر النبي صلى الله عليه وسلم
٩٠ سم

١٧٠ سم
قبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٩٠ سم

طول جدار الحجرة الجنوبي ١٠ أذرع وثلثا ذراع وتعادل = ٤٨٠ سم

المدينـــة فـــي خلافـة عثمـــان بـــن عفـــان

ما أن فرغ أهل المدينة من دفن فقيدهم الكبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى تعلقت أعينهم بمجموعة الشورى التي أوصى عمر أن تتولى اختيار الخليفة، فقام الوصي على المجموعة المقداد بن الأسود بجمعهم في بيت (المسـور بن مخرمة) وطلب منهم أن يتفقوا على واحد منهم خلال المهلة المحددة وهي ثلاثة أيام، فلا يصح أن يبقى المسلمون بلا خليفة أكثر من ذلك. وقام صهيب الرومي رضي الله عنه بالإمامة خلال الأيام، والإمامة كما هو معروف إحدى مهام الخليفة، ومظهر وحدة العمل السياسي والديني في القيادة الإسلامية.

وكان طلحة بن عبيد الله غائباً عن المدينة، فذهب إليه الخبر ليحضر، ولم تنتظرالجماعة عودته، فباشرت عملها على الفور، واجتمع الخمسة الباقون: عثمان وعلي والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وبدؤوا مداولاتهم: مَنْ الذي يحمل العبء بعد عمر...

كان الزبير وسعد وابن عوف يحسون ضخامة العبء الذي تركه عمر، وكانوا يرون أن عليا أوعثمان أقدر على حمل المسؤولية وأحق بالتقدمة منهم، ولكل منهم اجتهاد في تقديم أحدهم على الآخر، أما الزبير فكان يرى تقديم علي، وأما سعد فكان مترددا بينهما، ويرى أن لكل منهما فضلاً يكافيء فضل صاحبه. وأما عبد الرحمن بن عوف فكان يرى أن الأمر يحتاج الى بحث عميق واستشارة القريب والبعيد. وأحس عبد الرحمن بن عوف أن الحوار بين أفراد الجماعة لن يؤديَ إلى نتيجة سريعة، وعلى العكس قد يفتح أبوابا للخلافات يطول أمرها... فاقترح حلاً عملياً يغني عن الحوار والجدل، اقترح أن يخلع أحد الخمسة نفسه من الخلافة ويقوم هو باختيار واحد من زملائه الأخرين بعد بحث وتدقيق. فوافق الآخرون، واشترط علي رضي الله عنه على من

سيقوم بذلك أن يعطي المواثيق على العدل والحياد ومراقبة الله عز وجل في اختياره، وألا تدفعه عوامل القربى أو الصداقة... فقبل الجميع ذلك الشرط. وطلب عبد الرحمن بن عوف من الآخرين أن يقوم أحدهم بذلك، فصمتوا، فتقدم الى حمل المهمة وخلع نفسه، فأعلن أنه غير راغب في تولي الخلافة، وأنه سيقوم باختيار واحد من زملائه بعد تنقيب طويل، وأعطى العهد والمواثيق على الأمانة ومراقبة الله عز وجل.

وبدأ عبد الرحمن جلسات انفرد بها مع كل واحد من زملائه في المجموعة، وبماأن سعداً والزبير لايرشحان نفسيهما، فقد أصبح الأمر محصوراً بين عثمان وعلي، ولابد من اختيار أحدهما ليكون الخليفة. وكان في قدرة عبد الرحمن بن عوف أن يحسم الأمر وفق اجتهاده في الصحابيين الكريمين أو بالقرعة، كما يحدث عادة في حالات تساوي فردين أو فريقين في نتيجة ما... ولكنه أدرك أن ألأمر أعمق وأخطر من ذلك، لذا لم يقضِ باجتهاده الشخصي وحده، بل آثر أن يرجع إلى أهل الرأي ويسألهم ويسمع آراءهم.. وأن يستمزج آراء مجموعات مختلفة من عامة الناس أيضا.

فخرج إلى من يأنس فيهم بعد النظر وحصافة الرأي، وراح يجلس إلى كل واحد منهم على حدة ويسأله سؤالاً عاماً: من الذي يتوقعه خليفة للمسلمين بعد عمر؟ ولماذا؟ وينصت بعناية لما يقوله صاحب الرأي، وربما يسأله بعض الأسئلة ليتعمق رأيه. ومضى شطر اليوم الثاني، وهو ينتقل بين كبار الصحابة والذين في الأنقاب وأمراء الجند وسادة القبائل الذين وفدوا على المدينة عندما سمعوا باغتيال الخليفة. ثم تلثم وخرج مساءاً الى بعض أحياء المدينة يستوقف رجلا هنا وآخر هناك ويسألهم سؤال المستخبر: من تراه سيكون الخليفة بعد عمر؟ ووجد الاجابات محصورة في النطاق ذاته: عثمان أو علي، وكل يدلي بوجهة نظره في تقديم أحدهما على الآخر... ورجع عبد الرحمن إلى البيت متعباً، ولم يبق من مهلة الأختيار إلا سويعات، وعاد فجلس إلى

عثمان على انفراد، وساره طويلاً وسمع منه، ثم جلس إلى علي طويلا وساره وسمع منه حتى أذن الفجر... فاتجه إلى المسجد، وأرسل من يخبر وجوه القوم من المهاجرين والأنصار وأمراء الجند، واجتمع الناس بعد صلاة الفجر حتى غصّ بهم المسجد، ووقفوا على الأبواب، وجاءهم عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عممه بها رسول الله ﷺ ومتقلداً سيفه، وصعد المنبر ووقف طويلا يدعو دعاء لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس، قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين؛ إما علي وإما عثمان، فقم إلي ياعلي، فقام اليه حتى وقف، فأخذ عبد الرحمن بيده، وقال: عليكَ عهدُ الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده، فقال علي: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي. فأرسل يده، ونادى على عثمان، فقام إليه، فأخذ بيده وسأله: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده. فقال عثمان: اللهم نعم. فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد، ويده في يد عثمان ثم قال: اللهم اسمع واشهد. اللهم إني جعلت مافي عنقي من ذلك في عنق عثمان. وجلس عبد الرحمن على درجة المنبر وأقبل الناس إلى عثمان يبايعونه (١).

ولما فرغ أهل المسجد من البيعة، صعد عثمان المنبر وخطب في الحاضرين خطبة قصيرة أوصاهم فيها بتقوى الله ومراقبته في السر والعلن والزهد في الدنيا والتطلع إلى ثواب الله في الآخرة....

---

١) يعلل بعض المؤرخين ترجيح عثمان على علي بعدة أسباب ، منها سابقة عثمان إلى الاسلام ، فقد كان رابع رجل يدخل في الاسلام ، ثم فضله وسخائه في سبيل الله ، فهو الذي جهز جيش العسرة ، ثم إصهاره إلى النبي ﷺ في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم ، ثم هجرته إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين، وبالإضافة الى ذلك ربما خشي بعضهم من أن يؤدي اختيار علي الى بقاء الخلافة وراثية في بيت هاشم لاتخرج منه أبداً انظر : عبد العزيز سالم : التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية ص ٢٩٠

وهكذا انتهت دوامة اختيار الخليفة دون صراعات أو منافسة، ولم يتخلف أحد عن البيعة . وفي آخر النهار وصل طلحة بن عبيد الله عضو جماعة الاختيار الذي كان غائباً خارج المدينة، وحدثه الناس بأمر البيعة، فسأل: أكل الناس بايعوا؟ فقالوا: نعم. فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على الخيار في الأمر، وإن أبيت أن تبايع رددتها (أي تنازلت عن الخلافة) فقال طلحة: أكل الناس بايعوك؟ فقال: نعم، فقال: رضيت، ولاأرغب عما أجمعوا عليه.

وفي حي آخر من المدينة، وقبل أن تتم البيعة لقي عبد الرحمن بن أبي بكر عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعزاه بفقد والده، ثم حدثه عما رآه قبيل اغتيال أبيه بيوم. قال عبد الرحمن: مررت على (أبي لؤلؤة) عشية أمس، وكان عنده (جفينة) النصراني (والهرمزان) الفارسي يتناجون بصوت خافت، فلماَ اقتربت منهم فوجئوا بي واضطربوا وتباعدوا قليلاً وسقط منهم خنجر له رأسان.. كذاك الذي قتل به عمر، فغلى الدم في عروق عبيد الله بن عمر، وأحس أن قتل أبيه مؤامرة دبرها أولئك، وأن (أبا لؤلؤة) الذي قتل نفسه واحد من رؤوس المؤامرة، ولا بد من الانتقام منهم جميعا . فانطلق وهو في غضبه وحزنه العميق، فأخذ سيفه وسار في دروب المدينة وهو يقول: والله لأقتلن رجالا ممن شرك في دم أبي، حتى لقي (جفينة) فعلاه بالسيف. فلما أحس جفينة بالموت رفع يديه بالصليب، وهوى مع ضربة السيف... ثم لقي (الهرمزان) وأهوى بالسيف عليه، فلما أحس الهرمزان بالموت نطق بالشهادتين، وملك الغضب عبيدَ الله فقتل مع الهرمزان ابنة (أبي لؤلؤة) قاتل أبيه.... وأحس المسلمون بما يجري فهرعوا إلى عبيد الله وأحاطوا به والدم يتقاطر من سيفه، وهو في حالة هيجان شديد، واقترب منه عمرو بن العاصُ يلاقيه ويهدئه ويفديه بأبيه وأمه، حتى أمسك بسيفه، فهجم سعد بن أبي وقاص عليه وجره من شعره وطرحه أرضا حتى تمكن منه وربطه بحبل وأخذه إلى بيته، إلى أن يختار الخليفة فيحكم فيه.

وراح الناس يتحدثون عن ثأر عبيد الله مثلما يتحدثون عن اختيار الخليفة. واختلفت فيه الآراء، أيقام عليه الحد أم لا. وهل (الهرمزان) مسلم صحيح الإسلام فقتلُه دون محاكمة جريمة؟ أم إنه مجوسي منافق ومتآمر؟ وماذا عن ابنة أبي لؤلؤة.

وهكذا مثلما انتظر الناس قرار مجموعة الاختيار من خلال قرار عبد الرحمن بن عوف.. انتظروا ماذا سيفعل الخليفة الجديد في هذا الحدث الكبير؟.

فلما انتهت أمور البيعة وبدأت أول أيام خلافة الخليفة الجديد، كانت القضية الأولى التي تواجهه هي قضية عبيد الله بن عمر... فجاء عثمان وجلس في ناحية المجلس، وفيه عدد من المهاجرين والأنصار، وذهب سعد بن أبي وقاص ليأتيه بسجينه، فقال لهم: أشيروا علي في هذا الذي فتق في الاسلام مافتق. فقال علي: أرى أن تقتله، وقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟ لايكون هذا. فقال عثمان: أنا ولي هؤلاء المقتولين (إذ لم يكن لهم ولي في المدينة) وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي. وأمر غلامه أن يحمل من ماله الخاص دية الثلاثة ويجعلها في بيت مال المسلمين.. إذ لا وريث للمقتولين الثلاثة. وأطلق سراح عبيد الله بن عمر.....

وكان قرار الخليفة عثمان رضي الله عنه نموذجاً لعدد كبير من قراراته اللاحقة، تنظر بحلم ورفق، وتتحمل المسؤولية ولو أدى الأمر إلى أن يبذل من ماله، وعثمان رجل اللين والسخاء عرف بعطاءاته وإنفاقه في سبيل الله مرات كثيرة، وقدحمل الخلافة وهو يخطو إلى السبعين من عمره...

تغييرات في حياة المدينة:

بدأت معالم التغيير في عهد الخليفة الجديد من الأيام الأولى، فقد زاد

عطاء الناس عما كان عليه في عهد عمر(١)، ولكن الى جانب هذه الوفرة بدت ظاهرة غريبة لعلها من نذر التغيير أيضا..

ففي العام الأول من الخلافة انتشر بين أهل المدينة حالات من الرعاف لايعرف لها سبب ، يفاجأ المرء بالدم يسيل من أنفه دونما حادثة أو مرض، فيعمد الى مايوصي به الأطباء من استنشاق ماء مملح أو نقيع بعض النباتات فيذهب عنه الرعاف، وقد يعود بعد مدة ، فيعاود الدواء، حتى ينقطع.. وقد أصيب به عثمان وألحت عليه الاصابة حتى ظن أنه سيموت فيها فكتب وصيته واستخلف (٢) ولم يجد الأطباء تفسيراً لهذه الحالات، فلما انقطعت، انقطع حديث الناس عنها.... فهل كانت هذه الحادثة نذيراً بما سيسيل من دماء طاهرة في بعض بيوت المدينة ؟ الله أعلم.......

أما الشطر الأول من ملامح التغيير ـ الوفرة ـ فسرعان ما بدت آثارها في أحياء المدينة وأسواقها، وفي ثياب بعض الناس وطعامهم وأسفارهم.

وخارج المدينة كان الجهاد مستمراً في الآفاق يفتح للمسلمين مدناً في أرض الروم وأرمينيا ويصل إلى كابل، وفي افريقيا حيث يمضي عبد الله بن أبي السرح في شمالها، وفي قبرص واصطخر وطبرستان وكرمان وسجستان...

وكانت بعض المدن المفتوحة قريباً تنتهز غيبة المسليمن فتنتقض عليهم وتشق عصا الطاعة، كالإسكندرية وبعض مدن خراسان، فيكر عليها الجيش الإسلامي وينهي عصيانها... وكانت الغنائم تتجمع في الأمصار وتقسم على المجاهدين وربما أعطي بعض القادة مكافأة سخية على بلائهم لم يكونوا قبل ذلك يحظون بها، وكانت البقية ترسل الى المدينة لتقوي بيت المال وتوزع على المسلمين...



---

١) الطبري ٢٤٢/٤.

٢) تاريخ المدينة المنوره ١٠٢٨/٣

وقد بلغت وفرة الغنائم في بعض فتوح إفريقيا قدراً أصاب فيه الفارس ثلاثة آلاف دينار. وكان الرجل يكتتب في الفتوح مدة رغبته في الجهاد، فيؤتيه الله مع أجر الجهاد رزقاً حسناً يعود به إلى أهله، ثم يجد نصيبه من العطاء.. وتأتي الأرزاق إلى المدينة من الغنائم أوالفيء أو الخراج، فتوزع على الناس في حينه، ويروي الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه أدرك زمن عثمان (وما من يوم إلا وهم يقسمون فيه خيراً، يقال: يا معشر المسلمين اغدوا على أرزاقكم، ويأخذونها وافرة، يا معشر المسلمين اغدوا على كسوتكم، فيجاء بالحلل فتقسم، حتى والله يقال: اغدوا على السمن والعسل (١) ويروي عروة بن الزبير أنه أدرك زمن عثمان، وما من نفس مسلمة إلا ولها في مال الله حق..

وقام عثمان بأمور الخلافة خير قيام، فكان على سيرة صاحبيه أبي بكر وعمر في مجالسه، وفي استشارته وجوه الصحابة وأهل الحل والعقد.. وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير وطلحة وغيرهم من مستشاريه وقضاته. وكان يهتم بأمور الأسواق ويتفقدها بين الحين والحين، يدخل إليها على بغلته، أو يمشي بين مباسطها وينظر فيما يفعله التجار ويراقب الطعام.. وبلغه مرة أن بعض أهل السوق يحتكرون بعض السلع، فزجرهم ونهاهم نهياً شديداً.. ودخل السوق مرة فرأى الزبير يضرب نفراً يحتكرون فأقره على فعله رغم مافيه من تجاوز لسلطاته، ولم يكتف بذلك، بل عين مسؤولا عن السوق يقيم فيه ويراقب البيع والشراء ويحكم في الخلافات ويرفع إليه ما يحدث... ومع وجود هذا المسؤول كان يتفقد السوق ويراقبه بنفسه، خاصة وأنه تاجر بارع طالما عمل في السوق قبيل الخلافة وكسب فيها ماكسب.

واتخذ أيضا شرطة يراقبون أحوال المدينة ويطوفون في شوارعها

---

١) السابق ٣/١٠٢٣.

وأسواقها ومزارعها، ولكنهم كانوا قليلي العدد وأشبه بمراقبي البلديات، وكان رئيسهم عبد الله بن قنفذ السهمي(١).

وتوالت السنوات الأولى في عهد عثمان رضي الله عنه والناس في دعة وطمأنينة وخير كثير، والله ينصر المسلمين في الآفاق ويهزم المشركين، ويرزقهم رزقاً من الغنائم والفيء والخراج والتجارة والزراعة والصناعة.... وخرج عدد من الصحابة من المدينة المنورة فقصدوا الكوفة والبصرة والشام ومصر وغيرها.... ولقوا هناك خيراً كثيراً. وبدأ الناس في المدينة وخارج المدينة ينعمون بما آتاهم الله من رزق حسن، فبنوا البيوت الواسعة واتخذوا الأثاث المريح والطعام الطيب، وامتدت المساكن في المدينة تملأ الفجوات الواسعة بين الأحياء، واتصل وسط المدينة بأطرافها، وبلغ البناء جبل سلع وتجاوزه إلى منازل في القبلتين، واتصل مابين قباء والعوالي ، وامتدت المساكن الى طرف العقيق(٢)، وبنى سعد بن أبي وقاص بيتاً واسعاً على أحد أطرافه، وبنى المقداد بن الأسود دارا بالجرف، وبنى عثمان داراً بالزوارء على مرتفع من الأرض، وبنى الزبير داراً واسعة غير بعيد عنه. وجصصت البيوت، وارتفعت بعض أسوارها، وضمت أحواشاً كبيرة، في بعضها النخل وفي بعضها شيء من الخضرة...

وما لبث عثمان أن أقطع بعض الصحابة آراضي يزرعونها أو يؤجرونها لمن يزرعها، وكان أول من نال أعطياته الزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت وأسامة بن زيد، وأقطع غيرهم.... وكثر المال في أيدي الناس، وأخذ بعضهم ينفقون منه بسخاء حتى بيعت

---

١) انظر : تاريخ المدينة المنوره ٩٦٢/٣ ونهاية الأرب ٥٠٩/١٩.

٢) ابن خلدون ٥٨٨/٢.

جارية بوزنها، وبيعت فرس بمئة ألف درهم، وبيعت نخلة بألف درهم(١) وتجمعت ثروات كبيرة بالنسبة لذلك العصر، ويروى أن تركة يعلى بن أمية بلغت خمسمئة ألف دينار، وديوناً على الناس، وعقارات بثلاثمئة ألف دينار(٢) ، وعمت السعة أهل المدينة بعامة، وعمتهم في الأمصار أيضا، وقويت الوشائج وحسنت العلاقات، فلا تسمع في هذه السنوات خبراً سيئاً، ولعل خير مايصور وداعة تلك المرحلة وطمأنينة المسلمين وإخاءهم فيها قول الحسن بن علي: أدركت زمن عثمان والعدو ينفر (مغلوب) والعطيات دائرة، وذات البين حسن والخير كثير، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً.

وطبيعي في جو الدعة والطمأنينة هذا أن يميل بعض الناس إلى مزيد من الراحة والتسلية، وأن يبحثوا عن وسائل جديدة للترفيه، وقد ظهرت هواية الرمي على الحمام بالجلاقات(٣) نحو الهدف فإذا أصاب حماماً أو نحوه قتله. ويروى السيوطي أن أول منكر ظهر في المدينة حين فاضت خيراتها طيران الحمام والرمي على الجلاقات(٤)، كما ظهرت لعبة النرد في بعض البيوت، واشتغل بها عدد من الناس، فتصدى عثمان بن عفان رضي الله عنه لهذه الظواهر السلبية، وعين رجلاً شديداً لكسر الجلاقات وهدم أبراج الحمام المخصص لهذاالغرض(٥) ونهى نهياً شديداً عن ممارسة لعبة النرد، وهدد في إحدى خطبه بأنه سيطوف على البيوت التي فيها نرد فيحرقها(٦).

والحق أن عثمان، على ما كان عليه من تقدم السن واللين والسماحة، لم

---

١) تاريخ المدينة المنوره٣/١٠٢١.

٢) التاريخ السياسي ٢٩٤.

٣) الجلاّقة : قوس يرمى به البندق بدلا من السهام ، والبندق حصى متوسطة الحجم

٤) تاريخ الخلفاء ١٨٣.

٥) السابق نفسه ١٨٣.

٦) تاريخ المدينة المنوره ٣/٩٨٨.

يتساهل في القضاء على المنكرات وإقامة حدود الله على الإطلاق.

استمرت هذه الفترة أكثر من ست سنوات، شهدت فيها المدينة - إضافة الى الإنجازات المالية والعمرانية - إنجازات أهم وأبعد أثراً في حياة المسلمين ومستقبلهم.. شهدت جمع المصحف وتوحيد نسخه، وشهدت إعادة بناء المسجد النبوي وتوسيعه.

توحيد نسخ المصحف:

في السنة الثلاثين للهجرة عاد حذيفة بن اليمان من الجهاد في الثغور إلى المدينة فزعا، وسارع إلى عثمان رضي الله عنه في بيته وهتف بعثمان: «أنا النذير العريان، فأدرك الأمة». فسأله عثمان جزعاً عن الأمر الذي ينذر به، فأخبره بأنه شهد في رحلته الجهادية اختلافا بين بعض الناس في قراءة القرآن، وتمسك كل فريق بما يذهب إليه في قراءته، والخطر الذي يمكن أن يفضي اليه ذلك الخلاف إذا استمر وامتد... فأدرك عثمان أبعاد مايحذره منه حذيفة، وأرسل إلى وجوه الصحابة واستشارهم في أن يجمع المصاحف الموجودة وكل ما كتب عليه القرآن من أوراق وجريد وعظام، ويوكل إلى خيرة من بقي من الحفظة والمدققين كتابة مصحف يجمع السوَر والآيات كلها ويضبطها في رواية موحدة.. فاستحسنوا رأيه، فكلف مجموعة من الصحابة هم: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، وفي رواية النويري أنه كلف معهم عبد الله بن عباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن عمرو بن العاص، بالجمع والمقارنة، وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر لترسل إليه المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر، وكان محفوظا عندها، ليقارنوا به ويتخذوه مصحفاً رئيساً فأرسلته إليهم. وكان زيد بن ثابت أحفظ الجماعة، فأمر أن يملي زيد وأن ويكتب سعيد، وأكب الجماعة على العمل، وأوصاهم عثمان رضي الله عنه بتقصي كل آية يسمعون بها، وأن يستوثقوا من روايتها، ويستشهدوا على الراوي، فإذا تمت النسخة قام

الآخرون ونسخوا عنها نسخا للأمصار (قيل أربعة وقيل سبعة) وقام الجماعة بعملهم خير قيام، واجتهدوا فيه حتى تم لهم جمع القرآن ونسخه في نسخ عدة، بقيت واحدة في المدينة، وارسلت نسخة إلى كل عاصمة من الغواصم الكبيرة آنئذ، الكوفة والبصرة والشام (وفي روايات آخرى مكة واليمن والبحرين) وأُعيدت نسخة حفصة إليها(١). وأمر عثمان بما جُمع من أوراق وصحف وكل ما كُتب عليه شيء من القرآن فأتلف أو دفن أو أحرق.. وأمر الناس بالقراءة على تلك المصاحف والنسخ عنها، فكان لعثمان، ولمن عمل معه في هذا العمل المبارك، فضل حماية المسلمين من التشتت في كتابهم الأكبر، كتاب الله العزيز الحكيم.وصدق الله العظيم: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

تجديـد المسـجد النبوي وتوسـيعه:

في عام تسعة وعشرين للهجرة رأى عثمان رضي الله عنه المسجد يضيق بالناس، وبخاصة يوم الجمعة، حيث يتوافدون من الأحياء البعيدة وضواحي المدينة، وفي مواسم الزيارة، وشكا بعض الناس الضيق، فاستشار كبار الصحابة في أن يعيد بناء المسجد ويوسعه، فاستحسنوا رأيه، فصلى الظهر بالناس، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: انى أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ وأزيد فيه، وأشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى مسجداً بنى الله تعالى له بيتا في الجنة. وقد رأيت أن لي فيه سلفا هو الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد فيه وبناه، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ على هدمه وبنائه وتوسعته.) فحسن

---

١) تاريخ المدينة المنوره ٢/٩٩٢-١٠٠٤

حجرة حفصة

الشمال

باب السلام

باب جبريل

باب النساء

باب الرحمة

حجرة صفية

المسجد النبوي الشريف في عهد عثمان بن عفان

الناس ذلك ودعوا له(١).

وفي صبيحه الأول من ربيع الأول عام ٢٩هـ بدأ العمال يزيلون سقف الجريد والجدران الطينية للمسجد، وعمل عثمان معهم بنفسه، واستمر يتردد عليهم كل يوم فينظر ماينجزون.... ثم بدأت عملية البناء، واستغرق العمل عشرة أشهر متلاحقة، وعثمان وكبار الصحابة يترددون على الموقع ويتشاورون، وكانت الحجارة تنقل من جبال المدينة، وتنحت وتنقش، وترفع بها الجدران وأعمدة المسجد، ويصب الرصاص في أصول الأعمدة وامتداداتها ويرتفع البناء يوماً بعد يوم، وعثمان لايغيب عنه يوماً، وإذا حضرت الصلاة صلى بمن هو موجود في المكان.

وفي شهر محرم عام ثلاثين للهجرة انتهى العمل في المسجد، ارتفع سقفه بأعمدة حجرية مدعمة بالرصاص، ووضعت فتحات للتهوية والإنارة، وجصصت جدرانه، وبنيت مقصورة من لبن طيني عند المحراب ليصلي فيها الخليفة، وكان لجدار المقصورة فتحات يرى منها الإمام، وقد كلف عثمان حارسا بالصلاة خلفه تحسبا من عدوان غادر، كعدوان (أبي لؤلؤة) على عمر رضي الله عنه، ثم فرش المسجد، وطيبه بعطر نادر تفوح رائحته على المصلين، وجعل له إضاءة ليلية(٢). وتقاطر المسلمون في أول جمعة من شهر محرم على المسجد، ودخلوا فرأوا سقفه المرتفع وجدرانه الحجرية المجصصة وأعمدته المنقوشة، ورأوا سعته التي تستوعب الأعداد الكبيرة.

وقد دهش الكثيرون من هذا التغيير فسر به بعضهم، وأنكره بعضهم الأخر، ورأوا في التجديدات المحدثة مخالفة لما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ. فذكرهم عثمان أنه أخبرهم بما سيفعله قبل أن يبدأ العمل، وأنهم وافقوا عليه، ومن قبلهم وافق أهل الرأي من الصحابة، وبين لهم مميزات ما

---

١) أخبار المدينة ص٩٧٠.

٢) تاريخ المدينة المنوره١/٧٠.

فعل، فأقره أكثر الناس على ذلك ودعوا له.....

وهكذا توالت أيام الدعة والطمأنية زمن عثمان رضي الله عنه، والناس في راحة ورخاء يترفق بهم عثمان في أمور حياتهم.

اعتراض أبـــي ذر :

أنكر الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه تلك الدعة والثروة على الناس، وكان أبو ذر ممن يؤثر الزهد والتقشف، وكان نسـيج وحده في اجتهاداته منذ أيام إسلامه الأولى، وقد قال فيه الرسول ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده. وكان قد خرج إلى الشام، فلما رأى ما فشا في أيدي الناس من المال وما بنوه من الدور، أنكر عليهم ذلك، ويروي الطبري أن ابن سبأ استثاره، وكان أبو ذر عاطفياً، فتأثر بكلامه، وأخذ يتكلم بين الناس بما نشأ من المال ويطلب منهم أن يعودوا إلى حياة التقشف والزهد، ثم ذهب إلى معاوية واشتد عليه في القول، وكان معاوية يعرف مذهبه بالتقشف والزهد، فاحتمل منه، فلما بدأ يتكلم في الناس خشي أن يثير فتنة، فشكاه إلى عثمان، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وحاوره في الاستمتاع بالرزق الحلال في حدود ما أحله الله. ولكن أبا ذر الذي يميل بطبيعته إلى الأخذ بالعزائم والإعراض عن كثير من المباحات، تشدد، ورفض حياة الراحة والرخاء، واستأذن في أن يخرج من المدينة إلى الربذة، لأنه سمع حديثا من رسول الله ﷺ يحضّه على الخروج إذا بلغ العمران جبل سلع (وقد بلغ العمران جبل سلع) فأذن له عثمان، فخرج إليها، وظل يتردد على المدينة بين الحين والآخر ليصلي في مسجد رسول الله ﷺ، ولم يلبث أن مات في الربذة سنة ٣٢هـ دون أن يكون لرأيه واجتهاده أثر في إثارة أية فتنة أو قلاقل، كما

تزعم بعض الكتابات الحديثة المغرضة(١).

كان عثمان ليناً مع الرعية في أمور حياتهم، يريد لهم السعة والرخاء، ولكنه كان يأخذهم بالحزم في أمور دينهم، فلا يتساهل في إقامة الحدود وعقوبة المخطئين..... حتى الشعراء الذين ساءت طويتهم وساء لسانهم نالوا من عقوبته. وحدث أن الشاعر ضابيء البرجمي هجا أحد المسلمين هجاء فاحشاً، واتهم أمه أنها تزني بكلب، فارتاع عثمان لهول ماسمع به، وضرب ضابئاً ثم سجنه فمات في السجن. وأقام الحد على امرأة زانية... وأما ماسوى حدود الله، فكان يسع الناس بحلمه، ويخالطهم، حتى ليردف الرجل وراءه ليسمع منه.

ولكن ماتلبث أن تظهر من بعد نذر للشر تحدث شرخاً كبيراً في هذه الحياة المطمئنة، وتغرس فتنته عظيمة، تسيل فيها الدماء الذكية..

بـــذور الفتنـــة :

بدأت بذور الفتنه على يد رجل يهودي ماكر خبيث ادعى الإسلام اسمه عبد الله بن سبأ، جاء من اليمن وأعلن إسلامه في المدينة، وكان مربياً، يجيد الحديث مع الناس ويجلس إليهم طويلا ويقلب معهم الآراء حتى ليكاد يزيغهم ببراعته، بدأ ابن سبأ بإثارة تساؤلات تترك في النفوس أثاراً مقلقة، تساؤلات عن الخليفة وتصرفاته، لاليجد الإجابة، بل ليلقي في نفوس المسلمين ظنوناً قاتمة حول الخليفة. وسرعان ماأدرك أهل المدينة سوء طويته فانتهروه، ثم أعرضوا عنه ثم هددوه. فلما يئس من أن يحدث فيهم حدثا خرج من المدينة إلى البصرة، حيث أخذ يعيد الكرة، فيتحدث عن الأمير والإمارة، ويتسقط

---

١) صورت بعض الكتابات المغرضة أبا ذر داعية من دعاة الاشتراكية وافترت عليه وعلى عثمان الكثير ، وهما بريئان من من تلك الافتراءات وأخباره في كتب التاريخ القديمة لاتتجاوز مالخصناه في السطور السابقة ، انظر : الطبري ٢٨٣/٤ - ٢٨٦.

الأخبار والحكايات ويحرفها، حتى ليدخل في روع من يسمعه أن الناس في ضيق وشدة من ظلم الأمير، وأن الذي ولى الأمير أظلم وأعنت، وما الأمير إلا أحد أقارب الخليفة وأهله.

وقد تأثر به بعض الناس وأخذوا يرددون آراءه، وما هو إلا قليل حتى انكشف أمر ابن سبأ في البصرة، فأُخرج منها، فذهب إلى الكوفة... فأخرج منها بعد أن شاع حديثه. فذهب إلى مصر، وهناك بدأ لونا جديدا من الدعوة أشد وأنكى، بدأ يحدث الناس عن رجعة مزعومة لرسول الله ﷺ على نحو ماسيرجع عيسى، ويؤكد ذلك بتفسير أعوج لقوله تعالى (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى مَعاد) ثم أخذ يشيع أكذوبة أخرى توصله إلى أول طريق الفتنة، وهي أن لكل نبي وصي، وأن وصي محمد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب، فعلي أحق بالخلافة من عثمان، وعثمان قد غصب الخلافة منه، وعلى الناس أن يثوروا على أمرائهم وخليفتهم ويعيدوا الحق إلى نصابه تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١) وقد أثرت دعوة ابن سبأ في نفر من الناس في مصر، وراح هؤلاء يتسقطون عثرات الوالي عبد الله بن أبي السرح، ويضخمونها ويشيعونها، وينتقلون منه إلى الخليفة فيشيعون الكلام فيه أيضا، واستمالت هذه الدعوة عدداً من الشخصيات الكبيرة أمثال محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة(٢)، ثم اتسعت الدعوة وكثر أنصارها، وبرع صاحبها الأول ابن سبأ في إبعاد شخصه واسمه وتحريك الأحداث من وراء الستار، ثم تطور الأمر إلى الاتصال ببعض الشخصيات في البصرة والكوفة والمدينة والتأثير فيها.

---

١) انظر الطبري ٣٤١/٤.

٢) الطبري ٢٩٢/٤.

يقول الطبري عن نشاط ابن سبأ ومن شايعه: (فقد كاتب من كان في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها عن عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة)(١).

أحدثت هذه الحركة الماكرة اضطرابا في صفوف العامة، مالبث أن انتقل إلى الخاصة، وبدأ بعض الناس يجهرون بالنقد اللاذع للولاة.. وفي المدينة بدأت تشيع آثارها أيضا، وتجرأ بعض الناس على الخليفة عثمان وتحدثوا في المجالس عن أخطائه، وكان من أهم ما أخذوه عليه: تعيينه عدداً من أقاربه في الولايات، ومنحه خمس الخمس (أي أربعة بالمئة) من غنائم فتوح افريقيا لقائد تلك الفتوح وواليه على مصر عبد الله بن أبي السرح(٢) واعطاؤه بعض العطايا السخية لآخرين (وكانت عطاياه من ماله الخاص)(٣) وشاع اللغط حول عثمان في الأمصار، ونقله بعض المتأثرين بعبد الله بن سبأ إلى المدينة، وتردد بعض الصحابة في نقل هذه المقولات إلى عثمان أول الأمر. وكلفوا ابن أخته عبد الله بن عدي بذلك(٤) ولكن عبد الله لم يحسن نقل المقولات بحجمها الحقيقي، لذلك لم يأبه لها عثمان، وقابلها بمالديه من ثقة بنفسه وأمانته ونظرته العطوفة.. ثم تكلم فيها عمار بن ياسر رضي الله عنه

---

١) الطبري ٤/٣٤١.

٢) كان عثمان رضي الله عنه قد أعطى عبد الله بن أبي السرح خمس الخمس لبلائه في فتح أفريقيا فلما اعترض بعضهم على العطية أمره عثمان بردها فردها. انظر: الطبري ٤/٢٥٤ مع أن الإمام مالك يرى أنه يصح للإمام أن يتصرف بالخمس كله ولو أعطاه لواحد لجاز. أنظر: العواصم من القواصم ص ٧٩

٣) انظرالطبري ٤/٣٤٨.

٤) تاريخ المدينة المنوره ٣/٩٧٠.

واشتد على عثمان وأغضبه حتى أمر بضربه وإخراجه من المجلس.. فاستفاد من هذه الواقعة ابن سبأ وأتباعه، وأضافوها إلى مقولاتهم في التشنيع على الخليفة، ثم بلغه أن واليه على الكوفة قد شرب الخمر، فاستدعاه وأقام عليه الحد وعزله، وولى مكانه سعيد بن العاص. وتكرر اللغط في المدينة وبلغ الخليفة، فأدرك الخليفة أن في الأمر مايريب، فجمع كبار الصحابة، واستشارهم في ما يفعله، وبخاصة في اللغط الشائع حول ولاته، فأشاروا عليه بإرسال من يتحرى الأمر.. فانتدب محمد بن سلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر ليتحققوا من أفعال الولاة وما يشيع عنهم.. فذهب الأربعة ونقبوا في أعمال الولاة وسيرتهم في الرعية.. ورجع محمد بن سلمة وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد يثنون على الولاة خيراً، ويؤكدون للخليفة أنه لاصحة لما يشاع حولهم، أما عمار بن ياسر فقد نجح أتباع عبد الله بن سبأ في إقناعه بآرائهم وأوغروا صدره على الخليفة، لذا لم يؤدِ المهمة التي أوكلت إليه، ولم يعد إلى المدينة ، وبقي في مصر مع الساخطين على الخليفة وولاته..

خيـوط المؤامـرة:

وبدأ الناس في المدينة يحسون بنذر الخطر، فالكتب تتواصل إليهم من الأمصار بالشائعات وبما يسيء إلى الخليفة وولاته، والأخبار تتطاير عن تزايد عدد الساخطين في تلك الأمصار. والخليفة بلينه وحسن خلقه لايرى أخذهم بالشدة... ومالبث اللغط أن اشتد، وتحوّل الهمس الى الجهر، واجترأ بعض الناس على عثمان في المسجد بما لم يجترئوا به من قبل، وقد أورد ابن خلدون تحليلا عميقا لهذه الحالة، خلاصته: أن معظم الذين نزلوا في الأمصار كانوا من قبائل الجزيرة العربية الذين أسلموا ولم تكن لهم صحبة مع رسول الله ﷺ، وربما لم يره بعضهم على الإطلاق. فبدأت بعض عروق الجاهلية تنتقض فيهم، وأهمها التمرد على رئاسة المهاجرين والأنصار (ووافق ذلك

أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويضيفون بالنكير على عثمان...)(١)، ونجح المتأثرون بالدعوة السبئية في الأمصار في كسب أتباع عديدين، وأقاموا صلات ومراسلات بينهم وبين مصر والكوفة والبصرة...

ولم يكن الخليفة يظن أن الأمر سيبلغ بأولئك الساخطين درجة العصيان أو التمرد.. وتذهب بعض الروايات الى أنه تعرض لمحاولات اغتيال فاشلة، وأنه بحلمه وكرم أخلاقه عفا عن الجناة واكتفى بإبعادهم عن المدينة(٢) وأرسل عثمان يستدعي ولاته في عام أربع وثلاثين للهجرة، وناقشهم طويلاً فيما يدور في المجالس وعلى ألسنة الناس. فكان رأي معظم الحاضرين أن يؤخذ رؤوس الفتنة بالشدة أو يجتثوا، ويضبط الأمر بالحزم..... ولم تكن طبيعة عثمان الرقيقة لترضى هذا الحل، واقترح معاوية بن أبي سفيان أن ينتقل الخليفة ومركز الخلافة إلى الشام ليكون في حمايته، فرفض عثمان أن يترك المدينة. فاقترح عليه أن يرسل إليه حرسا خاصا. فأبى أن يسن هذه السنة في الخلافة، وأن يشق على أهل المدينة بجند الشام. واقترح عبد الله بن عامر إشغال الناس بالجهاد والبعوث، فمال إلى هذا الرأي وأوصى ولاته بالرعية خيراً. وكتب إلى الناس في الأمصار أنه قرر أن يستدعي الولاة كل سنة في موسم الحج ويسألهم عن سلوكهم في ولاياتهم، وطلب من كل فرد له شكاية على الوالي أن يحضر إليه في هذا الموسم ليسمع منه ويحاسب الوالي إن وجد فيه تقصيراً.. وكان لهذه الرسائل وقع طيب، فقد تليت على المنابر،

---

١) ابن خلدون ٢/٥٨٦ - ٥٨٧.

٢) تاريخ المدينة المنوره ٣/١٠٢٦.

وبكى الناس وهدأت نفوسهم(١) ولكن أصحاب الفتنة نجحوا في استثارة العامة بعد حين ونقلوا فتنتهم إلى بعض القبائل، حتى ان قوما من بني عبس تجهزوا ليذهبوا إلى المدينة ويقاتلوا عثمان ، فذهب حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ونهاهم فانتهوا(٢)٠

واصل أصحاب الفتنة مكرهم ودبروا مؤامرة فظيعة وأخذوا في تنفيذها بدقة.. فقد تواعدوا على الخروج في وقت واحد إلى المدينة، وتغطية أمر خروجهم بإشاعة أنهم يقصدون العمرة والحج، فلا ينتبه الولاة، ولا يأخذ أهل المدينة حذرهم(٣)٠

تنفيــذ المؤامــرة:

في شهر شوال عام خمسة وثلاثين للهجرة نظم المتآمرون صفوفهم وخرجوا من الكوفة والبصرة ومصر متجهين إلى المدينة ((ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وأشاعوا أنهم خارجون إلى العمرة والحج. وقد انتظم أهل مصر في أربعة فرق على كل فرقة رئيس وللفرق الأربعة رئيس عام. وعسكر أهل البصرة في موضع اسمه (ذو خشف)، ونزل أهل الكوفة في موضع اسمه (عوص)، ولحق بهم بعض أهل مصر، أما بقية أهل مصر فنزلوا بموضع (ذو المروة). وهذه المواضع قريبة من المدينة. ويقدر المؤرخون عددهم (بألفين الى ثلاثة آلاف)(٤). وبلغ الخبر أهل المدينة، فاستعد لهم علي وطلحة والزبير، وجمع علي بعض أهل المدينة وتوشح بالسيف، ولكن رؤوس الفتنة تصرفوا بسرعة، فقد أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة للقاء كل من علي وطلحة والزبير ومحاولة استمالتهم واقناعهم بخلع

---

١) الطبري ٣٢/٤.

٢) انظر تاريخ المدينة المنوره ١١٤٤/٣

٣) انظر تفصيل ذلك في الطبري ٣٤٨/٤ - ٣٤٩.

٤) انظر الطبري ٣٤٨/٤.

عثمان وتولية أحدهم، فرفض الثلاثة عروض الوفد وطردوهم وهددوهم، وأرسلوا أبناءهم إلى عثمان لملازمته وحراسته، وجاء الوفد إلى عثمان فالتقى بهم واستمع إلى الاتهامات التي يوجهونها إليه، ورد عليها جميعها بحجج أثبتت براءته، وطلبوا منه أن يعلن توبته، فأعلن توبته على المنبر واستغفر الله ودعا حتى بكى الناس جميعا، وجمع علي عدداً من أهل المدينة واستعد لمناجزة المتمردين إذا حاولوا مهاجمة المدينة، فأعلن رؤساء المتمردين عن الرضا والتسليم للخليفة، وأظهروا أنهم سيرجعون إلى بلادهم، وعاد الوفد إلى معسكراتهم، وحملوا خيامهم وارتحلوا.

وظن أهل المدينة أن الفتنة قد انقشعت ، فسرح علي من جمعهم إلى بيوتهم وعاد الناس مطمئنين...

مداهمة المدينة:

فوجئ أهل المدينة بأصوات مريعة، فقد عادت الحشود على حين غرة، وفاجأت المدينة من أطرافها، وعسكرت في مناطق منها، واتجه عدد كبير إلى دار عثمان فأحاطوا بها. وخرج علي ومحمد بن سلمة وطلحة والزبير وعدد من الصحابة الآخرين إليهم وسألوهم عن سبب رجوعهم ومداهمتهم المدينة، فزعم المصريون أنهم وجدوا في طريق عودتهم غلاماً لعثمان مسافراً إلى مصر ومعه رسالة إلى واليه عليها يأمره أن ينكل بالمصريين الذين خرجوا إليه، ودفعوا إليهم كتاباً بذلك.. فذهب علي مع رؤسائهم إلى عثمان، فأقسم عثمان أنه لم يكتب الكتاب ولم يأمر به ولا يعرف شيئا عنه(1) ولكن المتآمرين لم يقتنعوا، فأدرك علي أن الأمر غير طبيعي، فقال: كيف علمتم ياأهل الكوفة وياأهل البصرة بما لقي أهل مصر (أي بالرسالة المزعومة) وقد سرتم مراحل ثم طرقتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة. وأخرجهم من

---

1) الطبري ٣٥٦/٤.

دار عثمان، ومضى إلى بيته(١).

وبدأت مرحلة صعبة في حياة المدينة، فقد توزع المتمردون في أحياء المدينة ومداخلها، وتجمع عدد وافر منهم حول المسجد النبوي ودار عثمان بن عفان، وأشهروا سيوفهم، وهددوا كل من ينتصر للخليفة، وأمروا الناس أن يلزموا بيوتهم أو أعمالهم وألا يتجمعوا ليكونوا آمنين. ومنعوا كبار الصحابة من الخروج من المدينة، حتى ليقول علي بن أبي طالب عن تلك الفترة: وأما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل، وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان(٢).

وتوافد الأعراب من البوادي القريبة ونزلوا في أطراف المدينة ينتهزون الفرصة لانتهاب مايستطيعونه، ولم تعد للدولة أي سلطان. وأغرى هذا الوضع بعض الغوغاء والموالي الحاقدين والعبيد ليتمردوا، فلحق عدد منهم بمعسكرات هؤلاء الوافدين ولكل منهم مطمع وهدف.. واضطربت أحوال المدينة أيما اضطراب، وصار كل شيء في أيدي القوة الغاشمة التي اجتاحت المدينة، وصار قادتها متحكمين ومتنفذين يروحون ويغدون إلى المسجد ليحاوروا كبار الصحابة ويستميلوهم دون جدوى، وآثر عدد من الصحابة اعتزال الفتنة والتزام البيت ماداموا لايملكون من الأمر شيئا ولا حول لهم ولا قوة. وجاء قادة التمرد إلى عثمان يطلبون منه التنازل عن الخلافة، ولم يكن لديهم مرشح بديل، ولم يوافقهم أحد من الصحابة، وعلى العكس من ذلك جاء الشباب من أبناء الصحابة ولزموا بيت عثمان للدفاع عنه، وفي مقدمتهم الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنهم، وقد حاجج عثمان وفد المتآمرين طويلاً، وسمع منهم وردّ على جميع أقوالهم، وفند التهم الموجهة إليه، ولكنهم مع ذلك أصروا على خلعه، ولم يمنعوه من الذهاب إلى المسجد والصلاة في الناس أول

---

١) الطبري ٣٥١/٤.

٢) ابن خلدون ٦١٢/٢.

الأمر، ولكنهم كانوا يشغبون عليه، فبعث عثمان رسائل إلى ولاته يطلب منهم إرسال نجدة لإخراج المشاغبين من المدينة.. وعلم هؤلاء بخبر تلك الرسائل، وخافوا أن تأتي الجيوش من الشام والعراق فتطردهم أو تقتلهم، لذا شددوا الحصار على عثمان، ثم شغبوا عليه في المسجد بعد صلاة الجمعة وضربوا الناس وفرقوهم. وأصيب عثمان وحمل إلى بيته مغشياً عليه، وثار الصحابة وأبناؤهم، وأرادوا أن يقاتلوا هؤلاء المتمردين، فأبى عليهم عثمان، وحلف الأيمان ألا يراق دم بسببه، وزار علي وطلحة والزبير الخليفة في بيته، ولما رجعوا إلى بيوتهم شدد المتمردون الحصار على عثمان ومنعوه من الخروج إلى المسجد ومنعوا عنه الماء، وحاولت أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنه إسعافه بالماء فمنعها المتمردون وضربوا وجه بغلتها حتى كادت تسقط عنها، وأشهروا سيوفهم، وأخافوا الناس وفرقوهم إلى بيوتهم، وجاء علي وحاول أن يعظ المتمردين وينهاهم عما هم فيه، فلم يستجيبوا له واستشرسوا، ولم تكن لأحد سواهم قوة متجمعة تمسك زمام الأمن أو تستطيع مواجهتهم، واضطرب الأمر على عثمان رضي الله عنه، فهو بطبيعته المسالمة لايريد أن تراق الدماء على الإطلاق، ولو كانت حياته ثمنا لذلك... وقد سبق أن لاين المتمردين واستجاب لمطالبهم رغم أنها تخدش مقام الخلافة، فعندما طلبوا منه أن يعلن التوبة أعلن التوبة على المنبر رغم اقتناعه واقتناع كثير من الصحابة أنه لم يجن ذنباً يتوب منه.. لذلك كان بعض أقربائه يعارضون موقفه اللين، وبخاصة مروان بن الحكم، الذي لازمه مدة الحصار وكان يكثر الدخول عليه ومحاورته ومراجعته في لينه واستجابته للمتمردين، وكان يشير عليه بالحزم ورفض المطالب التي تملى عليه.. وقد زادته تلك المشاورات اضطراباً. وتروي الأخبار أنه أخذ برأي مروان في بعض الحالات، وسمح له أن يخرج الى المتمردين وينهرهم ويغلظ لهم القول.. وقد تأثر علي بن أبي طالب رضي الله عنه لذلك، وكان لمشورات مروان أثر

سلبي أدى إلى استثارة المتمردين والتعجيل بالفاجعة.. وأحس الصحابة بذلك فأرسلوا عدداً من أبنائهم إلى بيت عثمان للدفاع عنه، منهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومحمد بن طلحة وغيرهم... فأمرهم عثمان ألا يقاتلوا أحداً، وعزم عليهم في ذلك أشد العزيمة ، وطلب من ابن عباس أن يحج بالناس هذا العام، وأصر عليه ، فخرج ابن عباس إنفاذاً لأمره ، وخرجت معه أم المؤمنين عائشة زوجة الرسول ﷺ...

الفاجعـــة:

شدد المتمردون الحصار، وحاورهم عثمان مرات ومرات، ولكنهم أصموا آذانهم عن صوت الحق والعقل. وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عام خمس وثلاثين للهجرة وصلت الأخبار إلى المدينة بأن جيوشا قد خرجت من الشام لحماية الخليفة وطرد المتمردين، وأنها وصلت وادي القرى، فخاف المتمردون، وحاولوا الدخول على عثمان عنوة فمنعهم أبناء الصحابة الموجودون معه في الدار، وقاموا على بابه بالسيوف.... فاتجه بعض المتمردين إلى دار عمر بن حزم التي تقع خلف دار عثمان، واقتحموها، وتسوروا منها إلى دار عثمان، بينما قامت مجموعة آخرى باشعال النار في الباب الذي يحرسه من الداخل أبناء الصحابة، وبينما يشتغل هؤلاء بالباب المشتعل لمنع اقتحامه، فوجيء أهل الدار بالذين تسلقوا من الخلف، ووصلوا إلى غرفة عثمان، وأسرع الرجال لمقاتلة المقتحمين ولكن عثمان منعهم وأمرهم بالقاء سيوفهم حتى ألقاها بعضهم، وقاتل بعضهم، وقُتل المغيرة بن الأخنس وهو يدافع عن عثمان، وكان عثمان ممسكاً بالمصحف يقرأ فيه، وأقبلت زوجتاه نائلة وأم البنين مروعتين، وهجم أمير المصريين الغافقي بن حرب على عثمان فضربه بحديدة، وضرب قترة بن حمران زوجته نائلة التي أكبت على زوجها لتحمَيه، فقطعت أصابعها وبعض كفها، وهجم سودان بن

حمران، أخو قترة، وكنانة بن بشر التجيبي على عثمان بالسيوف فطعناه، وسقط عثمان مضرجاً بدمائه والمصحف في يده، وأصيب الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم بجروح كثيرة، وانطلق المتآمرون يعيثون في الدار فساداً وينهبونها ويقتلون من يقف لهم، فقتلوا عددا من غلمان عثمان، ثم خرجوا إلى بيت المال فنهبوه.

وبينما كان عبد الله بن سبأ يتمايل طرباً لما صنعته فتنته - وكان جالساً في معسكر المتآمرين في ظاهر المدينة - كانت بيوت المدينة تتقطع ألماً على خليفتها المغدور، وأمنها المسلوب، وخلافتها المزعزعة.....

لزم أهل المدينة بيوتهم منذ أن خوفهم أصحاب الفتنة، وبلغ الاضطراب في المدينة درجة جعلت الناس يخافون من دفن جثمان الخليفة المغدور، حتى جاءت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، فوقفت بباب المسجد، وفيه رؤساء المتمردين، وهددت قائلة: لتخلين بيني وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفن ستر رسول الله ﷺ، ففزعوا وتركوا لها ذلك، فأرسلت إلى بعض الصحابة، فجاء جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير وأخوه المنذر وأبو الجهم بن حذيفة بن مسك رضي الله عنهم، فحملوا الجثمان ليدفنوه في البقيع، فاعترضهم بعض أهل الفتنة ابن نحرة، أو ابن بحرة، فمنعهم من ذلك، فدفنوه في الأرض المجاورة للبقيع، وتسمى (حش كوكب)، وكان عثمان يفكر في إدخالها في البقيع، وقد أدخلت فيه بعد ذلك(١).

البحث عن خليفة:

يروي ابن خلدون: أن الرئيس العام للمتآمرين الغافقي بن حرب، وهو رئيس القادمين من مصر، نصب نفسه على إمارة المدينة خمسة أيام، والتمس

---

١) تاريخ المدينة المنوره ٤/١٢٣٩

خلالها من يقوم بالأمر، فلم يجبه أحد(١) وجاء رجاله إلى علي يطلبون منه أن يتولى الخلافة فأبى، وفي رواية للطبري أن علياً خرج من المدينة، فأرسلوا إليه فأبى، ثم ألحوا عليه ليعود إلى المدينة فعاد إليها،(٢)، وجاء بعض الكوفيين إلى الزبير بن العوام يطلبون منه أن يتولى الخلافة فأبى، وجاء المصريون إلى طلحة فأبى، ثم بعث المتمردون إلى سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر فامتنعا(٣) فأسقط في أيديهم، وأيقنوا أنهم جاؤوا بفساد عظيم، وأن الشر سيزداد إذا بقي الأمر على هذه الحالة، فجمعوا وجوه أهل المدينة وطلبوا منهم أن يختاروا الخليفة ليبايعوه وأمهلوهم يومين فقط وإلا قتلوا أكابرهم. فاتجهت الأنظار إلى علي بن أبي طالب، وذهب إليه الناس يلحون عليه أن ينقذهم من فتنة أعظم ويقبل الخلافة، وهو يرفض، فخوفوه الله في مراقبة الاسلام، فوعدهم إلى الغد، فجاؤوه في اليوم التالي، فقبل بعد إلحاح كثير.. وأقبل الناس يبايعونه، وأمسك بعضهم وهم في أسى شديد لما يحصل في مدينة رسول الله ﷺ. وفي خبر أورده الطبري أن الأمور ظلت ثمانية أيام حتى رضي علي بالخلافة(٤).

وتذكر بعض الروايات أن الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله رفضا مبايعة علي أول الأمر، ثم بايعا مكرهين. وقد حرص الناس على بيعتهما لأنهما من كبار الصحابة ومن الستة الذين عهد إليهم عمر باختيار الخليفة بعده...

وتسلل عدد من الأمويين هاربين من المدينة إلى مكة، كمروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة، ولجأوا إلى عائشة رضي الله عنها، التي

---

١) ابن خلدون ٢/٦٠٣.
٢) الطبري ٤/٤٥٨
٣) ابن خلدون ـ٢/٦٠٣.
٤) الطبري ٤/٤٥٩.

لم ترجع من حجها بعد، وأمسك بعض الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة عن البيعة، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام ومحمد بن سلمة وأبي سعيد الخدري وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة.....

وهكذا... لم تنته الفتنة بقتل عثمان رضي الله عنه، بل بدأت فتنة كبرى تفرق المسلمين إلى جماعات متنافرة، وينفخ فيها الشيطان، حتى لترتفع السيوف وتراق الدماء، وتبقى آثارها قرونا ممتدة..

عاصفــة جـديــدة:

وبدت نذر العاصفة في المدينة نفسها، فقد اختلفت آراء الصحابة بعد بيعة علي... جاءه عدد منهم يطالبونه بمعاقبة الجناة الذين قتلوا عثمان، ورأوا أن أول عمل ينبغي على الخليفة أن يوطد دعائم خلافته به هو القصاص من القتلة.. وجاءه عدد آخر يطلب منه أن يعزل العمال السابقين على الأمصار والذين كانوا إحدى الحجج التي احتج بها المتمردون على عثمان، وطلب آخرون أن يبقي كل شيء على حاله وأن يهتم بأخذ البيعة من أهل الأمصار كي لاينتقضوا على الخليفة الجديد وتتكرر المأساة(١) وكانت مجموعة المتمردين ومن آوى إليهم من الأعراب والعبيد والموالي ماتزال في المدينة.... وقد حاور علي رضي الله عنه الصحابة الذين طلبوا التعجيل بالقصاص من قتلة عثمان، ومماقاله لهم: (٢). ياأخوتاه اني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولانملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم مايشاؤون، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا.

---

١) انظر الطبري ٤٣٧/٤ - ٤٤٠ و ابن خلدون ٦٠٣/٢ - ٦٠٥.

٢) الطبري ٤٣٧/٤.

المدينة في خلافة علي بن أبي طالب

بدأ علي خلافته في ظروف صعبة، لذلك جعل همه الأول توفير الأمن في المدينة ذاتها، وحماية أهلها من الأعراب والسبئيين... ففي اليوم الثالث من بيعته خرج إلى مداخل المدينة، وطلب من الأعراب أن يعودوا إلى بواديهم. فتلكأوا في الخروج، واحتك بعضهم مع السبئيين، وكادت أن تقع مصادمات بينهم، وأصر علي عليهم بالخروج، فبدأوا بالرحيل... أما السبئيون فأعلنوا أنهم سيبقون بالمدينة إلى أن تستتب أمورها، ولم يكن علي يملك إخراجهم، وأما العبيد والموالي فقد أمر الخليفة مناديا أن ينادي بالبراءة من كل خارج وآبق، وأن عليهم العودة إلى حياتهم العادية وإلا أُخذوا بالعقوبة......

وما أن رحل الأعراب، وعاد معظم الموالي والعبيد أو فروا خارج المدينة حتى بدأ الناس يستشعرون جو الأمن، خاصة وأن السبئيين أظهروا الطاعة التامة لعلي، وعاد الناس إلى أسواقهم ومزارعهم وأعمالهم يترقبون ماسيحدث بعد.. فما زالت النذر تلوح في الأفق، فالبيعة لم تنته بعد، والمعتزلون غير قليلين، والمطالبون بالثأر لدم عثمان كثيرون....

ولم يلبث أهل المدينة أن علموا أن النعمان بن بشير الأنصاري قد خرج من المدينة يحمل قميص عثمان رضي الله عنه الذي قتل فيه، وعليه بقع كبيرة من دمه، ويحمل أصابع زوجته نائلة، التي قطعت وهي تدفع عنه السيوف، وأن نائلة الثكلى هي التي أعطته اياها، وأمرته بالتوجه الى معاوية واستقدامه بالناس الى المدينة للثأر من قتلة زوجها، فساد الوجوم، وبدأت التوقعات والشائعات....

وانتهت أيام ذي الحجة، ودخل عام ستة وثلاثين للهجرة، وقرر علي أن يُعيِّن أمراءه على الأمصار، فكلف عثمان بن حنيف بإمارة البصرة وعمارة بن شهاب بإمارة الكوفة وعبدَ الله بن عباس بإمارة اليمن وقيس بن سعد بإمارة

مصر وسهل بن حنيف بامارة الشام، وسيرهم إلى إماراتهم، فوصل ثلاثة منهم إلى إماراتهم، ورجع أميرا الكوفة والشام، لأن جند معاوية في الشام ردوا سهل بن حنيف من تبوك، ورد طلحة بن خويلد، أمير الكوفة الذي عينه عثمان ـ عمارة بن شهاب، وتفرق الناس في مصر الى فرق، بعضهم يدين لعلي وأميره على مصر، وبعضهم معتزل ينتظر ماستنجلي عنه الأمور، وبعضهم ممتنع.....

فزاد القلق في المدينة وتوقع الناس مزيداً من الفتنة. وكتب علي إلى معاوية يطلب منه البيعة والانصياع لأوامر الخليفة، فلم يجب معاوية وأرسل من يشيع الخبر بأن أهل الشام يطلبون الثأر لعثمان، وأنهم نصبوا قميصه وأصابع زوجته على المنبر ليهيجوا الناس... واستشار علي من حوله في الأمر، فأشاروا عليه بضرورة فرض الطاعة على أهل الشام والتصدي للعصيان قبل أن يستفحل أمره ويسري إلى الإمارات الآخرى، فبدأ علي يستعد، وخطب في الناس يحثهم على الاستعداد للخروج معه إلى الشام، وطاف في الأسواق ولقي الكثيرين، فاستجاب بعضهم وتثاقل بعضهم الآخر، واعتزل بعضهم... وما لبث علي أن جمع من اكتتب معه، ونظم الجيش، ودفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية، وولى مقدمة الجيش عمرو بن الجراح، وولى ميمنته عبد الله بن عباس، وميسرته عمرو بن سخنة، ولم يعط القيادة أحداً ممن خرج على عثمان، واستخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة أخاه قثم بن العباس....

وقبل أن يتحرك الجيش من المدينة جاءته الأخبار من مكة بفتنة كبيرة جعلته يتوقف عن الزحف إلى الشام، فقد أرسل إليه واليه قثم أن عائشة رضي الله عنها قد نقمت على قتل عثمان وحرضّت الناس على المطالبة بدمه وعدم مبايعة الخليفة الجديد، وانضم إليها الزبير وطلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر(أمير البصرة زمن عثمان) ويعلى بن أمية

(أمير اليمن زمن عثمان) وجاء هذان الأخيران بمال كثير من إمارتيهما، وجهزا حملة كبيرة ستخرج بمن ينفر معهم من الناس الى البصرة، لحشد الحشود، وإعلان التمرد ، والزحف إلى المدينة للثأر لعثمان.

فانطلق علي إلى المسجد النبوى، وخطب في الناس، وبينّ لهم أبعاد الفتنة وأخطارها البعيدة إذا انتشرت، واستحث القوم على الخروج لوقف العصيان الجديد، وبين لهم أنه لايريد حربهم وسيكف إن كفوا، فتثاقل بعض الناس ورأوا في مواجهة عائشة ومن معها حرجاً شديداً، وآثروا الاعتزال.... وأرسل علي إلى عبد الله بن عمر وطلب منه أن يخرج معه، فأبى عبد الله ذلك، وخرج الى مكة معتمراً....

وانتشرت في المدينة شائعات تقول إن عبد الله بن عمر خرج الى الشام ليلحق بمعاوية ضد علي. وخرج علي إلى سوق المدينة يحرض الناس على الخروج معه ولحقته ابنته أم كلثوم -زوجة عمر بن الخطاب- وأعلمته أن عبد الله مر بها قبل خروجه من المدينة، وأكد لها أنه خارج إلى العمرة، وأنه على طاعة علي ولن يظاهر عليه، فاطمأن علي وطمأن الناس، وعاد إلى المسجد يستحثهم على الخروج، فاستجاب له عدد من أهل المدينة، وجاء بعض الصحابة يسألون علياً أن يبقى في المدينة وأن يؤمر على الجيش من يراه، ولا يترك عاصمة الخلافة، فأبى علي ذلك، لأن الأمر غاية في الحساسية، فالذين خرجوا عليه فيهم زوجة الرسول ﷺ عائشة، وفيهم عدد من وجوه الصحابة، وهو لايريد قتالهم، وإنما يريد مناقشتهم واقناعهم بخطورة مايفعلونه، ولو بعث جيشا بقيادة غيره فلربما شرع في الحرب وإراقة دماء طاهرة.. وألح بعض الصحابة على علي، وجاء عبد الله بن سلام وعلي فوق فرسه، فأخذ بعنانه وقال له: ياأمير المؤمنين لاتخرج منها، فوالله إن خرجت

منها لايعود إليها سلطان المسلمين أبداً(١) ولكن عليا أصر على الخروج، ورغب في الإسراع فيه، كي يدرك الذين خرجوا عليه من مكة قبل أن يبلغوا البصرة ، وتلتف حولهم جموع جديدة، وتتسع الفتنة.... وسار بمن معه في ربيع الآخر عام ٣٦هـ حتى بلغ الربذة، حيث علم أن ركب عائشة ومن معها قد فاته، وأنهم الآن على أبواب البصرة، فقرر المضي إلى لقاء الركب ولو داخل البصرة.

وكان في الجيش عدد من أهل المدينة، وكان فيه أيضا تسعمائة من الكوفيين والمصريين.. وتبعه عدد من الأفراد والجماعات في الطريق.. فسار حتى نزل بذي قار، وكان ركب عائشة قد دخل البصرة وجمع إليه بعض أهلها وخرجوا على واليها عثمان بن حنيف. وحاول ابن حنيف أن يوقف الفتنة، وحاورهم طويلاً، وبين لهم أن الزبير وطلحة قد بايعا علياً ثم نكثا، لذا لايحق لهم الخروج على علي، وكاد الفريقان أن يقتتلا، ثم اصطلحا على أن يذهب رسول من البصرة إلى المدينة يسأل أهلها هل: كانت بيعة الزبير وطلحة بالرضا أم بالإكراه، وجاء الرسول إلى المدينة ودخل المسجد وأخذ يسأل الناس فلا يجيبه أحد، ثم أجابه أسامة بن زيد أنهما بايعا مكرهين، فرجع بالخبر إلى البصرة فمال عدد كبير إلى عائشة ومن معها، وشغبوا على عثمان بن حنيف وأهانوه وكادوا أن يقتلوه، ثم اكتفوا بإخراجه.

أول جيشين مسلمين متحاربين:

بينما خلت المدينة من عدد كبير من سكانها ومن الذين نزلوا فيها، كانت البصرة وما حولها تضم الجموع الحاشدة من أهل المدينة وأهل مكة والكوفة ومصر والعراق والبادية المحيطة بها.. وتترقب المصادمة الكبيرة بين أول جيشين مسلمين متحاربين، الجيش الأول، جيش الخليفة علي بن أبي طالب، والجيش الثاني، جيش الخارجين عليه الذين تمركزوا بالبصرة، والعجيب ان

---

١) ابن خلدون ٦١١/٢.

الكثير من أبناء القبائل والمدن كانوا يتوزعون على الجيشين، فكان الأخ يتوقع أن يواجه أخاه، والأب ابنه، والجار جاره، وبينما كانت عائشة في مقدمة الخارجين على علي والمطالبين بالثأر لعثمان، كان أخوها محمد بن أبي بكر في مقدمة جيش علي والمتصدين للعصيان.

واجتهد علي رضي الله عنه في منع الفتنة، وقطع شوطاً كبيراً في اخمادها، فقد أرسل القعقاع بن عمرو الى البصرة، فكلم عائشة والزبير وطلحة وبين لهم أخطار الفتنة، واحتمال امتدادها إلى كل مصر، ووقوع الأمة في انشقاق عظيم يقتل بعضهم بعضا. فقالوا له: مارأيك أنت ؟ قال: ان هذا الأمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل، حتى إذا صح الأمر وهدأت الثائرة وأمن الناس واطمأن بعضهم إلى بعض نظرنا في أمر القتلة، فاقتنعوا وقالوا: إن وافق علي على هذا الرأي صالحناه عليه. فرجع القعقاع إلى علي راضياً وأنبأه بما حدث، فسر علي بذلك أشد السرور. وأقبلت الوفود من البصرة إلى معسكر علي في ذي قار، والتقى الأهل والأقارب وهم يتحدثون في الصلح، ودعا أهل البصرة علياً ليأتي إليهم، واستعد علي للرحيل اليهم، وأمر الذين شغبوا على عثمان ألا يرتحل معه منهم أحد.

وهنا شعر السبئيون والغوغاء الذين خرجوا على عثمان أن الصلح خطر عليهم، فإذا تم وهدأ الناس واستتب الأمر فسرف تنالهم العقوبة، فاجتمعوا ومعهم عبد الله بن سبأ وتداولوا الأمر، فاتفقوا على منع الصلح وإشعال الحرب بين الفريقين. وبينما كان علي يستقبل محمد بن طلحة مندوب أهل البصرة ويحاوره على الصلح، كان السبئيون قد رتبوا أمرهم على الإيقاع بين الفريقين دون أن يفطن إليهم أحد.

المعركـــة:

وفي اليوم التالي رحل علي إلى البصرة ونزل بجانب معسكر أهلها، وكان الجميع يتوقعون إعلان الصلح، فتسلل بعض السبئيين في السحر وقتلوا عدداً

من المصريين في معسكراتهم، فثار المصريون وحملوا السلاح وتصايحوا، وسمع علي الأصوات فسأل عنها، فقيل له: إن أهل البصرة قد ثاروا ويحاولون مفاجأتنا (١) وشاع بين كل فريق أن الفريق الآخر بدأ التحرش والقتال. فاجتمع الجيشان كل منهما تجاه الآخر، وخرج علي من الصفوف ونادى طلحة والزبير فكلمهما وناشدهما الله أن يطفئا الفتنة، وكان مما قاله للزبير: أتذكر أن رسول الله ﷺ قال لك: ستقاتله وأنت له ظالم. فقال الزبير تذكرت ذلك، ولو انني ذكرته من قبل لما خرجت. وقررأن يعتزل، وخرج على وجهه حتى إذا وصل وادي السباع لحقه ابن جرموز وأوهمه أنه سيصلي معه، فلما وقف الزبير للصلاة طعنه من خلفه فقتله. وقرر علي بعد ذلك أن يقتل ابن جرموز ولكن شدة الفتنة بعد ذلك جعلته يتوقف..

كان جيش علي يزيد على العشرين ألفا وجيش البصرين يزيد على الثلاثين ألفا، ونجح السبئيون في إشعال الحرب، فوقع القتال بين الطرفين، واشتد، وقتل طلحة وعدد من الصحابة الكرام، والتف البصريون حول جمل تركبه عائشة رضي الله عنها واشتدوا في القتال، ولم تهدأ المعركة إلا بعد أن عقر جمل عائشة وسقط على الأرض، فأسرع أخوها محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فحملا الهودج إلى مكان أمين بعيدا عن المعركة، وجاء علي إليها فسألها: كيف أنت يا أماه؟ قالت: بخير. فقال لها: يغفر الله لك. قالت: ولك(٢).

وكان علي قد أمر جنده ألا يبادروا بالقتال حتى يبادرهم الآخرون، وألا يتبعوا فاراً من خصومهم، وألا يجهزوا على جريح، وأن يترفقوا بهم.. ولما بدت هزيمة البصريين أمر علي جنده أن يكفوا عنهم، وأن يجمعوا القتلى من الطرفين، فجمعوا، فصلى علي عليهم جميعاً واستغفر لهم. ثم انتقل إلى

---

١) ابن خلدون ٢/٦١٧.

٢) ابن خلدون ٢/٦١٩

البصرة وأمر بعدم التعرض لجرحى الفريق الثاني، وعدم معاقبة أحد. وأمر بجمع ما كان في معسكر المنهزمين ووضعه في المسجد، ونادى المنادي: من عرف شيئا له فليأخذه، إلا سلاحا عليه سمة السلطان، ولم يجعل ماالستولى عليه جيشه غنائم، ولا اعتبر خصومه المهزومين أعداء ينبغي معاقبتهم...

لقد كانت الوقعة مأساة من مآسي المسلمين، قتل بها زهاء عشرة آلاف رجل من الطرفين، فيهم عدد من أهل المدينة المنورة....

وكانت المدينة تترقب أخبار أبنائها الذين خرجوا مع علي، والذين خرجوا مع الفريق الآخر... وبعد أيام قليلة جاء إلى المدينة من يحمل الأخبار الموجعة، ثم جاء إليها موكب عائشة رضي الله عنها معززة مكرمة.. فقد أمر علي رضي الله عنه بتجهيزها بكل ماتحتاجه من ركب ومتاع، وأخرج معها كل من كان معها ونجا من الموقعة، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات لمرافقتها، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يقود قافلتها... ولما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها علي ومعه اناس كثيرون، فخرجت على الناس وأعلنت أنها لم يكن بينها وبين علي شيء إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وأنه عندها من الأخيار، وأعلن علي أن عائشة صادقة بارة وزوجة رسول الله ﷺ... وودعها علي وودعها الناس وودعتهم. وسار علي في موكبها أميالا، وشيع أبناءه معها يوما. وعاد إلى المدينة نفر ممن كانوا مع علي أيضا، وبقي معه عدد كبير من كبار الصحابة، كعمار بن ياسر وعبد الله بن عباس والمغيرة بن شعبة... وغيرهم كثير.

مرحلة جديـــدة في حياة المدينة:

وهكذا بدأت مع منتصف رجب عام ستة وثلاثين مرحلة جديدة من حياة المدينة المنورة.. مرحلة خرجت منها الخلافة وما كانت تحمله من مسؤوليات ومشكلات، فقد آثر علي أن يبقى في العراق واتخذ الكوفة مقراً له، وبدأ يعد الجموع لِمَا هَمَّ به قبل أن يخرج إلى وقعة الجمل.. يعدها لمصاولة أهل

الشام، وإخراج معاوية منها، أو حمله على البيعة.

وغابت عن المدينة حشود المسلحين، واختفت معسكراتهم.. وفرغت بيوت كثيرة من أهلها، وصارت مدينة غير كبيرة، تدين بالطاعة لعلي بن أبي طالب، ويدير شؤونها واليه عليها: سهل بن حنيف الأنصاري، أحد أبنائها الذين بايعوا علياً وأخلصوا له... وعادت الحياة بسيطة هادئة تتخللها الأخبار الواردة من الكوفة والشام عن تجهز كل من علي ومعاوية للمعارك الفاصلة بعيداً عن أرضها، وكان على أمير المدينة أن يدبر عطاءات أهلهاالمفروضة لهم من قبل، فقد انتقلت معظم واردات بيت المال إلى الكوفة وخصص معظمها لتجهيز الجيوش، وأرسل علي بعض المال إلى المدينة ليوزع على أمهات المؤمنين ومن بقي من الصحابة والمقيمين الآخرين فيها، ولم يكونوا كثيرين....

وطبيعي أن تتقلص الحركة الاقتصادية بعامة مع تقلص عدد السكان، وأن تقل القوافل القادمة إليها.. إلا ما كان عابراً إلى البلاد الأخرى، وأن يصبح للزراعة شأن في إمداد أهل المدينة بحاجاتهم الرئيسية.....

المدينة والولاءات المتوالية:

وفي عام ثمانية وثلاثين للهجرة ودّع أهل المدينة أميرهم سهل بن حنيف الذي انتقل إلى جوار الله، وكتبوا بذلك لعلي، فأمر علي بتأمير أبي أيوب الأنصاري مضيف رسول الله ﷺ، فتسلم أبو أيوب الأمر وأخذ يصلي بالناس، وكان رجلا وديعا متقدما في السن، يحرص على أن لايشتغل الناس بالفتنة وألا يتأثروا بما يحدث في الشام والكوفة. وكان أبو أيوب مبايعاً لعلي مخلصاً له...

وتوالت الأحداث في الشام، واشتدت فتنة الخلافة، وحدثت موقعة صفين، وقتل من قتل من الطرفين، وفيهم عدد قليل من أبناء المدينة، منهم عمار بن ياسر، فبكاه الناس كثيرا... فلما هدأت المعارك بين علي ومعاوية، وظهرت فتنة الخوارج، وشغل بها علي وجيشه، وجد معاوية الفرصة المواتية للسيطرة على الأمصار التي بايعت علياً، فوجه إليها عدداً من بعوثه.

ولم يلبث الهدوء الذي نعمت به المدينة منذ خروج علي منها - عام ستة وثلاثين - أن اضطرب، عندما حملت الأخبار إلى المدينة نبأ سير جيش لمعاوية إليها بقيادة بسر بن أرطأة.. ولم تكن المدينة قادرة على مواجهة الجيش، ولم يكن فيها من الرجال من يستطيع المناجزة، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يكره إراقة الدماء، لذلك قرر أن يتجنب المصادمة.. فأوصى أهل المدينة أن يقروا في بيوتهم ولا يتعرضوا للجيش بشيء، وخرج هو ومن معه إلى الكوفة، وخرج عدد من الناس من بيوتهم إلى حرة بني سليم مترقبين

ماذا سيصنع بسر (١) ووصل بسر بن أرطأة في ثلاثة آلاف رجل، ولقيه قبل أن يدخل المدينة من أخبره بموادعة أهلها وخروج أبي أيوب منها، فأمر الجيش أن لايتعرضوا إلا لمن يقاتلهم.. ودخل المدينة على حذر... فلم يلق أية مقاومة، وعسكر جيشه في أنحائها، وسير مناديا ينادي بالأمان، وطلب من أهلها أن يذهبوا إلى المسجد، فذهب الكثيرون، وصعد بسر إلى المنبر واستصرخ لعثمان وقال: ياأهل المدينة لولا ما عهد الي معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته، ثم طلب منهم البيعة لمعاوية، فأقبل الناس يبايعون. وأرسل إلى بنى سلمة يقول لهم: والله مالكم عندى من أمان ولامبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله (ليبايع). فأخبروا جابراً، فذهب جابر إلى أم المؤمنين أم سلمة واستشارها في الأمر فأوصته أن يبايع، فبايع جابر، وبايع أبناء أم سلمة وصهرها.... وانتقل بسر إلى دار الإمارة التي كان فيها أبو أيوب الأنصاري، ثم أرسل من يستقصي له عن سكان المدينة ويستعلم عمن بقي فيها ممن خرج على عثمان بن عفان رضي الله عنه.. وراح يستدعي كل من عرف شيئا عنهم ويستحكيهم حتى عرف أسماء عدد من الذين ظاهروا الخارجين على عثمان أو شايعوهم.. فأسقط الأمان عنهم، وأرسل جنده للقبض عليهم، وقتل من وصل إليهم، وهدم دورهم كما هدم دور من فرّ منهم أو كان خارج المدينة في جيش علي، فخاف الناس منه حتى رغب بعضهم في الخروج من المدينة خشية أن يُفترى عليهم ويتهموا ظلما ويقتلوا، ولكن بسر بن أرطأة مالبث أن خرج من المدينة وتوجه إلى مكة المكرمة، وطلب من أبي هريرة أن يصلي بالناس.

هدأت الأمور بعد خروج أرطأة، ورغم أن الناس بايعوا لمعاوية فإنهم ظلوا بعيداً عن الصراع على الخلافة.. وعادت المدينة إلى حياتها البسيطة الهادئة، وكان أبو هريرة كأبي أيوب ، رقيقاً، هادئاً، لايلغ في الفتنة، وينصح

---

١) وفاء الوفاء ٤٦/١.

الناس بالسكينة والانصراف إلى حياتهم اليومية والعادية، وكثيراً ما كان يشغلهم بالحديث في المسجد النبوي عما سمعه من رسول الله ﷺ من أحاديث فيها أحكام وقضايا تنفعهم في دنياهم وأخراهم..

غير أن هذا الهدوء مالبث أن عكره قلق جديد، فقد حملت الركبان القادمة خبر جيش لعلي بن أبي طالب يقوده جارية بن قدامة، جاء ليطارد جيش بسر ويستعيد الحجاز... وتسقط الناس الأخبار وعلموا أن الجيشين قد التقيا في نجران، وأن جيش بسر قد هُزم. وأن جيش جارية قادم إلى المدينة. وبينما الناس يتشاورون: ماذا يفعلون إزاء جيش علي القادم وقد أعطوا البيعة لمعاوية؟ جاءت الأخبار باستشهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكوفة، عندما طعنه عبد الله بن ملجم لعنه الله طعنة غادرة في صلاة الفجر... فازدادت حيرة الناس واستشار أبو هريرة من حوله، فأجمع رأيهم على الموادعة، وقرر أبو هريرة أن يفعل ما فعله سلفه أبو أيوب الأنصاري، فأوصى الناس بعدم التصدي لجيش جارية، وخرج هو ومن معه من المدينة كي لايعده جيش علي رمزاً من رموز معاوية فيوقعوا في الناس.

وبلغ هذا الأمر جارية فجاء إلى المدينة مسالماً، وأمر جنده بعدم مقاتلة أحد، ودخل المدينة فلم يجد من يعارضه، ووجد الناس قد لزمت بيوتها، فأرسل المنادي بالأمان وطلب منهم الخروج إلى المسجد في الصلاة.. فاجتمع الناس في مسجد النبي ﷺ، وصعد جارية المنبر، وطلب من أهل المدينة البيعة، فقالوا له: لمن نبايع وقد قتل علي؟ فقال لابنه الحسن الذي بايعه أهل العراق، فبايع الناس.... ولم يسيء جارية لأحد، ومكث في المدينة يوماً ثم أمر جيشه بالخروج منها والتوجه الى حيث الحسن بن علي يدير الأمور....

وما إن ابتعد جيش جارية حتى عاد أبو هريرة ومن معه إلى المدينة، فأحسن الناس استقباله، وطلبوا منه أن يعود إلى الصلاة فيهم فعاد.. وسار فيهم سيرته الأولى يحدثهم بأخبار رسول الله ﷺ وما سمعه منه وعنه، ولم

يقل لهم شيئاً في بيعتهم الجديدة، فقد آثر الناس أن يبتعدوا عن ألأحداث ما لم تدهمهم، فان دهمتهم وادعوها ، وتصرفوا بالتي هي أحسن..

وبعد ستة أشهر وصل الخبر إلى المدينة بأن نيران الفتنة قد انطفأت، وأن الحسن بن علي رضي الله عنه قد آثر أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، حقناً لدماء المسلمين وحفاظاً على هذه الأمة من الشر الوخيم، ففرح معظم أهل المدينة لانطفاء الفتنة واجتماع شمل المسلمين، واغتم بعضهم لأنه أدرك أن الخلافة قد انتقلت إلى دمشق، ولن تعود ثانية إلى المدينة....

ولكن مهما بعدت الأضواء عن المدينة فسيبقى لها ضوءها الساطع، سيبقى لها جسد رسول الله ﷺ الموارى في أرضها، ومسجده الذي يشدّ المسلمون الرحال اليه بعد المسجد الحرام.. ومن يدري فقد يكون هذا خيراً لها ألف مرة من مباذل السياسة ومن الفتن التي تستعر بين الحين والحين، فسيبقى للمدينة نقاؤها، وسيأوي إليها من يضيء الله قلبه بالإيمان ، ومن يملؤه بحبها.. فما يغلق الله باباً الا ويفتح أبواباً أخرى..

ووصلت قافلة آل بيت النبي ﷺ إلى المدينة.. فيها الحسن والحسين وأزواجهما وأبناؤهما، فقد آثروا أن يعودوا إلى مواطن طفولتهم ونشأتهم... وعاد أيضا أبناؤها الذين أنجاهم الله من الفتن والحروب التي حدثت في تلك السنوات الصعبة...

ومثلما بدأت صفحة جديدة من الهدوء منتصف عام ست وثلاثين.. بدأت صفحة آخرى جديدة في حياة المدينة في منتصف عام واحد وأربعين، حيث أصبحت المدينة إمارة من إمارات الدولة الأموية... ولكنها إمارة تتعلق بها أعين الأمويين، وتحظى بقدر من حبهم وقلقهم واهتمامهم وخوفهم.... صفحة جديدة سنرحل معها، في الصفحات التالية، لنقرأ فيها رحلة العصر الأموي في هذه المدينة الطيبة......

المدينة المنورة في العهد الأموي

بدأت المدينة تستقبل أفواج العائدين إليها يوما بعد يوم، فتعمُر بهم بيوت كانت فارغة. وتزداد صفوف المصلين وحلقات الجالسين في المسجد النبوي، وتنشط الحركة في الأسواق، ويخف الركود الذي عاشته المدينة في خمس السنوات السابقة.... كان معظم العائدين إلى المدينة من الذين خرجوا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى وقعة الجمل، والذين تبعوه من بعدُ مناصرةً له على معاوية رضي الله عنه.

ورغم أن تنازل الحسن بن علي لمعاوية قد غم عدداً من أهل المدينة، الذين كانوا موقنين كل اليقين بشرعية خلافة علي وبضرورة مقاتلة معاوية ومن معه، فإن ما أعقب ذلك التنازل من وقف الفتنة الضخمة وإنهاء الصراع وحقن الدماء قد هدّأ النفوس وجعلها تسلم للأمر الواقع، ثم تركن إليه وتؤثره..

وما لبث الحسن بن علي أن وصل إلى المدينة مع بقية أسرته من آل علي رضي الله عنه واستقر في بيته، وعاد معه، أو بعده بقليل، معظم الذين خرجوا من أهلها وعلى رأسهم قيس بن سعد بن عبادة - أشد المتحمسين لمقاومة الأمويين وأكثرهم سخطاً على ما انتهت إليه الأمور - ثم عاد بقية الأمويين الذين ولدوا وعاشوا سنوات طويلة فيها وأحبوها، ولم يخرجوا منها إلا بسبب الفتنة، فلما انطفأت الفتنة عادوا ليعيشوا مع أقاربهم الهاشميين، ومع أترابهم من أبناء المهاجرين والأنصار، وينعموا بما تفيئه عليهم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من سكينة وحبور، وبدا أن الناس يتوزعون في ثلاثة اتجاهات كبيرة.

الاتجاه الأول: يؤثر أن يعيش في مجرى الحياة العادية ويعرض تماماً عن القضية السياسة: قضية الخلافة والحكم، التي لم تَجرّ على المسلمين منذ

تفجرها في عهد عثمان إلا المآسي والجراح.

وكان معظم أهل المدينة من أصحاب هذا الاتجاه، وفي مقدمتهم أولئك الذين لم يشاركوا في الأحداث، وآثروا البقاء في المدينة إلى أن انتهت الأمور إلى بيعة معاوية. يضاف إليهم أولئك الذين شاركوا في الأحداث وأطاعوا الحسن عندما أمرهم أن يبايعوا معاوية.

الاتجاه الثاني : يرى أن الأمور قد استتبت وعادت إلى مجراها الصحيح بعد تنازل الحسن عن الخلافة، لأن بيعة علي في أساسها غير صحيدة، وكل ماحدث بعدها إنما هو من آثار قتل عثمان رضي الله عنه.... ويقف في رأس هذا الاتجاه الأمويون الذين خرجوا إلى معاوية، والذين بقوا في المدينة من آل عثمان، ويشاركهم عدد من الصحابة وأبنائهم أمثال: حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومحمد بن سلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت وفضالة بن عبيد.. وغيرهم.. وباستثناء النعمان بن بشير فإن أحداً من هؤلاء الأنصار لم يشارك في الحروب التي حدثت بين علي ومعاوية ، وآثروا الاعتزال.

الاتجاه الثالث : يرى أن تنازل الحسن لمعاوية خطأ، وأن خلافة معاوية غصب للحق.. ومن هؤلاء الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس وقيس بن سعد بن عبادة وسفيان بن الليل، غير أنهم نزلوا عند رغبة الحسن وسلّموا للأمر الواقع والتزموا بالبيعة،(١)ولم يُخفِ بعضهم

---

١) كان قيس بن سعد بن عبادة أحد قادة جيش علي وابنه الحسن من بعده، فلما كان الصلح بين الحسن ومعاوية رفض البيعة لمعاوية، وكاد أن يقاتله، فبعث إليه الحسن يكفه عن ذلك ويأمره بالبيعة، وسعى معاوية إلى استرضائه بعد أن دخل الكوفة، وأرسل إليه فجاءه إلى المسجد، فأحسن معاوية استقباله وطلب منه البيعة فقال له قيس: إن كنت لأكره مثل هذا اليوم يامعاوية. فقال معاوية: مه رحمك الله؟ فقال: لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يابن أبي سفيان إلا ما أجد. قال معاوية: فلا يُرَد أمر الله. فأقبل قيس بوجهه على الناس (الذين بايعوا) وقال : يامعشر الناس: لقد اعتضتم الشر من الخير،

سخطه، فعندما لقي سفيان بن الليل الحسن في المدينة قال له: يامذل المسلمين. فاحتملها الحسن منه، وبيّن له أنه أراد حفظ دماء المسلمين(١).

لذا ورغم اجتماع البيعة لمعاوية، لم يكن بد من مجيء معاوية إلى المدينة ليزيل آثار سنوات الفتنة من نفوس أهلها.

الخليفة معاوية في المدينـة:

جاءت الأخبار بقدوم معاوية إلى المدينة، وخرج عدد من أهل المدينة لاستقباله في ظاهرها.. وسلّموا عليه بالخلافة، فلم يُبدِ لهم شيئاً.. واقترب منه أحد القرشيين من أنصاره، وقال له: الحمد لله الذي نصرك وأعلى كفك. فلم يَرد عليه معاوية، وواصل سيره حتى دخل المدينة وقصد المسجد النبوي، فصلى ركعتين وسلم على رسول الله ﷺ، واجتمع الناس، فاعتلى المنبر وخطب فيهم خطبة مكاشفة ومصارحة بيّن لهم فيها مواقفهم السابقة مع علي، وانتهاء الأمر إليه رغم ذلك. وأعلن عن صفحة جديدة يفتحها للتعامل معهم، ويتناسى فيها من خاصمه، ويطلب منهم الطاعة وتجنب الفتنة، ويعدهم بحسن السياسة والعدل والعطاء الوافر، وكان مما قاله: أما بعد. فإني والله ما وليتها بحجة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي. ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها مثل ثنيات عثمان، فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فان لم

واستبدلتم الذل من العز والكفر من الايمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين وقد وليتم الطليق، وابن الطليق، يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف، فكيف تجهل ذلك أنفسكم؟ أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لاتعقلون. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال: أقسمت عليك.. ثم صفق على كفه، ونادى الناس بايع قيس. ويبدو من الرواية مدى حلم معاوية لسل الضغينة من نفس قيس (اليعقوبي٢/٢١٦ - ٢١٧).

١) ابن كثير ٨/١٣٤.

تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية. والله لاأحمل السيف على من لاسيف له، وإن كان منكم ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له مني دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا زاد عنّى. وإذا قل أغنى. وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة. استغفر الله لي ولكم، استغفر الله...(١).

وقد تركت هذه الخطبة آثاراً حميدة في نفوس الناس، وزادتهم اقتناعا بما صار إليه الأمر من إطفاء الفتنة والالتفات إلى شؤون الحياة العادية.

وحرص معاوية على أن يستميل الناس، فوزع عليهم الأموال واستزار الهاشميين ووجوه المدينة وأحسن استقبالهم وأعطاهم بسخاء... ولم يرحل حتى ولى على المدينة أحد الخبيرين بها من الأمويين المحنكين، الذين شهدوا أحداثها الكبيرة منذ عهد عثمان: مروانَ بن الحكم. وأوصاه أن يحسن السيرة فيهم ويصلح من أمر المدينة مايستطيعه....

المدينة في إمارة مروان بن الحكم:

بدأ مروان إمارته على المدينة بنشاط واضح.. فبنى بيتاً بجانب المسجد النبوي من طرف باب السلام وجعله مقراً للإمارة، وقد سمي باسمه وبقي سنوات طويلة من بعده مقراً للإمارة ومعلماً من معالمها... ورصف الممرات حول المسجد النبوي بالحجارة، ويقال إنه بدأ بتبليط الممر من بيته إلى المسجد، فعلم معاوية بذلك فأمره برصف سائر المنطقة حول المسجد، وكلف ابنه عبد الملك بالإشراف على العمل زيادة في الاهتمام به(٢).

مشروع العين الزرقاء:

رأى مروان حاجة المسجد النبوي إلى المياه، ولم يكن قربه مورد يكفي

---

١) البداية والنهاية ١٣٥/٨

٢) انظر تاريخ المدينة المنوره ١٦/١ والبداية والنهاية ١٣٥/٨ والعقد الفريد ١٧٠/٤ - ١٧١.

المصلين، وخاصة عندما تفد الوفود للزيارة بعد موسم الحج أو قبله، فاجتهد في أن يجر مياه بعض العيون الغزيرة بأقنية تحت الأرض إلى المسجد النبوي.

ويروى أن معاوية هو الذي أمره بذلك.. وقد نهض مروان بهذا الأمر وبث رجاله لانتقاء المورد المناسب، فأشاروا عليه باحدى العيون التي تنبع من جنوبي قباء، فأمر بحفر الأقنية اللازمة، واستقدم العمال المتخصصين، وأوصل الماء إلى موقع يقابل المسجد، وجعل لها بيتا يدخل إليه الناس ليتوضأوا ويتزودوا بالماء، وقد سميت العين التي جر منها الماء بعين الأزرق، نسبة إلى مروان الذي كانت عيناه زرقاوتين(١) وحرف الاسم بعد ذلك وصار: العين الزرقاء. وظل هذا الإنجاز المورد الرئيسي لأهل المدينة أربعة عشر قرناً، شهد خلالها زيادات وإصلاحات كثيرة.

إنجازات أخـــرى:

اهتم مروان بن الحكم بتوفير المياه للمناطق البعيدة في المدينة أيضا.. فقد نقل السمهودي روايات تفيد أنه مدّ أقنية للمياه من العالية جنوبي المدينة إلى قرب جبل أُحد شمالي المدينة، وأن المياه دخلت قبور بعض الشهداء وكشفهتا، فخرج أبناؤهم وأعادوا دفنها(٢)ويروي ابن شبة أن مروان بن الحكم بنى بأمر معاوية حصنين في طرف المدينة سمي الأول قصر خل والثاني قصر جديلة. وربما يكون ذلك لمراقبة مداخل المدينة.. فلم تكن المدينة ولا أهلها مهددين من عدو خارجي(٣)وعندما كثر المال في أيدي بعض أهل المدينة من الهاشميين والأمويين وغيرهمم، نشطت حركة البناء، وظهرت بيوت جديدة واسعة، وانتعشت الزراعة وزادت التجارة وأخذت أحوال الناس تتحسن.

---

١) انظر وفاء الوفاء ٩٨٥/٣ - ٩٨٧.

٢) انظر حديث جابر بن عبد الله عن قبر والده الذي استشهد في أحد وفاء الوفاء ٩٣٧/٣.

٣) انظر: تاريخ المدينة المنوره ٢٧٢/١.

وكان مروان حاكماً حازماً يحسن سياسة أهل المدينة على اختلاف مواقعهم ومكانتهم الاجتماعية.. وكان يحرص على أن يجالس وجوههم وعلى أن يزور وجوه الهاشميين ويستزيرهم....

عطاءات معاويـــــة:

كان معاوية أحرص من مروان على مداراة وجوه أهل المدينة وإكرامهم، وكان يحضهم على زيارته في دمشق ليكرمهم ويغدق عليهم العطاء. وكان من سياسته أن يخصهم بالعطاءات الضخمة ليرضيهم وليحافظ على وجاهتهم بين الناس، بتميزهم عنهم، وبإتاحته الفرصة لهم كي يوزعوا عليهم شيئا من تلك الأموال الطائلة.

وينقل ابن كثير أن الحسن والحسين وفدا عليه في الشام فأعطى كلا منهما على الفور مائتي ألف، وقال لهما: ما أجاز بهما أحدٌ من قبلي. فقال له الحسين ولم تعطِ أحداً أفضل منا. ووفد عليه الحسن مرة فأعطاه أربعمائة ألف درهم... وكان يهشّ للقاء الهاشميين بالذات، ويحسن استقبالهم، فقد وفد عليه الحسن وعبد الله بن الزبير فقال للحسن: مرحباً وأهلاً يا ابن بنت رسول الله ﷺ وأمر له بثلاثمئة ألف درهم، وقال لابن الزبير: مرحبا وأهلاً بابن عمة رسول الله ﷺ، وأمر له بمئة ألف درهم.

ولم يكن ينتظر وفادتهم إليه، بل كان يرسل إليهم أحيانا بالمال الوفير وهو يعلم أنهم سيوزعونه على من حولهم لما فيهم من كرم ورفعة، وقد بعث مرة إلى الحسن بمائة ألف فوزعها الحسن على جلسائه، وبعث إلى عبد الله بن عمر مئة ألف فوزع منها تسعين ألفا واستبقى عشرة لأهله، وبعث الى عبد الله بن الزبير بمئة ألف أيضا كما بعث إلى مروان بن الحكم وعبد الله بن

جعفر(١).

وظهرت آثار هذه العطاءات، فقرّتْ نفوس الهاشميين ولم يظهروا سخطاً أو تبرما أو نقداً لمعاوية.. وزاد من سكينتهم ما أظهره من حلم شديد في حالات الغضب النادرة التي حدثت من بعضهم، فقد غضب الحسين بن علي مرة لتجرؤ بعض عمال معاوية على بستان له - وكان مجاوراً لبستان معاوية - وكتب إلى معاوية يخبرهم باعتدائهم على أرضه وأخذهم جزءاً منها، وهدده بعبارات قاسية. ويروى أن معاوية عرض كتاب الحسين على يزيد وسأله عن رأيه فيه، فكان رأيه أن يرسل بتأديبه لتجرؤه على الخليفة، ولكن معاوية لم يرقه رأي يزيد فبعث بكتاب الى الحسين يعتذر له عن فعلة عماله ويسترضيه ويهبه بستانه كله.. فكتب إليه الحسين يثني عليه ويشكره....

وحرص على أن يكرم بعض الذين كانوا من أشد أعدائه... وقد أكرم أم سنان بنت خيثمة وأعطاها حاجتها عندما وفدت عليـــه، مع أنها كانت تقول الشعر في التحريض عليه(٢).

غير أن معاوية لم يفرض عطاءات لأهل المدينة جميعاً، لذلك لم يحسن الدخول إلى قلوبهم.. وربما نظر بعضهم إلى أعطياته الضخمة لوجوه المدينة بأنها نوع من تألف الزعامة وإهمال الرعية.. لذلك كان التحسن النسبي الذي طرأ على المدينة يتضخم عند فئات من الناس ويقل حتى يكاد ينعدم عند آخرين.... وعلى أي حال مضت ثماني سنوات من ولاية مروان بن الحكم على المديينة وأمورها تسير في هدوء، بينما كانت الأمور في العراق والشام تشهد بقايا الاضطرابات وخروج بعض الخوارج والمرتدين..

وفي عام ٤٤هـ حج معاوية، وحمل معه أموالاً كثيرة إلى المدينة، وزار

---

١) البداية والنهايه ٨/ ١٤٠

٢) انظر قصة الوفادة في العقدالفريد١/٣٤٩-٣٥٠ وأخبار الوافدات من النساء على معاويه ص ٢٣.

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها واسترضاها (وكانت غاضبة لمقتل أخيها محمد بن أبي بكر في مصر على يد قادة معاوية) ووزع أموالا على الهاشميين ووجوه المدينة، وليس في الأخبار أنه وزع على جميع أهل المدينة...

وطبيعي أن بقية أهل المدينة سيحسون بالفرق بين حالهم في عهد معاوية وحالهم في عهد الراشدين حينما كانت تأتيهم أعطياتهم بانتظام.... كما أن الهاشميين كانوا لايسكتون عن أي غمز فيهم رغم تلك الأعطيات، ويروى أن معاوية نال من علي في إحدى خطبه، وكان الحسن في حاضراً فغضب وقام على الفور فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له عدواً من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر، وأمك هند وأمي فاطمة، وجدتك قتيلة وجدتي خديجة، فلعن الله ألأمنا حسبا وأعظمنا كفراً وأشدنا نفاقا. فصاح أهل المسجد: آمين آمين. فقطع معاوية خطبته ونزل ودخل منزله ثم أرسل واعتذر الى الحسن واسترضاه. وروي أن معاوية أراد لعن علي على المنبر ولم يكن الحسن موجوداً، فقيل له أن سعد بن أبي وقاص في المسجد، فأمسك، فلما مات سعد كتب معاوية إلى عماله أن يلعنوا علياً على المنابر(١).

غير أن وجوه المدينة لم يسكتوا عن بعض التحولات التي شهدوها في الحكم الأموي. وهم الذين يتناقلون أحاديث رسول الله ﷺ وسيرته بل كانوا يظهرون احتجاجاتهم ورفضهم لما يحسون أنه مخالف للشرع، وكان الأمويون يراعون ذلك ويخشون جانبهم.... ويروى أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه كان من جلساء أمير المدينة مروان بن الحكم، وبينما هم يسمرون مرة ذكروا الفيء، فقال سعيد: الفيء مال الله، وقد وضعه عمر رضي الله عنه مواضعه. فقال مروان: الفيء مال أمير المؤمنين معاوية يقسمه فيمن يشاء.. فخرج أحد الجلساء (ابن البرصاء) وأخبر سعد بن أبي وقاص بما دار في المجلس، فلقي

---

١) العقد الفريد ٥/١١٤.

سعد بن أبي وقاص سعيد بن المسيب واستوضح منه الخبر، فلما استيقنه صحبه إلى مروان ودخل عليه وأغلظ له القول.. فترضاه مروان.. فلما خرج قال مروان لجلسائه: من ترونه أخبره بهذا الأمر، فقالوا: ابن البرصاء.. فجيء به فأمر بتجريده ليضرب، فدخل البواب يستأذن لحكيم بن حزام . فقال مروان: ردوا عليه ثيابه وأخرجوه لايهيج علينا هذا الشيخ(١)۰

وكان من مميزات سنوات الهدوء والسكينة هذه تعميق التجانس بين سكانها، رغم توزعهم إلى هاشميين وأمويين وأوس وخزرج.. فصاروا أصحاب وجهات نظر متقاربة في جميع الأمور غير السياسة.. حتى إن الفقهاء قد وضعوا فيما بعد مصطلحاً خاصاً لذلك هو عمل أهل المدينة.. فهم الذين عايشوا رسول الله ﷺ والخلفاء الأربعة من بعده، وهم الذين نقلوا الكثير من حديثه وسيرته، ولقد فرقّتهم الأهواء السياسية حيناً من الدهر.. فلما عادت سنوات السكينة والطمأنينة التأم الشمل ثانية وصارت الخلافات وجهات نظر لاتورث المشاحنة أو الصراع.

شعرة معاويــــة:

كان معاوية في دمشق حريصاً على أن يتتبع أخبار أهل المدينة ويطلب من أميرها أن يوافيه بأخبار الهاشميين، ويبعث العيون ليتحسس أخبارهم، وقد رصد أولئك العيون رسلاً يفدون على الحسين بن علي من العراق وكانوا يقصدونه إذا لم يجدوا من الحسن أذناً صاغية، فكتب مروان بن الحكم إلى معاوية يقول: إني لست آمن أن يكون الحسين مرصداً للفتنة، وأظن يومكم من الحسين طويلاً. فكتب معاوية إلى الحسين يذكره ببيعته ويشدد عليه أن يتجنب الفتنة. وكان مما كتبه: إن من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أنبئت أن قوما من الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جرّبَت، فقد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتق الله واذكر الميثاق فإنك

---

١) التحفة اللطيفة ٤٤٩/١.

متى تكدني أكدك. فكتب اليه الحسين جواباً ينفي ما بلغ معاوية عنه ويؤكد تمسكه بالعهد: أتاني كتابك وأنا بالذي غير بلغك جدير، والحسنات لايهدي بها إلا الله، ولا أردت منك محاربة ولا عليك خلافاً.

وحاول معاوية أن يتقرب من بني هاشم. فأرسل يخطب ابنة عبد الله بن جعفر لابنه يزيد (وكانت أمها أخت الحسن والحسين) وكلف مروان بن الحكم بخطبتها. ولكن الحسين بن علي قطع الطريق على معاوية وزوجها أحد أبناء عمها(١).

أميـــــر جـــديد:

في عام تسعة وأربعين جاء الأمر بعزل مروان بن الحكم عن إمارة المدينة، ويبدو أن معاوية عزله لأسباب كثيرة، منها تعدد الشكاوي عليه من بعض أهل المدينة، ومنها لأنه خشي أن يطول العهد بمروان فيستقوي وينشيء له حاشية أموية تنازعه في الأمر، أو تتحول إلى قوة مؤثرة، وكانت المدينة تضم عدداً كبيراً من الأمويين، فأراد أن يمنع هذا، ويحول دون تكتل أموي قد يصبح قوة سياسية

وصل كتاب معاوية في ربيع الأول عام ٤٩هـ يأمر بعزل مروان وتولية سعيد بن العاص، ولم يطع مروان هذا الأمر في حينه وأمر معاوية سعيداً أن يصفى أموال مروان وأن يهدم داره ليذله، وليوقع الشحناء بين الكتلة الأموية في المدينة فرفض سعيد واكتفى بالعزل(٢) وكان سعيد ابن العاص لين العريكة فيه حلم وصفح.... فسارع إلى التودد الى الناس والإحسان إليهم، وأفرج عمن سجنهم مروان وعفا عن بعض المسيئين، وتقرب إلى الهاشميين ونادمهم.

ومرض الحسن بن علي مرضاً شديداً وسرت شائعة بين الناس تتهم

---

١) وفاء الوفاء ١١٥١/٣.

٢) الطبري ٢٩٤/٥.

معاوية بأنه دس له من سمه، وأقبل بعض أقاربه يسأله عن ذلك فنفى الحسن ذلك، وعندما شعر بدنو أجله تمنى أن يدفن إلى جوار جده رسول الله ﷺ في حجرة عائشة، وأوصى أخاه الحسين أن يستأذن له بذلك وأن ينفذ له وصيته مالم يؤدِ الأمر إلى فتنة.. وعندما مات أرسل الحسين إلى أم المؤمنين عائشة يستأذنها، فأذنت له، فلما بلغ مروان بن الحكم الخبر هاله الأمر، وخشي أن يصبح هذا الأمر تعظيماً للهاشميين يجر وراءه ولاءً سياسياً يهدد الخلافة الأموية ، فجمع عدداً من الأمويين وخرج ليمنع دفن الحسن في حجرة عائشة... ولمّا بلغ الخبر الحسين استشاط غضباً ولبس سلاحه وآلى أن يواجه مروان وينفذ وصية أخيه ولو بالقوة.. وكادت تقع فتنة كبيرة، ففي المدينة من ينتصر له ويناصره لقرابته من رسول الله من جهة، ولنفورهم من مروان الذي كان شديداً في ولايته.. ومثلما استعد الحسين ومن معه استعد مروان ومن معه بالسلاح. وكادت أن تقع المواجهة. وهنا سارع بعض الهاشميين وذكروا الحسين بوصية أخيه الحسن وتأكيده عليه ألا يسبب ذلك فتنة، وأن يدفنه في البقيع.. فسكن الحسين ورضي أن يدفن جثمان الحسن في البقيع.. وجاء أمير المدينة سعيد بن العاص وجمع كبير من الناس فصلوا عليه ووازوه في البقيع وعزوا أهله فيه..(١).

وعادت الحياة إلى مجاريها في المدينة ولكنها خلفت في نفس الحسين أثراً مزعجاً ، كان بداية المنعطف نحو أحداث خطيرة ستجري بعد سنوات... كما أن وفاة الحسن قد أخلت الساحة السياسية من الوجه الكبير الذي يعده الناس مكافئا لمعاوية أو مقدما عليه... ونقلت زعامة الهاشميين إلى الحسين رضي الله عنه.. وقد سعى معاوية لإزالة آثار حادثة الدفن فبعث الأموال إلى الحسين وإلى عبد الله بن جعفر وإلى وعبد الله بن الزبير وعدد من الهاشميين، فعادت السكينة إلى نفوس هؤلاء. ومالبث أن جاء معاوية بنفسه

---

١) انظر: البداية والنهاية ٤٥/٨

عام ٥٠هـ في موسم الحج وقاد الوفود إلى عرفات، ومكث في المدينة أياما وفرق الأموال على وجوهها...

ومرت خمس سنوات من ولاية سعيد بن العاص، ازداد فيها الهدوء في المدينة حتى أصبح أقرب الركود، ووردت شائعات بأن معاوية يفكر في أخذ البيعة لابنه يزيد بعد أن مات الحسن، وأن أخاه زياد بن أبي سفيان (بن أبيه) نصحه بالتروي وعدم استثارة الناس بهذا الأمر، خاصة وأن يزيد كان شاباً يتقلب في النعيم.. فعمل معاوية بنصيحة زياد ولم يشع الأمر(١)، ووجه ابنه يزيد إلى ترك اللهو ومرح الشباب، وأرسله في غزوة داخل أرض الروم بلغت أبواب القسطنطينية، وكان فيها عدد من المجاهدين من أهل المدينة منهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، الذي توفي هناك ودفن تحت أسوارها.. كما أرسله أميراً على موسم الحج...

غير أن معاوية لم يتخلّ عن فكرة أخذ البيعة ليزيد لأسباب كثيرة، منها الخوف من أن تثور الفتنة على الخلافة بعد موته كما ثارت بعدموت عثمان، خاصة وأن الحسين في المدينة كان محط أنظار الناس بعد أخيه.. وأن العراقيين راسلوه أكثر من مرة ليذهب إليهم ويخلع البيعة فأبى..

ولما رأى معاوية جلد يزيد على الغزو، وحسن سيرته في الحج وما بعده.. تضخمت الفكرة في نفسه. وعندما توفي زياد بن أبي سفيان قرر أن ينفذ فكرته ويأخذ البيعة ليزيد في الشام وفي الأمصار، والمدينة أهم تلك الأمصار... بل أهم وأخطر من الشام نفسها، لأنها مركز الثقل المعنوي.. ففيها من يمكن أن ينازع يزيد في الخلافة ويتبعه الناس ويبايعونه.. فكتب إلى أمرائه في الأمصار.

وصل الخبر الى مروان بن الحكم فغضب، وكان يطمح أن ينتقل الحكم في الأمويين، فجمع عددا من الأمويين وسافر الى الشام ودخل على معاوية

---

١) الكامل ٣/٣٥٠

مغاضبا وأنكر عليه أن (يولي الصبيان) مُعرّضا بيزيد.. فلاينه معاوية واسترضاه، ووعده أن يكون ولي عهد يزيد.. وأعطاه وأعطى كل من جاء معه مالا وردهم الى المدينة(١).

عودة مروان بن الحكم إلى الإمارة:

عزل معاوية سعيد بن العاص وولى مروان لما يعرفه من حزمه وقدرته على أخذ البيعة ليزيد أكثر من سعيد.. كما أن السبب السياسي الذي جعله يعزل مروان عام ٤٩هـ لم يغب عن عزل سعيد، فكتب التاريخ تروي أن معاوية كان يفضل ألا تطول امارة أموي على المدينة وألا تكون له قوة وجماعة..

ومما يزيد ميلنا إلى هذا التصور أن كتب التاريخ لاتذكر أخطاء لسعيد في إمارته، وعلى العكس من ذلك، تذكر أنه كان لين الجانب سمحاً قادراً على استمالة الهاشميين ووجوه أهل المدينة والمحافظة على ولائهم.. وطبيعي أن موقف أخذ البيعة يختلف عن مواقف الإمارة الأخرى، لذا لن يكون من صالح معاوية أن يبقى سعيد في الإمارة، والأفضل أن يأتي مروان..

وقد تولى مروان الامارة عام ٥٤هـ واعتزل سعيد، وتنقل الروايات أن معاوية أمر مروان بمثل ماأمر سعيداً من قبل: محاسبة الأمير السابق وهدم داره.. وهمّ مروان بذلك لولا أن سعيداً راجعه، وأخرج له كتاب معاوية السابق له، وعرفه أن معاوية يحاول أن يوقع بين الأمويين ويشق صفهم.. فتوقف مروان عن تنفيذ الأمر وكتب سعيد يؤنب معاوية على أمره ذاك.

عاد مروان إلى الامارة ومعه حزمه وشدته، وعندما جاءه الكتاب بأخذ البيعة ليزيد أرسل إلى وجوه المدينة، فجاء أبناء المهاجرين والأنصار وعدد من الأمويين والهاشميين.. وعرض مروان عليهم كتاب أمير المؤمنين، وبينّ لهم مساوئ الخلاف والفتنة، وما لمسوه بأنفسهم من آثارها.. فقبل معظم الموجودين إعطاء البيعة باستثناء أربعة من كبار القرشيين، وهم: الحسين بن

---

١) المسعودي: مروج الذهب ٢٩/٣ -

علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير (ويضاف إليهم في رواية أخرى عبد الله بن جعفر) وهم الذين كان يخشاهم معاوية ويخشى أن يتبعهم الناس في المخالفة، وحاول مروان أن يقنعهم، ولكنه عجز عن ذلك، وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من أشدهم رفضاً للبيعة. وكتب مروان بن الحكم بما جرى لمعاوية، وأرسل وفداً من أهل المدينة برئاسة محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وبين له أن أهل المدينة يبايعون ولكن امتناع الأربعة قد يخل البيعة.. ولقي محمد بن عمرو بن حزم معاوية وأظهر الاستعداد للبيعة ونصح معاوية بالتروي في الأمر، وقال له: إن كل راع مسؤول عن رعيته، فانظر من تولي أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، (فأخذ معاوية بهر حتى جعل يتنفس بصوت عال كأنه في يوم شات.. ثم وصله وصرفه)(١).

معاوية في المدينة لأخذ البيعة ليزيد:

أحس معاوية أن أهل المدينة الموادعين، والذين استقاموا له طيلة خمسة عشر عاما، لن يكونوا راضين عن بيعة يزيد، وأنهم قد يشقون عصا الطاعة ويتبعون القرشيين الذين امتنعوا عن البيعة، لذلك قرر أن يتدخل بنفسه، وأن يسافر إلى المدينة لأخذ البيعة، خاصة وأن الولاة في الأمصار الآخرى أخذوا البيعة دون معارضة، وأرسلوا الوفود من وجوه الناس فيها لتأكيدها، ولم يبق إلا المدينة، ومن الخطر الشديد أن يترك أمرها.

جاءت الأخبار بقدوم معاوية إلى المدينة، وخرج مروان لاستقباله في ظاهرها، وخرج عدد من أبناء الأنصار فوقفوا عند مداخلها.. وعندما رأى معاوية بعض أهل المدينة لم يستقبلوه إلا في مداخلها سألهم: مامنعكم من تلقيّ من بعد كما تلقاني الناس من بعد؟ فأجابه أحدهم: منعنا من ذلك قلة الظهر (الخيل والابل) وخفة ذات اليد، بإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بالمعروف

---

١) الكامل ٣/٢٥٠

غيرنا(١) فأدرك معاوية أن النقمة كامنة في نفوس أهل المدينة الذين لم تأتهم الأعطيات، وأدرك أن هذه النقمة ستصب في الفتنة من بعده.. ولكنه كان يرجو أن تكون الأعطيات الضخمة التي أغدقها على الهاشميين ووجوه أهل المدينة كافية لتدبير الأمور، فإن بايع وجوه الناس بايع الآخرون.

نزل معاوية في دار الإمارة، ورأى أن ينفرد بكل واحد من الأربعة الذين يخشى امتناعهم عن بيعة يزيد قبل أن يطرحها على الناس، فبدأ بالحسين، وهو أول من تتجه إليه الأنظار للخلافة بعد معاوية.. فلما جاءه هشّ له وأحسن استقباله ولاينه في الكلام، ثم قال له: يابن أخي، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير نفر من قريش أنت تقودهم، يابن أخي فما أربك إلى الخلاف؟. وطبيعي أن هذا الاتهام سيفاجيء الحسين، لذا رد على الفور: أنا أقودهم؟ فقال معاوية: نعم أنت تقودهم. فقال الحسين: فأرسل إليهم، فان بايعوا كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت علي بالأمر. فقال معاوية: وتفعل. قال الحسين: نعم.. وأراد معاوية أن يحكم أمره في استنزال كل واحد على حدة، لذا طلب من الحسين ألا يخبر أحدا بحديثهما. فحاول الحسين أن يهون الأمر على معاوية، وألا يوثق بنفسه على بوعد، فألح معاوية عليه حتى أخذ منه عهداً بذلك.. وخرج الحسين، وعلم عبد الله ابن الزبير أن معاوية أرسل إلى الحسين فبعث أحد خاصته فجلس له في الطريق، حتى إذا مرّ الحسين هب اليه وقال له: يقول لك أخوك عبد الله بن الزبير ما كان؟ فامتنع الحسين عن إخباره، فما زال الرجل يلح عليه حتى استخرج شيئاً منه... لذا عندما جاء الرسول إلى ابن الزبير ليذهب معه إلى معاوية كان ابن الزبير يدرك ماسيطلب منه، فذهب إليه، واستقبله معاوية بالأسلوب نفسه، وفاجأه باتهامه بأنه يقود العصيان على البيعة، فكان جوابه كجواب الحسين: أرسل إلى الناس فان بايعوا كنت رجلا منهم. وحاول معاوية أن يأخذ من ابن الزبير عهداً ألا

---

١) البلاذري: الأنساب ١١٦/١.

يتكلم بما دار بينهما، فأبى ابن الزبير قائلا: ياأمير المؤمنين نحن في حرم الله عز وجل، وعهد الله سبحانه ثقيل.. وخرج. وبعث إلى عبد الله بن عمر وحدثه بما يخشاه على الأمة من التفرق بعد موته، وأن تعود الفتنة كما كانت من قبل، فوافقه عبد الله بن عمر ووعده أن يبايع إن بايع الناس ولو كانت البيعة لعبد حبشي. وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان عبد الرحمن قد أسن، وقد بلغ معاوية رفضه البيعة ليزيد عندما عرضها عليه مروان بن الحكم، لذا كان معاوية شديداً عليه، وكان عبد الرحمن أشد في جوابه، فقد احتد الحوار وخرج عبد الرحمن دون أن يعطي أي وعد خلافا لأصحابه السابقين..(١).

ويروي ابن الأثير أن معاوية خرج بعدها الى مكة للحج، وخرج الأربعة، ولم يلقهم معاوية بعد لقائه الأول بهم، ولم يطلب منهم البيعة. فقد آثر أن يأخذ البيعة من أهل مكة في الموسم، ثم يثني بأهل المدينة. ولما علم بخروج الحسين وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر إلى مكة قرر أن يحكم الأمر هناك، فطلبهم في مكة وأحسن لقاءهم، ولاسيما الحسين وعبد الله بن الزبير، واستصحبهم فكانوا أول داخل عليه وآخر خارج من محله، ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة.. دون أن يذكر لهم شيئاً من أمر البيعة، حتى اذا قضى منسكه وقرب مسيره أحضر الأربعة، ولاينهم في الحديث وطلب منهم أن يقدموا يزيد للخلافة ويبايعوه أمام الناس، فسكتوا، وتكلم عبد الله بن الزبير فخير معاوية بين أن يترك الأمر بعده شورى للناس أو أن يعهد لغير ابنه ، فلم يرض معاوية، وأدرك أنه لن يبلغ منهم شيئاً، لذا قرر أن يتصرف بدهاء وحكمة، فأخبرهم أنه سيخطب في الناس ويطلب البيعة ليزيد، فان رد عليه أحد فسيقتله على الفور، وأمر صاحب حرسه على مسمعهم أن يقيم على رأس كل منهم رجلين، فإن رَدّ أحد منهم عليه بكلمة تصديق أو تكذيب

---

١)الطبري ٥/٣٠٤

فليضرباه بالسيف. ثم خرج وخرجوا حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لايتميز أمر دونهم ولايقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم رضوا وبايعوا يزيد، فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس.. ولم يجرؤ أحد من الأربعة على الكلام بشيء.

وشاع أمر البيعة ، وسارت بين الركبان إلى المدينة والمناطق الآخرى، وسافر معاويه إلى المدينة ولم يكن أولئك الأربعة قد عادوا بعد، وجمع الناس في المسجد النبوي وطلب منهم البيعة، فلم يتخلف عنها أحد من الحاضرين.. وعاد الأربعة إلى المدينة فقال لهم بعض من لقيهم: زعمتم أنكم لاتبايعون، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا: والله مافعلنا. فقالوا: مامنعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادونا، وخفنا القتل(١).

عاد معاوية إلى الشام وقد عزم على أن يغير سياسته إزاء الهاشميين بعامة، وأولئك الأربعة بخاصة.. بل وإزاء المدينة كلها، فأوقف العطاءات التي كانت ترد إلى الهاشميين ووجوه المدينة، وقل المال.

وكان معاوية، قبل أن تحدث قضية البيعة، قد وجه أموالاً كثيرة إلى المدينة، وطلب من أميرها مروان بن الحكم أن يستثمرها له فيها، فيشتري له بعض بساتينها وينفق عليها لاستصلاحها، كما أمره ببناء بعض الأبنية. فاشترى مروان له عدداً من البساتين شمالي المدينة، سميت الصوافي، وبنى له عمارة تجارية كبيرة في السوق، وأجرّ دكاكينها للتجار. وكانت سوق المدينة قد ازدهرت لوفرة المال وسخاء من تصلهم العطاءات، ولا سيما عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر والحسين بن علي.. فلما أمسك معاوية العطاءات تأثرت الحركة الاقتصادية في المدينة بعامة. وكسدت البضائع، فتحول التجار بالقوافل إلى أسواق أخرى، وارتفعت أسعار السلع، ولا سيما الحنطة والشعير قوت الناس، واضطر بعض أصحاب الأراضي الذين لم يجدوا

---

١) الكامل٣/٢٥٣.وقد انفرد ابن الأثير بهذه الرواية

مالاً لاستثمار أرضهم أن يعرضوا بعض أراضيهم للبيع، فاشتراها عمال معاوية وبعض الأمويين الآخرين. ومع استمرار هذا التضيق الأقتصادي هبطت أسعار الأراضي أكثر وأكثر، وازدادت أسعار السلع، وأحس أهل المدينة بالضيق..

وسافر عبد الله بن عباس إلى معاوية وعاتبه في ذلك، فصارحه معاوية بأن امتناع الأربعة عن البيعة ليزيد(١) هو السبب.

الأمير الأموي الثالث:

عزل معاوية مروان بن الحكم للمرة الثانية، ولم يذكر المؤرخون سبباً مباشراً لذلك، ونرجح أن تكون الأسباب التي عزله لها في المرة الأولى قد تكررت، وجعلت معاوية يعزله ثانية، خاصة وأن الشكاوى من شدة مروان قد كثرت في المدة الأخيرة.

وخلف مروان في الإمارة الوليدُ بن عتبة بن أبي سفيان ابن أخي معاوية.. وكان الوليد ألين من مروان، ولكنه لم يكن يملك أن يتصرف بغير توجيهات الخليفة، لذا لم يحدث تغيير الأمير آثاراً تذكر في أهل المدينة. غير أن الأموال التي سبق أن أحرزها وجوه المدينة وما ملكوه من بساتين ومزارع فيها وخارجها خففت من آثار الضائقة عليهم، فبساتينهم تأتي بغلال وافرة، وكذا بساتين معاوية التي استصلحها عماله والتي كانت تغل محصولا ضخما.

وفي شهر رجب عام ستين للهجرة وصل الخبر بوفاة معاوية، وتولي يزيد الخلافة، وجاء البريد إلى أمير المدينة بأخذ البيعة والاحتياط أشد الحيطة من الفتنة.. ذلك أن معاوية عندما أحس بدنو أجله، وكان ابنه يزيد غائباً عن دمشق، دعا اثنين من أوثق رجاله هما الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة، وطلب منهما أن يبلغا يزيد وصيته. وتنص وصيته ـ كما نقلها الطبري ـ على أن يكرم أهل الحجاز بخاصة لأنهم أصله، فيعطي من يقدم عليه منهم، ويتعاهد من يغيب، ولم يرد في الوصية أي استثناء لأهل المدينة. وتضمنت الوصية تحذيراً ليزيد من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فهما اللذان يمكن أن يثيرا الفتنة، وقد قال عنهما في وصيته: وأما الحسين بن علي فانه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحماً

---

١) الكامل ٣/ ٢٥٠

وحقاً عظيماً وقرابة من محمد رسول الله ﷺ، ولاأظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فلو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فانه خب ضب، فاذا شخص لك فالبد له، الا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك مااستطعت(١).

حملت هذه الوصية - فضلا عن فراسة معاوية القوية - صورة عن سياسته التي أفلحت في جمع الشمل ومنع ثورات الهاشميين والقرشيين عليه عشرين سنة، وهي جديرة أن تحفظ الخلافة لو استمرت على يد خلفائه... وقد اهتم يزيد بتنفيذ الوصية ماوسعه ذلك، ولكن ظروفاً كثيرة حالت دون تطبيقها بحذافيرها فلم تؤت ثمارها في الاستقرار وحقن الدماء. فقد حرص يزيد بعد أن تولى الخلافة على تألف أهل المدينة، وأخذ بيعتهم دون أن يحدث أي شقاق، وأمر الوليد بن عقبة أن يرسل إلى الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر فيأخذ منهما البيعة أولاً، ثم يأخذها من سائر الناس كي لاتحدث فتنة.

اضطرب الوليد عندما قرأ رسالة يزيد، فهو يعلم امتناع الثلاثة عن البيعة من قبل، فأرسل إلى مروان بن الحكم، وكانت بينهما جفوة، ومقاطعة مدة طويلة، فتجاوزها الوليد لخطورة الأمر، وأرسل إلى مروان يستحثه القدوم، وأدرك مروان أن الوليد لم يرسل إليه إلا لأمر خطير، فلبى مسرعا، وقرأ الوليد عليه كتابي يزيد، الأول ينعى له معاوية، والثاني يأمره فيه أن يأخذ الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه

---

١) الطبري ٣٢٤/٥.

رخصة (١)، وكان مروان بن الحكم أعلم من الوليد بهؤلاء الثلاثة، فضلاً عن أنه يميل إلى الحزم وضبط الأمور بقوة، لذا أشار على الوليد أن يبعث إليهم فورا ويدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة (فان فعلوا قبلتَ منهم، وكففت عنهم، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموت ممعاوية وثب كل امرئ منهم في جانب، وأظهر الخلاف والمنابذة، ودعا إلى نفسه، وأما عبدالله بن عمر فاني لاأراه يحب القتال ولايحب أن يولي على الناس الا من يدفع هذا الأمر عفوا)(٢).

المدينة وخلافة يزيـــد:

أخذ الوليد بنصيحة مروان بن الحكم فأرسل أحد أقاربه وهو عبد الله بن عمر بن عثمان، ولم يرسل حاجبه أو بعض شرطته، وكأنما أراد أن يوحي لهما أن الأمر شخصي لايتعلق بشيء من قضايا الحكم، غير أن الوليد أخطأ التوقيت إذ استدعاهم في ساعة لم يكن يجلس فيها للناس، ولا يأتيه أحد.. فلما جاء الرسول إلى الحسين وعبد الله بن الزبير وجدهما جالسين في المسجد يتحدثان، فقال لهما: أجيبا، الأمير يدعوكما. فارتابا في الدعوة وصرفاه ووعداه أن يلحقا به، ثم تشاورا فيما يكون الأمر الذي طلبا له، وتوقعا أن يكونا دعيا للبيعة وأن يكون معاوية قد مات، واتفقا على أن لايبايعا. وذهب الحسين إلى بيته فجمع مواليه وفتيانه وتوجه بهم جميعا إلى الامارة، وأوصاهم أن يمكثوا عند الباب، فإن سمعوا نداءه أو سمعوا مايريب اقتحموا عليهم ليخلصوه..

ودخل الحسين على الأمير ومكث فتيانه ومواليه عند الباب كما أوصاهم، وأظهر الحسين أنه لايعرف سبب استدعائه، وبادر بالحديث وأثنى على تصالح مروان والوليد بعد القطيعة، ولكنهما لم يردا عليه حتى جلس، فقرأ

---

١) الطبري ٣٣٨/٥.

٢) الطبري ٣٣٩/٥.

الوليد عليه رسالة يزيد التي تنعى معاوية وطلب منه البيعة، فاسترجع الحسين وترحم على معاوية وماطل باعطاء البيعة قائلا: أما ما سألتني من البيعة فإن مثلي لايعطي بيعته سراً، ولاأراك تجتزيء (تكتفي) بها سراً دون أن تظهرها على رؤس الناس علانية. فقال الوليد: أجل . فقال الحسين فإذا خرجت الى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً. فاقتنع الوليد بكلامه ورضي بوعده. أما مروان بن الحكم فكان أبعد نظراً، إذ أدرك أن الحسين لن يبايع.. ولو كان في نيته البيعة لأجاب فورا ثم بايع على رؤس الناس.. وأدرك أن امتناعه سيؤدي إلى فتنة كبيرة، لذلك ألح على الوليد أن لايقبل منه التأجيل، وحذره من فتنة تكثر فيها القتلى، وطلب منه أن يمسك الحسين حتى يبايع أو يضرب عنقه، فغضب الحسين ورد على مروان رداً شديدا، وخرج وسار بأصحابه إلى منزله.. فأقبل مروان على الوليد يلومه على تركه الحسين قبل أن يأخذ منه البيعة ويتوقع له ألا يتمكن منه ثانية..

وقد حدث ماتوقعه مروان، إذ جمع الحسين أهله ومواليه وإخوته وبني أخيه وخرج بهم من المدينة ليلاً، لتبدأ رحلة أحداث دامية انتهت بمقتله رضي الله عنه، وقد خالفه في هذا الخروج أخوه محمد بن الحنفية، وحاول أن يثنيه عن عزمه دون جدوى، فنصحه أن يتجنب الخروج على يزيد، وأن يتجنب المدن، وأن يستقر بمكة أو في منطقة نائية ويتروى حتى ينظر مايصير إليه أمر الناس، ولكن الحسين أصر على الخروج ولم يأخذ بنصيحة أخيه ولم يلزم مكة أو الصحارى وكان القدر المقدور.

وأما عبد الله بن الزبير فلم يذهب إلى الأمير، بل كمن في بيته واحتمى باصحابه، فأرسل إليه الوليد مرة تلو المرة وهو يماطل ويستمهل ويعد بالمجيء، فلما كثرت عليه الرسل بعث أخاه جعفر بن الزبير إلى الأمير يسأله أن يكف عنه الرسل فقد ارتاب لكثرة الطلب وفزع، ووعده أن يأتيه في الغد.. فكف الوليد عنه الرسل، فلما صار آخر الليل خرج عبد الله بن الزبير ومعه

أخوه جعفر من المدينة وحدهما، وسلكا طريقا فرعيا لاتسلكه القوافل.. فلما أحس الوليد بخروجه أرسل ثمانين رجلا للقبض عليه واحضاره، فطلبوه فلم يقدروا عليه.

وأما عبد الله بن عمر فكان - كما توقع معاوية - ميالا إلى السلم ووعد بالبيعة إذا بايع الناس، ودخل بيته فأغلق عليه بابه لايستقبل أحداً كي لايتجمع عنده الممتنعون عن البيعة أو يكون رأس الفتنة، فلما خرج الوليد إلى المسجد وجمع الناس وطلب منهم البيعة جاء عبد الله بن عمر فبايع ليزيد.. وجاء محمد بن الحنفية (أخو الحسين) فبايع أيضا.. وجاء عبد الله بن عباس - وكان مسافراً - فبايع ليزيد.. وبايع معظم أهل المدينة ووجوهها ولم يمتنع أحد إلا الحسين وعبد الله بن الزبير، ومن خرج معهما، وهم قلة(١).

ولكن هذه البيعة لم تحل دون تدهور الأمور فيما بعد.. فقد ذهب البريد من المدينة ببيعة أهلها وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير وهربهما.. وذهبت الأخبار من قبل مروان بن الحكم وغيره بما فعله الوليد بن عتبة معها. فغضب يزيد وتوجس شراً، وأدرك أن الوليد لن يستطيع ضبط المدينة أو منع الفتنة فيها، فعزله وولى مكانه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق.

إمارة الأشدق:

كان الأشدق مقيماً في دمشق مع يزيد، فتوجه إلى المدينة، ووصلها في رمضان من العام نفسه، واستلم الإمارة من الوليد وبدأ يعامل أهل المدينة بكل ماعرف عنه من كبر وجدل وقوة حجة.. ولم يكن عمرو غريباً عن المدينة، فقد عاش فيها حقبة طويلة، وكان أبوه والياً عليها من سنة ٤٩ الى سنة ٥٦هـ لذلك لم يكن يخشى فيها شيئا، ولكنه كان يخشى من تجمع المعارضين ليزيد في مكة أو يشتد أمرهم، ويرسلوا رسلهم إلى المدينة ليثيروهم. فاستشار الناس فيمن يعينه رئيسا للشرطة كي يضبط أمورها ويمنع تسلل المعارضين

---

١) الطبري ٣٣٨/٥ والكامل ٢٦٤/٣

وبالذات أنصار ابن الزبير إليها، فأشاروا عليه بتعين عمرو بن الزبير شقيق عبد الله بن الزبير لأبيه، وكانت أم عمرو أموية، وكان بين الأخوين نفرة شديدة. فعينه. فأخذ عمرو بن الزبير من يظن بميله إلى أخيه أخذاً شديداً، ومنهم أخوه المنذر بن الزبير وابني أخيه محمد بن المنذر وخبيب بن عبد الله بن الزبير، وأخذ رجالا آخرين فضربهم بالسوط. وكان يزيد قد بدأ يعالج تمرد الحسين وعبد الله بن الزبير بالحكمة واللين إنفاذا لوصية أبيه ودفعا للفتن، فيرسل إليهم الرسل بمكة يحضهم على البيعة، وهم يردون الرسل رداً رقيقاً دون أن يعطوا البيعة.. وكانت مكة تابعة لإمارة المدينة، وكان الأمير يعين نائبا عنه من أهلها ليصليَ في الناس وليدير أمورها الداخلية.. وكان آخر من عين لذلك الحارث بن خالد المخزومي، فلما كثر المعارضون للأمويين مكة رأى عبد الله بن الزبير أن يمنع خالدا من الإمامة ليُنهي ولاءها الرمزي للأمويين فمنعه، وبدأ يتصرف في أمورها وكأنه أميرها.

جيش من المدينة لحرب ابن الزبير:

علم يزيد بما حدث في مكة، فكتب إلى عمرو بن سعيد الأشدق أمير المدينة أن يوجه جيشا إلى عبد الله بن الزبير في مكة ليقتحمها عليه وينهي عصيانه، فأعد الأشدق جيشاً معظمه من الموالي المقيمين في المدينة، وأغراهم بالعطاء الجزيل، وولى على الجيش عمرو بن الزبير قائد شرطته. وضرب عمرو بن الزبير خيامه في الجرف ليجتمع جنوده فاجتمع له سبعمائة رجل معظمهم من موالي الأمويين، وجاء مروان بن الحكم إلى المعسكر ولقي أمير المدينة وقائد الحملة، وحذرهما من غزو مكة واستباحة حرمتها، وأشار عليهما أن يتركا عبد الله بن الزبير لأنه بلغ الستين من عمره ولن يعمر طويلا، ولن يعظم أمره وهو محاصر في مكة، ولكن عمرو بن الزبير أصر على أن يسير بالجيش إلى مكة وينهي عصيان أخيه، وخرج الجيش من المدينة وعسكر قريبا من مكة في ذي طوى، وحاول عمرو بن الزبير أن يقنع أخاه

بالاستسلام والانقياد ليزيد، وكان يزيد قد أقسم أن يقيد عبد الله بن الزبير، فعرض عمرو على أخيه أن يرسل إليه قيداً من فضة لايراه الناس ليبر قسم الخليفة ويمنع الصدام ويحقن دماء المسلمين، ولكن عبد الله بن الزبير رفض ذلك.

وانقسم جيش أهل المدينة الى قسمين قسم بقيادة أنيس بن عمرو، وقسم بقيادة عمرو بن الزبير نفسه ليدخل مكة من جهتين ولكن عبد الله بن الزبير انتدب من أصحابه الأقوياء وهما عبد الله بن صفوان ومصعب بن عبد الرحمن لملاقاتهم بجمع من مؤيديه، فهاجم ابن صفوان التجمع الذي يقوده أنيس بن عمرو فشقه وقبض على أنيس، وهاجم مصعب بن عبد الرحمن القسم الثاني فهرب معظم الجند، ولجأ عمرو بن الزبير إلى بيت في مكة وجاءه أخوه عبيدة بن الزبير فأجاره وحاول أن يستأذن له من أخيه عبد الله بن الزبير ولكن عبد الله أبى أن يجيره وأمر أن يقتص منه لكل من عذبه في المدينة، فمات تحت السياط وعادت فلول جيش عمرو بن الزبير إلى المدينة لينتشر خبر انتصار عبد الله بن الزبير وقوته في مكة، ولتنتشر بشكل غير مباشر مشاعر الإعجاب بين عدد من أهلها وبخاصة المستائين من الأموين..

استشاط عمرو بن سعيد الأشدق غضبا لهزيمة جيشه، وأدرك أن أمر ابن الزبير سيستفحل ويتفشى في المدينة، وأن سياسته السابقة مع أهل المدينة ستحوّل الكثيرين منهم إلى خصوم، لذا منع ضرب الناس بتهمة الميل إلى ابن الزبير وأكثر من بث العيون في المدينة وخارجها وعلى أبواب مكة وداخل مكة ليرصد حركة ابن الزبير وليترصد الفرصة السانحة للانقضاض عليه ولو باغتياله.. ويبدو أن مروان بن الحكم سلفه في الامارة قد استفاد من هزيمة جيش المدينة والسكون الذي أعقبه فكتب إلى الخليفة يزيد.. وكان يزيد قد بلغه فشل الحملة على ابن الزبير، فاشتد غضبه وتأثر بما بلغه من سكون عمرو فأرسل يأمر بعزله ويولي الوليد بن عتبة أميراً على المدينة، ويأمره

بالتضييق على عمرو بن سعيد.

إمـارة الوليد بن عتــبة:

تولى الوليد الإمارة سنة احدى وستين للهجرة فأمر بالقبض على موالي عمرو بن سعيد وأتباعه، فقبضوا على ثلاثمئة رجل وأودعوهم سجن المدينة، وأخذ من يظن أنهم يميلون الى ابن الزبير فيسوقهم الى السجن أيضا.. فاضطرب جو المدينة وساد القلق بين الناس، وخافوا أن يؤخذوا بالظن والشك..

وخرج عمرو بن سعيد إلى دمشق مغضبا ولقي الخليفة يزيد وحدثه عن أحوال المدينة وعن سبب سكونه بعد إنكسار جيشها وبيّن له أن أمر ابن الزبير ينتشر فيها بسبب شدة عمرو بن الزبير من قبل على الناس، وأن من الأفضل أن يأخذهم بالملاينة وأن يكيد لعبد الله بن الزبير ويعالج أمره دون قتال.. وشكا اليه حبس مواليه، فسمع منه يزيد ووعده خيراً.. فتضايق عمرو بن سعيد لعدم إستجابة الخليفة واعتزم أن ينقذ مواليه بالقوة، فرجع إلى المدينة حتى إذا صار على مسير يومين منها بعث أحد خاصته فاشترى من سوق المدينة جمالا بعدد الموالي المسجونين وجهز كلا منها بما يحتاجه المسافر ثم دس خبراً إلى السجن بذلك وأمرهم أن يثوروا في وقت معين ويغالبوا حراسهم ويحطموا أبواب السجن وينطلقوا إلى السوق ليركبوا الإبل التي أعدت لهم ويخرجوا بها من المدينة إلى حيث ينتظرهم عمرو بن سعيد.. وقد شهدت المدينة تطبيق هذه الخطة بنجاح.. إذ ثار المعتقلون فجأة، وكان السجن يضيق بهم وتغلبوا على حراسهم وحطموا الأبواب وانطلقوا في شوارع المدينة لاتقدر عليهم شرطتها.. حتى إذا وصلوا السوق ركبوا الإبل وانطلقوا

بها وسط دهشة الناس وتساؤلاتهم الكثيرة عن حقيقة مايجري..(١).

اغتاظ أمير المدينة الوليد بن عتبة وحاول أن يتعقب الفارين.. ولكنه عجز عن ذلك فكتب إلى الخليفة بالأمر وحذره من أن السكوت عليه سيجرىء أنصار ابن الزبير على الإمارة، وسيزيد من قوة التمرد.. وكان عمرو بن سعيد قد سبق رسول الوليد إلى دمشق ودخل على يزيد متعززا برجاله ومعاتبا يزيد على عدم إنصاته إليه.. فلاينه يزيد وصدقه بما اعتذر به حول فشل الحملة على عبد الله بن الزبير والسياسة التي أراد أن تبعها.. وقد تأكد ليزيد أن الوليد بن عتبة لن يكون أفضل من عمرو بن سعيد في إمارة المدينة ومكة، وأنه لن يستطيع النيل من ابن الزبير، ولكنه مع ذلك لم يعجل بعزله إنما ترك له أن يتدبر الأمور..

وبعد أيام قليلة فجعت المدينة بخبر مؤلم.. فقد وردت قافلة من العراق تحمل خبر مقتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء ومعه جميع صحبه من الرجال إلا علي بن الحسين - وكان فتى حدثا - واقتياد النساء إلى يزيد في دمشق.. فضجت بيوت المدينة بالبكاء وامتلأت قلوب الرجال بالحسرة على ابن بنت رسول الله ﷺ واشتعلت النقمة على قتلته.

وفي الوقت نفسه غصت الصدور بالألم على تعجل الحسين في خروجه قبل أن يعد للأمر عدته. وكان الحسين قد خرج إلى مكة بأهله فقط، ولما أزمع السير إلى الكوفة أرسل الى أقاربه في المدينة ليخرجوا معه.. ولم يكن أهل المدينة يريدون له الخروج.. ولا أقاربه يريدون له ذلك.. وقد كلمه أخوه محمد بن الحنيفة طويلاً، ونصحه ألا يسير إلى العراق فتتكرر مأساة أبيه، كما أن عبد الله بن العباس رجاه بإلحاح ألا يسير إلى العراق، وكذا فعل عبد الله بن جعفر.. وعرض عليه الكثيرون أن يبقى في مكة أو يذهب إلى اليمن أو إلى بعض الأماكن التي يمتنع فيها حتى يعد للأمر عدته إن عزم الخروج على

---

١) انظر الطبري ٤٧٨/٥

الخليفة، ولكن رسل أهل العراق المتوالين أوهموه بأنه سيجد النصرة الكافية فأصر على الخروج، وكانت الملحمة الدامية، وكانت بداية نزيف موجع للأمة الإسلامية تبعته دماء لايحصيها إلا الله على إمتداد العصور التالية.

أضعفت فجيعة قتل الحسين رضي الله عنه ولاءَ أهل المدينة للأمويين.. وزاد من ضعفه الشائعات المتوالية التي تتهم يزيد بشرب الخمر واللهو فتصرف الناس عن كل مأثرة يفعلها، وتنسيهم حسناته..

وعندما عاد بقية آل الحسين إلى المدينة، وجميعهم من النساء إلا الفتى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، تجدد الحزن في البيوت ، وندبت النساء زين شباب المدينة من آل هاشم ، الذين قتلوا في كربلاء، وكانوا ثمانية عشر رجلاً.. وازدادت النقمة على الذين استباحوا دماءهم، وتناقل الناس ما روته العائدات من آل الحسين أن يزيد أكرمهن وعوضهن كل ما فقدنه من حلي ومتاع أضعافا مضاعفة، وسيرهن معززات مكرمات إلى المدينة.. لذلك عندما ثار ابن الزبير في مكة بعد مقتل الحسين، وأعلن خلع الطاعة ليزيد، لم يفعل أهل المدينة ذلك، واكتفوا بالتحسر والدعاء على الظالمين، وربما يكون من أسباب عدم ثورة أهل المدينة لمقتل الحسين أنهم لم يكونوا راضين عن خروجه، ولم يشاركه أحد من أبناء الأنصار والمهاجرين في مسيره إلى الكوفة باستثناء بعض أقاربه من الهاشمين.. وربما يكون من الأسباب أيضا وجود عدد كبير من الأمويين في المدينة فقد زاد عددهم مع مواليهم على الألف فان لم تكن الثورة عارمة قوية فلن تستطيع مواجهة الأمير والأمويين.. غير أن هذه الفاجعة قد أحدثت شرخا كبيراً في النفوس وهيأتها للثورة العصبية العارمة التي ستحدث بعد حين..

واقترب موسم الحج لعام ٦١هـ وخرج الحجيج من أهل المدينة ومعهم أميرهم الوليد بن عتبة.. ورغم إعلان ابن الزبير خلع طاعة يزيد فانه لم يمنع أحدا من رجال الخليفة وأمرائه من الحج، ولكنه اتخذ الحيطة كي لايصبح

الموسم فرصة ينالون فيها منه. وكان في نفس الوليد أن يمكر بابن الزبير فينال منه بأي وسيلة ووجه رجاله لذلك، فلما رأوا حيطة عبد الله بن الزبير وحذره، أبلغوا الوليد بعجزهم عنه. وبلغ الأمر عبد الله بن الزبير فقرر أن يواجه الكيد بكيد مماثل.. فكتب إلى يزيد رسالة يتهم الوليد بتأجيج الخصومة ويلمح له بامكانية الوصول إلى حل إذا أرسل إليه رجلا أفضل من الوليد، وكان مما قاله في رسالته: إنك بعثت إلينا رجلا أخرق لايتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت الينا رجلا سهل الخلق لين الكتف، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله(١).

رسـالة ابن الزبير تعزل الوليـد:

وقعت الرسالة موقعا حسنا في نفـس يزيد. وزادت من اقتناعه بعجز الوليد بن عتبة عن معالجة الأمر في الحجاز، لذلك قرر عزله وتولية أمير لين الجانب لتكون بادرة حسنة مع عبد الله بن الزبير.

وجاء البريد إلى المدينة بعزل الوليد بن عتبة وتولية عثمان بن محمد بن أبي سفيان.. وجاءت الكتب إلى الوالي الجديد توصيته بأن يحسن إلى أهل المدينة ويسمع شكاويهم ويرسل منهم وفداً إلى الخليفة ليسمع منهم أيضا وأن يلاين عبد الله بن الزبير وأنصاره.. كان الوالي الجديد شاباً أموياً عرف بسماحة نفسه ولين جانبه ولم تكن له خبرة في إدارة البلاد وأمورها.. وقد أخذ بوصية يزيد فأطلق من كان في الحبس وأحسن إلى الناس وسمع منهم.. وطلب منهم أن ينتدبوا من يسافر الى دمشق للقاء الخليفة وإبلاغه بما يريد أهل المدينة.. فسر الناس لذلك.

وفد المدينة إلى يزيد:

وافق عدد من وجوه المدينة على السفر إلى يزيد، وكان فيهم المنذر بن

---

١) الطبري ٤٧٩/٥ -.

الزبير شقيق عبد الله.. الذي ضربه عمرو بن سعيد وآذاه.. وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة المخزومي (من أبناء المهاجرين) فسافروا مع البريد الى دمشق.. فاستقبلهم يزيد أحسن استقبال.. وسامرهم وسمع منهم.. وأكرمهم، ثم أعطاهم جوائز عظيمة.. وجلس الوفد أياما قليلة في الشام، وسمعوا شيئاً من الشائعات حول أسمار يزيد ولهوه، فانقبضت نفوسهم رغم ما نالوه من اكرام وهبات، وعادوا إلى المدينة باستثناء المنذر بن الزبير الذي آثر الذهاب إلى البصرة ليزور صديقه عبيد الله بن زياد.. وعندما وصل الوفد إلى المدينة انتشرت فيها حكايات عن عطاء يزيد للوفد وحسن استقباله.. وانتشرت معها الشائعات التي حملها بعض الوفد، والتي تتهم يزيد بشرب الخمر واللهو بكلاب الصيد، وقال بعضهم إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان..(١) ومع أن أحداً من الوفد لم يشهد بأنه رأى يزيد في أحدى المعاصي التي اتهم بها، ورغم ما لقيه الوفد من اكرام وأُعطيات فان الشائعات التي بلغتهم قد أثرت فيهم تأثيراً شديداً.

وربما تكون ملاينة يزيد الشديدة لهم ومباسطته وعطاءه الجزيل هوّن أمره في عيونهم فلما سمعوا الحكايات عن سمره ولهوه وصيده ذهبت هيبة الخلافة من أنفسهم وسهل عليهم أن يعلنوا خلع البيعة والخروج عن الطاعة.

وسارت الأمور في منحى عاطفي كانت له أثار سلبية مؤلمة.. فقد فشت الشائعات السيئة عن يزيد في المدينة، وأيقظت بذور النقمة التي بذرت في النفوس يوم جاء الخبر بمقتل الحسين، ونمّاها توارد الأخبار من مكة باشتداد أمر عبد الله بن الزبير يوما بعد يوم.

يضاف الى ذلك كله عامل هام جدا لعله من أهم العوامل في نمو ذلك

---

١) السابق ٥/٤٨٠

المنحنى العاطفي وتحوله الى تيار هائج، هذا العامل هو ضعف أمير المدينة الشديد، وحداثة سنه، وعدم قدرته على التصرف الحسن الذي يقر في النفوس هيبة الدولة والخلافة.

ويروي بعض المؤرخين حادثة يجعلونها السبب المباشر لتفجر الثورة، إضافة إلى الأسباب السابقة، وخلاصة هذه الحادثة: أن المسؤول عن المزارع التي أنشأها معاوية في المدينة واسمه ابن مينا جمع الغلال من الحنطة والتمر - وكانت تغل مائة وخمسين ألف وسق من التمر ومئة ألف وسق من الحنطة - وكانت الغلال شحيحة في المدينة وأسواقها فاعترضه بعض أهل المدينة من الخزرج ومنعه من إخراجها، فاشتكى إلى والي المدينة عثمان بن محمد، فأرسل عثمان معه بعض الجند ليحموه ويعينوه على إخراج الغلال، وتطاول ابن مينا على الناس وأغلظ لهم القول فلم يحتملوه، وضربوه ومن معه من الشرطة، وطردوهم ومنعوهم من أخذ الغلال(١).

لذلك كله، استيقظت عوامل النقمة على بني أمية بعامة وجهر الناس بها، وذكروا كل مالحقهم في السنوات القريبة الماضية من شدة بسبب وقف العطاء عن المدينة، وقسوة عمرو بن سعيد الأشدق. وانتشر الحديث في المجالس وانتقل من بيت إلى بيت، وتجمعت عوامل النقمة على يزيد، وتوجهت أنظار أهل المدينة نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل، فأبوه الصحابي الجليل، وهو أحد أعضاء الوفد الذي سافر إلى يزيد، وكان عبد الله ممن سمع الشائعات وتأثر بها، وأفشاها في المدينة، فكان أحد عوامل تشكيل ذلك التيار العاطفي الغاضب على يزيد ولما جاءه الناس وكلموه في خلع الطاعة ليزيد استجاب لهم وأعلن خلع الطاعة، فبايعوه على أن يكون أميرهم والمتولي أمرهم.

وتجمع الكثيرون في المسجد النبوي، وقام عبد الله بن مطيع فدعا إلى خلع بيعة يزيد ومبايعة عبد الله بن حنظلة واستجاب الحاضرون.. وجعل الرجل يأتي بجانب المنبر ويقول خلعت يزيد كما أخلع عمامتي هذه ويخلعها، ويقول آخر خلعت يزيد كما أخلع حذائي ويرمي بحذائه، حتى تجمع كوم من العمائم والأحذية.. وأسرع الأمويون إلى مقر الإمارة لينظروا في أمرهم،

---

١) انظر تاريخ اليعقوبي ٢/٢٥٠ و وفاء الوفاء ١/١٢٨.

فوجدوا أميرهم مضطرباً لايعرف كيف يتصرف، وعلم الناس بتجمع الأمويين في دار الامارة وخافوا أن يدبروا كيداً ضدهم، فتحركت جموعهم الغاضبة إلى الإمارة وحاصروها وأعلنوا خلع البيعة، وطلبوا من الأمير أن يغادر المدينة فلم يعد أميراً عليهم. وحاول مروان بن الحكم، وكان أعقل الأموين وأكثرهم حنكة، أن يحاور الغاضبين وأن يثنيهم عن التمرد والعصيان، ولكنه وجد العواطف مهتاجة فلم يستطع أن يفعل شيئا، سوى أن يأخذ الأمان للأمير كي يخرج من المدينة سالماً، ولبني أمية ألا يُمَسوا بأذى لأنهم لايريدون مواجهة الناس ولاأذية أحد. وخرج عثمان بن محمد من المدينة بأهله وزاده من المدينة، وتفرق الأمويون إلى بيوتهم ، وأعلن أفراد شرطة الأمير اعتزالهم عملهم، وانصرفوا إلى بيوتهم.

أصبحت المدينة تعيش حالة عجيبة من التوتر النفسي، فالذين أعلنوا التمرد وخلعوا الطاعة شعروا أنهم قد انتصروا بخروج الأمير الأموي وأن الأمور قد استقامت لهم، والأمويون الذين يعيشون في المدينة يرون في هذا التمرد بداية لانشقاق كبير في حياة أهلها، يعادي فيها الجار جاره والرجل صديقه، فالسنوات الطويلة التي عاشوها مع بقية أهل المدينة قد أوجدت علاقات تجاوزت حدود الصداقة الى التزاوج والقرابة، فاذا ذرت الفتنة قرنها ونظر الثائرون إلى الأمويين على أنهم أنصار يزيد فسينقلب كل شيء على عقبيه وتتحول الصداقات إلى عداوات، والقرابات إلى قطيعة.

وثمة فئة ثالثة من أهل المدينة كانت أكثر تعقلا وبعد نظر.. فقد رأوا في هذا الهياج العاطفي نذر فتنة دامية، فالأسباب التي يذكرها الثائرون لاتحل عند أكثر أهل الفقه الخروج على ولي الأمر. وهي لاتتعدى معاصي شخصية مصدرها الأقوال والشائعات، فلم يشهد أحد من الوفد أنه رأى الخليفة مقارفا للمعصية، ثم ان الخروج على ولي الأمر أكبر بكثير من شرب الخمر واستماع الغناء واللهو بكلاب الصيد (إن حصل).. فالخروج يحل الدماء، وتلك المعاصي

- إن ثبتت بالدليل القاطع - لاتتعدى جلد العاصي وتعزيره، فضلا عن أنه لايحل الخروج على الإمام العاصي قبل مراجعته واستتابته من معصيته، وإحلال الدماء أكبر من كل شيء ، ولن يسكت الخليفة على تمزيق الدولة.. فقد خرج الحسين وكانت النتيجة فاجعة دامية في آل رسول الله ﷺ، وأعلن عبد الله بن الزبير خلع الطاعة في مكة فأحدث ثغرة كبيرة في الدولة، أضف إلى ذلك عصيان أهل المدينة. فاذا حذا حذوهم آخرون تمزقت الدولة، لذلك لابد أن تواجه الدولة الثورة بالقوة الشديدة...

ووفقاً لهذا الاستنتاج أبى هؤلاء العقلاء أن يشاركوا في الثورة، وحاولوا أن يثنوا أهل المدينة عن ثورتهم العاطفية، وكان في مقدمتهم علي بن الحسين الناجي الوحيد من مذبحة كربلاء، فقد أرسل كتاباً إلى يزيد يعلن أنه مازال متمسكا ببيعته، واعتزل الناس. ومحمد بن الحنيفة شقيق الحسين، فعندما جاءه عبد الله بن مطيع وعدد من أصحابه وطلبوا منه أن يشاركهم في الثورة ويعلن خلع يزيد، وفي ذلك تحريض لبقية أهل المدينة لما له من منزلة كبيرة، أبى ذلك، وجادله عبد الله بن مطيع وقال له: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم ابن الحنيفة: مارأيت منه ماتذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه ملازما للسنة. فقالوا له: كان ذلك منه تصنعاً لك. قال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر لي الخشوع؟ ثم ناقشهم في اتهاماتهم وقال لهم: أفأطلعكم على ماتذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. فقالوا له: إنه عندنا لحق ، وإن لم نكن رأيناه (وذلك بسبب ماسمعوه من شائعات كثيرة). فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال الله عز وجل

((إلا من شهد بالحق وهم يعلمون))(١) ولست من أمركم في شيء(٢) وألحّ ابن مطيع وصحبه على ابن الحنفيه أن يوافقهم في خلع الطاعة فأصر على رفضه، فطلبوا منه أن يسمح لولديه بذلك، فأبى، فهددوه، فخرج من المدينة إلى مكة.

ولم يخلع أحد من آل طالب البيعة. وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لما بلغه هيجان الناس واجتماعهم في المسجد وخلعهم الطاعة جمع أبناءه وأهله، ثم تشهد وقال: أما بعد فانا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، واني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان، وإنّ من أعظم الغدر -الا أن يكون من الإشراك بالله- أن يبايع الرجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولايسر أحد منكم في هذا الأمر فيكون الفيصل بيني وبينه(٣) فلم يخلع أحد من آل الخطاب البيعة. كذلك عندما بلغ الأمر عبد الله بن العباس استفظعه وسأل: فمن الأمير؟، قالوا: عبدالله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع، فقال: أميران؟ هلك القوم. كما ان بعض الأنصار من بني حارثة لم يشتركوا في هذه الثورة، واعتزلوا في حيهم.

غير أن الموجة العاطفية غلبت آراء هذه الفئة واجتاحت المدينة، ولم تدر ماتحمله إليهم الأيام القليلة القادمة.

وصل خبر عصيان المدينة إلى يزيد بن معاوية فاغتم له غماً شديدا، وجاءته رسالة من مروان بن الحكم تخبره بما يلقاه الأمويون في المدينة من حصار ومضايقة، فازداد غمه وأدرك أن الأمر قد أصبح شديد الخطورة، فقد اتسع التمرد عليه وشمل الحرمين الشريفين، وهما محط أنظار الناس، ولئن

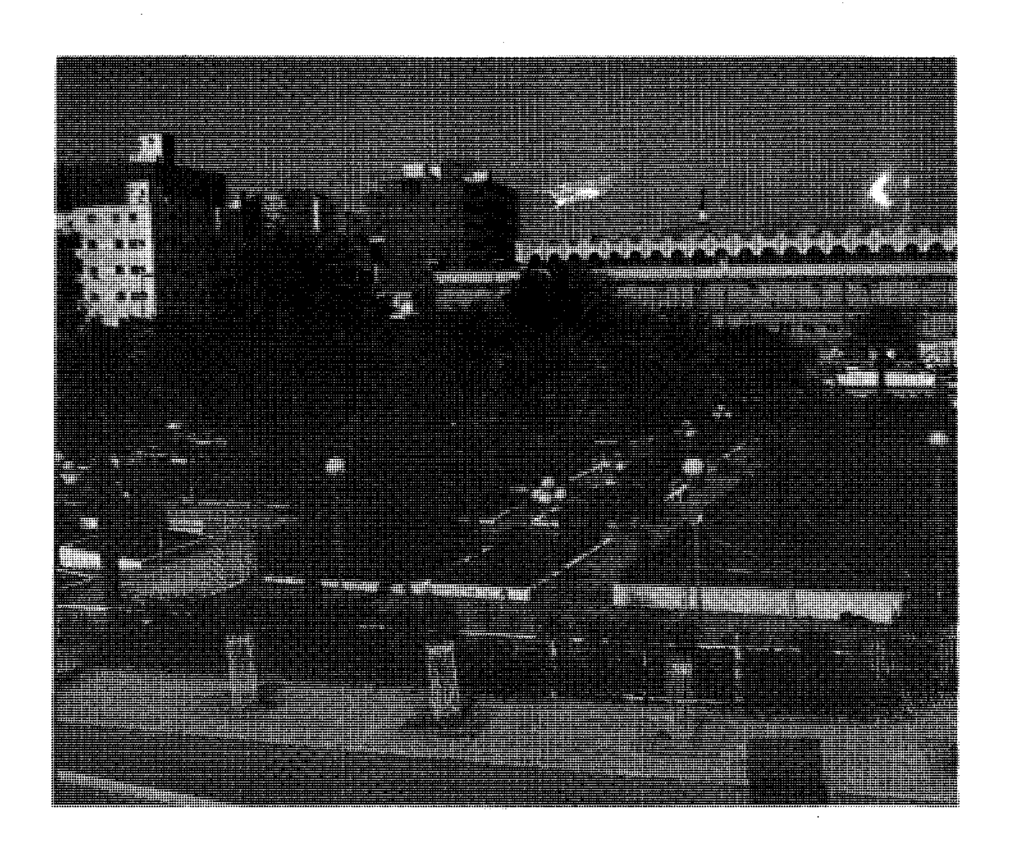
---

١) سورة الزخرف ٨٦.

٢) البداية ٨/٢٣٦.

٣) البداية ٨/٢٣٦.

ترك الأمر على ماهو عليه فلسوف يسري إلى الأمصار الآخرى وتتمزق الدولة المترامية الأطراف، لذا لابد من معالجة الأمر بسرعة وحكمة.



«الصافية» واحدة من «الصوافي» أي المزارع التي كان يملكها معاوية - وبعض الخلفاء والأمراء بعده - في المدينة تحولت اليوم إلى حديقة عامة. وكانت من قبل سبباً من أسباب ثورة أهل المدينة كما يقول بعض المؤرخين

مفاوضات مع أهل المدينة:

حاول يزيد أن يعالج تمردأهل المدينة بالتفاوض، فاستدعى الصحابي الجليل النعمان بن بشر الأنصاري رضي الله عنهما وهو ابن المدينة المنورة والخبير بأهلها، وطلب منه أن يسافر إلى المدينة ويحاور أهلها ويطلب منهم أن يرجعوا عن الفتنة وسيلبي لهم أي طلب يطلبونه. فسافر النعمان إلى المدينة والتقى بعدد من زعمائها في مقدمتهم قادة الثورة ابن حنظلة وابن مطيع، وجادلهم في خروجهم على الخليفة وخَوّفهم من عواقب الفتنة، ونقل إليهم وعود يزيد بن معاوية بأن يعيد لهم الأعطيات التي حجبت في أيام معاوية ويزيدها، ويوفر الميرة للمدينة بكثرة حتى تهبط اسعارها. ولكن ابن مطيع تصدى له واتهمه بأنه يريد شق الجماعة في المدينة وإفساد أهلها وحثّ الناس على عدم الاستجابة له، فخرج النعمان متأسفا لفشل مهمته ومتخوفا من عواقب ماسيحدث(١).

ويروى أن يزيد لم يكتف بالنعمان بل أرسل أيضاً عبد الله بن جعفر ووسطه لينهي التمرد، ووعده بأن يلبي مطالب أهل المدينة كلها وأن يحقق لهم الرفاه. وبذل عبد الله جهوده لدى الثائرين ولكن دون جدوى. فالحماسة قد أخذت مأخذها في الناس، والهياج العاطفي لم يدع مجالا لصوت العقل، ولاللنظر في النتائج المؤلمة لهذا التمرد والعصيان.. فقدرات أهل المدينة محدودة وليس لهم جيش قادر على التصدي لأي جيش يبعثه الخليفة، ثم إن غلالها وأرزاقها محدودة، فلو ضرب عليها الحصار مدة من الزمن لما صبرت عليه، وقد بدأت بوادر أزمة في الأرزاق مع بداية التمرد، إذ فشى خبر العصيان في المدن الأخرى، وتخوف أصحاب القوافل على تجارتهم فصرفوها عن المدينة، وبدا نقص الغلال في الأسواق، وارتفعت الأسعار بسرعة كبيرة، وظهرت بوادر الضيق قبل أن تظهر بوادر القتال والحرب. ثم إن الثائرين في

---

١) الطبري ٤٨١/٥.

المدينة لم يسعوا لتكوين جبهة واسعة قادرة على التصدي للخلافة واكتفوا بالاحتباس في دائرة المدينة المنورة، مع أن عبد الله بن الزبير كان يقود ثورة آخرى في مكة، وكان يتوق إلى مناصرة أي خارج على الخلافة الأموية، ولو أن ثوار المدينة اتصلوا بابن الزبير ووحدوا جهودهم معه وكونوا جبهة مقاومة واحدة فلربما تغير مجرى التاريخ. ولكن الحماسة العاطفية التي تفجرت حالت دون توسع آفاق الثورة والثائرين، فهم قد خلعوا البيعة للخليفة وبايعوا لعبد الله بن حنظلة لكنهم لم يبايعوا له بالخلافة، بل بالإمارة عليهم، أي لم تكن أنظارهم تتجه إلى تغيير شامل لنظام الحكم في الدولة الاسلامية، إنما كانت ردة فعل لضغط نفسي طويل تفجر وصار تمرداً عاطفياً. ولاشك أن هذه الصورة ستؤدي إلى النتيجة المؤلمة التي انتهت إليها الثورة وستملأ الصفحات بسطور من دماء طاهرة تراق دونما طائل.

وهذا ماحدث . فقد نفذ صبر يزيد بن معاوية بعد أن فشلت جهود الوساطة، وخشي أن يمتد التمرد الى الأمصار الآخرى، فقرر اللجوء الى القوة لضرب التمردين معا: تمرد المدينة، وهو في نظره تمرد محدود، وتمرد عبد الله بن الزبير وهو الأكبر والأخطر، ولاسيما وأن الأخبار قد تواترت ببيعة المزيد من أهل الحجاز له.

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن معاوية بن أبي سفيان كان يتوقع تمرد أهل المدينة، وأنه أوصى ابنه يزيد أن يوكل أمر التصدي له لقائده العسكري مسلم بن عقبة، وهو أحد المخلصين للأمويين منذ أيام صفين، وكان قد طعن في السن ولكنه عسكري متميز خاض جميع الحروب التي دخلها جيش معاوية، وسواء اكان معاوية قد أوصى يزيد بالاعتماد عليه أو لم يكن فان يزيد قد ولاه أمرالقضاء على التمرد في الحجاز كله وجهز له في أوائل ذي الحجة عام ٦٣هـ جيشاً من إثني عشر ألف مقاتل من أهل الشام وأعرابها، وأجزل للمقاتلين العطاء قبل أن يخرجوا ؛ دفعت لهم أعطيات سنة

كاملة مقدما وفوقها مئة دينار لكل رجل(١)، وخرج يزيد واستعرض الجيش وتمثل بأبيات يهدد فيها عبد الله بن الزبير ولم يذكر أهل المدينة، وأوصى قائده مسلم بن عقبة أن لايداهم المدينة، بل يمنح أهلها الفرصة عسى أن يراجعوا أنفسهم ويرجعوا عن تمردهم فقال له: ادع القوم ثلاثا (أي ثلاثة أيام) فان هم أجابوك، وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا، فما فيها من مال أو ورقة (دراهم) أو سلاح أو طعام فهو للجند. فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصِ به خيراً وأدنِ مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه(٢)•

وقبل أن يتحرك الجيش من دمشق سارت أخباره الى المدينة فازداد هياج أهلها، وأدركوا أن المواجهة واقعة لاريب، لذلك قرر قادة التمرد أن يحصنوا المدينة ضد المهاجمين، وأن يخرجوا منها جميع الأمويين خشية أن يتظاهروا مع القادمين فيوهنوا صفوفهم من الداخل. واتجهت الجموع إلى بيوت الأمويين وعلم الأمويون بالأمر فسارعوا الى بيت مروان بن الحكم وتحصنوا فيه، فحاصرهم الناس وهددوهم بالقتل والحرق، وجرت مفاوضات بين الطرفين، وطلب الأمويون أن يسمح لهم بالخروج من المدينة فمنعوا أول الأمر، وكادت الجموع أن تبطش بهم، ولكنهم سمحوا لهم بالخروج على أن (تعطونا عهد الله وميثاقه، لاتبغونا غائلة، ولاتدلوا على عورة، ولاتظاهروا علينا عدوا، فأعطوهم عهد الله وميثاقه، فأخرجوهم من المدينة)(٣) وحمل الأمويون ممتلكاتهم الثمينة التي تحمل، وخرج مروان بن الحكم إلى علي بن الحسين ورجاه أن يأوي عائلته مع أسرته لأنه لايريد أن يخرج بهم، وكأن مروان أحس أن التمرد لن يطول أمره، فقبل علي بن الحسين، وضم عائلة مروان إلى

---

١) الطبري ٤٨٣/٥

٢) الطبري ٤٨٥/٥.

٣) الطبري ٤٨٥/٥.

عياله وأرسلهم الى ينبع بينما اعتزل هو الناس في مزرعته خارج المدينة.

خرج الأمويون من المدينة ونزلوا بوادي القرى، بينما اشتغل أهل المدينة بتحصينها من الداخل، فأعادوا حفر ماانطمر من الخندق الذي حفرة الصحابة يوم غزوة الأحزاب، وأكملوا تحصين المناطق التي يمكن أن يداهمهم الجيش القادم منها ، وتوزع الرجال على مداخل المدينة وأطراف الخندق كلها، وقسمت المدينة إلى أربع مناطق، ووضعت مجموعات الحماية لكل منطقه، وتولى عبد الله بن حنظلة قيادة الأنصار وأبنائهم في ربعين من أرباع المدينة، بينما تولى عبد الله بن مطيع قيادة أبناء المهاجرين ومن معهم في الربعين الآخرين.

وارتفعت درجة الحماسة وتردد التكبير في أرجاء المدينة وسرت روح المواجهة والاستبسال في جميع النفوس.. ووصل عقبة بن مسلم بجيشه إلى وادي القرى والتقى بالأمويين الخارجين من المدينة وأراد أن يستشيرهم في مواجهة أهل المدينة ويعرف منهم ثغراتها، فدعا عمرو بن عثمان بن عفان وسأله عن ذلك فأبى عمرو أن يخبره بشيء لأنه أعطى عهد الله وميثاقه على ألا يدل على عورة ولا يظاهر عدواً، فغضب مسلم بن عقبة وقال له: والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك، وأيم الله لا أقيل قرشياً بعدك. فخرج عمرو بن عثمان من عنده وأخبر أصحابه الأمويين بتهديد مسلم بن عقبة. فدخل عليه عبد الملك بن مروان وحدثه طويلاً وأشار عليه أن ينزل خارج المدينة في نخل قريب من جهتها الشمالية، ويحاول اقتحامها صباحا من الجهة الشرقية من منطقة الحرة الشرقية، حيث وتكون الشمس في ظهور المهاجمين فلا تؤذيهم، وفي وجوه المدافعين فتؤذيهم. وارتحل مسلم الى المدينة واصطحب معه الأمويين الخارجين منها، فوصلها ليلة الخامس والعشرين من ذي الحجة عام ٦٣هـ ونزل خارج حدودها كما أمره يزيد، وأخذ بنصيحة عبد الملك بن مروان ونزل في طرف الحرة الشرقية، وكان أهل المدينة قد أخذوا أهبتهم

ونشروا مجموعات الحراسة، ولما رأوا الجيش القادم استنفروا الناس، فخرجوا الى أطراف الخندق يحرسونه كي لايجتازه أحد. وأطلوا على القوة التي نزلت بجانب الحرة الشرقية.

وفي الصباح أشرف عليهم مسلم بن عقبة وأمر منادياً أن يناديهم: يا أهل المدينة: إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل، واني أكره هراقة الدماء، وإني أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه، وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة (يقصد عبد الله بن الزبير) وإن كنا قد أعذرنا اليكم(١) وردد المنادون من جيش الشام هذا النداء على امتداد خط المواجهة بينهم وبين أهل المدينة، وعاد مسلم بن عقبة إلى خيمته، وكان موهناً، ومكث أهل المدينة على طرف الخندق وطرف الحرة يترقبون، ولم يحدث أي قتال، ومرت الأيام الثلاثة وكل من الطرفين يراقب الطرف الآخر، والرجال يتناوبون الحراسة.

المواجهة الدامـــية:

كان منظر الجيش الشامي الذي يحاصر المدينة يزيد الناس حماسة ويسكت الأصوات القليلة التي تدعوا إلى المسالمة، تتهمها بالجبن والخوف، فيزداد اللهيب العاطفي ويتردد الحديث عن الاستبسال والبلاء والشهادة في سبيل الله.. ومرت الأيام الثلاثة دون أن يتغير رأي الثائرين، حتى إذا طلع صباح يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ذي الحجة عام ٦٣هـ أطل مسلم بن عقبة على أهل المدينة، وأمر مناديه فنادى: ياأهل المدينة قد مضت الأيام الثلاثة فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فجاءته الأصوات من الجهة الأخرى قوية متحمسة: بل نحارب. فنادى عقبة وقد أخذته الغصة: لاتفعلوا بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المُرَاقَ والفساق من كل أوب. فاستثار كلام مُسلم من يواجهه من أهل المدينة،

---

١) الطبري ٥/٤٧٨.

وردوا عليه بشدة وقالوا: ياأعداء الله لو أردتم أن تجوزوا (تمروا) اليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم. نحن ندعكم تفسدو ببيت الله الحرام وتخيفوا أهله، وتستحلوا حرمته؟ لا والله لانفعل.

أمام هذا الإصرار، فقد مسلم بن عقبة كل أمل في أن يثني أهل المدينة عن المواجهة، وأخذه الغيظ الشديد، وقرر أن يضرب بقوة، فرجع إلى عسكره وأصدر أمره بالهجوم.

بدأت الموجة الأولى من الهجوم، فاتجهت كتلة بشرية كبيرة لاقتحام المدينة من الجهة الشرقية والشمالية، واستعد المدافعون خلف تحصيناتهم وأخذوا يرمون المهاجمين بالنبل والحجارة والرماح فتساقط عدد منهم، ولكن لم تقف الموجة المهاجمة، فاشتد المدافعون في الرمي حتى أثخنوا الصف الأول، فتوقفت الموجة، ثم بدأت تتراجع وتتقي السهام والحجارة المتساقطة بالتروس والصخور.

وصدر الأمر للخيالة كي تقتحم من المنافذ الوعرة، فتقدمت الخيالة حتى وصلت إلى أرض تملؤها الصخور السوداء، فتباطأت حركة الخيل ووقع من وقع ، ثم انصبت عليهم النبال والرماح، فانصرفت وجوه الخيل دامية ولم تستطع النفاذ إلى المدافعين، وعادت أدراجها إلى حيث يقف مسلم بن عقبة ، فصرخ فيهم واستحثهم على المعاودة، فعاودت الخيل الكرة، وعاود الرجالة الهجوم، وسقط عدد أخر من القتلى والجرحى ولم تسقط تحصينات أهل المدينة، وعندما نجح بعض جند الشام في اقتحام الخندق بخيولهم وجدوا الرماح تنتظرهم لتجهز عليهم، وكذلك الذين تسللوا من خلال حجارة الحرة القاسية... واستمر القتال مدة من الوقت دون جدوى، واستبسل أهل المدينة، وسقط عدد قليل منهم فجاء آخرون وسدوا ثغرتهم.

كان مروان بن الحكم في خيام عقبة بن مسلم ورأى أن الهجوم لم يصنع شيئاً، فركب فرسه واتجه شرقاً ثم جنوبا بعيداً عن منطقة القتال المحتدم،

حتى إذا أصبح في مكان يواجه المساكن أوغل غرباً إلى أن وصل منطقة بين شعاب الحرة يمكن أن يلج منها الراكب إلى داخل المدينة، ورأى عليها أحد بني الحارثة فناداه وكلمه، وأعطاه شيئا من المال، ووعده أن يعطيه عطاء ضخماً على أن يسمح له ولبعض الفرسان بالدخول من أرضه، فتردد الحارثي وخشي من الداخلين أن يفتكوا بقومه، فوعده مروان بأن يؤمن جميع بني حارثة لايصيبهم أحد بسوء، خاصة وأن معظمهم لم يشاركوا في القتال، فرضي الحارثي، فغاب مروان قليلا وعاد ومعه مئة فارس، واجتازوا من هذه المنطقة الضيقة، تسترهم تلال صخرية فلم يرهم أحد، حتى إذا صاروا داخل حدود المدينة والناس مشغولون بمواجهة الموجات المتوالية من المهاجمين، شد بمن معه من الفرسان على مؤخرة المدافعين من الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، ففوجيء المدافعون بالخيل تدهمهم من خلفهم والسيوف فوقهم، وانشغلوا عن الموجة المهاجمة أمامهم، واشتد القتال في هذه الزاوية، وأسرع أحد المدافعين إلى من وراءه يخبرهم باختراق الفرسان ويدعوهم للمواجهة، وتردد النداء يستحث أهل اللمدينة إلى هذه الثغرة، وبلغ قائد المنطقة عبد الله بن الغسيل فأسرع بخيله ورجاله، فوجد عدداً كبير من خيالة مسلم قد تجاوزوا الثغرة واقتحموا إلى الداخل فحمل عليهم بمن معه، واشتد القتال وبدأ جند الشام يتراجعون، وعادوا وراء التحصينات فتبعهم عبد الله حتى كاد أن يصل إلى مسلم بن عقبة، وكان الجند حوله قد جثوا على ركبهم مشرعي رماحهم لصد المهاجمين، فهب مسلم إلى الراية وحملها ونادى: ياأهل الشام هذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يعزوا به نصر إمامهم، قبّح الله قتالكم منذ اليوم، ماأوجعه لقلبي وأغيظه لنفسي، أما والله ماجزاؤكم عليه الا أن تحرموا العطاء، وأن تجمروا في أقاصي الثغور. شدوا

مع هذه الراية، ترح الله وجوهكم ان لم تفعلوا(١) ومشى بالراية متقدماً، وتبعه الرجال، واشتدت المواجهة، وقاد الفضل بن العباس مجموعة صغيرة من أهل المدينة قاصداً مسلم بن عقبة ليقتله، واقترب منه، وصرخ مسلم في أصحابه فتجمعوا حوله وواجهوا الفضل بن العباس وقتلوه وما بينه وبين مسلم الا قليل، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وابراهيم بن نعيم العدوي وآخرون من أهل المدينة(٢) وتراجع أهل المدينة، وتبعهم جند مسلم يشددون الضغط عليهم، وتكاثر الجند ودخلوا ثانية من الثغرة التي اقتحموها ثم بدأوا ينتشرون ويفاجؤن الواقفين خلف الخندق، واستبسل عبد الله بن حنظلة هو وأولاده الثمانية، وسقط أولاده أمامه واحداً تلو الآخر، وأطاح عبد الله بعدد من مهاجميه، ثم تكاثر الجنود عليه وتمكنوا منه فخر صريعا. وسقط معه عدد كبير من أبناء الأنصار والمهاجرين ومواليهم، وتقدم الجند الشاميون بمجموعات كبيرة وهاجموا المتحصنين من خلفهم، واستبسل المدافعون وسقطوا بالعشرات وارتفعت أصوات الجنود الشاميين، وسرى الخبر إلى المدافعين الآخرين بأن جند الشام قد اقتحموا، وبدأ الاضطراب ينتشر في صفوف أهل المدينة وأخذتهم المفاجأة، وحاول بعضهم الهرب فسقطوا في الخندق والرماح وراءهم، واجتاح الجند المنطقة الشرقية كلها، وتقدموا الى الربع الأوسط، حيث عمرو بن حزم الأنصاري، فسقط بأيديهم وقتل معظم المدافعين عنه، وبدأت المعركة تنكشف عن سقوط العشرات من أهل المدينة ونجاة القليلين. وشعر مسلم بن عقبة بأن الكفة مالت لجهته فاستحث جنده على حسم الأمور بسرعة، ووزع المشاة والخيالة إلى الجهات الباقية ثم زحف بمن معه إلى داخل المدينة، ومالبثت المقاومة أن ضعفت ثم قلت، ثم أصبح الجند لايرون أمامهم إلا أنفاراً قليلين فيحملون عليهم. وما

---

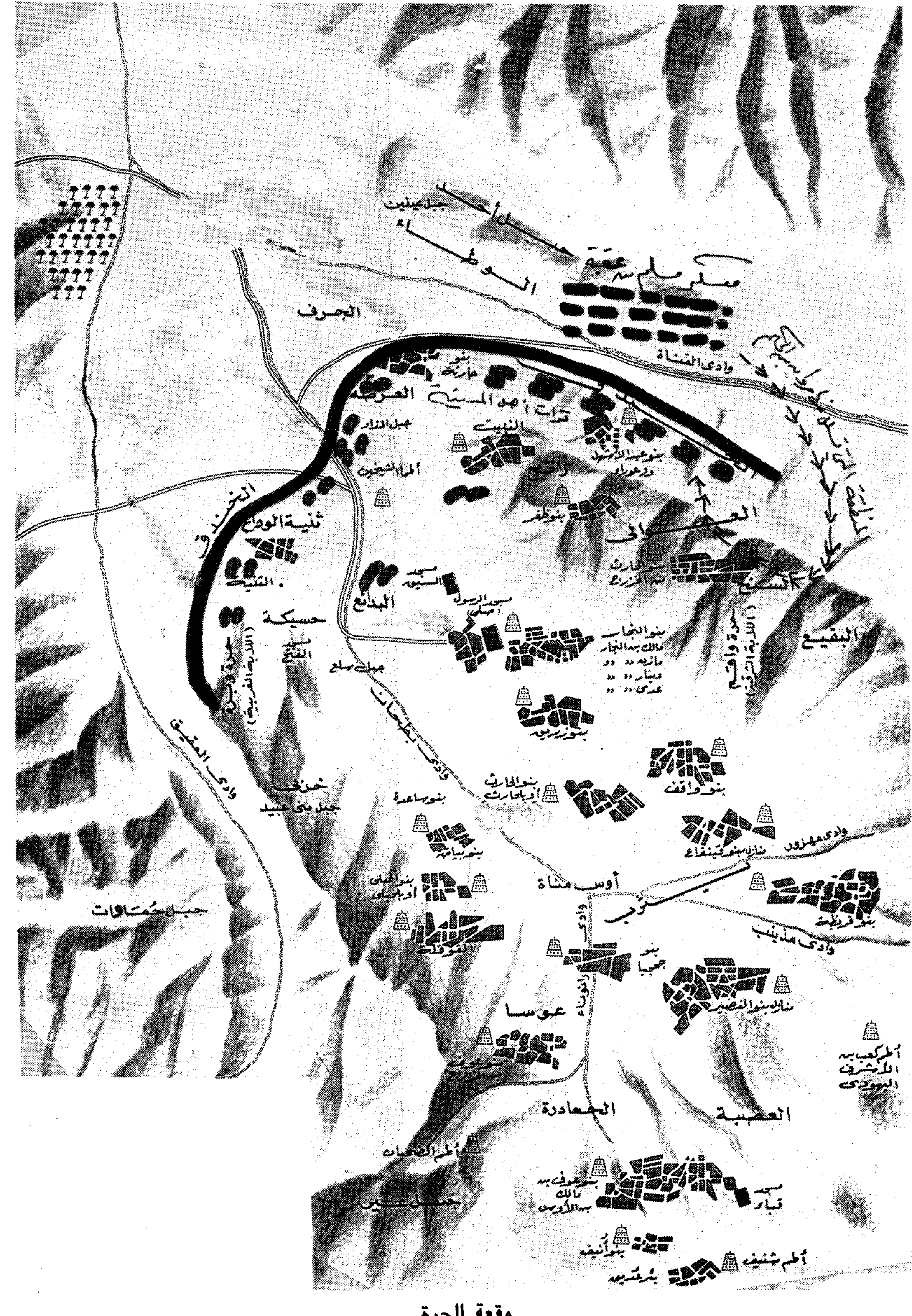
١) الطبري ٤٨٨/٥.

٢) الطبري ٤٨٩/٥.

أن انتصف النهار حتى أصبحت المقاومة ضئيلة لاتذكر. حتى إذا مالت الشمس إلى الجهة الغربية لم يعد يظهر من المقاوميين أحد، منهم من استشهد، ومنهم من أثخنته الجراح، ومنهم من استأسر، ومنهم من نجا إلى البيوت والشعاب. وانتشر جند مسلم بن عقبة في أنحاء المدينة واتجهوا إلى دار الإمارة، ودخلها مسلم ومن معه، وسارت مجموعات من الجند تفتش عن بقية المقاتلين ومن اختبأ منهم. وأذن مسلم لجنده أن يقتلوا كل من يشكون في أنه كان من المقاومين، وأن ينهبوا المال الذي يريدون، فانطلق عتاتهم يعيثون فساداً. وذعر الناس ذعرا شديداً، فلم يسبق لمدينة رسول الله ﷺ أن رُوعت هذه الروعة، حتى المشركون الذين جاؤوها يوم أحد لم يدخلوا أحياءها، ولم يقتلوا الآمنين من أهلها، ولم ينهبوا مال أحد. وحاول بعضهم أن يفر إلى شعاب الجبال ولكن منظر الجنود في الشوارع كان يخيفهم ويجعلهم يلوذون بعقر دارهم.

وخرج أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله ﷺ من بيته، فوجد الشارع خاليا فمر منه إلى طريق يفضي الى خارج المدينة، ووصل الى شعب فيه كهف فرآه أحد جنود الشام فتبعه حتى دخل عليه الكهف، فلما أحس به أبو سعيد استل سيفه ليخيفه فأشرع الجندي سيفه وهجم على أبي سعيد، فرد أبو سعيد سيفه وهتف متمثلا بالآية الكريمة (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) فبهت الجندي وتوقف وقال له: من أنت لله أبوك؟ فقال: أبو سعيد الخدري. فقال الشامي: صاحب رسول الله ﷺ. فقال أبو سعيد: نعم، فارتخت يدا الجندي عن السيف واسترجع، وأمن أبا سعيد، ثم انصرف عنه.

وأقبل مساء ذلك اليوم ليكون أظلم يوم مر على المدينة المنورة، فالجثث متناثرة بالمئات على منافذ المدينة وفي خندقها وفي بعض شوارعها، ومن بقي حياً مختبيء في عقر بيته أو في شعب قريب، واللاجئون الى بيوت بني


جبل عينين
الجرف
وادي القناة
العرصة
ثنية الوداع
حسيكة
البدائع
جبل سلع
وادي بطحان
وادي العقيق
جبل حماوات
البقيع
بنو واقف
وادي مهزور
أوس مناة
بنو قريظة
وادي مذينب
بنو ساعدة
عوسا
العصبة
جبل عير
مسجد قباء
بنو أنيف
أطم شنيف

وقعة الحرة

حارثة - وقد نودي بالأمان فيهم - كثيرون، والجند يترصدون الناس وينهبون مايرونه من طعام ومال وسلاح، وأصوات الثكالى واليتامى تختنق بعبراتها تخاف - إن علا بالنواح - أن يقتحم عليهم الجند الباب فيقتلون وينهبون.. وخلا المسجد النبوي من أهل المدينة، بينما تزاحم فيه الأمويون ورجال عقبة، وهبط الليل فتوقفت الحركة بعد صلاة العشاء وهدأ كل شيء..

مجزرة في مجلس ابن عقبة:

في اليوم التالي لم يكن هناك أي قتال، ولم تظهر في شوارع المدينة أية حركة، فكل قابع في بيته ينتظر ماسيحدث، وجنود عقبة يتجولون ويفتشون عن الذين أمر مسلم بن عقبة باحضارهم من أهل المدينة. وانتقل مسلم بن عقبة إلى قباء وبدأ يعطي الأمان لبعض الناس ويستقدمهم ليأخذ منهم البيعة بذل وصغار، فقد طلب من الناس أن يعطوا البيعة على أنهم عبيد للخليفة يزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم مايشاء، وأظهر قسوة شديدة ولم يقبل أي مراجعة أو تراجع، وجمع عدداً من أهل المدينة في مجلسه والجند حوله ، وجيء برجلين من قريش، هما يزيد بن عبد الله بن زمعة ومحمد بن أبي الجهم، فقال لهما: بايعا على أنكما أعبد ليزيد. فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال مسلم: لاوالله لاأقيلكم هذه أبداً، وأمر بضرب أعناقهما على الفور، وكان مروان بن الحكم جالساً فنهض إلى مسلم غاضباً وقال: سبحان الله، أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فتضرب أعناقهما، فنخس مسلم بن عقبه مروان بن الحكم بقضيب كان في يده

وقال له: وأنت والله لو قلت بمقالتهما مارأيت السماء إلا برقة(١) فطارت قلوب الحاضرين رعباً، وجيء بيزيد بن رهب فقال له: مسلم بايع على أنك عبد لأمير المؤمنين يزيد، فقال زيد: أبايع على سنة عمر. فقال مسلم اقتلوه فهلع زيد وقال: أبايع. فلم يمهله مسلم بل قال: لاوالله لاأقيل عثرتك، ووثب مروان بن الحكم ثانية الى مسلم بن عقبة يتشفع لزيد مادام قد رضي أن يبايع كما يريد مسلم، ولكن مسلم أبى وصرخ بحرسه أن يجأوا في عنق مروان ويخرجوه، فوجئت عنقه وقتل زيد. وطارت قلوب أهل المدينة فزعاً، فسارعوا يبايعون بالصيغة التي يريدها مسلم، وعادوا إلى من وراءهم يخبرونهم بما رأوه من طغيان مسلم وتجبره، وينصحونهم أن يخرجوا إليه ليبايعوا على الوجه الذي يريده، ففعل بعضهم وأمسك بعضهم الآخر ينتظر أن تهدأ فورة القتل.

كان مسلم بن عقبة مهتاجاً من آثار المعركة، فقد قتل عدد من جنده مقابل الآلاف الذين قتلوا من أهل المدينة، وكان المرض يدب فيه فيزيده حدة وشراسة وأرسل جنده ليأتوه بصديقه القديم معقل بن سنان، وكان معقل أحد قادة المدافعين عن المدينة وقد نجا من القتل، فجاؤوا به فأظهر له الود والتكريم وأمر أن يسقى عسلا بالثلج، فلما شرب معقل واطمأنت نفسه وظن أنه أخذ الأمان قال له مسلم: أما والله لاتشرب بعدها شراباً حتى تشرب من شراب الحميم. فقال له معقل بن سنان: أنشدك الله والرحم. فلم يصغ له، وذكره بحديثه معه في الشام عندما وفد على يزيد وخرج من عنده متوعداً

---

١) الطبري ٥/٤٩٢.

بخلع البيعة ثم أمر به فقتل(١) واستمر مسلم في ملحمة القتل هذه حتى قتل كل من قدر عليه من قادة الثورة وصناديدها، وعفا عمن أعطى بيعة العبودية دون أية مجادلة أو تحوير، وبدأت نفسه تهدأ، وأرسل الى علي بن الحسين فجاءه علي خائفاً مما سمعه من بطشه، ومشى اليه بين عبد الملك وأبيه مروان حتى جلس امامه، ولم يكن علي بن الحسين يعلم بوصية يزيد فيه، فطمأنه مسلم ، ثم أخبره بوصية يزيد، ورفع مجلسه إلى جانبه، ثم أذن له أن ينصرف مكرماً الى أهله ليهدأ فزعهم(٢)ومر اليوم الثالث على هذه الشاكلة، وفرغ مسلم من أخذ بيعة الذل من الناس، وخف القتل والنهب، حتى إذا غربت الشمس نادى المنادي بالأمان وبمنع الجند من أن يقتتلوا أحداً أو ينهبوا شيئاً.

وهكذا عاشت المدينة المنورة أقسى ملحمة دموية في تاريخها وقتل من كرام أهلها أعداد كثيرة اختلف المؤرخون في إحصائها، فقد ذكر ابن كثير أن عدد القتلى: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من الموالي والأحرار والعبيد(٣) وذكر المسعودي أنه قتل من سائر قريش بضع وتسعون، ومن الأنصار مثلهم، ومن سائر الناس أربعة آلاف(٤).

دروس وعبر من الملحمة:

وأيا كانت الرواية الصحيحة(٥) فإنها أقسى مأساة وأوجعها في تاريخ

---

١) الطبري ٥/٤٩٢.

٢) الطبري ٥/٤٩٤.

٣) البداية والنهاية ٨/٢٢٤.

٤) مروج الذهب ٣/٧٠.

٥) استقينا أحداث وقعة الحرة من: الطبري ٥/٤٨٢-٤٩٥ والكامل: ٣/٣١٠-٣١٥ والبداية والنهاية: ٨/٢٢٠-٢٧٧، والعجيب أن ابن خلدون لم يذكر الحادثة إطلاقاً. وقد اختلفت الأقوال في قضية إباحة المدينة. فالطبري يسوق روايتين- الرواية الأولى طويله مفصلة وراويها الرئيسي أبو مخنف وفيها أن يزيد أوصى

المدينة المنورة، بل لانجد لها مشابهاً في مأسي المسلمين حتى ذلك التاريخ. ولئن كان التاريخ يذكر ليزيد أنه حاول جاهداً إطفاء الفتنة في المدينة دون إراقة الدماء حتى فى آخر لحظة قبل المواجهة، فإنه يذكر بكل حسرة إباحته المدينة للجند يقتلون وينهبون ثلاثة أيام متوالية، وليس في قواعد الحرب الإسلامية مايجيز ذلك. لقد أخطأ يزيد في هذه، وأسرف مسلم بن عقبة في بطشه حتى سماه بعض المؤرخين مسرف بن عقبة. والمدهش أن مسلم بن عقبة لم ير فيما فعله خطأ أو إثماً لسوء تقديره للأمور وسوء فهمه للشريعة، حتى إنه قال، فيما تروي كتب التاريخ، قبل وفاته: اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أحبّ إلي

مسلماً بإباحة المدينة ثلاثة أيام إذا أصر أهلها على القتال. وفيها أيضاً أن الإباحة كانت في المال والممتلكات الأخرى، وأما الرواية الثانيه فهي عن أحمد بن زهير عن أبيه عن وهب بن جرير عن جويريه بن أسماء وهي رواية مقتضبة وليس فيها مايدل على استباحة المدينة البته. وقد نقل ابن الاثير رواية الطبري الأولى بتصرف قليل - وذكر فيها استباحة الأموال والامتعه. وأما ابن كثير فقد نقل في البداية والنهاية روايات عدة منها رواية عن المدائني تشير الى استباحة الجند للنساء (٨/٢٢٤) . وهذه رواية غير صحيحه لانجد لها أي أثر في المصادر القديمه الموثوقه. وقد حقق الأستاذ حمد محمد العرينان القضيه وناقش الروايات وتتبع أصولها وخرج بنتيجة تبين كذبها وتثبت أن المصدر الرئيسي لهذه الرواية هو كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وهو كتاب لم تَصُحّ نسبته إليه وفيه روايات كاذبة كثيرة، ورغم أن هذه الوقعة مؤلمة لكل مسلم، فإن قضية استباحة النساء أكذوبة كبيرة ظهرت في كتابات متأخرة وغير موثوقة، وأقصى مايمكن أن يتصوره الباحث المحقق أن بعض جند الشام نهبوا بعض الأموال والامتعة من أهل المدينة.

أنظر كتاب: إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاويه بين المصادر القديمة والحديثة للدكتور حمد محمد العرينان، ط٢ مكتبة ابن تيميه - الكويت ١٤٠٨هـ.

من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة(١). فقد كان يرى في الثائرين من أهل المدينة خارجين على الطاعة تحل دماؤهم، ويرى في الإسراف في قتلهم تأديباً لمن خلفهم.

وكذلك أخطأ الذين تعجلوا بالثورة وخلع الطاعة، فما كانت لديهم مسوغات شرعية كافية، وما كانت لديهم القدرة على مواجهة قوة الدولة، وما تصرفوا ببعد نظر كي يحموا المدينة من المأساة الدامية التي وقعت.

سلسلة من الأخطاء أصبحت درساً من دروس التاريخ، نذكرها لالتجدد الآلام ولا لندين أحداً، ولا لنستنزل اللعنات على هذا وذاك، إنما نذكرها لأنها جزء من التاريخ، وليس لنا أن نغيّب التاريخ ولو كان دامياً. وعسى أن تكون عبرة نستفيد منها ونتعلم أن نحتكم دائماً الى مايقوله الشرع في العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وقد لخص ابن تيمية العبرة من هذا الدرس فقال في كتابه منهاج السنة (فإذا تولى خليفة من الخلفاء كيزيد وعبد الملك والمنصور وغيرهم، فإما أن يقال يحق منعه من الولاية بالسيف، وهذا رأي فاسد، فإن مفسدته أعظم من مصلحته، وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا وكان ماتولد على فعله من الشر أعظم مما تولد على الخير، كالذين خرجوا على يزيد في المدينة فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا، والله تعالى لايأمر بأمر لايحصل به صلاح الدين ولاصلاح الدنيا، وكان أفاضل الناس ينهون عن الخروج والفتنة والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن حسين وغيرهم ينهون عام الحرة عن

---

١) الطبري ٤٩٧/٥.

الخروج على يزيد)(١).

وينقل ابن كثير عن المدائني أن يزيد بن معاوية عندما بلغه أخبار موقعة الحرة قال: واقوماه، ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له: ترى مالقي أهل المدينة ، فما الذي يجبرهم. قال الضحاك الطعام والأعطية. فأمر يزيد بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطياته(٢) ولعل هذه الرواية أقرب إلى سياسة معاوية ويزيد، فإنهما كانا يرأبان الصدع ويصلحان بالأعطيات ماأفسدته السيوف، ولعل قوافل الطعام قد وردت حقاً إلى المدينة بعد تلك المأساة ومعها صرر المال للقريب والبعيد، وعاد الأمويون إلى دورهم، فيما كان مسلم بن عقبة يجمع جنوده ويخرج من المدينة إلى مكة ليقاتل عبد الله بن الزبير، ويولي على المدينة روح بن زنباع.

ولم يكن روح بن زنباع في قسوة مسلم بن عقبة، لذلك راح يتألف الناس ويوزع عليهم ما وصله من غلال وأعطيات، ولم يلبث أن جاء الخبر إلى المدينة بموت مسلم بن عقبة في المشلل قبل أن يصل إلى مكة واستخلافه على جيشه الحصين بن عمير السكوني، وأن الجيش تابع مسيره إلى مكة، وكان عدد من أهل المدينة قد خرج الى مكة قبل وصول جيش مسلم إما للحج وإما لخوفه من عواقب الصدام، فلما وقعت واقعة الحرة ظلوا في مكة واعتصموا فيها حتى حاصرهم الجيش الشامي.

مكثت المدينة هادئة تتحسر على رجالها الذين فقدتهم إلى أن جاء الخبر في آخر ربيع الأول بموت يزيد بعد أقل من ثلاثة أشهر من الفاجعة، ثم تلاه خبر انسحاب الجيش الذي يحاصر مكة وعودته إلى المدينة في طريقه إلى الشام، عندئذ انفرج شيء من الكرب الذي في نفوسهم وظهر ماكان يخبئه الخوف من الشماتة والتغيظ على الأمويين وجيشهم، ولكن يبدو أن الفاجعة قد

---

١) منهاج السنة ٢٤١/٢

٢) البداية والنهاية ٢٣٧/٨.

طوت بين القتلى أولئك الذين يهبون للانتقام، ويحملون راية التمرد والثورة، ومن بقي من أهل المدينة أضنتهم المأساة وجعلتهم لايفكرون في القتال ثانية.

المدينة بلا أمـير:

وأدرك أهل المدينة أن شأن بني أمية قد تضعضع في الشام فقد ولي الأمر بعد يزيد ابنه معاوية، وكان معاوية هذا ضعيفاً مريضاً ولم يلبث أن مات بعد أربعين يوماً من خلافته. وجاءت الأخبار أيضاً أن أهل البصرة بايعوا عبد الله ين زياد ثم طردوه. وأن أهل خراسان بايعوا مسلم بن زياد ثم طردوه، ومع ذلك لم ينهض أحد لمجابهة الأمويين، واكتفوا بالتجرؤ عليهم في الطرقات والأسواق، ولما وصل الجيش العائد من مكة، عسكر في ظاهر المدينة تحسباً من أن ينال أهل المدينة منهم غيلة، وكان أفراد الجيش إذا دخلوا المدينة ليشتروا شيئاً من أسواقها سمعوا منهم مالا يسرهم، حتى إن قائد جيشهم الحصين بن نمير خشي ألا يجد علفا لخيولهم، فاستضافه علي بن الحسين وقدم له المعونة التي يحتاجها. ثم زادت جرأة أهل المدينة عليهم فكانوا إذا وجدوا رجلا منهم منفرداً هجموا عليه، وأخذوا بلجام دابته ورموه من فوقها ومضوا بها ، فخاف الجنود وأصبحوا لايفارقون معسكرهم، وإذا اضطروا ساروا مجموعات يحمي بعضهم بعضاً. ولكن لم يذهب أهل المدينة أبعد من هذا فلم يغتالوا أحداً من الجند، وكانوا قادرين على ذلك، ولم يغدروا بهم، فلا أحد من الناجين أو أبناء المقتولين يعلم من هو غريمه من أولئك الجند، ولم تعد قضية الثأر العام سارية فيهم، لذا كان كل انتقامهم تخويف الجند وأخذ الخيول أو الجمال التي يركبونها إن انفردوا بهم ، جزاء وفاقاً لما نهبوه منهم من قبل. وخاف الأمويون في المدينة من ازدياد جرأة أهلها عليهم بعد انتشار الأخبار عن ضعضعة الخلافة في دمشق، وأن ينصب انتقامهم عليهم، لأن بعضهم نكث بالعهد الذي أعطاه سابقاً وقاتل مع جيش الشام ضد أهل المدينة. لذلك ما أن علم الأمويون أن الحصين بن نمير

سيرحل بالجيش إلى الشام حتى تعلقوا بهم وقالوا لهم (لاتبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام) وخرج الجيش من ظاهر المدينة وخرج معه روح بن زنباع الأمير الذي عينه عقبة بن مسلم، كما خرج معظم الأمويين الذين كانوا يسكنون المدينة، ولم يبق فيها إلا من عرف أنه لم يعاد أحداً ولم يقاتل أحداً كابناء عائشة بنت عثمان بن عفان، ولم يتعرض أهل المدينة لهؤلاء بسوء، فالخلق العالي الذي عرفوا به جعلهم أكرم وأسمى من أن يعاقبوا بريئاً.

بقيت المدينة بلا أمير أياماً قليلة، والناس يتحدثون في المسجد والمجالس عن تحررهم من البيعة للأمويين، فلم يأخذ منهم أحد البيعة لمعاوية بن يزيد، ومات معاوية ولم يوص بالخلافة لأحد، ولم يعد في الساحة إلا عبد الله بن الزبير الذي بايعه أهل مكة ومن لجأ إليها. وكاتبه أهل الكوفة والبصرة بالبيعة، وبايعه أهل مصر..

المدينة تتحول إلى ابن الزبير:

بعد أيام قليلة من رحيل الجيش الأموي وصل عبيد الله بن الزبير شقيق عبد الله بن الزبير، فصعد المنبر وخطب في الناس وطلب منهم أن يبايعوا لأخيه عبد الله، فليس للمسلم أن يكون بلا بيعة، وعبد الله بن الزبير أحق الناس بالبيعة، فقام الناس اليه وبايعوا لعبد الله بن الزبير.

وبدأ عبيد الله بن الزبير إدارة المدينة باسم أخيه عبد الله بن الزبير، وكان أول مافعله أن أمر من بقي من الأمويين في المدينة بالخروج منها كي لايبقى لهم فيها نفوذ على الإطلاق، ولم يكن قد بقي منهم الا المسالمون فخرجوا إلى فلسطين والشام.

ومكثت المدينة هادئة تتسقط الأخبار القادمة من الأمصار وما يجري فيها من نزاع بين الأمويين وخصومهم حول الخلافة.. وعادت القوافل التجارية لتجد في أسواق المدينة أمناً يروج تجارتها. وجاء موسم تلك السنة وافراً، فهبطت أسعار الغلال وبخاصة بعد أن قل عدد سكان المدينة، حتى إن التجار حملوا

منها قوافل إلى مكة وإلى الشام التي أضنتها حروب المتصارعين. ومضت شهور قليلة واستدعى عبد الله بن الزبير أخاه عبيد الله أمير المدينة، وولى مكانه جابر بن أسود بن عوف (ابن أخي عبد الرحمن بن عوف). وجاءت الأخبار بأن مروان بن الحكم قد بايعه أهل الشام والأردن وأنه هزم خصومه، ومد نفوذه إلى مصر، وأنه أعد جيشاً لاستعادة المدينة وضمها إلى طاعته بقيادة حبيش بن دلجة. وتذكر الناس دماء الحرة وآثارها السيئة، واضطربوا لها وكلموا الأمير أن يطلب العون من عبد الله بن الزبير ليحمي المدينة من فاجعة جديدة، أو يخرج منها مع رجاله فلا تقع حرب ولاتسفك الدماء، وتوالت الأخبار بأن حبيشاً قد اقترب من المدينة، ولم يستطع جابر بن الأسود بن عوف أن يجمع مايكفي لمواجهته، ولم يتحمس أهل المدينة للقتال، ولم يصل إليه الجيش الذي أعده عبد الله بن الزبير، لذا آثر أن يجنب المدينة القتال، فخرج منها مع رجاله القليلين. وعلم حبيش بذلك فغذ السير إلى المدينة ودخلها بجيشه فلم يلق أحداً يقاومه، وأغلق الناس عليهم أبوابهم إلا نفر قليل لقوا حبيشاً ورحبوا به. وتقول بعض الروايات أن حبيشاً كان صلفاً، وأنه أراد أن يغيظ أهل المدينة ويذلهم لاعتقاده بأنهم قعدوا عن نصرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذهب إلى المسجد النبوي وجلس على المنبر، والناس ينظرون إليه، ثم طلب من حرسه أن يأتوه بالطعام، فجاؤوة بخبز ولحم فأكله وهو على المنبر، ثم أكل تمراً، وأخذ يقذف النوى في وجه الناس وهم ينظرون إليه لايقدرون على شيء، ثم دعا بماء وتوضأ وهو على المنبر، وقال للناس: إني أعلم أن هذا ليس بموضع أكل، ولكنني أحببت أن أذلكم

لخذلانكم أمير المؤمنين عثمان. فكرهه الناس(١)وما إن استقر حبيش في المدينة حتى جاءه النعي بموت مروان بن الحكم، وتلاه خبر بأن جيشاً لعبد الله بن الزبير قد خرج من البصرة إلى المدينة ليقاتله، فآثر حبيش أن يخرج إلى جيش عبد الله بن الزبير قبل أن يدهمه في المدينة ورحل بجيشه شرقاً، فسر أهل المدينة لخروجه وابتعاد شبح الحرب عن مدينتهم الآمنة. ولما علم عبد الله بن الزبير بخروج حبيش أرسل عباس بن سهل بن سعد على رأس قوة أخرى وأمره أن يسلك الطريق إلى المدينة ويطارد جيش حبيش ويأخذه من خلفه، وجاء عباس بن سهل بن سعد إلى المدينة، وتزود بالمؤنة لجيشه، ثم تابع سيره في مطاردة حبيش، فلقيه عند الربذة، ودارت معركة قصيرة قتل فيها حبيش وتشرد أصحابه، وهرب أكثر من خمسمئة رجل منهم عائدين إلى المدينة، فدخلوها وتحصنوا بها، وخاف أهل المدينة أن يعود القتال إلى ساحاتهم، ولم يكونوا يملكون من الأمر شيئاً، وكانت قلوب معظمهم مع ابن الزبير يتمنون انتصار جيشه. ومالبث جيش عباس بن سهل أن عاد إلى المدينة وحاصر المتحصنين فيها من جيش ابن دلجة فاستسلموا، فضرب أعناقهم. وفرح أهل المدينة بهزيمة ابن دلجة وحيوا قاتله، وتمسحوا بثيابه البيض حتى اسودت وصبوا عليه الطيب فرحاً بقتل حبيش بن دلجة(٢)وعاد عبيد الله بن الزبير إلى المدينة أميراً، ولكن سرعان ماجاء كتاب عبد الله بعزله وتولية أخيه الأصغر مصعب بن الزبير.

قدم مصعب إلى المدينة وقد برم أهلها بالأحداث التي تمر بهم. فالصراع بين الأمويين والزبيريين يمر بأرضها دون أن تكون لها جريرة فيه، وكل من يدخلها يطلب من أهلها البيعة والنصرة، ويأخذ خراج الأرض والمزارع، وما هي بقليل ،ولم يحمل أحد إليها شيئاً من الأعطيات التي كانت تأتيها سابقاً.

---

١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/٤٤.

٢) الطبري ٥/٦١٢.

فلما جاء مصعب خفف عن أهلها الخراج، وكان مصعب كريماً فأعطى من جاءه من أهلها وأكرم الهاشميين، وتزوج سكينة بنت الحسين، وكان رضياً حسن المعاملة، فأحبه أهل المدينة، ولكن الأحداث المضطربة لم تتركه فيها، اذ ظهرت الفتن الكثيرة في العراق، وعلى رأسها فتنة المختار الثقفي الكذاب، فأرسل عبد الله بن الزبير إلى أخيه مصعب أن يعجل الرحيل إليها ليتولى أمرها ويستخلف على المدينة عبد الرحمن بن الأشعث.

وكان ابن الأشعث رجل حرب وشدة أكثر منه رجل إدارة وإمارة، لذا اجتهد في أن يكون ولاء أهل المدينة لابن الزبير كاملاً ولم يعف أحداً من البيعة، ولما بلغه أن سعيد بن المسيب متوقف لايعطي البيعة لأحد، وأنه يرى الفتنة ماتزال في المسلمين وأن الخليفة الحقيقي غير موجود، غضب وأمر بإحضاره وحاول أن يحمله على البيعة ، فأبى سعيد، فأمر بضربه فضرب ستين سوطاً، وأمر حرسه فطافوا به في أنحاء المدينة. وذهب الخبر الى عبد الله بن الزبير فغضب عبد الله لأنه يعرف مكانة التابعي الجليل سعيد بن المسيب، وخشي إن بقي ابن الأشعث على إمارة المدينة أي يقسو على من فيها من التابعين. لذلك عزله عن الإمارة وأعاد إليها جابر بن الأسود بن عوف الزهري ابن أخي الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، الذي عرفته المدينة من قبل والياً لمدة بسيطة، والذي حقن الدماء فيها عندما جاء جيش ابن دلجة إليها.

صراع على أطراف المدينة:

وفي هذه الأثناء كادت المدينة أن تقع ضحية لصراع سياسي آخر بين عبد الله بن الزبير والمختار الثقفي الذي ثار في العراق واستولى على جزء كبير منه. فقد كانت عيون المختار الثقفي تتطلع إلى المدينة لمعان كثيرة ، ففضلا عن مكانتها الكبيرة في قلوب المسلمين يمكن أن تكون منطلقاً لمواجهة عبد الله بن الزبير وإنهاء سيطرته على الحجاز، وإذا دخل أهل

المدينة في طاعته فسيكون ذلك تمهيداً لطلبه الخلافة. وكان المختار يعلن أن ثورته انتصار لآل البيت، ويرسل كتب الطاعة إلى محمد بن الحنفية في المدينة، ويجتهد في تتبع قتلة الحسين ويقتل من يصل إليه. وقد بعث إلى محمد بن الحنفية برأس عمر بن سعد قائد الجيش الذي قتل الحسين ورأس ابنه حفص بن عمر(١) وهو يأمل أن يبارك ابن الحنفية عمله، ويعلن أنه قائم باسم أهل البيت، فيلحق به الناس على طاعته لأهل البيت، وربما ينتهي إليه أمر الخلافة ذاتها، غير أن محمد بن الحنفية لم يكن يثق بالمختار، لذلك لم يعلن رضاه عنه. وعندما وجه عبد الملك بن مروان جيشاً لاستخلاص الشام وآخر لاستخلاص المدينة أحس المختار بالخطر، فمصعب بن الزبير في البصرة يتربص به، وجيش عبد الملك قادم إليه، لذا رأى أن يوادع ابن الزبير لينفرد بجيش عبد الملك، فكتب إلى عبد الله بن الزبير يوادعه ويعرض عليه أن يرسل إليه جيشاً للدفاع عن المدينة المنورة ضد جيش عبد الملك بن مروان الذي وصل إلى وادي القرى وخيم فيها، فوافق عبد الله بن الزبير على عرض المختار شريطة أن يعلن المختار طاعته لأبن الزبير ويعطي البيعة، فأرسل المختار جيشاً إلى المدينة المنورة بقيادة شرحبيل بن دوس وأمر قائده أن يمضي إلى المدينة دون توقف، فإذا دخلها واحتلها فليمكث فيها حتى يأتيه أمر جديد من المختار، وكان المختار يريد أي يدعو فيها لنفسه ويخلصها من طاعة ابن الزبير.

حملت هذه الأخبار مزيداً من القلق إلى أهل المدينة، إذ لم تكد المدينة تلتقط أنفاسها من كر ابن دلجة وفره، ومن قتل أتباعه ودخول جيش ابن الزبير ، حتى يأتي جيش المختار، وقد سبقت أخبار هذا الجيش وبطشه إليهم، وكان معظم أفراده من موالي الكوفة وما حولها، ولاذ بعضهم بمحمد بن الحنفية يسأله أن يدفع عنهم شر المختار الكذاب، وطلبوا من أمير المدينة

---

١) الطبري ٦/٦٢.

أن يحتاط للأمر. ولكن مالبثت الأخبار أن وردت إلى المدينة بأن الله قد دفع الشر عنهم قبل أن يدهمهم، فقد أرسل عبد الله بن الزبير جيشاً بقيادة العباس بن سهل ليلتقي بجيش المختار ويكشف حقيقة نواياه، فأسرع العباس بن سهل بجيشه حتى التقى بجيش المختار قبيل المدينة، وقابل قائده شرحبيل بن دوس وحاول أن يثنيه عن دخول المدينة ويقنعه بالتوجه معه إلى وادي القرى، فأبى شرحبيل فكاد له العباس، وأراه أنه اقتنع برأيه وشغل جيشه بالطعام، وفاجأ شرحبيل والجنود المحيطين به ففتك بهم ثم أعطى الأمان للآخرين، فانفرط عقد جيش المختار واستسلم معظمه وهرب الآخرون.

وتنفس أهل المدينة الصعداء وأيقنوا أن المختار سيشغل بنفسه وبمدافعة خصومه الآخرين عن المدينة المنورة، وهذا ماكان، فقد غضب المختار غضباً شديداً لهزيمة جيشه، ورغب في أن ينتقم له، وأرسل كتاباً الى محمد بن الحنفية في المدينة وبين له فيه أنه أرسل جيشه السابق لنصرته، وليحوزوا البلاد له، واستأذنه في أن يرسل جيشاً آخر إلى المدينة على أن يبعث ابن الحنفية رسله، ويعلن لهم أن جيش المختار يقاتل تحت طاعته وباسمه، فأبى محمد بن الحنيفة ورد عليه برسالة يحثه فيها على طاعة الله وحقن دماء المسلمين، ويخبره أنه مصر على اعتزال الفتنة، فاسقط في يد المختار، ولم يبادر التحرش بالمدينة.

ضيــق في المديـنة:

كان أهل المدينة يطمحون أن تتحسن أحوالهم وقد ابتعدت عنهم الفتن، وأن تنشط تجارتهم وتتحسن زراعتهم ويأتيهم العطاء الوفير، وقد فرحوا لاسقاط الخراج عن أراضيهم الزراعية مدة من الوقت، ولكن لم يتحقق لهم من طموحهم ذاك شيء في هذه السنوات. فلم يكن للبلاد التي دخلت في طاعة عبد الله بن الزبير وارد خارجي يأتيها، ولم تكن له قادة يضربون في الأرض فتحاً ويرسلون إليه بالغنائم والفيء، ولم يكن عبد الله بن الزبير نفسه ممن يرون

سياسة الناس بالعطاء الوفير على نحو ماكان يفعله بعض بني أمية، وصادفت سنوات من القحط، واضطربت قوافل التجارة التي تحمل الحنطة من الشام بسبب الجيوش المتحاربة في الأطراف، فعاد الضيق يلوح بشبحه عليها ، واضطر أمير المدينة بعد أن شحّ خراج التجارة أن يعيد خراج الأرض ليدفع رواتب الشرطة والأئمة والمؤذنين والخدم في المساجد، وكان الذين يقصدون الإمارة أو الخليفة عبد الله بن الزبير نفسه طامعين في شيء من العطاء يعودون خائبين، فعبد الله بن الزبير في مكة حريص على أموال بيت المال، والإمارة لاتجد فضلاً تنثره على هذا وذاك، لذلك بدأ التململ يظهر على الناس، وبدأت الأخبار التي ترد عن شدة ابن الزبير تؤثر في نفوسهم. وعندما عاد حجاج المدينة من مكة عام ٦٧هـ قصوا على الناس كيف حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته في زمزم لأنه امتنع عن مبايعته بالخلافة، وهدده بالحرق والقتل وأمهله مدة من الوقت، وكاد ينفذ تهديده لولا أن جاءت مجموعات من جند المختار وخلصته، وكادت أن تبطش بعبد الله بن الزبير، ولكن ابن الحنفية منعهم من القتال في الحرم، وخرج من مكة. هذه الأخبار وأمثالها بدأت تؤثر في أهل المدينة، وانضاف اليها ما أصابهم من ضيق بسبب اضطراب القوافل التجارية في السنتين التاليتين، ثم سنة من القحط، لذلك خفت حماستهم لعبد الله بن الزبير، وأصبحوا غير مبالين أن تبقى المدينة في طاعته أو تخرج عنه إلى غيره، لأنهم في جميع الأحوال لايريدون الفتنة ولا إراقة الدماء.

ولم يستطع أمير المدينة جابر بن أسود أن يخفف من هذا الشعور أو أن يمنع الناس من الحديث به. وازداد الأمر اضطراباً بعد أن وردت الأخبار بمقتل مصعب بن الزبير في العراق على يد جيش أهل االشام، وتوقع الناس أن يرسل عبد الملك جيشاً آخر إلى المدينة ليخلصها من عبد الله بن الزبير.

الخوارج يهددون المدينة:

جاءت الأخبار في سنة تسع وستين أن أحد قادة الخوارج في العراق (نجدة الخارجي) قد توجه إلى المدينة بجيشه، ففزع أهل المدينة، واستعدوا له بالسلاح، وأشاع نجدة الخارجي أنه يريد أن ينتصر لأهل المدينة من الأمويين ويساعد ابن الزبير، ولكن الأخبار التي تتردد عن فتك الخوارج بالناس، ورفضهم الانصياع لغير مذهبهم، جعل أهل المدينة لايثقون بمايشاع، ويعدون لقتاله ، وعلم نجدة الخارجي باستعداد أهل المدينة ويئس من تحييدهم، فعدل عن السير إليها واتجه الى الطائف، فتنفس أهل المدينة الصعداء إلى حين.

أمير زبيري مسالم:

غير أن هذه الحادثة زادت من إحساسهم بضعف موقف عبد الله بن الزبير، وبعدم وجود قوة تحمي خلافته، وأحس عبد الله بن الزبير بضعف مكانته في المدينة وعجز أميرها عن أن يصنع شيئاً فعزله وولى عليها طلحة بن عبدالله بن عوف في عام واحد وسبعين للهجرة ، وكان طلحة آخر أمراء ابن الزبير على المدينة.

أدرك طلحة أن أمر عبد الله بن الزبير آخذ بالتقلص، لذلك لم يحمل المدينة عبء الدفاع عنه، وعلم أن عبد الملك بن مروان قد أعد جيشاً بقيادة طارق بن عمرو ـ مولى عثمان بن عفان سابقاً ـ لانتزاع المدينة من حكم عبد الله بن الزبير وأخذ البيعة من أهلها له، ورأى أن أهلها ليسوا قادرين، وليسوا راغبين في مقاتلة الجيش القادم، لذلك آثر أن يحقن دماء الناس فيها وأن يمنع الحرب في ساحتها، فمازالت حكايات الحرة تدمي القلوب، فجمع أهله ومواليه وخرج من المدينة إلى مكة.

المدينة تعود إلى الأمويين:

دخل طارق بن عمرو في جيش صغير ليعلن نهاية سلطة آل الزبير في المدينة المنورة وعودة السلطة الأموية وليأخذ البيعة من الناس لعبد الملك بن مروان الذي دانت له الشام والعراق ومصر وتقدمت جيوشه إلى الحجاز.

ولا شك أن الله أراد بالمدينة خيراً إذ جاءها طارق بن عمرو ودخلها بسلام وأمان، فقد كان وراء طارق قائد آخر أرسله عبد الملك لمحاربة عبدالله بن الزبير يبطش بطشاً مريعاً، هو الحجاج بن يوسف الثقفي . فلما دانت المدينة بهدو لطارق بن عمرو، أمر عبد الملك الحجاج أن لايدخلها وأن يأتي مكة من طريق الطائف. فاتجه الحجاج شرقاً إلى طريق العراق ثم انعطف جنوباً إلى الطائف ومنها نزل لحصار مكة. وحفظ الله المدينة من حصار مدمر لايعلم - إلا هو - ماكان يحدث لأهلها لو دخلها حرباً.

وبقدوم طارق بن عمرو طوت المدينة فصل آل الزبير وولاتهم، وبدأت فصلا جديداً تعيش فيه في ظل بني أمية ثانية، ولكن في ظل الفرع المرواني هذه المرة، بدأت بالخليفة عبد الملك بن مروان الذي ولد في المدينة المنورة ثم أبنائه إلى أن تغرب شمس الأمويين.

المدينة في ظل المروانيين:

رغم أن دخول طارق إلى المدينة كان هادئاً، وكأنه وعد للمدينة أن تعود إليها سكينتها السابقة أو ماشابهها، فإن العاصفة التي كان يديرها الحجاج في مكة قد بعثت تهديداتها للمدينة المنورة، فقد اقتحم الحجاج مكة على عبد الله بن الزبير بعدما رماها بالمنجنيقات وهدم أجزاء من الكعبة، ثم قتل عبد الله بن الزبير وصلبه في مكة إلى أن جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إلى الحجاج تسأله أن يترجل الفارس العابد من صَلبه، فأنزله الحجاج وقطع رأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم وأرسلها إلى المدينة، فنصبت فيها حيناً من الوقت لتكون نذيراً لمن يخرج عن الطاعة، ثم

حملت إلى الشام(١).

وسرعان ماوصلت توابع ذلك النذير، فقد عزل عبد الملك بن مروان طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وضمها الى الحجاج إضافة لمكة والطائف، وأمره أن يجعل المدينة مركز إمارته.

وقدم الحجاج في مطلع عام ٧٤ للهجرة فأقام فيها شهراً ثم خرج إلى مكة معتمراً، وعاد إليها وبدأ يأخذ أهلها بالشدة، فمنع الصحابة رضوان الله عليهم من الخروج من المدينة، واتهم بعضهم بأنهم من الذين تخاذلوا عن نصرة عثمان، رغم أنه مضت على فتنة مقتل عثمان ثلاثون سنة، ويروى الطبري أن الحجاج أرسل إلى الصحابي سهل بن سعد فقال له: مامنعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان. فقال له سهل: قد فعلت. فقال الحجاج: كذبت، ثم أمر فختم عنقه برصاص(٢) كما ختم عنق مالك بن أنس وختم يد جابر بن عبد الله فاغتم الصحابة.

اغتم أهل المدينة بعامة لهذه الأحقاد التي لم تطفئها السنوات المتوالية، والتي تصيب برذاذها من لم يكن له مشاركة في الفتنة.

كان الحجاج مقتنعاً بأن الصدع الذي أصاب الأمة الاسلامية منذ ولاية يزيد لايرأب إلا بالحزم والشدة، وأن أي مخالفة لأولي الأمر لابد أن تعالج على الفور، وبالسيف إن اقتضي الأمر، وكانت لشدته هذه آثار كثيرة تحدث عنها المؤرخون فقد ظلم من ظلم، وسفكت دماء طاهرة، ولكن الدولة عادت إلى تماسكها الذي كانت عليه أيام معاوية. ودانت المدن والأمصار لعبد الملك بن مروان.

ولم تكن المدينة بحاجة إلى الشدة التي أبداها الحجاج، لأنها أصبحت بعد وقعة الحرة أقرب إلى الاعتزال، لاتحارب قادماً عليها ولا تطرد مقيماً

---

١) الطبري ١٩٢/٦-

٢) الطبري ١٩٥/٦.

فيها، وقد تناوب عليها ولاة ابن الزبير ومروان بن الحكم دونما قتال، وجاءها طارق دون قتال، والحجاج نفسه وصلها وقد بايع أهلها بسلام، ولم يجد مسوغاً لضرب الأعناق وإراقة الدماء على نحو مافعل بعد ذلك في الكوفة، لذلك كانت شدته وإهانته لبعض الصحابة في غير محلها.

إستمرت إمارة الحجاج على المدينة سنتين، وكانتا سنتين حالكتين، لم تبتهج المدينة فيهما قط، فالأعطيات مقطوعة عن أهلها إلا من قصد الخليفة، وقل من يقصده. وعاشت المدينة على مواردها الخاصة، وضبطت أمورها بحزم الحجاج وخوف الناس منه، واشتغل الناس بالزراعة والصناعة والعلم وكان فيها عدد من كبار العلماء كعروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وأنس بن مالك وغيرهم.

وفي ربيع الأول عام ٧٥ للهجرة انفرجت الشدة شيئاً ما في المدينة، فقد حمل البريد رسالة من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره بترك المدينة والتوجه إلى العراق، حيث اشتد فيها أمر الخوارج وكادوا يغلبون عليها قائده المهلب بن أبي صفرة، وأصبح أمرهم يحتاج إلى من يبطش بهم. فأسرع الحجاج في عدد من رجاله وخرج إلى الكوفة وترك أمر المدينة ليحيى بن الحكم بن أبي العاص على نحو ما أمره الخليفة.

كان يحيى بن الحكم بن أبي العاص عم الخليفة مروان بن الحكم، ويبدو من أخباره القليلة أنه كان هادئاً ميالا إلى الملاينة وفيه رقة، وعندما أمره عبد الملك أن يقتل عمرو بن سعيد الأشدق رفض قتله، ولكنه كان يتخوف من أحفاد علي في المدينة ويبث العيون ليراقبوا بيوتهم ويرصدوا زوارهم، وبخاصة العراقيين القادمين من الكوفة، الذيم مافتئوا يستنهضون أبناء الحسن والحسين للخروج على الأمويين ويعدونهم النصرة والقتال معهم. ولكن أبناء الحسن والحسين لم يكونوا يثقون بهم، وقد كاد يحيى بن الحكم أن يوقع بالحسن بن الحسن بن علي في مجلس عبد الملك، اذ اتهمه بأن العراقيين

يكثرون الوفادة عليه ويمنونه بالخلافة، ولكن الحسن بن الحسن بن علي رد عليه بقوة، فأعرض عبد الملك عما قاله يحيي(١)كانت إمارة يحيى على المدينة قصيرة لم تتم السنة، وكانت فترة راحة لأهلها بعد الشدة التي لاقوها من الحجاج، ولكنهم أيضا لم ينعموا بشيء مميز ولم تأتهم عطايا جديدة، وقد حاول بعض الصحابة أن يغيروا موقف عبد الملك من المدينة وأن يحملوه على فرض العطاءات لأهلها فرفض، وكان يكرم من يفد عليه فقط. فقد وفد عليه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله وقال له: يا أمير المؤمنين إن المدينة حيث ترى، وهي طيبة سماها النبي ﷺ، وأهلها محصورون، فان رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل. فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه (وكان جابر قد كف بصره) وهو لايدري بإعراض عبد الملك، فأومأ قبيصة (صاحب ديوان عبد الملك) إلى جابر أن يسكته، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال له: يا أبا عبد الله: إن هؤلاء القوم صاروا ملوكاً. فقال جابر: أبلى الله بلاء حسناً فإنه لاعذر لك وصاحبك يسمع منك. فقال قبيصة: يسمع ولا يسمع، ما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة آلاف درهم فاستعن بها على زمانك(٢).

وجاء عبد الملك في هذه السنة إلى المدينة ونزل في دار أبيه، ومكث أياماً قليلة ثم ذهب إلى الحج وعاد اليها بعد فراغه من الحج، وخطب على منبرها، وقام بعده خطيب من حاشيته فذم أهل المدينة واتهمهم بأنهم أهل الخلاف والخروج على الطاعة، وبأنهم يسيؤن الظن بالخليفة وأهل بيته، وذكرهم بما فعلوه يوم الحرة، وشبههم بالقرية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) فرد ابن عبد

---

١) نسب قريش ٤٧ - ٤٨.

٢) الطبقات الكبرى ٥/٢٣١.

(أحد التابعين من أهل المدينة) على الخطيب وكذبه، وكاد الحرس أن يبطشوا به ولكن عبد الملك عفا عنه وأكرمه(١).

لذلك لم يكن بمقدور يحيى بن الحكم أن يصنع شيئاً لأهل المدينة، وربما يكون لينه هو ما أفادهم بعد شدة الحجاج، وتتهمه بعض المصادر بالحمق، ويبدو أنه لم يحسن فهم شخصية ابن أخيه عبد الملك واهتمامه بهيبة الخلافة، فخرج من المدينة إلى دمشق دون أن يستأذن الخليفة، وفوجيء به عبد الملك فسأله: ما أقدمك علي بغير إذني؟ ومن استعملت على المدينة. فقال يحيى: أبان بن عثمان بن عفان. فقال عبد الملك: لاجرم، لاترجع إليها. وأمر أن يكتب إلى أبان بإقرار إمارته وبعزل يحيى عمه. وبذلك بدأت إمارة أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

المدينة في إمارة أبان بن عثمان بن عفان:

كان أبان أحد فقهاء التابعين، وأحد المفتين في المدينة(٢)، وكان مقرباً من الأمويين لأنه ابن عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان ظريفاً، وفيه على علمه وفضله حب للدعابة، دون أن يقلل ذلك من مكانته وقوة شخصيته. ويذكر له أهل المدينة موقفه من مسلم بن عقبة حينما رفض أن يدله على عورات المدينة قبيل وقعة الحرة حتى كاد مسلم أن يبطش به، لذلك كان أهل المدينة يحبونه. وكان أبان رجل علم وثقافة وأدب، فهو أول من ألف في السيرة النبوية، ويعد من أهل الحديث أيضا، لذلك كانت فترة إمارته فترة نشاط علمي وثقافي جم، خاصة وأن من بقي من الصحابة الكرام أصبحوا طاعنين في السن يرحلون إلى جنب الله واحداً تلو الآخر، وقد حرص طلاب العلم من جيل التابعين على أن يأخذوا من الصحابة الكرام ما يستطيعونه ويدونونه. وكان أبان واحداً من أولئك قبل أن يتولى الامارة، فلما تولاها اجتمع في مجلسه

---

١) الطبقات الكبرى ٢٣١/٥.

٢) الطبقات الكبرى ٣٨٣/٢.

العلماء والمحدثون والأدباء والظرفاء. ورغم أن إمارة أبان قد استمرت على المدينة ست سنوات من (٧٦ - ٨٣هـ) فان كُتاب التاريخ لم يحفظوا لنا شيئاً ذا بال من تلك السنوات، فقد دأب المؤرخون على أن يرصدوا الأحداث الكبيرة أو القاتمة، ويتجاوزوا الفترات التي تخلو منها، أو يذكرونها باقتصاب شديد. وكل مانجده من أخباره هو أنه حج بالناس عدة مرات خلال سنوات إمارته، وأن عبد الملك حج في إحداها وكذا ابنه سليمان بن عبد الملك. ولا نجد شيئا عن أحوال المدينة . وبينما خلت كتب التاريخ من أخبار المدينة في هذه الفترة عمرت بعض كتب الأدب بالأخبار الظريفة عن أبان بعامة، وهي أخبار - إن صحت - تبين ظرف أبان وميله للدعابة مع سماره، وتظهر الهدوء والاستقرار اللذين عما المدينة في عهده، كما تظهر انصراف الكثيرين إلى حلقات العلم والأدب في المسجد النبوي وغيره.

عزل أبان عام ٨٣هـ، ولم يتول أمر المدينة أو أمر ولاية أخرى بعدها رغم أنه عاش الى ١٠٥ هـ، ولاتذكر المصادر التاريخية سبباً لعزله، وربما يكون السبب أن أبان قد استغرق في الحركة العلمية النشطة، وأن عبد الملك أراد أن يكون أميرها أكثر انهماكاً في القضايا الإدارية والأمنية، فالمدينة مركز أحفاد علي، وما تزال عيون العراقيين ترنو اليهم، وربما يكون السبب مجرد رغبة في تغيير الولاة، أو تولية والد زوجته هشام بن اسماعيل إمارة هادئة ذات مكانة وسمعة. وقد خرج أبان بن عثمان من إمارة المدينة دون أن يسجل له التاريخ شيئاً سوى تلك الأخبار الأدبية.

المدينة في امارة هشام بن اسماعيل:

وجاء خلفه هشام بن إسماعيل المخزومي - وكانت ابنته زوجة عبد الملك بن مروان - وقد سمى عبد الملك ابنه منها باسمه (هشام) وكانت لهذه الزوجة مكانة في نفسه تعزز مكانة أبيها، فقد استمرت ولاية هشام بن اسماعيل على المدينة المنورة حتى وفاة عبد الملك.

وكان هشام بن اسماعيل إدارياً ناجحاً، يتفقد بنفسه الأسواق ويراقب التجار، ويقف على صاحب الحسبة ويتتبع أموره بدقة. وقد أحدث لأهل المدينة مكيالا أكبر من المكيال الذي كانوا يبتاعون فيه، نسب إليه فسمي مدّ هشام، وقد جعل الإمام مالك كفارة الظهار به لأنه المد الأعظم(١) ووصفه الزبيري بأنه كان مُسَدداً في ولايته(٢) ومن المتوقع أن تكون المدينة قد شهدت في عهده المزيد من التنظيم والضبط في أسواقها ومواردها وخراجها وشرطتها وأمنها، ولكنها شهدت أيضاً شيئاً من القسوة على آل علي وآل الزبير، إذ كان هشام ينفذ تعليمات عبد الملك بن مروان بشدة وصرامة، والمعروف عن عبد الملك أنه كان يراقب بحذر شديد خصومه السياسيين أو من يمكن أن يجتمع الناس عليهم من دونه. وقد كتب إلى هشام أن يلعن عليا وعبد الله بن الزبير على المنابر، فكان هشام ينال منهما في خطبه فيتأذى الكثيرون من ذلك، وتطور الأمر عندما غضب عبد الملك لأخبار جاءته عن الأسرتين، وأراد أن ينتقم منهما، فأرسل إلى هشام يأمره بأن يحمل آل الزبير على لعن عبد الله بن الزبير وآل علي على لعن علي، فأرسل إليهم هشام يأمرهم بذلك، فرفضوا، واشتد عليهم، فأصروا على رفضهم ولو أدى بهم الأمر إلى القتل، وكتبوا وصاياهم، فجاءت أخت هشام - وكانت امرأة عاقلة -وحاولت أن تقنعه بمراجعة عبد الملك في الأمر، فرفض هشام مراجعة الخليفة، فاقترحت عليه حلاً وسطاً: أن يأمر آل علي بشتم آل الزبير وآل الزبير بشتم آل علي، فأخذ بنصيحتها، وجاء بالحسن بن الحسن بن علي وأوقفه في المسجد عند المنبر وأمره أن يسب آل الزبير فرفض الحسن وضرب حتى سال دمه، فقام عبد الله بن محمد بن علي (أبوه محمد بن

---

١) انظر الموطأ ٢٨٤.

٢) نسب قريش ٢٨٣.

الحنفية) وقال له: أنا دونه أكفيك أيها الأمير في آل الزبير وشتمهم(١)، وحبس بعض آل الزبير لذلك.

وعندما أرسل إليه عبد الملك أن يأخذوا البيعة لولديه الوليد وسليمان بالخلافة من بعده أخذها من الناس بسهولة، اذ أن أهل المدينة قد تعلموا من الدرس القاسي الذي لقوه أيام معاوية أن لايترددوا في إعطاء البيعة، لذا لم يتردد أحد من أهل المدينة بإعطاء البيعة غير التابعي الجليل سعيد بن المسيب، وكان سعيد أحد الذين امتنعوا عن إعطاء البيعة لابن الزبير من قبل، وضربه جابر بن الأسود ستين سوطاً، فالرجل صاحب رأي وموقف، لذلك عندما رآى هشام بن اسماعيل أن سعيد بن المسيب يماطل في إعطاء البيعة أمر بضربه ستين سوطاً وأن يطاف به في أنحاء المدينة ، فلم يزده ذلك إلا إصراراً على موقفه، واستعد لمواجهة الموت ثم في وضع في السجن، فلما بلغ عبد الملك ما أصابه كتب إلى هشام يلومه على ماصنعه بسعيد ويقول له: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولاخلاف(٢).

أفاد أهل المدينة من هشام في الضبط الاداري، فقد كانت مدة امارته هادئة، استمر فيها الناس بأعمالهم اليومية وبطلب العلم، ولكن بعضهم حملوا في نفوسهم لقسوته على آل علي وعلى سعيد بن المسيب رضي الله عنهم جميعاً.

انتهت إمارة هشام بعد وفاة عبد الملك، وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، فقد عزله الوليد وولى عمر بن عبد العزيز. وتروي بعض المصادر أن الوليد قد بلغه قسوة هشام على أهل المدينة فأمر أن يوقف للناس ليستوفي كل من ظلمه من ظلامته، وكان هشام يخاف من آل علي أن يقتصوا منه،

---

١) نسب قريش ٤٨.

٢) الطبقات ١٢٦/٥.

وبالذات من علي بن الحسين بن علي، وكان يقول: لا والله ما كان أحد من الناس أهم إلي من علي بن الحسين. ولكن علي بن الحسين كان مثال الرجل الزاهد العابد، والمحتسب ما يلاقيه عند الله، فعندما بلغه عزل هشام وإيقافه للناس جمع أبناءه وحاشيته وقال لهم: ان هذا الرجل قد عزل، وأُمر بوقفه للناس، فلا يتعرض له أحد منكم. فقال له ابنه عبد الله بن علي: يا أبت ولم؟ والله إن أثره عندنا لسيء، وما كنا نطلب إلا مثل هذا اليوم. فقال علي بن الحسين: نكله إلى الله. فلم يعرض له أحد من آل الحسين، فلما انتهى إيقافه رأى هشام علي بن الحسين ماراً فناداه معجباً بخلقه الرفيع (الله أعلم حيث يجعل رسالته)(١)وبانتهاء أيام هشام بن اسماعيل بدأت مرحلة جديدة في تاريخ المدينة المنورة ، مرحلة متميزة في الحقبة الأموية كلها، مرحلة إمارة عمر بن عبد العزيز وذلك سنة ٨٧ للهجرة.

المدينة في إمارة عمر بن عبد العزيز:

بدأ عمر بن عبد العزيز إمارته على المدينة بعمل تردد في أنحائها وهز الناس فيها، وجعلهم يدركون لأول وهلة أن هذا الأمير يختلف كل الاختلاف عن الأمراء الأمويين الذين سبقوه. فقد تناقل أهل المدينة أن أميرها الجديد عمر بن عبد العزيز قد وصل في قافلة من ثلاثين بعيراً تحمل أهله وحاجاته، ونزل دار مروان بن الحكم - دار الإمارة - وجاء الناس للسلام عليه، فلما صلى الظهر في المسجد النبوي وعاد إلى مجلسه، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وخلا بهم وهم: عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وأخوه عبيد الله وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت. ويمثل هؤلاء العشرة معظم قبائل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار والموالى بما فيهم آل علي بن أبي طالب

---

١) الطبقات الكبرى ٥/٢٢٠.

وآل الزبير، وكان هذان الفرعان مغضوباً عليهما من قبل، وكان هشام بن إسماعيل قد آذاهما كما مر بنا قبل قليل. وعندما دخل أولئك العشرة على عمر بن عبد العزيز وسلّموا عليه تكلم عمر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال لهم: إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لاأريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم. فان رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج على من بلغه ذلك إلا أبلغني(١).

كانت كلمات عمر بن عبد العزيز مفاجأة كبيرة لمن حضر، ولمن سمع بها من أهل المدينة بعد ذلك، فلم يعهد أحد من قبل أن يأتي أمير أموي لناس من أهل المدينة فيستشيرهم على هذا النحو، وليسوا من عصبة الأمويين، ولم يعهد أحد من قبل أن يلتفت الأمير إلى الفقهاء بالذات، فهؤلاء أجرأ على قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد كانوا دائماً بعيدين عن الصراعات السياسية، منشغلين بالعلم طلباً وتعليماً، ولايقولون في شيء إلا إذا استشيروا، لذلك من المدهش أن يتخذ الأمير منهم حاشيته وأن يجعلهم مستشاريه، ثم أن يحرج عليهم أن يكونوا كالمحتسبين يبلغون عن أي ظلم يقترفه موظف من موظفي الدولة في هذه الإمارة، فهم اذن سلطة مراقبة فضلا عن كونهم جهة استشارة مسموع رأيها. ثم إن هؤلاء العشرة يمثلون معظم العناصر السكانية في المدينة، ففيهم من آل علي من أبي طالب محمد بن القاسم، ومن آل الزبير عروة بن الزبير، ومن أبناء القرشيين المهاجرين أبنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومن أبناء الأنصار خارجة بن زيد وسليمان بن خيثمة، ومن الموالي سليمان بن يسار. ولم يجتمع قط هذا التنوع والمشاركة في فئة استشارية لأمير من أمراء المدينة من قبل، ثم ان وجود ممثلين من الفرعين الهاشمي والزبيري يعني أن عمر يريد أن يطوي صفحة الغضب

---

١) البداية والنهاية ٧٦/٩.

والخوف والإهانة، ويجمع الناس على سيرة حميدة.

ولم يكتف عمر بهؤلاء، بل كان يرسل دائماً إلى سعيد بن المسيب التابعي الجليل يستفتيه ويأخذ برأيه، وكان يعرف عزلة سعيد وتجنبه مخالطة الأمراء، لذلك لم يطلب منه الحضور بل ذهب إليه بنفسه. ولئن دهش أهل المدينة لهذا التصرف العجيب للأمير الشاب فان الذين عرفوا عمر من قبل لم يدهشوا، ذلك أن عمر تلقى العلم من صغره في المسجد النبوي، فقد كان أبوه والياً على مصر فبعثه إلى أخواله في المدينة - وهم أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ليدرس على فقهائها وليتربى في جوها العلمي الحافل، ووكل به الفقيه المحدث صالح بن كيسان، فأحسن صالح رعايته وتأديبه، وجعله يتلقى عن شيوخ القراءات والفقه والتفسير والحديث، فضلا عما كان يفيض به عليه من علم وأدب. وقد ظل عمر بن عبد العزيز في المدينة إلى أن توفي أبوه، فطلبه عمه مروان بن عبد الملك إلى دمشق وخلطه بأولاده، وزوجه ابنته فاطمة لما رآه من دينه وخلقه وعقله.

وما إن مات عبد الملك وتولى ابنه الوليد الخلافة، وبلغه مابلغه من شدة هشام، حتى عزل هشام وولى عمر بن عبد العزيز لما عرفه فيه من صفات. لذلك لم تكن المدينة وأهلها غريبة عن عمر، ولم يكن تقديمه للعلماء والفقهاء وجعلهم بطانته الأولى إلا من أثر تربيته في المدينة. ولقد هدأت النفوس في المدينة بولاية عمر، واجتمع إليه الهاشميون وكانوا يزورونه في مجلسه، وكان يجلس معهم في المسجد، كما اجتمع إليه الزبيريون والقرشيون والموالي الذين كثر عددهم في المدينة. وكان زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش المخزومي أحد المقربين عنده، وكان زياد هذا نموذجاً للتقوى والزهد وحسن

المعاشرة (١) ولاشك أن هذا التنوع قد كسر حدة العصبية الأموية والعربية التي كانت تشهدها إمارة المدينة في مجالسها السابقة.

بدأ عمر يهتم بأمور المدينة الإدارية كلها، وكان يذهب بنفسه إلى سوقها ويتفقد الحركة التجارية فيه، وقد ولى أمر السوق رجلاً من الفقهاء الكبار هو سليمان بن يسار، وهو من رصفاء سعيد بن المسيب في الفقه والعلم، وجعل له داراً قريبة منه ليأتيه أصحاب القضايا وليضبط فيها المكاييل والموازين. واهتم بشوارع المدينة وثناياها. وقد ساعده على ذلك أن الخليفة الذي ولاه مولع بالعمران والإصلاح، وقد حضه على إجراء أكبر قدر من الاصلاحات في المدينة، وأن يمهد الثنايا والمرتفعات في طريق الناس، وأن يجر الماء إلى الأحياء. فاشتغل عمر بذلك بنشاط فائق، واستنهض البناة والعملة، وكان يطوف عليهم بنفسه ويتفقد عملهم ويجزل لهم العطاء.

تجديــد المسجد النبوي وتوســعته:

ولم تمض سنة على إمارة عمر بن عبد العزيز حتى جاءه أمر الخليفة الوليد باعادة بناء المسجد النبوي وتوسعته، وقد ساقت المصادر التاريخية عدداً من الروايات تبين سبب هذا الأمر، وتركز على ضم الحجرات إلى المسجد، وقد تخير السمهودي من هذه الروايات ما يدل على أن الوليد بن عبد الملك كان هدفه الأول من التوسعة ضم الحجرات إلى المسجد النبوي، ونزع بيت فاطمة من يد أحفاد علي رضي الله عنه، لأن الحسن بن الحسن بن علي كان يقيم فيه، وربما يأوي إليه من يغريه بالخروج على الخليفة(٢) غير أن القراءة المتفحصة للروايات تبين أن مرور الزمن قد أثر على بناء المسجد،

---

١) الطبقات الكبرى ٣٠٦/٥.

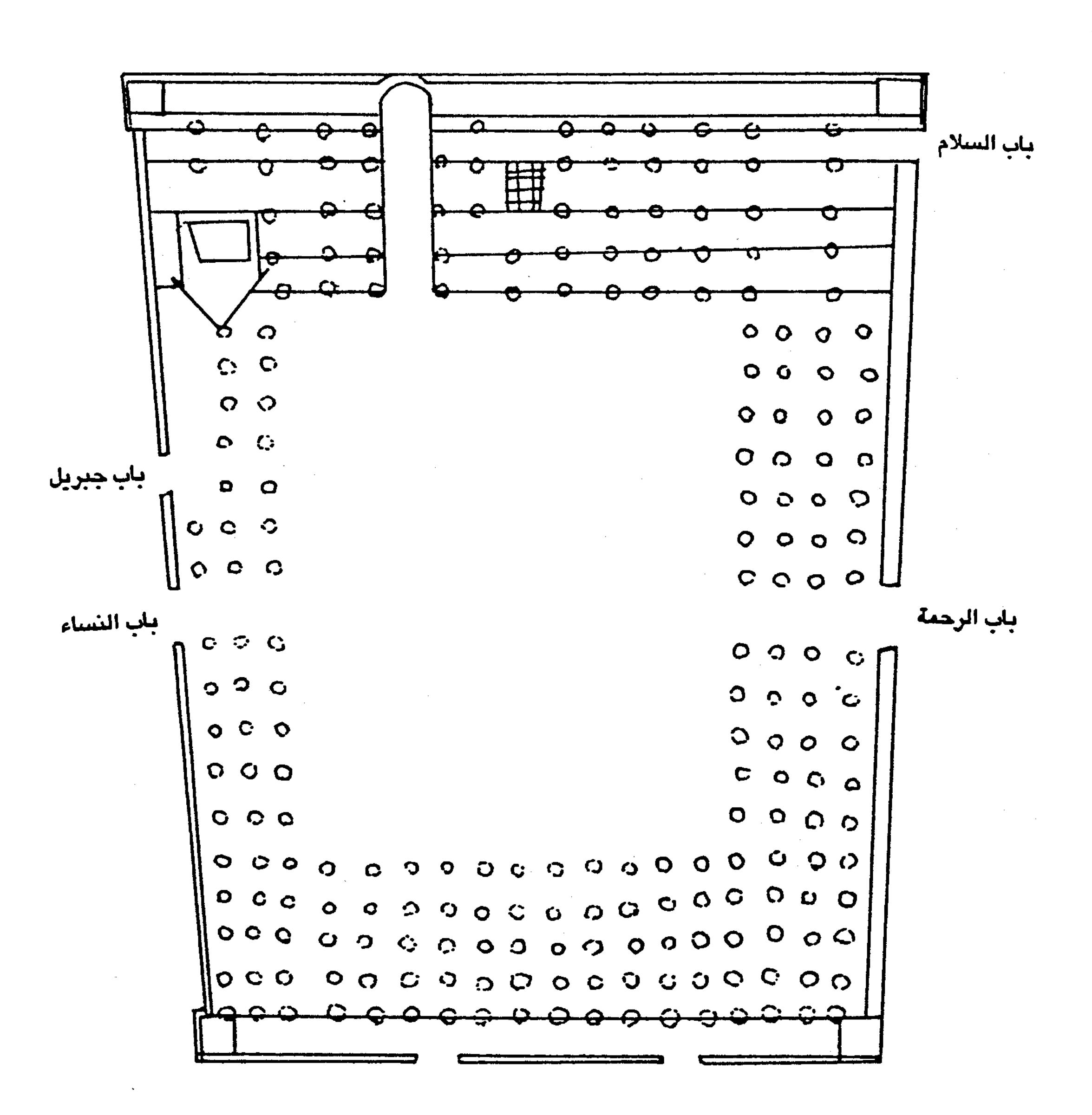
٢) انظر وفاء الوفاء ٥١٣/٢ ومحمد الوكيل ، المسجد النبوي عبر التاريخ ١١٣.

وأن الجدار القائم بجوار قبر رسول الله ﷺ قد سقط(١) والمعروف أن القبر كان في حجرة عائشة رضي الله عنها، وهي متصلة بالحجرات الأخريات بجدر متصلة، لذلك من المعقول جداً أن يكون سقوط هذا الجدار هو الذي دفع الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز إلى هدم الحجرات، التي بنيت قبل خمس وثمانين سنة، وضمها إلى المسجد. واهتمام الوليد بن عبد الملك بالعمران معروف في سيرته، حتى لقد سمي: مهندس بني أمية، ومن إنجازاته العمرانية: المسجد الأموي بدمشق ومسجد الصخرة في القدس. لذلك من كان فضل الله أن يجتمع اهتمام الوليد بالعمران وولاية عمر على المدينة في وقت واحد ليبدأ تجديد المسجد النبوي وتوسيعه.

ولما وصل البريد بأمر الخليفة بالتوسعة جمع عمر بن عبد العزيز أصحاب البيوت التي ستدخل في التوسعة، وقرأ عليهم رسالة الخليفة، وبين لهم فوائد التوسعة، فتنازلوا عن دورهم وأخذ بعضهم ثمن داره، ورفض بعضهم الآخر أخذ الثمن. وثمة روايات متضاربة تبين أن الفقهاء العشرة الذين كان عمر يستشيرهم نصحوا عمر بعدم إدخال الحجرات في المسجد وتركها لتكون عبرة للناس تعلمهم الزهد والتواضع، في زمن يتطاول الناس فيه بالبنيان، وأن عمر كتب الى الخليفة برأيهم فلم يرضه الخليفة، وأرسل يؤكد على ادخال الحجرات في المسجد، فتوجه عمر بن عبد العزيز مع مجموعة من حاشيته وبدأ مع العمال والفعلة بنقض البناء القديم والتأسيس للبناء الجديد، وولى أمر الإشراف على هذا العمل الجليل أستاذه صالح بن كيسان، ووصل إلى المدينة عدد من العمال الروميين الذين طلبهم الخليفة من الإمبراطور البيزنطي، وكانت العلاقات بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية حسنة، فأمد الإمبراطور البيزنطي الخليفة بمئة ألف مثقال ذهب ومئة عامل وأربعين حملا

---

١) انظر طبقات ابن سعد ٢/٣٠٧.



● المسجد النبوي بعد توسعة الوليد وإدخال الحجرات فيه عام ٨٨ ـ ٩١ هـ/ ٧٠٧ ـ ٧١٠ م

المصدر: المسجد النبوي عبر التاريخ

من الفسيفساء(١) كما استقدم الوليد عمالا قبطاً من مصر، لما عرف عنهم من شهرة في البناء. وبذل عمر في بناء المسجد النبوي جهوداً هائلة، وأنفق كل مايستطيع إنفاقه من مال، وعندما ارتفعت الجدران وبدأ العمل في السقف استحضر النقاشين المهرة، فأخذوا بتزيينه من الداخل وكسوته بالفسيفساء. وقد استمر العمل في المسجد ثلاث سنوات كاملة فلم يفرغ منه فراغاً كاملاً إلا سنة احدى وتسعين.

ولعل السبب في تأخر البناء كل هذه المدة اجتهاد عمر في أن يكون المسجد غاية في القوة والجمال. فقد عمل الأساس من الحجارة الصلبة وعمقه، ورفعت الجدران بأنواع من الحجارة المنقوشة المطابقة، وهذا النقش يستلزم قدراً من الوقت، وبنيت الأعمدة التي تدعم الجدران وتحمل السقف من حجارة ضخمة مجوفة وصب بداخلها الرصاص. أما السقف فصنع من الخشب الساج - وهو نوع من الخشب الصلب - وطلي بماء الذهب، وزين جانب من الجدران والسقف بالمرمر والفسيفساء. وكان عمر يراقب العمل يومياً، ويكافيء العمال المحسنين وبخاصة أولئك الذين يتفننون في صنع لوحات الفسيفساء فيعطي من يحسن عمل الشجرة الكبيرة ثلاثين درهماً مكافئة. وعندما وصل البناء إلى موضع الإمام استحدث عمر المحراب، ودعا وجوه المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار والعرب الآخرين والموالي ليحضروا بناء القبلة، فجعل لاينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً(٢) ثم أمر ببناء المقصورة وتزيينها وزخرفة سقفها. وقد أنفق عمر على جدار القبلة وحده خمسة وأربعين ألف دينار(٣).

وعندما انتهى البناء عزم الخليفة الوليد بن عبد الملك على الحج. فخرج عمر بن عبد العزيز في عشرين رجلا من قريش ليلاقوه في ظاهر المدينة.

---

١) الطبري ٤٣٦/٦.

٢) وفاء الوفاء ٥٢٠/٢.

٣) الطبري ٤٣٥/٦.

وكان أول مافعله الوليد حين وصوله المدينة التوجه الى المسجد النبوي لينظر في بنائه، وأخرج الناس منه ولم يبق فيه إلا التابعي الجليل سعيد بن المسيب الذي كان يلازم المسجد النبوي ولايجرؤ أحد على إخراجه، فطاف الوليد بالمسجد وأعجب بعمارته وأثنى على جهود عمر بن عبد العزيز، وود لو أنه أنفق المزيد على تزيينه ليكون مفخرة من مفاخر المسلمين في العمران. وكان الوليد قد أحضر في قافلته عطوراً ثمينة ليطيب بها المسجد، فوضع الطيب في أنحائه، وعلقت حبال في أحد أطرافه نشرت عليها كسوة جديدة للكعبة ليراها الناس، ثم طويت وحملت إلى مكة(١).

أغدق الوليد على أهل المدينة العطايا، ووزع عليهم قسطاً من غنائم الفتوحات التي توالت في عصره، فوزع عليهم من السبايا والرقيق وآنية الذهب والفضة والنقد شيئاً كثيراً لم يوزع مثله منذ عهد بعيد(٢)وكان أهل المدينة ينعمون برعاية عمر بن عبد العزيز وضبطه الأمور وحسن سياسته، وقد اكتتب عدد من شبابها في الجيوش المنطلقة للجهاد في بلاد الروم والترك، وبلغ ما خرج منها في حملة واحدة ألفا مجاهد، وكان بعضهم يفوز بالشهادة، وبعضهم يرجع بما أفاء الله عليه من الغنائم والعطاء. فعادت إلى المدينة نضارتها، وراجت التجارة فيها وانتشر البنيان، وكان الميسورون يبنون في العقيق قصوراً فخمة، ومن هم دون ذلك يبنون في أحياء المدينة وأطرافها بيوتاً كثيرة. وقد منع عمر بن عبد العزيز المراقبة التي كان يفرضها أسلافه على آل علي وآل الزبير ومن والاهم. وبلغ من عدالته أن والد زوجته ابراهيم بن محمد بن طلحة كان يجلس معه عندما يجلس للخصوم، فتعرض إبراهيم للخصوم بشيء فطلب عمر من زوجته أن تنهى أباها، فلما لم ينته وتكرر منه التعرض عدة مرات طلق عمر امرأته كي لايكون زواجه منها سبباً لشيء من

١) الطبري ٦/٤٦٧.

٢) الطبري ٦/٤٦٦.

الظلم(١)٠

المدينة بلدة الأمن والعدالة:

انتشرت الأخبار عن حالة المدينة هذه، فقصدها الكثيرون ممن يعيشون جواً مضطرباً أو شيئاً من الضغط، وبخاصة بعض العراقيين الذين كانوا يلقون عنتاً من الحجاج بن يوسف الثقفي، فأصبح الخائف والقلق والكاره لحكم الحجاج يرحل إلى المدينة، فيجد فيها السكينة والطمأنينة. فيقيم فيها بعضهم، وينتجع آخرون الطائف أو مكة. وسرعان ماتجمع في المدينة ومدن الحجاز الآخرى عدد من اللاجئين العراقين وبعضهم ممن يطلبه الحجاج، والتقى بعضهم بعمر بن عبد العزيز وشكوا إليه مايجدونه من شدة الحجاج وتضيقه عليهم دون وجه حق، فكتب عمر بن عبد العزيز بذلك إلى الوليد بن عبد الملك، واقترح عليه أن يعزل الحجاج أو يأخذ على يده.

وبقدر ماكان هذا اللجوء إلى المدينة شهادة لعمر بن عبد العزيز بحسن سياسته فيها وللمدينة بالأمن والعدالة، كان بداية لتغير الخليفة على واليه، فعلى الرغم من ثقة الوليد الكبيرة بعمر بن عبد العزيز نجحت الرسائل التي أرسلها الحجاج إليه، والتي يحتج فيها على حماية عمر بن عبد العزيز للخارجين عليه، نجحت في إثارة الخليفة ، وقد وصف الحجاج اللاجئين إلى المدينة بأنهم (من مراق أهل العراق، وأهل الشقاق) وزعم أن هذا الأمر يوهن الدولة ويجرىء الناس عليها(٢) وما لبثت أن جدت حادثتان كانتا السبب في نهاية هذه الفترة العمرية من حياة المدينة المنورة٠

الحادثة الأولى : أراد الخليفة الوليد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويعطيها لابنه عبد العزيز، فأرسل يشاور ولاته في الأمصار ويتحسس مدى استجابتهم لذلك وإمكانية أخذهم البيعة من الناس. فاستجاب له عدد من

---

١) نسب قريش ٢٨٦.

٢) الطبري ٦/٤٨٢.

الولاة، ورفض عمر بن عبد العزيز ذلك وكتب للخليفة: إن في عنقنا بيعة لسليمان (وهي من زمن عبد الملك بن مروان) فلا يجوز أن نخلعها، فغضب الوليد لذلك(١)٠

أما الحادثة الثانية: فقد بلغ الخليفة أن خبيب بن عبد الله بن الزبير يشيع في الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ يقول (اذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً)(٢) فالحديث يسم الأمويين بالظلم والقسوة والتعسف، ويثير الناس عليهم، فغضب الوليد بن عبد الملك وظن أن الحديث موضوع للكيد بالأمويين وتأليب المسلمين ضدهم، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بمعاقبة خبيب عقوبة شديدة، ولم يكن عمر يملك إلا أن ينفذ الأمر، فأمر بضربه وإقامته، ويبدو أن الموكل بالضرب اشتد عليه ثم صب عليه الماء وأقامه، وكان الجو بارداً ولم يكن خبيب شاباً، فلم يتحمل هذه العقوبة ومات في اليوم الثاني، فامتلأت نفس عمر بالألم والحسرة، وشعر أنه السبب في موته، وتحول هذا الشعور الى عقدة لازمته طيلة حياته، حتى إنه عندما احتضر كان يقول: فكيف بخبيب(٣) ويرى بعض المؤرخين أن عمر بن عبد العزيز استقال من الإمارة لهذا السبب(٤) بينما يقرر الطبري أن الوليد هو الذي أقاله بسبب شكاوي الحجاج عليه لايوائه الفارين من العراق وحمايته لهم(٥)٠

وسواء كان السبب هذا أو ذاك، أو كانا معاً، فان المدينة المنورة قد

---

١) تاريخ الخلفاء ٢٦٠.

٢) نقل ابن كثير الحديث بروايات آخرى مشابهة، ووصفها بالضعف، كما أشار إلى أحاديث مشابهة مكذوبة ولم يروها. انظر البداية و النهاية ٢٤٨/٦ و٢٦١/٨.

٣) انظر نسب قريش ٢٤٠.

٤) محمود شاكر:التاريخ الاسلامي ٢١٨/٤.

٥) الطبري ٤٨١/٦.

فقدت في شعبان سنة ٩٣هـ والياً عادلا رحيماً، أحسن السيرة في الناس، وأوقف الضغائن السياسية لمدة ست سنوات وبضعة أشهر، وقد وُدِّع عمر بن عبد العزيز وداعاً عاطفياً حاراً فخرج منها قبل أن يصل إليها الأمير الجديد الذي عينه الخليفة مكانه (عثمان بن حيان) واستخلف عليها محمد بن عمرو بن حزم الذي عرف بقضائه العادل وحكمته الكبيرة، وعندما وقف على مشارفها بكى بكاء شديداً لفراقها، ثم قصد السويداء فأقام فيها بعض الوقت وهو يقول: إني أخاف أن أكون ممن نفتهم المدينة. يعني بذلك قول رسول الله ﷺ: المدينة تنفي خبثها(١)، وما كان عمر من الخبث في شيء، فقد ظلت المدينة تذكره بالخير وبخاصة بعد أن جاءها أمير جديد يختلف عنه اختلافاً كبيراً.

المدينة في إمارة عثمان بن حيان:

مكثت المدينة شهرين تنتظر قدوم الأمير الجديد، والمتوكل عليها محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، ولكنه لايملك من أمر الإمارة الحقيقية شيئاً، حتى إذا ماقارب رمضان على النهاية وبقي لشوال ليلتان وصل الأمير الجديد عثمان بن حيان المري.

كان عثمان رجلاً من أهل الشام، خدم الأمويين وشارك في غزوات كثيرة في أرض الروم ، لذا كان أقرب إلى الروح العسكرية، وقد عين أميراً على المدينة لينفذ أوامر محددة لم يكن عمر بن عبد العزيز لينفذها. هذه الأوامر هي إعادة ضبط المدينة على النحو الذي كانت عليه قبل عمر بن عبد العزيز، وإلغاء الحرية السياسية التي أوجدها عمر، ومطاردة كل من خرج من العراق هارباً من الحجاج، والقبض على من يطلبهم الحجاج. وقد سارع عثمان لتنفيذ المهمة التي أوكلت إليه بدقة. فأمر شرطته بمراقبة اللاجئين إلى المدينة وإخباره عنهم، حتى إذا اجتمعت لديه معلومات وافرة، وعرف الذين يطلبهم

---

١) انظر الكامل ١٢٩/٤.

الحجاج والذين يتهمهم، أمر بالقبض عليهم، فقبضت الشرطة عليهم جميعا، حتى التجار الذين قدموا المدينة ببضائعهم من العراق قبض عليهم، ووضعوا جميعا في الأغلال وسجنوا ثم رحلوا عن المدينة، أما الذين وردت أسماؤهم في طلب الحجاج فأرسلوا مصفدين اليه، وأما الذين لم ترد أسماؤهم فأطلقوا خارج المدينة وهددوا ان عادوا للإقامة فيها(١) وسار المنادي في شوارع المدينة وأسواقها: برئت الذمة ممن آوى عراقياً.

وبدأت ملامح الشدة في جميع تصرفات الأمير الجديد، في الأسواق، وفي الشوارع، وفي الخصومات التي ترفع إليه، وفي مراقبة القادمين إلى المدينة للزيارة أو للتجارة، وكان رجال الإمارة يتحققون من شخصياتهم ويحددون للتجار مدة إقامتهم بعد بيع بضائعهم، وما لبث الأمير أن خطب في الناس مهدداً متوعدا، فأعاد على أهل المدينة ما كانوا يسمعونه من عبارات قاسية وإتهام بالفتنة والشقاق، واشتد عليهم في قضية أهل العراق وأقسم: والله لاأوتى بأحد آوى أحدا منهم، أو أكراه منزلاً، أو أنزله، الا هدمت منزله، وأنزلت به ماهو أهله، (٢) وأنذرهم أنه سيبث العيون والجواسيس في المجالس، وحذرهم من الخوض في عيوب الولاة، فهي بداية الفتنة ((فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم، إنكم في فضول كلام غيره ألزم لكم فدعوا عيب الولاة، فإن الأمر إنما ينقض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة)) وأحس الناس أن الأمر انقلب إلى تخويف جدي، ورأو بأعينهم كيف يعذب من ورد اسمه في المطلوبين للعراق(٣) ، فسكتوا على مرارة، فليسوا أهل الفتنة الذين يستحقون هذه القسوة.

وازدادت الغمة على أهل المدينة عندما بدأو يفقدون فقهاءهم الكبار،

---

١) الطبري ٤٨٦/٦

٢) الطبري ٤٨٥/٦.

٣) الطبري ٤٨٦/٦ -.

الذين كان لهم فضل تمحيص كثير من القضايا والاجتهاد فيها، والذين عمرو المسجد النبوي بدروسهم، وأخذ عنهم الكثيرون ورحل إليهم الكثيرون، ففي أول سنة أربع وتسعين توفي علي بن الحسين الذي كان يلقب بزين العابدين رضي الله عنه.. والذي كان حمامة سلام دائماً، يرفض الفتنة ويعتزلها ويكثر الصلاة والذكر، ثم تبعه عروة بن الزبير الفقيه الأديب، فسعيد بن المسيب التابعي الجليل، ثم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، حتى لقد سميت هذه السنة بسنة الفقهاء، وازدادت الغمة عندما تواردت الأخبار بأن الحجاج قتل سعيد بن جبير رضي الله عنه في الكوفة، وسعيد بن جبير أحد أبناء المدينة البررة، وأحد ملازمي المسجد النبوي والمحدثين فيه، خرج غازيا مع من خرج من المدينة في جيش عبد الرحمن بن الأشعث ثم حصلت الفتنة في الجيش، وخلع ابن الأشعث ومعظم من معه طاعة الحجاج، ودارت معارك طاحنة هزم فيها جيش ابن الأشعث وهرب سعيد، وتعقبته كتب الحجاج الى الولاة حتى ظفروا به في مكة ، وأرسل مصفدا إلى الكوفة حيث قتل في مجلس الحجاج(١).

ومرت السنة الثالثة على ولاية عثمان بن حيان والمدينة لاتجد جديداً في سياسته، حتى ألف الناس ألا يتكلموا شيئاً في الوالي أو الخليفة مخافة أن يوشى بهم فيعاقبوا، واشتغل كلٌّ بأموره، وتحسنت أحوال التجارة والزراعة، ونعم المصلون في المسجد النبوي بالمياه التي جرت إليه، والفوارة التي وضعت في ساحته الخارجية، ولم يكن حول الأمير إلا الجلساء الذين اعتادوا مجالسته، والعاملون في الوظائف وأصحاب القضايا، ولم يكن كبار الموظفين يأمنون عقوبة عثمان، وكان يسمع ما يقوله بعضهم في بعض ولو كان كيداً أو حسداً.

---

١) الطبري ٦/٤٨٧-٤٩١

موافقة عجيبة:

ومن عجيب الموافقات أن محمد بن عمرو بن حزم الذي كان متوليا القضاء استأذن الأمير في أوائل العشر الأخير من رمضان عام ٩٦ للهجرة في أن يغيب ذاك اليوم عن عمله لينام، كي يستطيع أن يقوم ليلة الحادي والعشرين، فأذن له، وكان في مجلسه رجل من قريش بينه وبين محمد بن عمرو مشاحنة، فحاول أن يوغر صدر الأمير عليه واتهمه بأنه إنما طلب الإذن وادعى الرغبة في القيام رياء ليقال عنه إنه متعبد، فتأثر بذلك الأمير وآلى على نفسه أن يجلد ابن حزم مئة جلدة ويحلق رأسه ولحيته، ويشاء الله ألا تمضي تلك الليلة حتى يصل البريد من دمشق، يحمل خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتولي الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك، ويحمل أمراً من الخليفة الجديد بعزل عثمان بن حيان عن الإمارة ومعاقبته لقسوته على أهل المدينة، وتولية محمد بن عمرو بن حزم الإمارة مكانه.

وطلع صباح الثاني والعشرين من رمضان سنة ست وتسعين بعكس ما كان ينويه عثمان بن حيان، فإذا بعثمان مقيد بالحديد، وإذا بمحمد بن عمرو بن حزم على سرير الإمارة ينفذ أمر الخليفة، ويأمر شرطته أن يضربوا الأمير الذي قسا على أهل المدينة وبث بينهم العيون وعاقب الكثيرين على ما يأتيه به مخبروه.

المدينة في إمارة محمد بن حزم : أيام عمرية أخرى:

كان محمد بن حزم رجلاً من أهل المدينة، ولعله أول من يتولاها من أبناء الأنصار، وكان تلميذ الفقهاء الكبار في المسجد النبوي، وما لبث أن تصدر للحديث والفتيا، وقد أعجب به عمر بن عبد العزيز منذ أن كان يدرس معه في حلقات المسجد، فلما تولى عمر إمارة المدينة ولاه قضاءها، وثبّته الوليد بن عبد الملك، فلما جاء عثمان بن حيان كان لمحمد بن عمرو بن حزم شهرة بين الناس لذا لم يعمل على عزله.

سعى محمد بن عمرو بن حزم لاعادة أمور المدينة الى ما كانت عليه أيام عمر بن عبد العزيز، لا سيما وأن الحَجّاج قد مات، وأن العراقيين لم يعودوا يفرون إلى المدينة، وأن القادمين إليها تجارة أو زيارة أو إقامة وجواراً كانوا من طلاب العلم والمتعبدين، لذلك أوقف الاجراءات التي اتخذها عثمان ورفع المراقبة وسار بالناس هوناً وليناً. ولم ير عليه سيف قط، مع أن الأمراء كانت لاتصعد المنبر للخطابة إلا وهي تلبس السيف (١) فحمد أهل المدينة سيرته، واستقامت أمورهم، واكتتب عدد من شبابهم في كتائب الجهاد التي توجهت إلى أرض الروم وأرمينية وجرجان وطبرستان، ونشطت الحركة العلمية ثانية في المسجد النبوي بعد أن ظهر تلاميذ الفقهاء السابقين، وبدأت حركة جمع الحديث الشريف وتدوينه، وقصد المدينة فقهاء ومحدثون من الكوفة والبصرة والشام يطلبون أخبار رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، وظهرت أثار الحركة العلمية في مجلس الأمير، الذي كان بالأمس يستند إلى سارية المسجد ليحدث ويفتي، ثم ليقضي بين الناس.

وزاد من سكينة المدينة ونمائها في أيام هذا الأمير تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة عام ٩٩ للهجرة، الذي أقر محمد بن عمرو بن حزم على امارة المدينة، وأقر عدداً من الأنظمة التي عادت على المدينة وعلى أمصار الدولة الإسلامية كافة بالخير العميم، فقد أمر أن تصرف الواردات المالية في المدينة المنورة على تحسين المدينة، وأن توزع الزكاة والصدقات على فقرائها لا يخرج منها شيء، وكان يرسل الرسائل المتوالية يطلب من الأمير أن يستعلم له عن أمر من أمور السيرة أو الحديث، ولعل أكثر ما ارتاحت له المدينة وأهلها أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بعدم لعن علي بن أبي طالب على المنبر، ومنع التعرض لأحد من آله، وبافشاء الأمن والعدالة بين الناس وإعطائهم حقوقهم في كل شيء، وهو ما كان قد طبقه حينما كان أميراً

---

١) طبقات ابن سعد،القسم المتمم ١٢٦ -.

للمدينة، فنعمت المدينة بخلافة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين وولاية محمد بن عمرو بن حزم الرجل الفقيه المحدث، ونعم أهلها جميعاً بالطمأنينة والعدل.

المدينة تعود الى أيام الشدة:

في آخر رجب سنة ١٠١هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز، وتولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك، وكان يزيد مختلفا عن سلفه، فعمل على إلغاء التغييرات التي أحدثها عمر بن عبد العزيز، وأعاد السياسة التي كان عليها عبد الملك، وأمر بعزل محمد بن عمرو بن حزم وتولية عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري وبمحاسبة محمد بن عمرو ومعاقبته إن وجد عليه ما يستحق العقوبة، وعزل قاضيه أبو طواله عبد الرحمن بن معمر بن حزم - وكان قريبه - وعين الضحاك قاضياً جديداً هو عبد الرحمن بن سلمة المخزومي، وأمره بمحاسبة محمد بن عمرو بن حزم، فحاسبه واستقصى أخباره ونادى في الناس من له ظلامة أو شكوى عليه، فلم يتقدم أحد، ولم يتهمه أحد بشيء، فعاد إلى حلقته في المسجد وعاد إلى علمه . وبدأت أيام الضحاك، أو أيام الأمويين الثانية.

كان عبد الرحمن بن الضحاك قرشي الأصل ، وكان أبوه من أخلص الرجال لمعاوية في صفين وصاحب شرطته، حتى إنه جعله على وصيته، غير أن الضحاك اختلف مع مروان بن الحكم وخرج عليه ودعا لنفسه فقتله مروان في مرج راهط. ولكن أبناء مروان تألفوا أبناء الضحاك ولم ينسوا خدمة أبيهم للبيت الأموي، ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة جعل عبد الرحمن

الضحاك أمير المدينة المنورة، ثم مالبث أن ضم إليه مكة(١) وكان عبد الرحمن فتى شاباً شديد الإخلاص للأمويين، لذلك سرعان ما أعاد سياسة سلفه الأسبق عثمان بن حيان المري، فشدد الرقابة على الهاشميين، وبث العيون في المجالس والأسواق، وراقب التجار القادمين وبخاصة العراقيين الذين يتطلعون إلى آل البيت.

كان لشباب عبد الرحمن بن الضحاك أثر في تصرفاته في الإمارة، فقد أظهر شيئاً من الفتوة والإعجاب بالنفس والتفرد بالرأي، ولم يطع ناصحيه في الاحسان إلى أهل المدينة، ولاسيما أبناء الأنصار، ولم يحسن انتقاء حاشيته منهم، وكان قريبه ابن شهاب الزهري قد لقيه بدمشق عندما علم بتوليه الإمارة، فحادثه طويلاً وأوصاه بأهل المدينة خيراً، وابن شهاب تابعي من أهل المدينة نزل الشام، وكان مما قاله له: إنك تقدم على قومك وهم ينكرون كل شيء خالف فعلهم، فالزم ما أجمعوا عليه، وشاور القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله فانهما لا يألوانك رشداً(٢) فلم يأخذ بوصية الزهري، وأظهر الجفاء لأبناء الأنصار واشتد عليهم.

لم يظهر من أهل المدينة ما يستدعي شدة ابن الضحاك، وكان الهاشميون بعد وفاة علي بن الحسين منهمكين في دروس العلم وفي مزارعهم وأعمالهم الخاصة، ولم يكن أحد يخرج على الطاعة في شيء، بل كانوا يبذلون من الطاعة مثل مايبذله أبناء المدن الآخرى في الشام ومصر، وعندما بعث الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى الأمصار يطلب مدداً من الرجال لمقاتلة يزيد بن المهلب الذي خرج عليه في خرسان تطوع عدد من شباب المدينة للمشاركة في الجيش وشكلوا مع متطوعي الكوفة (ربعاً) تولى قيادته عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المفضل الأزدي، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى انتصر جيش الخليفة وقتل يزيد

---

١) الطبري ٥/٥٣٥.

٢) الطبري ٧/١٤.

بن المهلب.

ولكن عبد الرحمن بن الضحاك لم يغير سياسته في أهل المدينة، حتى ضجّ الكثيرون منهم، وتكلم فيه الشعراء وذموا شدته وإعراضه، وقد بدت قسوة عبد الرحمن بن الضحاك وتحيزه في الحادثة التي تناقلتها كتب التاريخ عن ضربه محمد بن عمرو بن حزم سلفه في إمارة المدينة، وقد تقدم أن عبد الرحمن حاول أن يوقع بابن حزم منذ وصوله، وأمر قاضيه أن يحقق معه في تصرفاته وأموال الإمارة فلم يثبت عليه شيء. ويذكر الطبري أن ابن الضحاك ظل يتربص بابن حزم ليوقع به فلم يظفر بشيء يعاقبه عليه(١).

وحدث أن ذهب عثمان بن حيان المري - أمير المدينة قبل محمد بن حزم - إلى يزيد بن عبد الملك وادعى لديه أن ابن حزم قد ضربه حدين ظلماً، وطلب أن يقتص له منه، وكان ابن حيان مقرباً عند يزيد، فحاول أن يعوضه عن ذلك بولاية المدينة ولكن ابن حيان رفض الولاية لأنه لايستطيع أن يضرب ابن حزم وهو أمير دون مسوغ، وألح على يزيد أن يكتب إلى ابن الضحاك ليقيده منه. فكتب يزيد رسالة يطلب فيها من ابن الضحاك أن يحقق في إدعاء عثمان بن حيان، فإن ثبت أنه مظلوم فليقتص له، وإن ثبت أنه ضرب بحق أو بقضية فيها خلاف، فلا يقتص له. وجاء عثمان إلى ابن الضحاك بالرسالة ورجاه أن ينتقم له، فما كان من ابن الضحاك إلا أن استدعى محمد بن عمرو بن حزم وضربه حدين انتقاماً لعثمان دون أن يحقق معه أو يسأله عن حقيقة القضية، وكأنه وجد في إدعاء عثمان بن حيان فرصة للنيل من ابن حزم لم يجدها من قبل، ولم يلتفت ابن الضحاك إلى ما أوصاه به الخليفة من التحقيق في القضية. وقد بلغ هذا الأمر يزيد بن عبد الملك فأحفظه على الضحاك، وكذلك بلغته شكاوى الناس والشعر الذي قيل في ذم الضحاك، فاجتمع ذلك كله في نفسه، وتفجر عندما وصلته شكوى من فاطمة بنت الحسين رضي الله

---

١) السابق ٦/٥٧٤

عنها.

ذلك أن ابن الضحاك الذي شدد على الهاشميين، بدا له أن يتزوج إحدى نسائهم، فأرسل يخطب فاطمة بنت الحسين، وكانت أرملة الحسن بن الحسن بن علي، ولم تكن صغيرة السن، فابنها عبد الله بن الحسن قد بلغ سن الشباب، فاعتذرت فاطمة بأنها قد تفرغت لأبنائها ولا تريد الزواج، ولكن ابن الضحاك ألح في الطلب، فخافت فاطمة وتوجست منه الشر، فأخذت تتعلل له بعلل شتى، وأصر ابن الضحاك وأرسل يهددها بأنه سيجلد ابنها عبد الله بتهمة شرب الخمر إن لم توافق على الزواج منه، فبلغ الغيظ مبلغه في نفسها. وجاءها المسؤول عن ديوان المدينة (ابن هرمز)، وهو رجل من أهل الشام، يودعها قبل سفره إلى الخليفة لتقديم حساباته الدورية، وسألها إن كان لها حاجة في الشام، فأخبرته بما تلاقيه من ابن الضحاك، وطلبت منه أن يبلغ شكواها للخليفة، ولن تكتف فاطمة بذلك، بل كتبت رسالة إلى الخليفة حدثته فيها عن همومها من ابن الضحاك، وسألته بحق القرابة والرحم أن يحميها من ظلمه، وأرسلتها مع رسول خاص.

وما لبث الرسول أن وصل إلى يزيد بن عبد الملك وعنده ابن هرمز لم يحدثه بعد بشكوى فاطمة، فلما سمع ابن هرمز بقدوم الرسول سارع فنقل إلى الخليفة شكوى فاطمة، وقرأ يزيد الرسالة فاشتد غضبه، وزحف من على سريره، وأمسك بخيزرانته وجعل يضرب بها على يده ويقول: لقد اجترأ ابن الضحاك، هل من رجل يسمعني صوته من العذاب وأنا على فراشي. واستشار من حوله فأشاروا عليه بواليه على الطائف عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري، فدعا بقرطاس وكتب بيده: سلام عليك ، أما بعد، فاني قد وليتك المدينة، فإذا جاءك كتابي هذا فاهبط، واعزل عنها ابن الضحاك، وأغرمه

أربعين ألف دينار وعذبه، حتى أسمع صوته وأنا على فراشي، والسلام(١).

وخرج البريد بخطاب الخليفة إلى الطائف، ويبدو أن عيون ابن الضحاك قد أوصلوا إليه أن فاطمة بنت الحسين قد أرسلت رسولا إلى الشام، فدس من يستحكي فاطمة وأولادها ليعلم أمر الرسالة فلم يفز بشيء فبدأ القلق يساوره. ولما وصل البريد إلى المدينة لم يجد في رسائله شيئاً يخصه وعلم أنه يحمل رسائل الى جهات آخرى، فحاول أن يعرف الوجهة التي يمضي إليها، ورشى صاحب البريد بألف دينار فأخبره صاحب البريد بالرسالة التي يحملها إلى أمير الطائف فيها أمر الخليفة بتوليته على المدينة وعزل ابن الضحاك، فارتاع ابن الضحاك وحاول أن يستدرك الأمر، فانتظر حتى يغادر البريد المدينة، ثم خرج مسرعاً إلى الشام، فنزل عند مسلمة بن عبد الملك شقيق الخليفة يزيد واستجار به، ورجاه أن يطلب له العفو من الخليفة، فسعى مسلمة إلى يزيد بذلك، وكان الغضب بلغ من يزيد مبلغه، فرفض شفاعة مسلمة، واضطر مسلمة أن يتخلى عن ابن الضحاك وأن يرده إلى المدينة. فعاد عبد الرحمن بن الضحاك الى المدينة قبل أن يصل أميرها الجديد عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري وهو لايدري ماسيلاقيه على يد الأمير الجديد من عذاب وهوان.

نهاية قاسية للأمير القاسي:

وجاء عبد الواحد النضري الأمير الجديد للمدينة في منتصف شوال سنة مئة وأربع للهجرة، ونزل دار الإمارة، وأمر الشرطة بتقييد عبد الرحمن بن الضحاك وإهانته، ثم وكل به من يحاسبه حساباً شديداً، وصادر أمواله ليستوفي الأربعين ألف دينار التي أمر الخليفة أن يغرمها، وجلده أمام الناس وطيف به في أنحاء المدينة لابساً ثوباً من صوف خشن ثم سجن مدة ثم أطلق. فذل ابن الضحاك ذلا شديداً وتشفى منه كل صاحب ظلامة. فكان يسير

---

١) الطبري ٧/١٣.

في أحياء المدينة ذليلا فقيراً جزاءً وفاقاً بما قدم وظلم.

الأمــير المترفق:

وبقدر ما أبداه عبد الواحد بن عبد الله النضري من شدة في حساب عبد الرحمن بن الضحاك، أبدى ليناً ومودة لأهل المدينة جميعاً، وزار فاطمة بنت الحسين واعتذر لها، واستزار محمد بن عمرو بن حزم والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ووجوه التابعين فيها، وأكرمهم وطلب منهم المشورة والعون، وأوقف مراقبة آل علي، والتجسس على الناس، وألغى كل ما جاء به ابن الضحاك من قسوة وشده، فأحس أهل المدينة أن الله سبحانه وتعالى فرّج عليهم وساق إليهم أميراً يحسن السيرة فيهم بعد ثلاث سنوات من القسوة والشدة.

اتخذ عبد الواحد المدينة مقراً لإمارته الواسعة، إذ أنه كان والياً على الطائف ومكة وضمت إليه المدينة، فأناب عنه في كل من مكة والطائف وجعل يستخبر أخبارها ويزورها قليلا. وفي نهاية العام قاد الحجيج في موسم الحج وتفقد الأمور في مكة، وكذا في الطائف ، ثم عاد إلى المدينة وجعل حاشيته من خيار أهلها، وأكثر من مجالستهم واستشارتهم، وصرف الأموال في إصلاح أمور المدينة والعناية بطرقها وسوقها وفقرائها، فدخل إلى قلوب أهل المدينة حتى قال المؤرخون: لم يقدم عليهم وال أحب إليهم منه(١) غير أن ولايته لم تطل سوى سنة وثمانية أشهر، فقد مات يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة أخوه هشام بن عبد الملك في أواخر شعبان عام ١٠٥ للهجرة. فأقر عبد الواحد على إمارته أول الأمر، ولكن خال الخليفة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي رغب في عمل يتولاه، فسعى لذلك عند ابن أخته فلم ير ما يكرمه به خيراً من أن يوليه ما كان أبوه قد تولاه من قبل، إمارة المدينة المنورة، فكتب له بريداً بذلك. فخرج إبراهيم في قافلته وقدم المدينة

---

١) الطبري ١٤/٧.

في منتصف جمادى الآخرة عام مئة وسته للهجرة، وتسلم الإمارة من عبد الواحد بن عبد الله دونما إثارة أو حساسية، فلم يكن عزل عبد الواحد لخطأ ارتكبه ولم يكن في سيرته ما يستدعي عقوبته.

اعتزل عبد الواحد بين الناس معززاً مكرماً وبدأت ولاية ابراهيم بن هشام، الرجل الذى عرفته المدينة صغيراً أيام إمارة أبيه قبل ثلاث وعشرين سنة.

المدينة في إمارة إبراهيم بن هشام:

أعقب الأمير الشفيق اللين الجانب أمير فيه شدة وقسوة، فعبد الواحد الذي أحبته المدينة كان لين الجانب عطوفاً، أما إبراهيم بن هشام فكانت فيه شدة وصرامة، بدت بوادرها في موقفه من آل الزبير، فقد عاد إلى التشديد عليهم وصادر بعض أراضي عبد الله بن عروة وأخيه يحيى بن عروة، وكان عبد الملك بن مروان قد صادر أموال الزبيريين بعد مقتل عبد الله بن الزبير، ثم رد أموال من لم يشترك معه في حرب الأمويين(١) ويبدو أن تصرف إبراهيم بن هشام كان لأسباب شخصية، كما أن إبراهيم استفاد من منصبه في تملك بعض الأراضي في المدينة ، شمالا وجنوباً، واستعمل فيها العبيد والموالي وزرعها واستثمرها.

وأقبل موسم الحج، وجاء الخبر من دمشق بأن الخليفة سيحج بالناس هذا العام، فخرج وجوه أهل المدينة مع أميرها لاستقباله في ظاهر المدينة، وسعى الأمويون، وبخاصة أحفاد عثمان بن عفان رضي الله عنه لتعزيز مراكزهم وأموالهم فيها.

نزل الخليفة بدار الإمارة واستقبل أهل المدينة، وجاءه آل الزبير يشكون شدة الأمير عليهم ومصادرة بعض أموالهم، وكان عبد الله بن عروة بن الزبير جريئاً فوقف يقول للخليفة: أخذ إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون إلى

---

١) أنظر نسب قريش ١٤٧.

منابت القرظ، فلم يغنه كثير ما بيديه عن قليل ما في أيدينا، وإنا والله ما طبنا نفساً عن فراق الأحبة إلا بما تُرك لنا من معايشنا، وقد أعطيتمونا عهدكم وأعطيناكم طاعتنا، فإما وفيتم لنا بما أعطيتمونا وإما رددتم علينا بيعتنا، وإني أعيذك بالله أن تصل رحمنا بقطيعةٍ آخرى(١) فتأثر هشام بقوله وأمر برفع الظلم عن آل الزبير.

أما آل علي بن أبي طالب رصفاء آل الزبير في الاضطهاد والتضيق عادة، فلم يضيق عليهم إبراهيم بن هشام بشيء. وربما كانت العقوبة التي لقيها عبد الرحمن بن الضحاك قبل سنتين عبرة لمن بعده من الأمراء في العهد الأموي، اذ لم يجدوا ما يضيق عليهم ثانية. وقد حاول بعض الأمويين المقيمين في المدينة أن يستثيروا الخليفة هشام بن عبد الملك عليهم، فلم يفلحوا، وجاءه سعيد بن عبد الله بن عثمان بن عفان فاحتفى به هشام. ولما سأله سعيد أن يلعن علياً في المدينة أو يأمر باعادة اللعن الذي أبطله عمر بن عبد العزيز، رفض هشام وأعرض عنه(٢).

ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك لم يغادر المدينة قبل أن يترك فيها أثراً يذكره به الناس، فعندما قفل من حجه ومر بها توفي سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، صلى عليه هشام وسار في جنازته إلى البقيع ورأى الجموع الحاشدة من أهل المدينة، الذين خرجوا لتشييع فقيدهم الكبير، فلما عاد إلى الامارة أمر بتجنيد أربعة الآف من أهل المدينة في الجيوش المتجهة إلى الثغور، وكان الاكتتاب في الجهاد قبل ذلك طوعياً، وكان كثير من شباب المدينة ينخرطون فيه، فلما فرض عليهم هذا العدد لم يعد الأمر مجرد تطوع، واضطر للخروج من لم يكن راغباً في الخروج، وسموا عامهم ذاك عام الأربعة الاف، وكان لهذا الخروج نتائج ايجابية، فقد أبلى

---

١) نسب قريش ٢٤٦.

٢) الطبري ٣٦/٧.

المجاهدون بلاء حسناً في قتال الترك وغنموا غنائم وافرة، وسر الخليفة منهم، وفرض لأهل المدينة عطاءً وافراً في تلك السنة يوزع عليهم من الفيء الذي غنمه المجاهدون، وعندما وزع الفيء على الأمصار التي شارك أبناؤها في الجهاد كان نصيب أهل المدينة أقل مما أمر به الخليفة، فاحتار إبراهيم بن هشام ماذا يفعل، وكتب بذلك للخليفة، فأمر الخليفة أن يستكمل عطاء أهل المدينة من الأموال التي ترد من اليمامة، فلما وصلت الأموال الى المدينة عرف الناس أنها من أموال الصدقة، فغضبوا وخرج إبراهيم بن محمد بن طلحة وعدد من أهل المدينة إلى المكان الذي انيخت فيه قافلة الأموال الواردة في ظاهر المدينة، فجعلوا يضربونها ويطردونها خارج المدينة ويقولون: والله لاندخلها وفيها درهم من أموال الصدقة(١)٠

واضطرب الأمر ثانية على الأمير إبراهيم بن هشام، فكتب إلى الخليفة يخبره بغضب أهل المدينة وبقولهم أنهم لايأخذون من أوساخ الناس، فأمر الخليفة أن ترد عنهم تلك الأموال وأن يعوضوا عنها بأموال آخرى تأتي من الفيء الذي وصل آنئذ، فرضي أهل المدينة وأخذوا مما أفاء الله على المسلمين.

وقد كانت لهذه المواقف الكريمة من أهل المدينة أثر في تصرفات أميرها إبراهيم بن هشام، إذ أصبح يحسب حساباً لنظرة الخليفة إليهم كما يحسب حساباً لبعض الشخصيات التي تعيش فيها، وبخاصة إبراهيم بن محمد بن طلحة الذي تزعم رفض أموال الصدقة. وتروي المصادر لإبراهيم بن محمد بن طلحة مواقف فيها خير وبركة لبعض أهل المدينة، منها أن الخليفة هشام بن عبد الملك قد بلغه عن آل الصحابي الجليل صهيب الرومي شيئاً، فأمر أن تخفض أعطياتهم من مستوى أعطيات الصحابة وأبنائهم إلى مستوى أعطيات الموالي، فحزن آل صهيب، وجاؤوا إلى ابراهيم بن محمد بن طلحة ليعينهم

---

١) نسب قريش ٩٨.

على إعادة أعطياتهم إلى ما كانت عليه، فوعدهم إبراهيم بذلك، ثم خرج إلى طريق الأمير إبراهيم بن هشام، وكان ذاهباً إلى قباء كعادته كل يوم سبت، فأمسك بزمام دابته وطلب منه أن يعيد عطاء آل صهيب إلى ما كانوا عليه، وذكره بحرمة جدهم صهيب رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ، فاعتذر الأمير بأنه لايستطيع مخالفة أمر الخليفة ، ولكن إبراهيم بن محمد ألح عليه، فأصر الأمير على الأعتذار فهدده إبراهيم بأنه سيحمل أبناء قبيلته القرشيين على رفض عطائهم وتركه إن لم يأخذ آل صهيب عطاءهم السابق، فاستجاب الأمير إبراهيم آنئذ لطلبه(١).

وخلال إمارة ابراهيم بن هشام بدأ اللغط يسري بين أهل المدينة حول تصرفاته المالية، فقد بدا إبراهيم حريصاً على تثمير الأموال، وتحقيق مكاسب مالية ومعنوية، مالية : بجمع ثروة خاصة، ومعنوية: بالتقرب من الخليفة واستثمار بعض الأموال لصالحه، فقد اشترى للخليفة بعض البساتين وأقام فيها الفلاحين والعمال لتأتي بغلة كبيرة.

اعتداء على مرافق عامة:

لم تكن هذه الاستثمارات لتثير أهل المدينة، وعلى العكس من ذلك كانت تعود عليهم بشيء من النفع، سواء بتوفير المحاصيل لأسواقهم أو بتشغيل بعض العمال فيها. غير أن ابن هشام قام باستثمار آخر أثار حفيظة أهل المدينة وأحنقهم عليه، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ازاءه. ذلك أن إبراهيم كتب إلى الخليفة يغريه باقامة مبنى ضخم في الأرض التي تقوم عليها سوق المدينة - في منطقة المناخة - يجعل فيها دكاكين ومحلات يؤجرها الى التجار، فبدلاً من أن تكون السوق أرضاً مفتوحة، تكون بناء منظماً. وقد شجعه على ذلك أن مروان بن الحكم ـ أول أمير أموي على المدينة ـ سبق أن بنى لمعاوية بناءين في طرف منطقة السوق مازالا قائمين، يؤجران للتجار

---

١) نسب قريش ٩٦ - ٩٧.

وتعود غلتهما لورثة معاوية، وقد سوّغ إبراهيم بن هشام للخليفة مشروعه بما فعله معاوية من قبل وزين له ذلك. فأجابه الخليفة لما طلب وأذن له أن يقيم مبنى السوق. وفوجيء أهل المدينة بالبنائيين يقيمون جداراً طويلا يستوعب السوق كله، ويرتفعون به ويدخلون فيه الطرقات التي تمتد بين السوق والأحياء المقابلة، فلا يبقى بين جدران البيوت المواجهة وجدار السوق غير ثلاثة أذرع أحياناً، فضجوا من ذلك، وراجعوا الأمير فواجههم برسالة الخليفة. وكتب بعضهم إلى الخليفة شاكياً فلم يجد جواباً، وأسرع ابراهيم بالبناء قبل أن يستطيع أحد أن يغير رأي الخليفة، وكان يرسل بأخبار البناء المتوالية إلى الخليفة، فأعجب الخليفة بذلك، وأمر أن تحمل الأخشاب النفيسة والأبواب الضخمة من الشام والبلقاء إلى السوق، ولم تمض سنة حتى تم البناء الضخم، وتحول السوق إلى مجموعة دكاكين مسورة بسور كبير، وأقبل التجار يكترون الدكاكين.

ومع أن هذا البناء قد نظم السوق وجمله وجعل الحركة فيه منضبطه، والإشراف عليه أفضل فان أهل المدينة كرهوه، فالكراء الذي يدفعه التجار يتحول إلى زيادة في أسعار السلع، ثم إنهم اعتادوا أن يكون السوق مفتوحاً للجميع وغير مملوك لأحد، يفرش فيه من يشاء بساطه ويبيع ويشتري ، وهم يحفظون حديثاً عن رسول الله ﷺ ينهى عن أخذ الخراج منه(١) ولكن الذين سوغوا ما فعله إبراهيم بن هشام نظروا إلى أجرة البناء وليس الى أجرة الأرض. وما لبث السوق المبني أن أصبح أمراً واقعاً يسكت الناس عليه لأنه ملك الخليفة، ولأن الأمير يعاقب من يلغط فيه.

وهكذا مضت ثماني سنوات من إمارة ابراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وأمور المدينة تتراوح بين الشدة والقسوة التي يبديها إبراهيم حيناً، واللين الذي يظهره حيناً آخر إكراماً لبعض الشخصيات أو إنفاذاً لأمر

---

١) انظر الحديث في ابن شبة ٣٠٤/١.

من أوامر الخليفة.

ورغم قرابة إبراهيم من الخليفة، فان تصرفاته قد أحفظته عليه آخر الأمر، فقد كثرت شكاوى الوافدين من المدينة منه، ولغط الناس بثروته المتنامية وتغطرسه، وتحدثوا عن جهله بأمور الفقه وإدعائه العلم، حتى إنه تصدى مرة للفتيا في عرفات وهو يقود الحجيج، فلما سأله سائل عن الأضحية أواجبة هي أم لا ؟ لم يدر ما يقول(١) وارتفعت أصوات آل الزبير بالشكوى منه ثانية، فازدادت قسوته عليهم، فهجاه يحيى بن عروة بن الزبير بأبيات سارت بين الناس، فازداد غضب إبراهيم وقبض على يحيى بن عروة وأمر به فجلد بالسياط جلداً شديداً، وما لبث أن مات، فضج أهل المدينة لذلك، ورأى الخليفة أن خاله قد أسرف في تصرفاته، فأرسل أمراً بعزله وتولية خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم مكانه وذلك في شهر ربيع الأول من عام مئة وأربعة عشر للهجرة.

المدينة في إمارة خالد بن عبد الملك بن الحارث:

لم يكن خالد بن عبد الملك بن الحارث يختلف عن إبراهيم بن هشام في الحزم والشدة، ولكنه كان يختلف عنه في الدهاء وحسن التصرف وعدم إظهار الصلف والثروة. وبدا منذ أيامه الأولى أنه يهتم بمراقبة أحفاد علي ليضمن ولاءهم الكامل الدولة، خاصة وأن فيهم زيد بن علي بن الحسين الذي نقل بعض الناقلين عنه أنه يتطلع إلى الخلافة. وقد استخدم خالد دهاءه في هذا الأمر، فلم يظهر العداوة لأحفاد علي ولم يتعرض لأحد منهم علناً، ولكنه استفاد من فرصة كبيرة سنحت له ليضغط عليهم ويهون شأنهم بين أهل المدينة. فقد دب الخلاف بين أحفاد علي حول الأموال الموقفة لهم، وانقسموا قسمين، قسم يتجمع فيه أحفاد الحسن ويقوده جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي، وقسم يتجمع فيه أحفاد الحسين ويتزعمه زيد بن علي بن الحسين

---

١) الطبري ٧/٥٣.

بن علي. وكل من الفريقين يريد أن يتسلم الإشراف على إدارة ذلك الوقف.

ورفعت الخصومة إلى الأمير، وأدلى كل بحجته ببلاغة عجيبة، ولم يفصل الأمير في الأمر ، ثم مات جعفر بن الحسن بن الحسن، وخلفه عبد الله بن الحسن بن الحسن في مواجهة زيد ومنازعته في الإشراف على الوقف، وكانا متكافئين في المناظرة والجدل. فوجد خالد بن عبد الملك في هذه الخصومة فرصة للنيل من العائلة كلها، فأمر المتخاصمين أن يحضرا للمسجد أمام الناس ويثبت كل منهم جدارته بولاية الوقف، ولإثبات الجدارة لابد من الطعن في الطرف الآخر وإثبات التفوق عليه، فإذا طعن كل في ابن عمه هان شأن الأسرة بين الناس(١).

وفي المسجد النبوي اجتمع الطرفان، وحرص خالد على استثارتهما، واستحث بعض الحاضرين للتدخل وزيادة لهب الخصومة، فقام أحد أبناء الأنصار ونال من أبناء الحسين، وثارت ثائرة أحد القرشيين فرد عليه، وأدرك كل من عبد الله بن الحسن وزيد بن علي حقيقة الموقف وشماتة الأمير فيهما، فسارعا لتدارك الأمر، وقال زيد لخالد بن عبد الملك: أما والله جمعتنا لهذا الأمر وما كان أبو بكر ولا عمر ليجمعنا على مثله، وإني أشهد الله ألا أنازعه إليك محقاً أو مبطلا ما كنت حياً. ثم قال لعبد الله: انهض يا ابن عم فنهضا وتفرق الناس(٢).

والحقيقة أن هذا الخلاف الذي استثمره خالد بن عبد الملك كان بداية شرخ كبير في أرفع عائلة من عائلات المدينة علماً وفضلاً ونسباً، ولئن تداركه عبد الله بن الحسن وزيد بن علي بفطنتهما، فان الخلاف مالبث أن عاد بعد حين، ثم تطور في سنوات تالية على نحو ما سنرى، إلى أن أدى الى صدام مريع بين فرعي العائلة، ونتائج غير حميدة.

---

١) الطبري ٧/١٦٤

٢) الطبري ٧/١٦٣ والكامل ٤/٢٤١

على أية حال كانت المدينة في سنوات حكم خالد بن عبد الملك هادئة، تتناقل الأخبار التي تصلها من الأمصار، وتتناقل أخبار الخلاف بين أحفاد علي إلى أن توقف حيناً من الوقت. وقد صادف أن بدأت مع إمارة خالد بن عبد الملك على المدينة فترة قحط طويلة، شحت فيها الأمطار، وتناقصت الغلال، وارتفعت الأسعار ولولا حسن إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك وضبطه المالي لموارد الدولة للقي الناس عنتاً شديداً، فقد رحل الكثيرون من أهل الحجاز ونجد إلى الشام هرباً من أثار القحط الموجعة، وتدارك هشام أهل المدينة ومكة بقوافل من الحنطة والشعير من غلال العراق وخراسان، وتوالت سنوات القحط طوال إمارة خالد بن عبد الملك حتى إن أهل المدينة أطلقوا على تلك الفترة اسم ((سُنَيَّات خالد))، وبدت فيها أريحية وجوه أهل المدينة وأثريائها، فكانوا يعطون الناس من أموالهم ويفتحون لهم بساتينهم ويوزعون عليهم من الغلال والطعام. فكان عبد الله بن عروة بن الزبير يدخل الناس في مربد ثمره طرفي النهار، غدوة فيتغدون، وعشية فيتعشون، فما زال كذلك طوال سنوات القحط حتى أحيا الناس(١) ولا نجد مأثرة لأمير المدينة يذكره بها الناس آنئذ، فلم يستن بسنة عمر بن الخطاب الذي كان يقيم السماط للناس ويثرد لهم الطعام في عام المجاعة، ولم يستن حتى بسنة وجوه أهل المدينة.

وتضايق عدد من وجوه أهل المدينة من شدته ومكره بهم. فاشتكوا إلى الخليفة هشام مراراً. فبدأ الخليفة هشام يتضايق من تصرفات واليه، ولم يكن الخليفة يتسرع في تصرفاته، لذا لم يسرع بعزله إلى أن جاءته شكوى كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير. فقد تأذى عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق من خالد بن عبد الملك، وأحس أنه يظلمه ظلماً لايحتمل، فخرج إلى دمشق ليشكوه إلى الخليفة، وكان خالد يتفقد وجوه أهل المدينة

---

١) نسب قريش ٢٤٦.

ويتتبع أخبارهم. فلما جاءه خبر غياب عبد الرحمن بن القاسم ولم يدر أين ذهب، اغتم لذلك، وخشي أن يكون وراء غيابه ما يؤذيه، لذا سارع فكتب إلى الخليفة أن عبد الرحمن خرج إلى المشرق، أي إلى العراق، وكان خروج أحد من وجوه أهل المدينة إلى العراق مظنة شك وريبه. ذلك أن العراق موطن الخارجين على الخلافة من الهاشمين والخوارج وكل من يخلع طاعة بني أمية، ولا شك أن خروج أحد من وجوه أهل المدينة -وابن القاسم بن محمد التابعي الكبير وحفيد أبي بكر الصديق- يثير الظنون، وقد قصد خالد بن عبد الملك بهذه الرسالة أن يستثير الخليفة على عبد الرحمن بن القاسم وأن يبيح له معاقبته. ولكن حدث غير ذلك، فقد توجه عبد الرحمن إلى الشام وقصد الخليفة ودخل عليه بعيد وصول رسالة خالد مباشرة، فأدرك الخليفة أن خالداً لم يكن صادقاً في خبره، وأنه يقصد مآرب بعينه، فغضب غضب شديداً وأمر بعزله عن إمارة المدينة، وآلى الا يوليه على عمل له أبداً(١). وأمر أن تضم إمارة المدينة إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي الذي سبق أن عينه هشام أميراً على مكة المكرمة والطائف، وأكرم عبدَ الرحمن بن القاسم وسأله عن أحوال المدينة وأهلها. وكان ذلك سنة مائة وثمانٍ للهجرة(٢).

---

١) نسب قريش ٢٨٠.

٢) انظر الكامل ٢٢٤/٤ وتاريخ خليفة بن ضياط ٩٤٣.

المدينة في إمارة محمد بن هشام:

كان محمد بن هشام قد ولي مكة والطائف في السنة نفسها التي ولي فيها خالد بن عبد الملك المدينة (سنة مئة وأربع عشرة)، وهو ثالث فرد في أسرة واحده تتولى إمارة المدينة، فأبوه هشام قد وليها من ٨٣ - ٨٧، وأخوه إبراهيم وليها من ١٠٦ - ١١٤ وجاء هو ليتولاها إلى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك سبع سنين متوالية، ولتصبح جزءاً من ولايته التي تضم مكة والطائف أيضاً فيجتمع الحجاز في ولاية أمير واحد.

وكان محمد بن هشام يتردد على المدينة ويقيم فيها بعض الوقت وينظر في أمورها ثم يعود إلى مكة، ثم ينتقل منها إلى الطائف، وكان مركزه الرئيسي مكة، لذلك كانت غيبة الأمير الطويلة عن المدينة تحول الإمارة إلى إدارة هادئة، تنظر في الأمور اليومية العادية، وتجعل بقية الموظفين من شرطة ومحتسبين ونظار الأسواق هم المتنفذين الحقيقيين في أمور المدينة، وتجعل القضية السياسية فاترة أو غائبة عن ساحة الجدل والحوار، لاسيما وأن الاستقرار والهدوء هما السمتان اللتان ميزتا خلافة هشام بن عبد الملك الطويلة - حوالي عشرين سنة - وكانتا سمة واضحة في حياة المدينة المنورة أيضاً إذ لم يتقلب عليها سوى ثلاثة أمراء، اثنان منهما أخوان وهما إبراهيم ومحمد بن هشام وهما خالا الخليفة، وواحد منهما أموي وهو خالد بن عبد الملك. وكانت إمارة كل واحد منهما طويلة، أقصرها إمارة خالد التي تجاوزت أربع سنوات، ولم تشهد المدينة طوال هذه الإمارات أحداثاً سياسية فاقعة.

ولا شك أن الهدوء والاستقرار وطول إمارة الأمير سيجعل الناس يعيشون أحداث حياتهم اليومية العادية بين العمل والعلم والعبادة والعلاقات الاجتماعية والمشاحنات الصغيرة التي سرعان ما تنقضي، وتجعل مادة السمر والأحاديث تعتمد على ما يفد من أحداث الجهاد في الثغور الرومية وعلى مفردات الحياة اليومية. كما أن هذا الهدوء جعل مشاركة أهل المدينة في

بعوث الجهاد أوسع، فكانت لهم فرق خاصة بهم في الحروب ضد الروم، وكان يتولاها أحد أبناء المدينة أو ما حولها ، وتسمى عادة (ربع المدينة)، وكان المجاهدون يتناوبون السفر إلى الثغور في الصائفة والشتوية، ويعودون إثر كل غزوة إلى المدينة حاملين معهم ما أفاء الله عليهم من الغنائم، ليمضوا مدة من الوقت بين ذويهم وأقاربهم، قبل أن يعودوا إلى الثغور ثانية. كما كان يفد إلى المدينة في مواسم الحج من يحمل المال الوفير لتوزيعه على فقرائها، وعندما يفد أمير أموي أو وال من ولاة الأمصار يحمل مزيداً من المال ليوزعه على الفقراء وغير الفقراء من أهل المدينة إكراماً لها ولأهلها.

وقد وفد عام مئة وتسعة عشر للهجرة مسلمة بن هشام بن عبد الملك ابن الخليفة ومعه ابن شهاب الزهري التابعي الجليل والفقيه الكبير وابن المدينة الذي أقام في الشام، فوزع فيها أموالا عظيمة على الفقراء وغير الفقراء تودداً لأهلها، والتف الناس حول ابن شهاب ورأوا مكانته في بيت الخلافة ومدى احترام مسلمة بن هشام وطاعته له.

ووسط هذا الجو الهادئ في المدينة اشتدت الحركة العلمية وكثرت حلقات الدارسين في المسجد، وكثر الوراقون والكتبة الذين يدونون الأحاديث والأحكام.

وكان من فوائد هذا الجو الهادئ أن نعم آل علي بن أبي طالب بالراحة، ولو أن العيون لم تنصرف عنهم نهائياً، ونعم آل الزبير بالراحة والسكينة أيضا، وانصرف الكثيرون منهم إلى العلم وإدارة المزارع والبساتين والأعمال التي يملكونها.

غير أن واحداً من آل علي كان محط المراقبة أكثر من سواه هو زيد بن علي بن الحسين، فقد نقل عنه الوشاة غير مرة أنه يتطلع إلى الخلافة، ولكن سياسة الخليفة هشام إزاءهم كانت إكرام آل علي وعدم استثارتهم إلا إذا بدر منهم شيء، وقد سافر زيد بن علي غير مرة إلى هشام فأكرمه، وسافر إلى

العراق فاستقبله واليها خالد بن عبد الله القسري وأكرمه، وكان خالد يحسن ضبط الأمور في العراق، لذلك لم يتمكن الشيعة من تحريض زيد بن علي بن الحسن على الخروج كما فعلوا بأسلافه من قبل.

وفي سنة إحدى وعشرين ومائة جاء البريد إلى أمير المدينة محمد بن هشام أن يحقق مع زيد بن علي فيما إذا كان لديه مال لخالد بن عبد الله القسري، وكان الخليفة قد عزل خالداً عن العراق وولى عليها غريمه يوسف بن عمر الثقفي فاتهمه بتهم شتى، منها أن ابنه يزيد بن خالد أودع مالاً عظيماً عند زيد بن علي ليستعين به على الخروج على الخليفة عندما تسنح الفرصة (١) فكتب الخليفة الى محمد بن هشام ليحقق في هذا الإدعاء، فجاء الأمير إلى المدينة واستدعى زيداً وسأله فأنكر زيد ذلك الإدعاء واستحلفه فحلف، فصدقه الأمير وأطلقه، ثم طلب منه أن يتوجه إلى الخليفة في دمشق ليؤكد له بنفسه بطلان التهمة، فذهب زيد إلى دمشق، ولقي الخليفة وحلف له فصدقه الخليفة وبعثه إلى والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، وخاف زيد إذا سافر إلى العراق أن يؤذيه يوسف بن عمر، ولكن الخليفة طمأنه وكتب كتاباً بذلك ليوسف. فسافر زيد إلى العراق، وكانت سفرته طريقاً إلى قدره المقدور.

فبعد أن قابل يوسف وواجهه يوسف بيزيد بن خالد وبرأه يزيد من تهمة حيازة الأموال، تركه يوسف. فأقبل عليه بعض أهل الكوفة، وما زالوا يغرونه بطلب الخلافة، ويعاهدونه على النصرة، حتى وثق بهم وتزوج فيهم ووقع فيما وقع فيه بعض أسلافه، رغم نصيحة كل أقاربه له بعدم الثقة بالكوفيين وعدم التهور، ولكن زيداً لم يأخذ بالنصائح.

وتوالت الأخبار إلى المدينة باتساع أمر زيد في السر، وبكثرة عدد مبايعيه، ولكن هذه الكثرة لم تكن لتمنع أهل المدينة من أن يتذكروا ما حدث لأسلافه الثائرين من قبل، وهاهي ذي الملحمة الدامية تتكرر ثانية، فتأتي

---

١) الطبري ١٢١/٧.

الأخبار المحزنة إلى أهل المدينة أن زيداً قد أعلن الثورة بالكوفة في أول صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة للهجرة، وأن ماحدث للحسين قد تكرر معه ، فقد خذله كثير ممن بايعوه، ولم يثبت معه إلا رجال قليلون قاتلوا قتالا شديداً ثم سقطوا مضرجين بدمائهم، واحتزت رؤسهم ونصبت للناس. وباتت المدينة تبكي رجلا آخر من رجالها، وبات الهاشميون يتحسسون من ردة الفعل لهذا العمل المتهور ويتألمون لذلك الغدر المتكرر من الكوفيين.

وما لبث الحزن أن بلغ أوجه عندما وصل رأس زيد بن علي الى المدينة لينصب فيها، إرهاباً لمن تحدثه نفسه بالخروج على طاعة الخليفة(١) فكان في الناس من يتألم له، ومن يتألم منه، فما كان لمثله أن يقتل ويمثل به هذا التمثيل، وما كان له أن يشق عصا الطاعة ويخرج على الخليفة دون مسوغ من جهة، ودون استعداد حقيقي ودون أن يأخذ بنصائح أهله وأقارب من جهة أخرى.

ومرت الشهور، وما لبثت المدينة أن استعادت هدوءها وسكنت أحزان الهاشميين، وعاد الناس إلى حياتهم العادية، وعادت إليهم العطاءات وأموال الفيء الواردة من الثغور، وتحول الأمير إلى المدينة وجعل إقامته الأساسية فيها.

وفي هذا الوقت شهدت الأسرة الأموية بعض التبلبل والانقسام، ذلك أن هشام بن عبد الملك رغب في أن يعزل ولي عهده الوليد بن يزيد بن عبد الملك عن ولاية العهد لما رآه من مجونه وتهتكه، وأن يولي مكانه ابنه مسلمة بن هشام بن عبد الملك. ولكن الوليد احتاط للأمر فخرج من دمشق مع مواليه واتباعه ورفض الاعتزال، واستشار هشام بذلك كبار الأسرة الأموية، ومنهم خالد محمد بن هشام أمير المدينة وعدداً من الأمويين المقيمين في المدينة، فوافقه خالد على العزل، وتردد بعض الأمويين، وأصبحت القضية موضع جدل

---

١) الطبري ١٨٩/٧.

بينهم، ذلك أن في عنقهم وعنق الناس بيعة للوليد منذ خلافة الوليد بن عبد الملك، أي قبل أن يتولى هشام بن عبد الملك الخلافة، وعندما تولاها هشام كان في صك البيعة نص يبين أن ولي عهده والخليفة من بعده هو الوليد بن يزيد، وقد أخذت البيعة من الأمويين ومن سائر الناس عليها. لذا فإن تغييرها سيحتاج إلى خلع تلك البيعة وتغييرها ببيعة جديدة. وربما يحدث هذا فتنتة بين الناس، فقد كان للوليد رغم مايشاع عنه من مجون أنصار في البيت الأموي، وكان الاستقرار الذي وطده هشام قرابة عشرين سنة يجعل الناس ينفرون مما قد يؤدي إلى فتنة أو اضطراب.

وفي أواخر شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومئة للهجرة، تمزق الهدوء الذي لف المدينة سنوات طويلة، فقد فاجأ الناس صوت مناد وقف على ثنية الوداع الشامية في مدخل المدينة، وجعل ينادي: يا أهل المدينة مات الخليفة هشام الأحول، واستخلف أمير المؤمنين الوليد بن يزيد.

تجمع الناس إلى صاحب الصوت، فإذا به ابن مكدم الثقفي أحد أخوال الوليد بن يزيد الخليفة الجديد، وإذا به يحمل لهم أخباراً جديدة ومثيرة، فقد تم الأمر للوليد ولم ينازعه أحد من الأمويين، وذابت فكرة خلافة مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، بل إن مسلمة نفسه قد بايع للوليد بالخلافة، وقبض على عدد من المقربين للخليفة السابق هشام، ووضعت الحراسة على أموالهم، ولكن أهم خبر حمله ابن مكدم، هو أن الوليد أمر بزيادة عطاء الناس جميعاً، فسيزداد عطاؤهم.

أحس الناس بمشاعر مضطربة ومختلفة، فلم يكن أهل المدينة يتشيعون للوليد ضد هشام، ولكنهم كانوا قد حنقوا على هشام لأمرين: أمر السوق الذي أقامه له خاله محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي أمير المدينة والذي أخذ بعض دورهم. وفي نفوس الناس شيء من أميرهم هذا أيضاً، والأمر الثاني هو قتل زيد بن علي ونصب رأسه بالمدينة، لذلك اهتاج عدد من

الحاضرين، وفرحوا، وأدركوا أن التغييرات قادمة إليهم في المدينة أيضاً.

ثورة في السـوق:

سار بعض أهل المدينة مع القادم الجديد إلى دار الإمارة، وقبل أن يصلوها مروا بالسوق الكبيرة المبنية، فصاح به بعضهم: ماتقول في هذه الدار. وأدرك الثقفي أن أهل المدينة مغتاظين منها فناداهم: اهدموها اهدموها. وكان نداؤه الشرارة التي أثارت حماستهم، فهجموا على أبواب السوق يقتلعونها، ثم مضى بعضهم إلى دكاكين الحدادين فأحضروا الفؤوس وقضبان الحديد، وأغاروا على جدران السوق يثلمونها ويسقطونها جزءاً جزءاً، وفزع التجار، فحملوا بضائعهم وخرجوا بها بعيداً عن البناء، وسار الخبر في المدينة، فأقبل الكثيرون يشاركون في هدم المبنى الكبير، وبلغ الأمير الخبر وعلم أن الناس مهتاجون وأن عددهم أكبر من أن تكبحهم شرطته، فلم يحرك ساكناً. ومضى النهار وقد تحطمت أجزاء عدة من جدار السوق ودكاكينه. فلما طلع اليوم الثاني واصل الناس هجمتهم عليه ونهبوا الأخشاب الثمينة من السقوف والمشربيات وما بقي من الأبواب، فكانت ثورة تنفس ما تجمع في صدورهم من غيظ طيلة سنوات عدة. وقد استمرت هذه الثورة في اليوم الثالث وشارك فيها كل من يطمع في خشب ثمين أو حجر منقوش، ولم يمض ذلك اليوم حتى سوي البناء الكبير بالأرض، ولم تعد له قائمة. وعاد السوق فسحة ممتدة تؤذيها ركامات الأتربة والحجارة التي تساقطت من البناء، والتي بدأ الناس يسحبونها منه.

ولم تنته ثورة السوق حتى وصل البريد بعزل أمير المدينة محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي وإشخاصه إلى الشام لمحاسبته، وتولية أمير جديد عليها هو يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي أحد أبناء الطائف وقريب الحجاج بن يوسف الثقفي المشهور. فغادر محمد بن هشام المدينة إلى الشام وهو لايدري أي مصير سيلقاه. بينما المدينة تنتظر قدوم أميرها الجديد.

نهايـــة تعيســـــة:

وصل الأمير الجديد في الثامن عشر من شعبان عام ١٢٥هـ، وتقاطر الناس إلى دار الإمارة ليسلموا عليه، ففوجئوا بأميرهم السابق محمد بن هشام ملفوفاً بعباءته، مقيداً بالأغلال، ومقاماً للتنكيل به على باب الامارة قرب المسجد، والشرطة تهينه بين الحين والحين، وإلى جانبه أخوه إبراهيم بن هشام أمير المدينة الأسبق لمدة ثماني سنوات (١٠٦ - ١١٤هـ) مقيداً مثله، وأدركوا أن الخليفة الجديد إنما يريد أن ينكل بأخوال الخليفة القديم وأعوانه الذين وافقوه على خلع بيعة الوليد وتحويلها إلى مسلمة بن هشام، وقد حوسب الأميران السابقان حساباً عسيراً، واتهما باستغلال منصبيهما واستخرجت منهما أموال طائلة، ومكث المسكينان في هذا الذل عدة أيام، ثم نقلا مقيدين إلى العراق ليعذبهما والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، ولتنتهي حياتهما تحت التعذيب القاسي أتعس نهاية.

المدينة في إمارة يوسـف بن محمد الثقفي:

ولا شك أن بداية إمارة يوسف بن محمد بن يوسف بهذا العرض المرهب قد أدخل في نفوس الناس شيئاً من الخوف، يزيده ماعرف عن الثقفيين من شدة وبطش، فاستكانت المدينة لإمارته، وانصرف الناس إلى أعمالهم متعجبين مما تجره الإمارة والسياسه، فبينما المرء عزيز في إمارته يأمر وينهى ويسجن ويبطش، إذا به بين ليلة وآخرى ذليل مهين تسومه شرطته التي كانت تأتمر بأمره سوء العذاب، فتجنب معظم الناس مجالس الإمارة، وزادهم بعداً عنها أن الأمير لم يعد مشغولا بهم وحدهم، فقد أصبحت المدينة جزءاً من إمارة الحجاز كلها، والأمير ينتقل بينها وبين مكة والطائف، يوزع اهتماماته في المدن الثلاث.

كان الأمير الجديد خال الخليفة الجديد أيضاً، ولاشك أن اهتمام الخلفاء بتعين أقاربهم ولاة عليها إنما هو بسبب مكانتها عندهم، ومكانتها في نفوس

المسلمين، ورغم خوف الناس من سمعة الثقفيين فان الأمور قد تحسنت في بداية الأمر، إذ ازداد عطاء الناس، وجاءت أموال آخرى إضافية للمدينة في موسم الحج، ولم يحدث ما يعكر صفو الحياة الماضية في رتابتها وهدوئها..

غير أن الأخبار كانت تتوارد مع القوافل القادمة من دمشق عن الغليان فيها، فالخليفة الجديد لم يقلع عن عن المجون الذي عرف به قبل توليه الخلافة، وحكايات مجالس الشراب والقيان تنتقل بين الناس فتثير غضبهم، ووجوه البيت الأموي منزعجون كل الانزعاج مما يسري بين الناس، وما لبثت الأخبار أن جاءت بنقمة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ابن عم الخليفة على تصرفات الخليفة، وتأليب الناس عليه، وكانت سمعة يزيد بن الوليد طيبة بين الناس، فقد عرف بالصلاح والتقوى. وكان أهل المدينة يتناقلون ما يصلهم من أخبار، وينتظرون مع المنتظرين، ولم تكن بهم أية رغبة في الثورة على الخلافة، فالفواجع الماضية قد علمتهم ألا يتهوروا بتصرف مرتجل، قد يؤدي إلى مذبحة جديدة، وشدة الوالي الثقفي وعيونه المبثوثة تحول دون التفكير في شيء من ذلك، والهاشميون منطوون على جراحات كثيرة، آخرها مقتل زيد بن علي بن الحسين في العراق ومن بعده ابنه يحيى بن زيد في خراسان، وهم أعقل من أن يتهوروا بعمل طائش، لذا لم يحرك أحد في المدينة ساكناً رغم ما يتردد من أخبار حول الخليفة والفتنة.

ولم تمض شهور قليلة حتى جاء الخبر بثورة في الشام على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قادها ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وانتهت بقتل الخليفة ومبايعة قائد الثورة بالخلافة في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ، وتبعت هذه الأخبار أوامر جديدة من الخليفة الجديد بعزل أمير المدينة عن إمارته، لكونه خال الخليفة المقتول، وتولية أمير جديد هو ابن أحب رجال بني أمية إلى المدينة بل وإلى الناس جميعاً عمر بن عبد العزيز، فالأمير الجديد هو ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز.

والمعروف أن صلاح الآباء سيظهر في حسن تربية الأبناء ونجابتهم، ولقد ظهرت آثار هذه التربية والنجابة فيه(١)٠

المدينة في امارة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز:

وصل الأمير الجديد في الثامن والعشرين من ذي القعدة ١٢٦هـ دون ضجة، وتسلم الإمارة من سلفه بهدوء كامل، ولم يسء اليه بشيء، ولم يتهمه بتهمة، وجلس يستقبل الناس ويسألهم عن أحوالهم ومشكلاتهم ويحسن إليهم. ولم يكن هذا الأمير غريباً عليهم، فقد نشأ في صغره بينهم أيام إمارة أبيه عمر بن عبد العزيز على المدينة، ودرس على شيوخ المسجد النبوي، وعرف مكانة الناس فيها، وأخذ عن أبيه حسن الرعاية والاهتمام بشؤون الناس، فمضت الحياة في المدينة المنورة في عهده هادئة، رخية، لاتشكو من شدة أو قسوة ولا يصيبها شيء من التمزق الذي أصاب الحياة العامة في الشام والعراق. وكان مقتل الوليد بن يزيد بداية النهاية في البيت الأموي، فقد اختلف بنو أمية على الخلافة من بعده، ورفض بعضهم البيعة ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، وثار عليه أهل حمص وأهل فلسطين، وبدأت الفتنة بين القيسية واليمانية في العراق وخراسان، وتوفي الخليفة في السابع من ذي الحجة من العام نفسه ولم يمكث في الخلافة الا سبعة أشهر، فخلفه أخوه إبراهيم بن الوليد، فاشتدت الفتنة بين الأمويين، وسار مروان بن محمد بالجيوش رافضاً بيعة ابراهيم، وثار أهل حمص ثانية، وخرج في الكوفة عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب. وهكذا اشتعلت الحرائق السياسية في أماكن كثيرة، وسلمت منها المدينة لحسن سياسة أميرها ، وزهد الناس في قضية الخلافة ومشاكلها، فظلت بعيدة عن الفتن والصدامات والدماء٠

وكانت منزلة الأمير عبد العزيز بن عمر عالية عند الأمويين كلهم، فلم يتأثر بتغيير الخلافة وانتقالها بين الأمويين المختلفين من طرف إلى طرف،

---

١) الطبري ٧/٢٩٥.

فعندما تولى إبراهيم بن الوليد الخلافة أبقاه في إمارته، وعندما خلفه مروان بن محمد أبقاه أيضاً في الإمارة، وانشغل مروان بن محمد باطفاء الفتن المتوالية في الشام والعراق وخراسان، واستمرت الحياة الهادئة في المدينة المنورة.

غير أن مروان بن محمد احتاج لعبد العزيز بن عمر في بعض حروبه، فأرسل عام ١٢٩هـ يستدعيه، وولى مكانه أميراً آخر هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وضم إليه مكة والطائف أيضاً، فانتهت الفتره العسلية الثانية في حياة المدينة المنورة في العهد الأموي.

المدينة في امارة عبد الواحد بن سليمان:

لم يكن عبد الواحد كسلفه عبد العزيز لين الجانب متواضعاً، بل كان فيه شدة وقسوة ورثهما عن أبائه، وقد شهدت المدينة في عهده ملحمة آخرى فقدت فيها عدداً من أبنائها البررة، ولم تكن هذه الملحمة خروجاً على الخليفة الأموي هذه المرة، بل كانت دفاعاً عن الخلافة الأموية، والمواجهة الأولى مع الخوارج.

ففي موسم الحج من هذا العام خرج الأمير عبد الواحد بن سليمان إلى مكة ليقود الحجيج في المشاعر، وبينما الناس واقفون في عرفة، فوجئوا بحشد من الخوارج يحملون عمائم سوداً حرقانية على رؤوس الرماح يقودهم أبو حمزة الخارجي، وأعلن هؤلاء أنهم خلعوا طاعة مروان بن محمد وتبرأوا منه، وبايعوا عبد الله بن يحيى العلوي الملقب بطالب الحق، وهو أحد أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنه ، ففزع عبد الواحد وخشي أن يفسد هؤلاء الحج أو أن يفتكوا بالناس. ومع أن عددهم لايتجاوز سبعمائة رجل إلا أن شهرتهم في البطش وسفك دماء المسلمين الذين لايوافقونهم في آرائهم خوف الناس منهم. لذا أرسل عبد الواحد رسلا يطلب منه المهادنة، فاستجاب أبو حمزة لطلب عبد الواحد ووافق على إقامة هدنة طوال أيام الحج. ووقف الناس

في جهة من جهات عرفة ووقف الخوارج في جهة أخرى، ثم نزل كل منهم إلى جهة في منى.

وحرض بعضهم الأمير عبد الواحد للقضاء عليهم في الموسم، خاصة وأن الحجاج كثيرون ويمكن أن يغلبوهم، ولكن عبد الواحد أبى، وخشي أن ينقض أبو حمزة العهد فيشن هجوماً على أتباعه، لذا أرسل اليه وفداً من وجوه أهل المدينة وفيهم أحفاد الحسن بن علي وعثمان بن عفان وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، فدخلوا على أبي حمزة واستوثقوا منه المحافظة على الهدنة فأكد لهم ذلك. ووجد عبد الواحد في بقية أيام الحج فرصة للتصرف، فنزل مسرعاً إلى مكة واتجه منها إلى المدينة ولم يبت ليالي منى.

وفوجيء أهل المدينة بالمنادي يستنفر الناس لمواجهة الخوارج ويعلن عن عطاء خاص لمن يشارك في الحملة، وفتح ديوان الامارة ليستقبل المتطوعين في الحملة، وبينما كان أهل المدينة يستعدون بالزاد والسلاح، نزل أبو حمزة من منى إلى مكة ووجد الأمير قد هرب، ولا أحد يتصدى له، فدخلها بغير قتال واستولى على دار الإمارة، وجمع الناس في المسجد الحرام ونقض بيعة الخليفة الأموي وبدأ الاستعداد للتوجه إلى المدينة لتخليصها من نفوذه.

ملحمة أخرى في قديد:

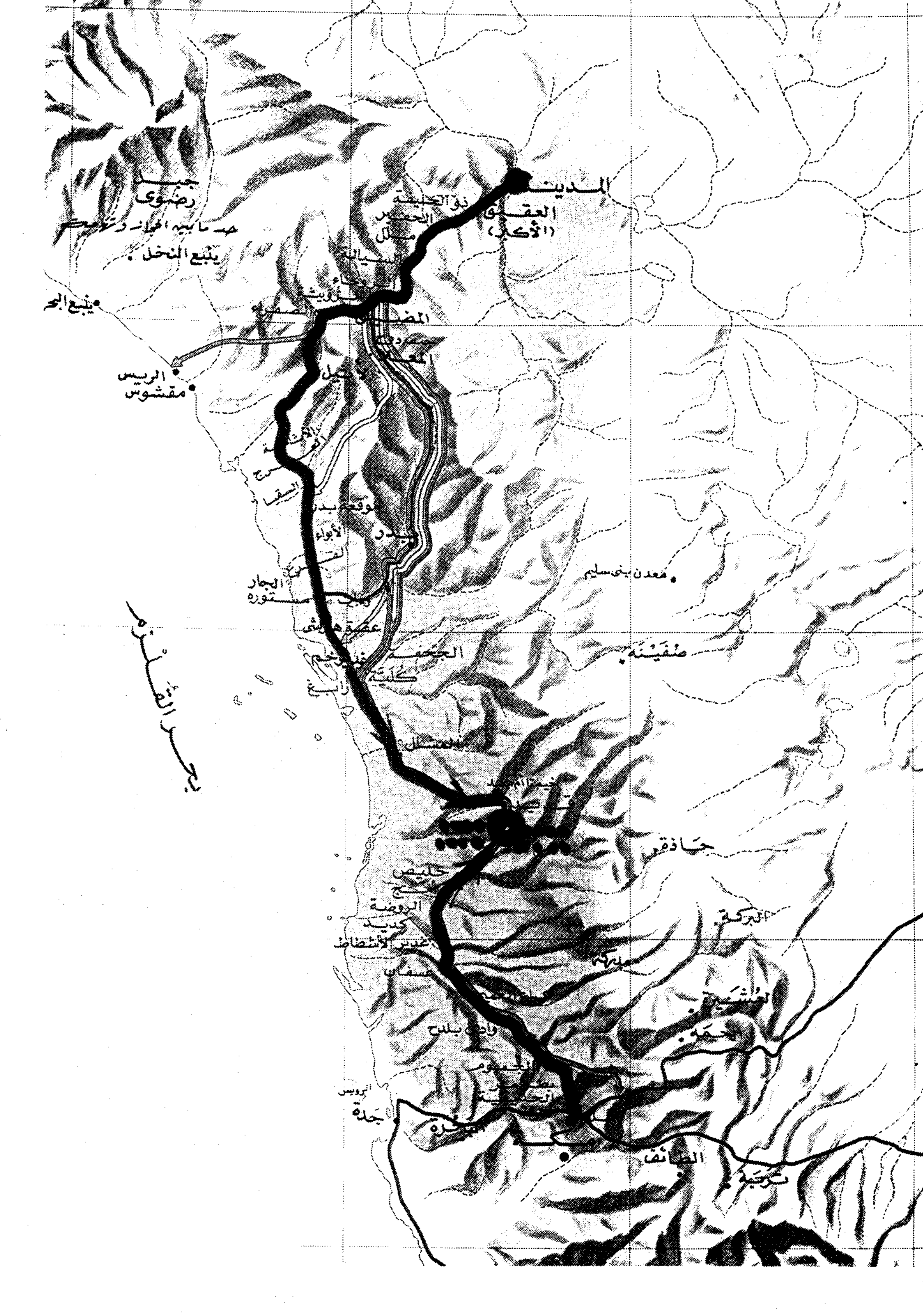
لم يطل أبو حمزة مقامه في مكة، وخرج منها بجيشه الصغير إلى المدينة ، فيما كان رجال الإمارة في المدينة يستحثون الناس للانخراط في جيش المواجهة وقد تثاقل كثير منهم عن الخروج، فالمدينة لم تشهد حرباً منذ مدة طويلة، والذين تمرسوا في القتال مسافرون في الثغور، ورغم المغريات التي أعلنها عبد الواحد بن سليمان فإن العدد الذي تجمع في جيش المدينة لم يبلغ ألف مقاتل. وعندما جاء الخبر بخروج جيش أبي حمزة أمر عبد الواحد جيش المدينة بالتحرك لملاقاته في الطريق، وعين قائداً له هو عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، ولم يخرج عبد الواحد معهم، فسار الجيش

حتى نزل منطقة قديد في أوائل صفر عام ١٣٠هـ ولم تكن لدى قائده الخبرة العسكرية ولا الحنكة التي تجعله يحسن التصرف في هذا الموقف العصيب، فضلا عن أن معظم الخارجين في الحملة كانوا من المترفين وليسوا أصحاب حرب(١) لذا لم يتخذ الجيش احتياطاته الأمنية اللازمة عندما نزل في قديد، ولم يرسل طلائع الاستكشاف لمعرفة مكان العدو، واكتفى بأن ضمن مورد المياه من أبار قديد التي استحوذ عليها، بينما استعان أبو حمزة الخارجي ببعض القاطنين في المنطقة من قبيلة خزاعة، وعرف منهم مسالك المنطقة وثغراتها، واستفاد من المباني الموجودة في قديد، فأرسل مجموعة من رجاله تسللوا واختبأوا فيها، ليفاجئوا جيش المدينة.

ومع أن أبا حمزة نجح في صنع المفاجأة، فإنه لم يهاجم أهل المدينة مباشرة بل (أعذرهم) وجعل مناديه ينادي فيهم (إنا والله ما لنا حاجة في قتالكم، دعونا نمضي إلى عدونا) فأجابه مناد من جيش المدينة بالرفض، وكرر أبو حمزة النداء وطلب وضع السلاح وحقن الدماء، وأعلن أنه إنما يتصدى للأمويين وحسب، ولكن قادة جيش المدينة استخفوا بعدد رجاله وأصروا على المواجهة، فهاجم الخوارج جيش المدينة، وجعلوا يطلعون عليهم من مخابئهم ويفاجئونهم ويعملون فيهم السيف، وذعر الكثيرون وبدأوا يفرون فيتصدى لهم المختبئون، وتساقط الشهداء، وقتل قائد جيش المدينة عبد العزيز بن عبد الله، وصمد بعض أهل المدينة، ولكن خصومهم كانوا أشد قوة وأكثر دراية بالكر والفر، فتمكنوا منهم وأثخنوهم، وبدأ بعضهم يستسلم ويطلب الأمان، ونجح بعضهم الآخر في الهرب من أرض المعركة والتجأ إلى القبائل المجاورة، وأسرع بعضهم هارباً إلى المدينة. وسرعان ما انتهت المعركة بخسارة فادحة بلغت سبعمائة رجل من أبناء المهاجرين والأنصار والموالي، فما من فرع من فروع أهل المدينة إلا ونكب بقتيل أو جريح،

---

١) الكامل ٣١٤/٤.



معركة قديد بين قوات المدينة والخوارج بقيادة أبي حمزة الخارجي

وعادت فلول الجيش إلى المدينة فرادى، تضمد جراحاتها المثخنة وتحمل للناس نعي الشهداء، وضجت البيوت بالبكاء، وخرج الأمير وحاشيته إلى الشام طلباً للمدد، ولم يعد فيها من يقدر على مواجهة الغزاة القادمين، ومكث أهل المدينة ينتظرون وصول أبي حمزة، ويترقبون ما سيفعله.

الخوارج في المدينة:

ولم يطل الانتظار، فبعد سبعة أيام من الموقعة الدامية، وصل جيش أبي حمزة، فوجد أهل المدينة قد دخلوا بيوتهم، وأغلقوا عليهم أبوابهم، ولم يتصد له أحد منهم، فدخل المدينة واحتل الإمارة. وأرسل المنادي ينادي في الشوارع بالأمان.

التزم رجال أبي حمزة بعهد الأمان، فلم يتعرضوا لأحد بسوء، ورأى الناس منهم تعظيماً لحرمة المدينة وإجلالا للمسجد النبوي، ورأوهم يصلون الصلاة الخاشعة ويقومون الليل بالصلاة والتلاوة، وخطب فيهم أبو حمزة خطبة قوية لام فيها جيشهم على القتال، وأكد لهم أنهم يقصدون طاعة الله ورسوله، وأنهم ثائرون على بني مروان لأن بني مروان يظلمون الناس ولا يحقون الحق، وقد سجلت كتب التاريخ خطبته لبلاغتها وقوة معانيها ومما قاله: يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: شباب أحداث، وأعراب جفاة، ويلكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفساً لاتموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً الى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة،

فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل، وكم من يد زالت عن مفاصلها طالما اعتمد بها صاحبها في سجوده لله، وكم من خد عتيق وجبين رقيق فلق بعمد الحديد. رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان . أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب(١).

وتوالت الأيام والخوارج مقيمون في المدينة لايؤذون أحداً، وعلى العكس من ذلك كانت صلواتهم الخاشعة تعجب الناس، وكان تأكيد أبي حمزة على القيام بأمر الله على وجهه الصحيح وتوزيع الأموال في المسالك التي قررها الإسلام يُحسِّن النظرة فيه، حتى ظن الناس به خيراً وأحبوه واقتربوا منه وسمعوا أحاديثه في مجلسه في الإمارة وفي المسجد وفي خطاباته.

ولكن أهل المدينة الذين توارثوا السنة النبوية وفقهوها حق الفقه ما لبثوا أن سمعوا من أبي حمزة ورجاله عبارات تدل على اضطراب فقههم وسوء توجيههم للأحكام الإسلامية، فقد سمعوه يقول على المنبر (من زنى فهو كافر، ومن شك فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شك أنه كافر فهو كافر)(٢) فأدركوا أنه يستبيح دم الناس بسهولة. فليس في سنة رسول الله ﷺ أن يكفر الناس بالمعصية. وتغيرت نظرتهم إليه والى أصحابه، ورأوا أنهم متطرفون، ضيقو الأفق، لايفهمون الشريعة الإسلامية على وجهها الصحيح، رغم صلواتهم الخاشعة. فالإسلام يحمي دم المسلم ويجعل حرمته عند الله أكبر من حرمة الكعبة، لذلك أعرضوا عنهم وبدأوا يحذرونهم.

وامتدت إقامة أبي حمزة الخارجي ورجاله ثلاثة أشهر، ورأى أبو حمزة أنه لم يدخل في قلوب أهل المدينة، ولم يمسح جراحهم المؤلمة في قديد، فلم يتبع مذهبه منهم سوى رجل واحد من مواليهم، كان يميل إلى معتقدهم من

---

١) الطبري ٣٩٦/٧.

٢) الطبري ٣٩٧/٧.

قبل، فلما جاؤو انضم إليهم، وهو عبد العزيز القاري، المشهور بشكست النحوي.

وجاءت الأخبار إلى المدينة بأن الخليفة الأموي مروان بن محمد قد جهز أربعة آلاف من خيرة فرسانه لطرد الخوارج من الحجاز، وتتبع زعيمهم عبد الله بن يحيى في اليمن واستئصال فتنته. ورغم انشغال مروان بن محمد بالفتن الكثيرة آنئذ وبالعباسيين الذين يهددون الدولة الأموية بشر خطير، فإنه قد اهتم بفتنة الخوارج هذه اهتماماً شديداً، فانتقى لها من خيرة فرسانه، وأعطى كل فارس مائة دينار، وفرساً عربية، ودروعاً لم ير مثلها في ذلك الزمان، وبغلا ليحمل عليه أثقاله، وانتقى لقيادة الجيش عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي من قبيلة هوازن المعروفة بشدة رجالها(١).

وعندما علم أبو حمزة بخروج الجيش الأموي عبأ رجاله وهيأهم لملاقاة الجيش القادم، وودع أهل المدينة بخطبة لم تخف شعوره بأنهم لم يحبوه، ومع ذلك وعدهم إن ظفر على الأمويين بحسن السيرة والعدل، وكان مما قاله لهم: يا أهل المدينة، إنا خارجون إلى مروان، فإن نظفر نعدل بينكم، وإن يكن ما تمنون فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(٢) وخرج برجاله من المدينة في أوائل جمادى الأولى عام ١٣٠هـ، ولم يخرج معه أحد من أهلها سوى عبد العزيز القاري الذي انضم إليهم. وتقول بعض المصادر(٣) أن أبا حمزة قد ترك بعض أتباعه في المدينة ، بينما تقول مصادر أخرى إنه خرج بأصحابه جميعاً(٤)وعلى أية حال لم تمض سوى أيام قليلة حتى وصلت الأخبار بأن جيش أبي حمزة قد التقى عند وادي القرى بجيش ابن عطية،

---

١) الطبري ٣٩٩/٧

٢) الطبري ٣٩٩/٧.

٣) الطبري ٣٩٨/٧.

٤) ابن الأثير ٣١/٥.

ودارت الدوائر على الخوارج فقتل معظمهم ونجا منهم القليل، ولم يلبث أن وصل إلى المدينة فلول منهم فرأى فيهم بعض أهل المدينة الجنود الذين قتلوا اخوانهم في قديد وجرحوا وأسروا، فغلت الحمية في نفوسهم، وهاجموهم وقتلوهم كي لايبقى من جيش الخوارج أحد.

وصل جيش ابن عطية إلى المدينة في نهاية جمادى الأولى ودخلها سلماً، وسر ابن عطية بما علمه من قتل أهل المدينة لفلول الخوارج وأحسن إلى بعضهم (١) ومكث في المدينة شهراً يتردد فيه إلى المسجد النبوي ويلتقي بالناس، ثم خرج بجيشه قاصداً اليمن لملاقاة زعيم التمرد عبد الله بن يحيى، واستخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد بن عطية.

عادت المدينة إلى سكينتها بعد انتهاء زوبعة الخوارج، وأقام الوليد بن عروة فيها يدير شؤونها، وبينما الفتن مستعرة في الشام والصدام بين جيوش مروان ومناوئيها من الأمويين أنفسهم والعباسيين تتقاتل بشراسة، كانت المدينة تنعم بالهدوء والسكينة يقصدها طلاب العلم والزائرون والتجار، ويحملون معهم أخبار الاضطرابات وتمزق كلمة الأمويين وزحف جيوش العباسيين من شمال خراسان إلى أطراف العراق.

وجاء موسم الحج عام ١٣١هـ واستعد بعض أهل المدينة للخروج، وفوجئوا بالأمير يشجع الناس على الخروج معه والاستعداد بالسلاح لكل طارئ يعرض في الطريق، فأخبار الفتن متواترة، والمغامرون كثيرون، واللصوص وقطاع الطرق يجدون في هذه الأجواء فرصة ذهبية لنهب أموال الناس.

كان من المفروض أن يتولى موسم الحج عبد الملك بن محمد عطية فقد جاء أمر الخليفة مروان بن محمد بتوليته الموسم، غير أن القادمين مع قوافل اليمن نعوا إلى الوليد بن عروة عمه عبد الملك وأبلغوه أن بعض القبائل قرب

---

١) الطبري ٧/٣٩٨.

مكة قد خرجوا عليه وهو قادم في اثني عشر رجل فقط إلى الحج واتهموهم بأنهم لصوص، ولم يصدقوا ابن عطية الذي أبرز لهم كتاب الخليفة بإمارته للحج وقتلوهم، فنقم الوليد بن عروة نقمة شديدة، ومضى بمن معه من الناس، فقاد موسم الحج، ثم أمر صحبه ومن أدركه من الجند في مكة أن يسيروا إلى القبيلة التي قتلت عمه، فساروا إليها وفاجأوها، وبطشوا بها بطشاً ذريعاً، وقتلوا بعض الفتية والنساء انتقاماً لعبد الملك بن عطية ولغيره ممن قتلوهم(١).

ويبدو أن مروان بن محمد الذي يقاتل خصوماً كثيرين في أطراف الشام والعراق وخرسان قد ساءه بطش الوليد بن عروة وفتكه بالصبيان والنساء، فرأى أن ينحيه عن المدينة ويستعين به في بعض معاركه، فأرسل بعزله وطلبه ليلحق به وبعث مكانه أخاه يوسف بن عروة.

البيـــعة الســـرية:

كان من بين شباب الهاشميين شاب قوي طموح هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وقد تفرس فيه عدد من أهل الحجاز النجابة والشجاعة، فأغروه باستغلال هذه الفرصة والدعوة لنفسه ووعدوه بالنصرة، ولكن محمد بن عبد الله بن الحسن لم يستجب على الفور، بل أخذ يفكر في الأمر ملياً، ويشاور أقاربه وأصحابه، فأشار عليه بعضهم بالخروج، وحذره بعضهم الآخر من أن تتكرر مأساة أسلافه فيه، واجتمع عدد من أحفاد الحسن والحسين وعبد الله بن العباس وبعض أهل الحجاز وقلبوا الأمر معه وشجعوه عليه فقبل، واجتمع عدد من الهاشميين والعباسيين سراً وخلعوا طاعة مروان بن محمد وبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن.

وكان مع المبايعين أبو جعفر المنصور الذي سيصبح خليفة بعد عدة سنوات، وستكون لمبايعته هذه أثر قوي على محمد بن عبد الله وأهل المدينة.

---

١) الطبري ٧/١٤٠-١٤١.

ولكن محمد بن عبد الله بن الحسن لم يعلن خروجه، وفضل أن يكمته ويراقب تطورات الأمور الى أن يجد الفرصة المناسبة فيخرج داعياً إلى نفسه. وظل الأمر داخل البيوت وخلف الأبواب المغلقة في المدينة ومكة، وظل في صدور عدد قليل من الناس ولم يشعر به أمير المدينة قبل أن يعزل، ولم تتح الفرصة للأمير الذي خلفه أن يشعر به أيضا(١).

نهاية العصر الأموي:

وفي هذه الفترة لغط الناس بضعف حالة الخلافة، وتفرق كلمة الأمويين وكثرة خصومهم. وكانت الأحوال السائدة في دمشق والعراق وخراسان تؤذن بقرب نهاية حكمهم، رغم الجهود الهائلة التي كان يبذلها مروان بن محمد. ولم يكن في المدينة من يفكر بمحاولة استعادة الخلافة وإعادتها إلى المدينة، فأهل طيبة قد دفعوا ثمناً غالياً في المرات التي خرجوا فيها على الخليفة، ولم يعودوا يفكرون في الأمر، باستثناء بعض الهاشميين الذين يغريهم شيعتهم في الكوفة وخراسان بين الحين والآخر.

ووصل الأمير يوسف بن عروة إلى المدينة في أواخر شهر ربيع الأول عام ١٣٢هـ ووصلت معه أخبار الاضطرابات الشديدة وهزائم جيوش مروان أمام زحف جيوش العباسيين بقيادة أبي مسلم الخرساني. واضطرب الأمويون من أهل المدينة اضطراباً شديداً، وما كاد يوسف يستقر في الامارة حتى وصل الخبر بأن العباسيين قد أحكموا سيطرتهم على العراق وبايعوا السفاح في الكوفة في ١٣ربيع الآخر، وبعد أقل من شهر وصلت أخبار هزيمة الجيش الأموي في موقعة الزاب الكبير ثم سقوط دمشق بعدها في العاشر من رمضان.

أدرك أهل المدينة بعد سقوط دمشق بيد العباسيين أن دولة الأمويين قد زالت، وراحوا يترقبون أثار هذا التغير على مدينتهم، ويخشون أن يكون على غرار ما يجري في المدن الأخرى، يستأصل فيه العباسيون من يجدونه من

---

١) انظر عن هذه البيعة: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ١١٧/٥

الأمويين، ويقتلونهم شر قتلة. واضطرب الأمير يوسف بن عروة، ولم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً، كما اضطرب جميع الأمويين في المدينة، وكان بعضهم يملك قصوراً مترفة على وادي العقيق، وبعضهم يملك المزارع والبساتين، وسواء أكانوا منغمسين في الحياة السياسية أم لا فان نسبهم الأموي سيجعلهم متهمين عند العباسيين.

ووردت الأخبار من الكوفة باستقرار أمر العباسيين تماماً، وبأن الخليفة السفاح قد عين عمه داود بن علي أميراً على المدينة ومكة واليمن، وانه قادم براياته السوداء لتخليصها من الأمويين(١)٠

فزع الأمير يوسف بن عروة ولم يجد ما يفعله سوى أن يترك الإمارة ويضرب في الأرض إلى حيث تقيم بطون من قبيلته ليحتمي بها. ولم يدر بخلد أهل المدينة أن يواجهوا العباسيين، أو أن يحموا الأمويين، فليسوا بأهل حرب، وما زالت دماء قديد شاهدة على قلة خبرتهم فيها، وليس لديهم دوافع تجعلهم يضحون من أجل الأمويين. وربما كان في نفوس الكثيرين بقايا ألم وجراح منهم، فضلا عن أن الأمويين في المدينة كانوا فئة متميزة بالثراء الواسع، وقصورهم على العقيق تشهد بذلك.

لذا عندما وصلت طلائع قافلة العباسيين نصب بعض أهل المدينة ثياباً سوداء على دورهم إعلاناً عن طاعتهم للعباسيين وطلباً للأمان، وكان العباسيون اذا لقيهم الناس بالسواد أمنوهم وقبلوا منهم البيعة.

واحتار الأمويون في المدينة ماذا يصنعون؟ هل يقبل منهم العباسيون البيعة وقد رفضوها من أقاربهم في الكوفة ودمشق وقتلوهم شر قتلة؟ أم هل يهربون؟ وإلى أين وجيوش العباسيين في الشام ومصر وهي قادمة إلى الحجاز واليمن؟٠

لم يجد معظم الأمويين بداً من البقاء في المدينة، فليس لهم مهرب، ثم

---

١) الكامل ٣٤١/٤.

كيف يهربون ويتركون قصورهم وبساتينهم ليعيشوا مشردين يتهددهم القتل في كل مكان، لذا قر رأي معظمهم على البقاء ورفع السواد على البيوت وتسليم الأمر لله.

ودخل داود بن علي المدينة في ذي الحجة عام ١٣٢هـ ليطوي في نهاية هذا العام العصر الأموي، وليبدأ فصلا جديد هو فصل العصر العباسي، وهو فصل طويل مليء بالأحداث، وهو ما سنراه في الصفحات القادمة.

الجانب السياسي في العهد الأموي في المدينة المنوره:

كانت فراسة الصحابي الجليل عبد الله بن سلام صائبة عندما وقف يرجو علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا يخرج ويخرج الخلافة من المدينة. وقال له: إذا خرجت الخلافة منها فلن تعود اليها أبداً.

ومن يومها لم تعد المدينة المنورة مركز الثقل السياسي، بل تحولت إلى منطقة لها مكانتها الدينية والتاريخية من جهة، ولها محاذير سياسية كبيرة يخشاها الخلفاء الأمويون في دمشق من جهة أخرى، وهاتان صفتان هما كفتا الميزان اللتان كانت الحياة السياسية تتأرجح بينهما، وتتأرجح من ثم عوامل الاستقرار والأمن والتعامل بين الحكومة والرعية.

فالمكانة الدينية والتاريخية للمدينة المنورة مستقرة في أعماق الخلفاء والأمراء وقادة الذين غزوها منذ (حبيش بن دلجة) إلى (أبي حمزةالخارجي) هؤلاء جميعاً كانوا يعظمون المدينة المنورة، ويحسبون لها ولأهلها حسابات خاصة، فيتذكرون قدسيتها وحرمتها وأنها جديرة بالرعاية الخاصة، ويذكرون المسلمين الأوائل الذين عاشوا فيها، ويتهمون سكانها الذين يعاصرونهم بأنهم بدلوا وغيروا، وبأن الأصول عظيمة والفروع غير مستقيمة. يضاف إلى ذلك أن المدينة المنورة كانت منبت عدد كبير من الأمويين الذين هاجر آباؤهم إليها منذ زمن رسول الله ﷺ، فهي الموطن والأصل.

وأما المحاذير السياسية التي كان يخشاها الخلفاء الأمويون فأهمهاالمناداة بالحق التاريخي أو الوراثي للمدينة والهاشميين أو الزبيريين الذين يقطنونها، فالمدينة عاصمة الإسلام الأولى، وخروج علي منها إلى الكوفة كان بقصد التصدي لمعاوية فقط، ولم يعلن علي انتهاء المكانة السياسية للمدينة، وربما كان من الحكمة أن يخرج منها ليجنبها الحروب والصدامات في أحيائها أو ضواحيها.

والهاشميون الذين يقطنونها هم أبناء علي وأحفاده، وكثير منهم يرى أن

الأمويين قد اغتصبوا الخلافة رغم تنازل الحسن بن علي عنها لمعاوية تنازلا شرعياً صحيحاً، ثم إن انتقال الخلافة من معاوية إلى يزيد كان اجتهاداً من معاوية لم يوافق عليه الحسين بن علي ولا عبد الله بن الزبير، وقد سرى في بعض أحفاد الحسين بن علي وبعض أحفاد الحسن أيضاً هذا الاعتقاد، كزيد بن علي بن الحسين بن علي ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، واذا كان الخلفاء الأمويون يدينون الناس بالطاعة المقررة شرعاً لأولي الأمر، وكان أولو الأمر هؤلاء يتولون الخلافة وراثة، فالهاشميون في اجتهاد الهاشميين وشيعتهم أحق بتلك الوراثة لنسبهم ومكانتهم.

وهكذا يتحول الأمر إلى هاجس في ضمير عدد قليل من الهاشميين والزبيريين، وهاجس في ضمير بعض الخلفاء وأمراء المدينة، ويصبح المحور الأساسي للجانب السياسي في المدينة المنورة أمرين رئيسيين مترابطين ومتداخلين هما: الموقف من الخلافة بين الولاء والتمرد، والعلاقات بين أمراء المدينة وأهلها ليناً وشدة.

والجانب الثاني مرتبط بالجانب الأول غالباً،لأن العلاقات ستتأثر بما يراه أو يظنه الخليفة أو الأمير في طاعة المدينين أو عصيانهم، فيلينوا لهم ما آنسوا فيهم الطاعة، ويشتدون عليهم إن رأوا أو ظنوا فيهم الشقاق.

وقبل أن نستعرض سلسلة العلاقات المتذبذبة في هذا المحور نقف عند قضية مهمة جرت في حياة المدينة المنورة، هذه القضية هي الصيغة السياسية الموحدة لأهل المدينة المنورة، وهذه الصيغة تحول وتطور كبير وخطير. فمن المعروف أن المدينة قبل الاسلام (يثرب) لم يكن لها كيان سياسي موحد، وكانت القوة تتوزع في ثلاثة تجمعات سكانية لكل منها كيانه السياسي المستقل، وعلاقاتها الخاصة مع جيرانها القريبين والبعيدين، هذه التجمعات هي: الأوس، الخزرج، واليهود، وكان لكل منهم ولاءاته ومعاهداته الخاصة وعلاقاته المتميزة مع الآخرين. فالأوس متحالفة مع بعض القبائل وشطر كبير

من اليهود (بني قريظة وبني النضير). والخزرج تبحث عن تحالفات خاصة خارج المدينة، تصل إلى مكة، وتحالف شطراً محدوداً من اليهود (بني قينقاع وبعض الفروع الصغيرة الأخرى) وبين التجمعات الثلاثة علاقات متذبذبة تضطرب إلى حد الصدام المسلح أحياناً، وتسكن الى حد التصاهر أحياناً آخرى.

وعندما انتشر الإسلام في المدينة وجاء المهاجرون إليها تغيرت التجمعات إلى المهاجرين والأنصار، وبخاصة بعد أن كسرت شوكة اليهود. وقد ظهرت أثار هذا التحول السياسي بوضوح وقوة يوم السقيفة، فكان التخاطب وتقرير حق الخلافة وفق هذا التقسيم. وقد استمر هذا الكيان السياسي المزدوج مدة الخلافة الراشدة، وكانت ألوية الحروب والغزوات توزع بين المهاجرين والأنصار باعتبار هذا التقسيم نوعاً من التنظيم الإداري، وليس باعتباره حزبين سياسين متعارضين أو متخاصمين.

ولكن عندما تحولت الخلافة إلى الأمويين تغير الأمر، وبدأ التغير منذ خلافة معاوية، إذ لم يكن في صف معاوية من أهل المدينة باستثناء الأمويين - إلا نفر قليلون - واتحد موقف المهاجرين والأنصار الذين لم يخرجوا من المدينة المنورة على بيعة علي، ومن ثم لم يكن لمعاوية ولاء فيها. وكان في جيش علي فرقة خاصة من أهل المدينة ظلت موالية له حتى استشهاده، ثم والت ابنه الحسن ووقفت معه بقوة، وعندما عزم الحسن بن علي رضي الله عنه على التنازل لمعاوية لم تكن فرقة المدينة راضية، حتى إن قائدها لام الحسن على تنازله وحاول إثناءه عنه، ولكن الحسن أقنعه بضرورة ذلك ، فعادت الفرقة إلى المدينة على مضض.

وكان معاوية رضي الله عنه يدرك مشاعر أهل المدينة، وقد اجتهد في تحويلها ما وسعه ذلك، وجاء إلى المدينة عام الجماعة (وهوالعام الذي تنازل فيه الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية واجتمع شمل المسلمين على خليفة

واحد) ليوثق البيعة لنفسه، وكان الموقف هذا بداية توحيد لأهل المدينة في نسق واحد وموقف واحد. ولا يعني هذا أن أهل المدينة كانوا جميعاً خصوماً مناوئين لمعاوية والأمويين من بعده. فقد كان من بين رجاله المخلصين عدد منهم كالنعمان بن بشير وابنه. فضلا عن الأمويين أبناء المدينة، ولكنه يعني بداية الالتحام بين القسمين الكبيرين: المهاجرين والأنصار في تركيبة جديدة ينظر إلى ولائها وتمردها نظرة عامة لاعلاقة لها بذلك التقسيم، فمن كان موالياً من أهل المدينة فهو المقرب، سواء كان من المهاجرين أم من الأنصار، أم من أبنائهما، ومن ظن فيه قلة الطاعة أو الميل إلى الزبيريين أو الهاشميين أو أبنائهم حوسب على ميله أياً كان نسبه، وكأنما انتهى ذلك التقسيم السابق، وبخاصة بعد موقعة الحرة، ولعل تلك الموقعة هي آخر وجود سياسي لذلك التقسيم، فقد كان للأنصار لواء وتجمع يقوده عبد الله بن حنظلة، وللمهاجرين لواء وتجمع يقوده عبد الله بن مطيع. بعدها لم يظهر هذا التقسيم في موقف سياسي قط، وصارت النظرة إلى أهل المدينة تعدهم كلمة واحدة، فيهم الموالون المخلصون كأبناء النعمان بن بشير، وفيهم من هو مظنه التمرد والخروج على الطاعة كأحفاد علي. وهذا يعني شخصية موحده اندمجت فيها - نظرياً - العناصر السكانية وذابت معظم التوزعات القبلية - باستثناء الأموية - في الصيغة الجديدة، صيغة أهل المدينة.

ومثلما توحد الكيان السياسي لأهل المدينة توحدت النشاطات السياسية فيها، وتجمعت في قضية واحدة هي: قضية الولاء للخلفاء وأمرائهم. فانتقال الثقل السياسي خارج المدينة أعفاها من الأمور الكبيرة التي تشتغل بها العاصمة، مثل أمور الفتوحات وشؤون الولايات الأخرى والفتن التي تنشأ في بعض الأمصار والصراعات القبلية هنا وهناك، وغدت المدينة كسائر المدن الأخرى تشارك في البعوث والفتوحات بعدد من شبابها، يشكلون مجموعة خاصة لها قائدها، تسمى ربع أهل المدينة، تأتمر بأمر قائد الجيش أو

الكتيبة التي تضمها.

لذا يصح أن نقول ان النشاط السياسي تحول في المدينة المنورة في العهد الأموي إلى نشاط إداري يوجهه ويشرف عليه الأمير الذي يعينه الخليفة.

وقبل أن ندخل في تفصيلات هذا النشاط ننظر في اختيار أمراء المدينة وصلاحياتهم السياسية والادارية.

كان الخليفة هو الذي يختار أمير المدينة بنفسه، وكأنما وضعها تحت اشرافه المباشر. وقد حرص الخلفاء على انتقاء شخصيات لها وزن سياسي في بعض الحالات، ولها صلة وثيقة بالبيت الأموي إن لم تكن من أفراد ذلك البيت. ففي عهد معاوية وابنه يزيد تولى إمارة المدينة خمسة أشخاص جميعهم من البيت الأموي وهم على التوالي: مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعمرو بن سعيد بن العاص وعثمان بن محمد بن أبي سفيان. وكان مروان بن الحكم أطولهم زمناً، تولاها مرتين: الأولى من ٤١ الى ٤٩ للهجرة، والثانية من ٥٤ الى ٥٨ للهجرة. وكانت سياسة معاوية الحذر من التجمع الأموي في المدينة ومنع قيام قوة سياسية قد تؤثر عليه أو على ولاية عهده. وعندما تولى الفرع المرواني (أبناء مروان بن الحكم) الخلافة تناوب على الخلافة أمراء أمويون وأمراء غير أمويين، أما الأمويون فهم: يحيى بن الحكم بن العاص (٧٥-٧٦هـ) أبان بن عثمان بن عفان (٧٦- ٨٣هـ) هشام بن اسماعيل المخزومي (٨٣-٨٧هـ) عمر بن عبد العزيز (٨٧-٩٣هـ) عثمان بن حيان (٩٣-٩٦هـ) إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي (١٠٦-١١٤هـ) خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم (١١٤-١١٨هـ) محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي (١١٨-١٢٥هـ) عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (١٢٦-١٢٩هـ) عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان (١٢٩-١٣٠هـ). وأما غير الأمويين فهم: عبد الرحمن بن الضحاك (١٠١-١٠٤هـ) والمشهورين بولائهم للأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفي

(٧٣-٧٥هـ) ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي (١٢٥-١٢٦هـ) ومن الثقفيين المشهورين بولائهم عبد الله بن محمد بن عقبة وأخوه الوليد (١٣٠-١٣٢هـ) وأمير واحد من أبناء الأنصار هو محمد بن عمرو بن حزم (٩٦-١٠١هـ).

وكان بعض الخلفاء ينظر إلى إمارة المدينة على أنها إكرام شديد لمن يتولاها، فيوليها أحد أقاربه المقربين، فعبد الملك بن مروان ولاها لخاله هشام بن إسماعيل المخزومي، وهشام بن عبد الملك ولاها لخاليه إبراهيم ومحمد بن هشام بن اسماعيل، والوليد بن يزيد ولاها لخاله يوسف بن محمد الثقفي أيضاً.

وكانت إمارة المدينة تتسع أحياناً فتضم مكة والطائف وبقية الحجاز، بل واليمن أحياناً، وتتقلص حتى تقتصر على منطقة المدينة وحدها أحياناً أخرى. عير أن فترات اتساع الإمارة (حوالي ٨١ سنة)، تزيد على فترات تقلصها (حوالي ٣١سنة). وخلال العهد الأموي تبعت المدينة لابن الزبير قرابة عشر سنوات، وكانت إمارة مستقلة، يرسل لها عبد الله بن الزبير أميراً، وقد تناوب عليها خمسة أمراء هم: عبيد الله بن الزبير (٦٤-٦٥هـ) جابر بن أسود بن عوف (٦٥-٦٥ وفترة أخرى ٦٧ - ٧١) ومصعب بن الزبير (٦٥-٦٦) وطلحة بن عبد الله بن عوف (٧١-٧٢) وهم أيضاً مقربون من ابن الزبير واثنان منهم هما أخواه، الأمر الذي يؤكد مكانة المدينة وأهمية إمارتها عند الخلفاء.

أما النشاط السياسي وبالأصح الإداري الذي كان يقوم به الأمير فيتوزع على الأمور التالية:

ضبط الأمن في منطقة الإمارة:

ويشمل مفهوم الأمنِ الأمنَ السياسي أي: ولاء الناس للخليفة ومنع أية دعوة لمناصرة المناوئين، وفي مقدمتهم الزبيريون والهاشميون، والمحافظة على الولاء لعبد الله بن الزبير مدة سلطانة فقط، ولم يجد الأمراء صعوبة في تحقيق هذا اللون من الأمن، فقد استطاع معاوية بالترغيب والترهيب والعطاء و

الحرمان أن يضبط الأمور في المدينة، واستطاع ولاته أن يحولوا دون ظهور أي تمرد عليه، فلما تولى يزيد بن معاوية الخلافة خرج الأمر من يده، واستطاع ولاة ابن الزبير أن يضمنوا الولاء العام لعبد الله بن الزبير، ولكن وجدت حالات استثنائية قليلة، فسعيد بن المسيب رفض المبايعة لعبد الله بن الزبير وضرب لذلك. ومنذ أن ظهرت فكرة أخذ البيعة لولي العهد كان في المدينة من يأبى إعطاءها، وعندما أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد امتنع الحسين وعبد الله بن الزبير، وعندما عقد الوليد بن عبد الملك لابنه العباس رفض سعيد بن المسيب المبايعة أيضاً(١). أما عامة أهل المدينة فكانوا يعطون البيعة بسهولة.

ولم تحدث بعد موقعة الحرة فتنة أو ثورة إلى نهاية العصر الأموي. وعندما فكر أحد الهاشميين بالخروج على الخلافة (زيد بن علي بن الحسن) غادر المدينة إلى الكوفة وأعلن تمرده فيها، ولم يشايعه أهل المدينة على تمرده. وعندما اضطرب أمر الأمويين في عهد مروان بن الحكم، وأغرى بعض القرشيين محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بالخروج وطلب الخلافة وبايعوه لم يجد في بيئة المدينة وظروفها مايساعده على ذلك ، فلم يظهر الخروج.

إذن يمكن أن نستنتج من ذلك كله أن الأمن السياسي كان مستتباً في المدينة مدة الحكم الأموي باستثناء فترة موقعة الحرة. وقد حدث تحول الولاء من الأمويين الى الزبيريين، ومن الزبيريين الى الأمويين دون إراقة دماء ودون امتناع أحد. وعندما وصل عبيد الله بن الزبير إلى المدينة في نفر قليل من رجاله أخذ البيعة لأخيه دون معارضة، وعندما جاء طارق بن عمرو ليعيدها الى الأمويين لم يجد عنتاً، حتى إن أمير المدينة من قبل الزبيريين لم يجد من يناصره ويتصدى للأمويين فخرج من المدينة وتركها لطارق.

---

١) انظر: جمهرة أنساب العرب ص ٨٩

وفي حياة المدينة المنورة وقعتان أخريان قدمت فيهما عدداً من أبنائها هما وقعة عمرو بن الزبير ضد أخيه عبد الله، ووقعة قديد ضد أبي حمزة الخارجي، وقد خرج أهل المدينة في المعركتين على غير رضى منهم ولا حماسة، حملهم أمراؤهم عليها حملاً بالترغيب والترهيب، وهُزموا في الموقعتين.

لذا يصح أن نقول إن المدينة بعامة قد تحولت إلى دار سلام يجنح أهلها إلى الموادعة وتجنب الدماء ولو كانوا غير راضين عن أمرائهم، وإنهم قد اشتغلوا بالجوانب الثقافية والاقتصادية والعمرانية، وزهدوا في السياسة والخلافة، وإن الآثار التي خلفتها موقعة الحرة كانت عميقة جداً في نفوسهم ونفوس أجيالهم التالية، فقد علمتهم هذه الآثار أن يكونوا أكثر تعقلا وألصق بالفقه والعلم الذي يتدارسونه، وهو علم يقرر أن شق عصا الطاعة وإضرام الفتنة من الأخطاء الكبيرة ولا يجوز تكررها على الإطلاق. لذلك لم يكن من العسير على الأمراء تحقيق الأمن وضبط الأمور في المدينة المنورة، ولم يكن هناك خطر يتهددهم أو ينذر بالفتنة على نحو ما كان في بعض الأمصار.

ومع ذلك كانت هواجس الفتن في الأمصار البعيدة تجعل بعض الولاة يشتدون على أهل المدينة، ويهددونهم، ويبثون فيهم العيون في مجالسهم، كما فعل عثمان بن حيان المري ويوسف بن محمد الثقفي، ولم يخف عثمان بن حيان تجسسه على الناس بل أعلن عنه في خطبته إمعاناً في التهديد والوعيد.

وبالمقابل لم تكن تلك الشدة تتعدى الغلظة في المعاملة والخشونة ومصادرة بعض المال والجلد، فلم تعرف المدينة مَنْ رَفَع السيف على الناس في غير فتنة الحرة، كما أن الخلفاء كانوا يوصون الأمراء بالرفق بأهل المدينة وحسن معاملتهم غالباً، وقد أشار إلى ذلك الحجاج بن يوسف عند مغادرته المدينة فقال: والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل

جوف الحمار(١).

وكان الخلفاء يعزلون الأمراء الذين يؤذون أهل المدينة أو يشتطون في الحزم وترتفع بهم الشكاوى، ويعاقبونهم عقوبة مهينة، وقد عاقب سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيان المري لقسوته على أهل المدينة، وعاقب الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل وأمر بوقفه للناس ليقتصوا منه جزاء ظلمه مدة إمارته، وأمر الوليد بن يزيد بمعاقبة إبراهيم ومحمد بن هشام ووقفهما للناس، ولم تكن عقوبتهما لأجل قسوتهما على أهل المدينة فحسب بل كانت معها أسباب أخرى، وأمر يزيد بن عبد الملك بتعذيب الضحاك عذاباً شديداً لأنه اجترأ على فاطمة بنت الحسين رضي الله عنها وهددها إن لم تقبل الزواج منه بجلد ابنها.

وهكذا تشاء القدرة الإلهية أن يلقى الذين اشتدوا على أهل المدينة وظلموهم عقوبة عاجلة، وأن يتنكر لهم الخلفاء، وقد مات كل من محمد وابراهيم بن هشام بن إسماعيل في التعذيب، ولقي عبد الرحمن بن الضحاك ذلا شديداً بقية حياته.

ولم تخل الحياة السياسية والادارية في المدينة من فترات ذهبية كانت فيها أنعم المدن أمناً وطمأنينة وحسن رعاية ومعاملة. ومن تلك الفترات فترة أبان بن عثمان (٧٦ـ٨٣هـ) وعمر بن عبد العزيز (٨٧ ـ٩٣هـ) ومحمد بن عمرو بن حزم ابن المدينة وأحد فقهائها الكبار (٩٦ـ١٠١هـ) وعبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري (١٠٤ـ١٠٦هـ) وعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (١٢٦ـ١٢٩هـ).

ولو تمعنا في هذه التواريخ لوجدنا أن الشدة واللين كانتا تتناوبان تقريباً على المدينة، ما أن يأتي أمير قاس حتى يتبعه أمير لين الجانب يمسح شدة سلفه.

---

١) الكامل ٣/٩٦.

وكان لأمير المدينة شرطه ينفذون أوامره ولهم رئيس يلازمه في كثير من الأوقات ويكون المشرف على السجن، ولم تذكر المصادر التاريخية عدد رجال الشرطة ولكنهم على ما يبدو ليسوا كثيرين ولم يكونوا يشكلون قوة محاربة، بل قوة ضابطة لمدينة آمنة، ونحن نستنتج هذا من بعض الأحداث التي رواها المؤرخون، فعندما سجن الوليد بن عتبة موالي سعيد بن العاص أرسل إليهم سعيد أن يشغبوا ويهربوا من السجن، وأعد لهم جمالا في السوق، فشغبوا على صاحب السجن وحرسه المحدود وكسروا الأبواب وذهبوا إلى السوق فركبوا الابل ومضوا ولم تستطع شرطة الإمارة أن تفعل شيئاً لقلة عددهم. وعندما خلع أهل المدينة طاعة يزيد بن معاوية سنة ٦٢هـ أخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان ولم تكن له شرطة تمنعه.

ولا شك أن جو السكينة الذي خيم على المدينة جعل أمراءها لايفكرون في إنشاء قوة حماية ضخمة، وبعض الأمراء كعمر بن عبد العزيز كان يسير معه شرطي واحد فقط يرافقه في الذهاب إلى المسجد ويصلي خلفه لحمايته. كما أن المدينة لم تكن لها قوة عسكرية دائمة أو جيش نظامي فلم تكن بها حاجة لهذا الجيش، وفي الحالات القليلة التي هاجمتها فيها الجيوش كجيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة سنة ٦٣هـ، وجيش أبي حمزة الخارجي سنة ١٣٠هـ شكل أهلها على عجل قوة عسكرية لمواجهة الغزاة. وقد انخرط في المرة الأولى عدد كبير من أهل المدينة يتجاوز عشرة آلاف مقاتل، وأبلى المقاتلون بلاء عظيماً، لأنهم كانوا يدافعون عن مدينتهم. ولم يتجاوز الجيش في المرة الثانية ١٥٠٠ مقاتل، قتل أكثر من نصفهم وهُزم الباقون.

فضلا عن هذه الحالات كان عدد من أهل المدينة يكتتب في بعوث الفتوحات ومحاربة الفتن، وكان الخليفة أو الأمير يقدر العدد المطلوب ويفرضه فرضاً أحياناً، فقد فرض الوليد بن عبد الملك عليهم بعث ألفين للغزو في الصائفة، فلم يخرج سوى الف وخمسمئة، وفرض عليهم هشام أربعة آلاف

فخرجوا وشاركوا في عدد من الحروب الأخرى في أرباع خاصة بهم.

أما جوانب الأمن الأخرى فأحسب أن أهل المدينة كانوا أكثر الناس تمتعاً بها، لأن جذوة الايمان المشتعلة فيها، وحلقات العلم والتربية التي مازالت تتأثر بسيرة الجيل السابق، كل ذلك أدى إلى ندرة الجريمة والانحراف خاصة وأن الأمراء حريصون على تطبيق شرع الله وإقامة الحدود.

الجوانب الشرعية والإدارية الأخرى:

كان أمراء المدينة يأمرون بجباية زكاة الأموال وعشور الأراضي وخراج الأسواق، فقد كان من مسؤلية الإمارة أن تجبي زكاة الأموال، ومنذ أن تولى مروان بن الحكم إمارة المدينة سير الجباة في منطقة الإمارة كلها، داخل المدينة وخارجها إلى حدود اليمن. وكان عثمان بن عفان قد أباح للناس أن يخرجوا زكاة أموالهم بأنفسهم، فلما تولى مروان إمرة المدينة ألغى ما قرره عثمان، خشية أن يتهاون الناس في إخراج الزكاة من جهة ولتدبير موارد ديوان الإمارة والخلافة من جهة أخرى. وقد كانت الأموال توزع على الناس أول الأمر، أو يوزع قسم كبير منها، ثم أصبحت تودع في الدواوين ويحمل قسم منها إلى ديوان الخليفة في دمشق، ولا يعطى منها إلا من يسجل اسمه في الديوان، وكان أهل المدينة من غير الفقراء يأبون أن يأخذوا من أموال الصدقة شيئاً، وقد ردوا أموال الصدقة، التي جاءتهم من اليمامة زمن هشام بن عبد الملك. وأما الأراضي فتقدر غلاتها وتجبى عشورها وتضم إلى خزينة الديوان. ولم يكن في المدينة خراج، لأن الحجاز كلها لاخراج عليها، ولكن ضرب خراج على السوق التجارية أو على جزء منها زمن معاوية وهو الجزء الذي بني فيه مبنيين، وكان الخراج على التجار الذين يبتاعون فيها، فهو بمثابة الإيجار. وفي خلافة هشام بن عبد الملك شيد أمير المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بناء أدخل فيه سوق المدينة كله وفرض الخراج على التجار جميعاً، فتضايق أهل المدينة وأدوه مكرهين، فلما مات هشام هجموا

على المبنى وسووه بالأرض، فلم يفرض على سوقهم خراج بعد ذلك.

إضافة إلى جباية الأموال كان الأمير يؤم الناس في الصلاة، ويخطبهم في الجمعة والعيدين، وعند تولي الإمارة، وعند ورود أمر من الخليفة يقتضي التعميم أو الإنذار، ولم يجد أهل المدينة أي بأس من الصلاة خلف أمرائهم، فقد كان الحسن والحسين يصليان خلف مروان بن الحكم، وقدم الحسين بن علي سعيد بن العاص أمير المدينة آنئذ للصلاة على أخيه الحسن، وصلى أهل المدينة وراء القادة الذين غزوا المدينة كلهم، من جيش بن دلجة إلى أبي حمزة الخارجي أخذاً بأمر رسول الله ﷺ (صلوا خلف كل بر وفاجر).

وكان من مهمات الأمير أن يعين القاضي، وهو أول عمل يقوم به عندما يتولى الإمارة، وفي الغالب كان الأمير يعزل القاضي الذي عينه سلفه ويعين قاضياً آخر يعرفه، فعندما تولى مروان بن الحكم الإمارة عين عبد الله بن نوفل بن الحارث، فلما جاء سعيد بن العاص عزله وعين مكانه أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، فلما عاد مروان بن الحكم للإمارة مرة ثانية عزل أبا سلمة وولى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف. وقد تولى القضاء في المدينة مدة الحكم الأموي ٢٣ قاضياً على التوالي وهم أكثر عدداً من أمرائها، فبعض الأمراء كان يعزل القاضي الذي عينه أو يموت القاضي في عهد إمارته فيعين بديلا عنه.

جدول قضاة المدينة في العهد الأموي

١ - عبد الله بن نوفل بن الحارث	٤١ - ٤٩هـ
٢ - أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف	٤٩ - ٥٤هـ
٣ - مصعب بن عبد الرحمن بن عوف	٥٤ - ٥٨هـ
٤ - عمرو بن عبد بن زمعة	٥٨ - ٦٢هـ
٥ - طلحة بن عبد الله بن عوف	٦٢ - ٧٣هـ
٦ - عبد الله بن قيس بن مخرمة	٧٣ - ٧٥هـ

٧ ـ نوفل بن مسالق	٧٥ ـ ٨٢هـ
٨ ـ عمر بن خلدة الزرقي	٨٣ ـ ٨٧هـ
٩ ـ عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة	٨٧ ـ ٨٧ هـ
١٠ـ أبو بكر محمد بن عمر بن حزم الأنصاري	٨٧ ـ ٩٦هـ
١١ـ أبو طوالة عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر	٩٦ ـ ١٠١هـ
١٢ـ سلمة بن عبد الله بن سلمة	١٠١ ـ ١٠٤هـ
١٣ـ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف	١٠٤ ـ *
١٤ـ سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت	* ـ *
١٥ـ محمد بن صفوان بن عبد الله	* ـ *
١٦ـ الصلت بن زبيد بن الصلت الكندي	تداخلت عهودهم
١٧ـ أبو بكر بن عبد الرحمن	كان يعين ثم يعزل ويعين غيره
١٨ـ مصعب بن محمد بن عبد الرحمن بن شرحبيل	ثم يعين ثانية
١٩ـ محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو	* ـ *
٢٠ـ يحيى بن سعيد الأنصاري	١٢٥ ـ *
٢١ـ عثمان بن عمر بن موسى التيمي	* ـ *
٢٢ـ محمد بن عمران بن إبراهيم	١٣٠ ـ ١٣٢

* التاريخ المشار إليه بنجمة غير معروف على وجه التحديد بسبب تداخل زمن تعيين هؤلاء القضاة، فقد كان القاضي يعين ويعزل ويعين غيره ثم يعاد إلى منصبه، وربما يتكرر هذا أكثر من مرة، ولم تذكر المصادر التاريخية تواريخ محددة لتعينهم وعزلهم.

الجانب الاقتصادي في المدينة المنورة في العهد الأموي:

بين السياسة والاقتصاد روابط كثيرة تنتهي إلى تأثير وتأثر متبادل. فالوضع السياسي في بلد ما تظهر أثاره سلبياً وإيجابياً في وضعه الاقتصادي، والاستقرار السياسي طريق الى الرخاء الاقتصادي غالباً، بينما يؤدي الاضطراب السياسي إلى اختناقات اقتصادية متوالية. وبالمقابل تؤثر الحالة الاقتصادية لبلد ما على سياستها فتدعمها إن كانت قوية، وكانت السياسة رشيدة، أو تؤدي بها إلى التفكك والاسترخاء، وربما تجعلها عدوانية شرسة.

ولكن عندما يتعلق الأمر بمنطقة أو مدينة لاتملك القرار الساسي، فان حالتها الاقتصادية تتأثر بالعامل السياسي، وقلما تؤثر فيه. لذا ينبغي عندما ننظر في الحالة الاقتصادية للمدينة المنورة في العهد الأموي أن ننتبه إلى أثر العامل السياسي فيها.

ذلك أن انتقال مركز الدولة بعيداً عنها قد أثر على نشاطاتها الاقتصادية وعلى الموارد المالية التي كانت تصب فيها.

وقد رأينا أن الازدهار الاقتصادي الذي شهدته المدينة في العهد الراشدي كان له عاملان: عامل خارجي، هو الموارد المالية الكبيرة التي صبت في المدينة المنورة من الغنائم والفيء والعطاءات الدورية التي نظمها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعامل محلي، هو تطور النشاطات الاقتصادية المحلية، وبالذات التجارة والزراعة والحرف المختلفة، وقد عززت الموارد الخارجية النشاطات المحلية وأسهمت في تنميتها، لأنها يسرت لها رؤوس أموال تدعمها وتزيد أرباحها.

وطبيعي أن يتأثر هذان العاملان بالتحول السياسي الذي حل بالمدينة. أما الموارد الخارجية فقد اتجهت إلى العاصمة الجديدة دمشق، وقد جلبت الفتوحات الكثيرة في عهد الأمويين أموالا هائلة، بعضها غنائم صافية أخذتها

الجيوش من المناطق التي فتحت عنوة، فوزعت أسهم المجاهدين عليهم، وأرسلت البقية إلى الخليفة، وبعضها فيء كسبه المسلمون من المناطق التي فتحت صلحاً، أو جزية يدفعها أبناء البلدان الذين لم يدخلوا في الإسلام، وهي جميعها تصب في خزانة الخلافة بدمشق، ولايصيب المدينة شيء منها، اللهم إلا إذا شاء الخليفة أن يخص المدينة بعطية منها. ولا نجد فيما ذكره المؤرخون من تلك الاعطيات إلا حالات قليلة، كالحالة التي أمر فيها هشام بن عبد الملك أن يعطى أهل المدينة مبالغ كبيرة فدفعت إليهم من الفيء، ولما لم يكف الفيء دفعت لهم من صدقات نجد ، فأبى أهل المدينة أن يأخذوها، وردوا الإبل على أعقابها، فأرسل الخليفة لهم عوضاً عنها أموالا من الشام.

غير أن المدينة لم تحرم من بعض عطاءات الأمويين الكبيرة، ففي أول خلافة معاوية جاءت إلى المدينة أموال كثيرة منه، أراد أن يتألف بها قلوب أهلها، ولكن عندما صدم بامتناع الهاشميين والزبيريين عن مبايعة يزيد بولاية العهد أوقف العطاء.

وتوقف أيضاً العطاء الذي كان مفروضاً في ديوان العطاء لكل فرد من أهل المدينة. بعد ذلك أصبح العطاء غير منتظم، يأتي على فترات متباعدة وبمناسبات خاصة، فبعد موقعة الحرة أراد يزيد بن معاوية أن يمسح جراحات المدينة، فنصحه بعض من حوله أن يرسل إلى أهلها الطعام والمال ففعل. وعندما جاء الحجاج إلى المدينة حمل معه عشرة الاف دينار ووزعه، وحاول أن يعتذر إلى الناس بقلة ماحضره من المال، فلم يعذروه ، فاستحضر أموالا أخرى ووزعها عليهم.

وكان الخلفاء عندما يحجون أو يعتمرون يحملون إلى المدينة أموالا كثيرة ويوزعونها على الناس، فقد حمل عبد الملك بن مروان مالا كثيراً ووزعها في المرات التي حج فيها، وكذلك فعل أبناؤه: الوليد وسليمان وهشام. وكان الأمويون يخصون بعض وجوه أهل المدينة بأعطيات كثيرة.

وقد بالغ معاوية في إعطاء كل من الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والسيدة عائشة وزوجات الرسول ﷺ وبعض الصحابة، وكان يعرف أن هذه الأموال، أو قسم كبير منها، سيوزعها أصحابها على أهل المدينة.

وقد دأب الخلفاء على إكرام من يفد اليهم من أهل المدينة وإعطائه الأموال الوافرة، وبخاصة إذا كان من وجوه أهل المدينة. وقد أعطى يزيد بن معاوية أموالا طائلة لوفد المدينة الذي قدم إليه وفيهم عبد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع وعبد الله بن الزبير. وعندما آلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان أعطى الذين وفدوا إليه من المدينة أموالا كثيرة، وبخاصة الأمويين الذين استوطنوا المدينة وظلوا فيها.

وطبيعي أن هذه الأعطيات ستسهم في تنمية ثروات خاصة محدودة ولن يكون لها أثر كبير في تنمية الحالة الاقتصادية العامة في المدينة. كذلك لم تعد غنائم الحرب التي يحظى بها المجاهدون تشكل دخلا كبيراً لأهل المدينة، لأن الذين كانوا يكتتبون في بعوث الفتوحات قليلين، لم يتجاوزوا في عهد عبد الملك ألفاً وخمسمئة مجاهد، وعندما رآى هشام بن عبد الملك كثرة الناس في المدينة وقلة من يشارك منهم في البعوث فرض عليهم أن يخرج منهم أربعة آلاف رجل.

وهكذا تتقلص الموارد الخارجية في العهد الأموي عن عامة أهل المدينة، وتستمر بشكل متقطع على عدد من خاصة أهلها، فتصبح محدودة الأثر في تنشيط الحالة الاقتصادية العامة، وكأنها تترك المجال للعامل الثاني ، عامل الموارد المحلية كي يستأثر بالقسط الأوفى من النشاطات الاقتصادية ويصبح الدخل الرئيسي لأهل المدينة. وأهم هذه الموارد ما يلي:

الزراعـة : نشطت الزراعة في العهد الأموي نشاطاً واسعاً، فازدادت المزارع واتسعت وجاءت بغلال وافرة. فالمدينة بطبيعتها الزراعية وتوافر المياه

في أراضيها شجعت أصحاب الثروات الكبيرة والمتوسطة على إقامة مزارع تغل لهم محصولا جيداً، وقد ورث بعض التابعين من آبائهم أراضي شاسعة، فورث أبناء الزبير بن العوام مناطق كبيرة في الغابة والجرف، وورث أبناء عبد الرحمن بن عوف مزارع وأراضي في مناطق شتى من المدينة، وورث عدد من أبناء المهاجرين والأنصار ما تملكه آباؤهم بالشراء أو الاستقطاع من رسول الله ﷺ أو الخلفاء. وقد شجع وقف الأعطيات والموارد الخارجية أصحاب تلك الأراضي على العناية بها واستثمارها، ويسر لهم ذلك وجود عدد كبير من العبيد والموالي في المدينة، ووجود أعداد أخرى منهم على موجات متوالية، سواء من السبي أو من التجارة.

وعندما بدأت حركة إعمار منطقة العقيق واكبها إنشاء مزارع وبساتين على أطرافه، أو في امتدادات القصور بينه وبين المدينة، فكان لكل قصر بستان كبير تغرس فيه أنواع شتى من أشجار النخيل، وتزرع فيه الخضروات والبقول. وقد امتدت المزارع في منطقة زغابة والجرف، وسارت مواكبة الغابة شمالا وشرقاً واتصلت ببساتين الحرة الشرقية، كما امتدت البساتين جنوباً واتصلت ببساتين قباء ومزارع بني قريظة سابقاً، وانتشرت مزارع القمح والشعير والذرة، وصارت استثمارات لها دخل عال.

وكانت المياه الجوفية القريبة خير مشجع على انتشار تلك المزارع، وقد حفر أصحاب الأراضي في العقيق والجرف أباراً كثيرة وسقوا بها زروعهم.

ونجد في الأخبار روايات عن اهتمام معاوية بمزارع المدينة وشرائه بعض الأراضي وإنشائه مزارع واسعة كانت تغل له أموالا ضخمة، وقد بلغ محصول تلك الأراضي في بعض السنين مائة وخمسين ألف وسق من الحنطة، ومثلها من الشعير، ومئة ألف وسق من التمر.

وكان بعض أهل المدينة يملكون مزارع خارج المدينة المنورة تغل لهم أموالا كثيرة، فأحفاد علي كانت لهم مزارع كثيرة في ينبع وخيبر وفي أطراف

المدينة، وقد وفرت لهم هذه المزارع دخلا جيداً مكنهم من مواصلة حياتهم الكريمة رغم إعراض الأمويين عليهم، والتقليل من العطاءات في بعض الظروف.

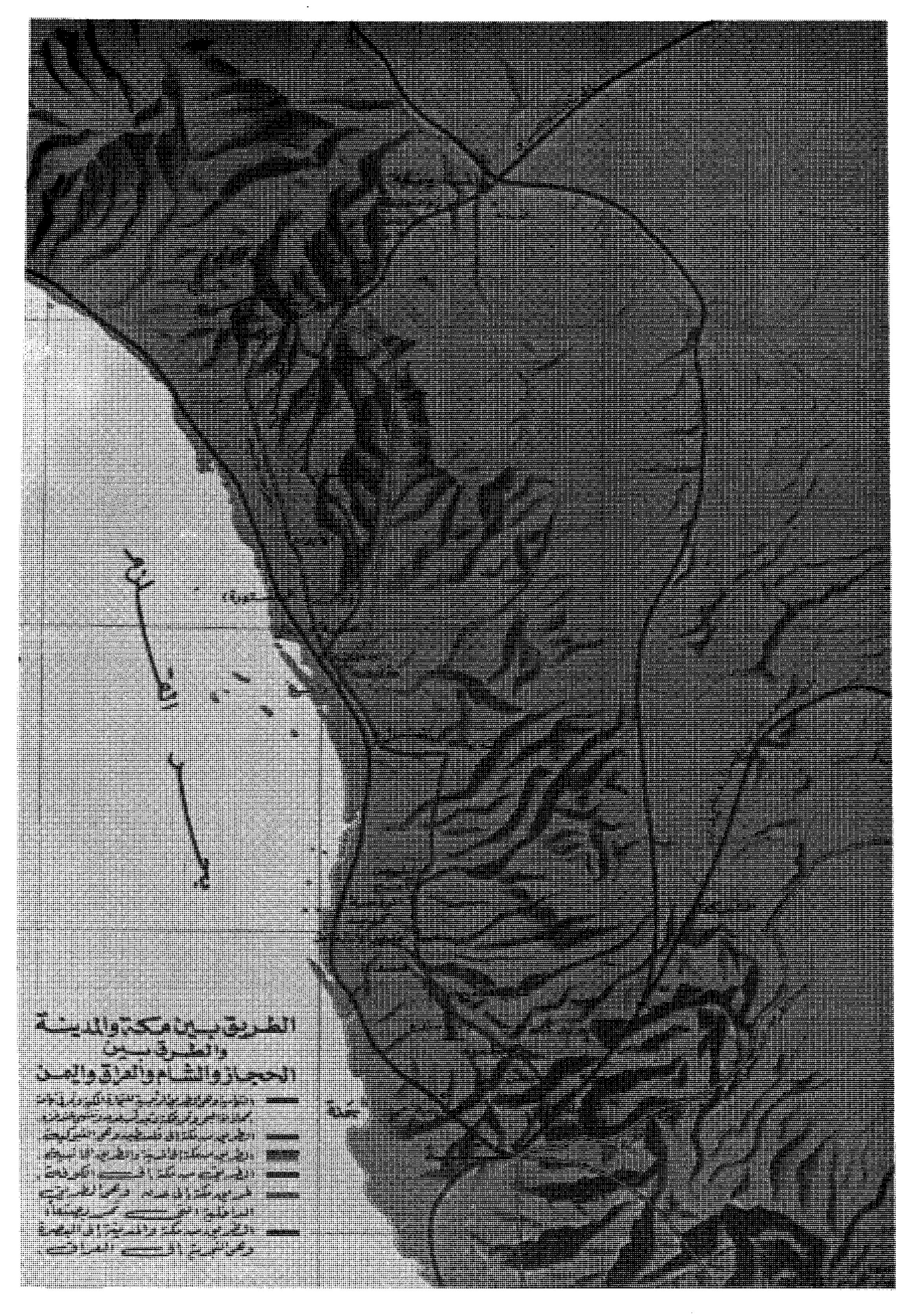
غير أن الزراعة قد تأثرت بموجات الجفاف التي مرت بالمنطقة، وساءت المواسم وقلت الحبوب قلة شديدة، وبلغ الناس شدة في الضيق في بعض السنوات، ولا سيما في سُنَيّات خالد، وهي سنوات عجاف صادفت مدة إمارة خالد بن عبد الملك بن الحارث، انقطع فيها المطر. واللافت للنظر أن المدينة لم تستقطب أبناء المناطق المجاورة في سنوات الجفاف، على نحو ما كان يحدث في عهد الراشدين، فعندما اشتد الأمر على الناس رحل من أرياف الحجاز ما يقدر بعشرين ألف شخص إلى بلاد الشام، وقد قدر هؤلاء أن المدينة لم يعد لديها من الموارد ما يؤمن لهم حاجاتهم، بينما الموارد في الشام وافرة تأتي من البلاد الاسلامية، ثم إن مركز الخلافة في الشام ولا بد أن الخليفة سيساعد المنكوبين.

التجـــارة في العهد الأمـوي:

أما التجارة فقد تغيرت شيئاً ما، اتسعت التجارة المتوسطة والصغيرة، وتقلصت التجارة الضخمة التي كانت تسوق القوافل الكبيرة، ولم نعد نسمع بمثل قوافل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف التي تصل إلى ألف جمل.

ومع أن المدينة المنورة كانت على الطريق التجارية من اليمن والشام،إلا أن الاضطرابات السياسية وهجرة الثروات الكبيرة ووفاة التجار الكبار السابقين وعدم ظهور من يخلفهم، هذه الأسباب قللت من القوافل الضخمة لأهل المدينة. غير أن سوق المدينة ظلت عامرة بما يفد اليها من أسواق الكوفة والبصرة والشام واليمن. وكان أصحاب هذه القوافل من أهالي تلك البلاد غالباً ما يأتون بتجارتهم فيبيعونها ويعودون بالأموال وبما يحملونه من منتجات المدينة المنورة إلى بلادهم.

وقد أسهمت مواسم الحج والعمرة في تنشيط التجارة المتوسطة، إذ كان



خطوط التجارة إلى المدينة المنورة من الآفاق

بعضهم يجمع بين الهدف التعبدي والعمل التجاري، والإسلام يبيح هذا الجمع (ليشهدوا منافع لهم) فتمتلئ سوق المدينة بكميات من واردات البلاد المختلفة ولا سيما الثياب والعطور والسكر وبعض أنواع البسط والحلي.

الصنـاعة في المدينة في العهد الأمـوي:

ظلت الصنـاعة تعتمد على الموالي والعبيد، وقد أسهمت الثروات الجديدة في تنمية بعض الحرف. فكان الرجل يقتني عدداً من العبيد المهرة في التجارة أو الحدادة أو البناء أو صنع الأثاث أو غير ذلك من الحرف، ويقيم لهم مصانع يعملون بها، ويحصل على دخل جيد من عائداتها. ولكن تلك الصناعة لم تتجاوز سد الحاجة المحلية غالباً، فلم يعرف عن المدينة أنها تصدر شيئاً من مصنوعاتها إلى المدن الأخرى.

العمــــران:

أهم ما يميز العمران في هذا العهد أمران:

أولا : حركة المد والجزر السكاني في عمق المدينة.

ثانياً : إعمار وادي العقيق وبعض المناطق الأخرى المحيطة بالمدينة، بالقصور والدور الواسعة.

أما داخل المدينة فقد تأثر بالموجات النازحة من المدينة منذ أن خرج جيش علي بن أبي طالب إلى الكوفة. وعندما خرج عدد من الأمويين إلى بلاد الشام، فقد فرغت بعض البيوت وظلت خاوية مدة طويلة.

وقد تكررت هجرة أفواج من أهل المدينة أيام الفتن، ولا سيما في وقعة الحرة، وإبان التجاذب بين الأمويين وعبد الله بن الزبير، ولكنها لم تتكرر بعد ذلك إلا في شكل هجرات فردية محدودة. وبالمقابل كان تزايد أهل المدينة يعمر مناطق غير مبنية، وكان معظم الناس من غير الأثرياء يفضلون السكنى داخل المدينة المنورة غير بعيد عن المسجد النبوي. وقد امتد العمران في الأحياء المحيطة بالمسجد النبوي وسار في جميع الاتجاهات. وحرص بعض

الذين يعيشون خارج المدينة على بناء دور فيها، أو شراء دار خالية لينزل فيها إذا جاء للزيارة، وكان لعدد من الأمويين المقيمين في دمشق والكوفة دور في أنحاء متفرقة من المدينة، كما أن بعض الولاة اشتتروا دوراً قريبة من المسجد النبوي وهدموها وأعادوا بناءها كما فعل عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك.

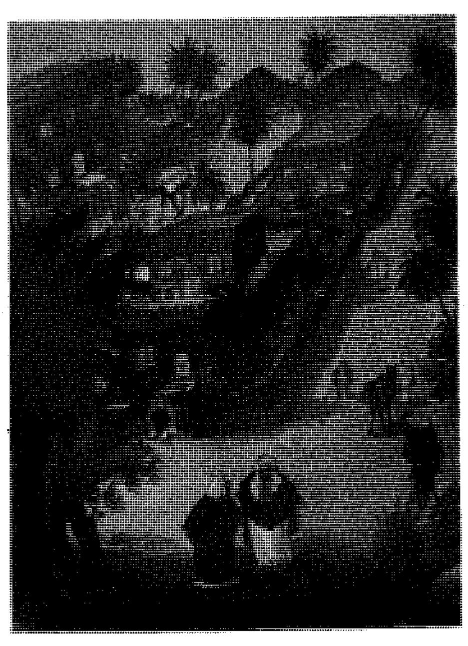
أما حركة الإعمار الثانية فكانت حركة متميزة في تاريخ المدينة المنورة.

فقد بدأ ورثة الثروات الكبيرة(١) كعروة بن الزبير وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وبعض أبناء عثمان بن عفان في بناء دور واسعة على أطراف العقيق، وتنافسوا في ذلك تنافساً شديداً. وكانت إقطاعات العقيق بيد الخليفة مباشرة، لايستطيع أحد أن يمتلك موقع قصر أو مزرعة إلا بإقطاع منه. وقد بدأت حركة البناء في العقيق منذ أواخر الخلافة الراشدة، لكنها اشتدت في العصر الأموي وغطت ضفافه وعرصاته حتى لم يبق فيه موضع لبناء قصر.

وكانت القصور التي تبنى فيه تقام على أرض واسعة، ولكل قصر حديقة أو بستان كبير يغرس فيه صاحبه أنواعاً مختلفة من أشجار النخيل، ويزرع

---

١) ترك عدد من الصحابة ثروات كبيرة توزعها أبناؤهم . فقد بلغ مال الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين ألف دينار وألف فرس وألف عبد وألف أمة ودوراً في المدينة والكوفة ومصر. وبلغت ثروة طلحة بن عبيد الله مبلغاً ضخماً ، وكان يرد إليه من أملاك له في العراق ثلاثمئة وستون ألف دينار في العام، وقد شيد داراً في المدينة وبناها بالآجر والجص والساج. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف بعير ومئة فرس وعشرة آلاف من الغنم، وقد دفع لأحدى زوجاته - وكان طلقها قبل وفاته - أربعة وثمانين ألفاً. وترك زيد بن ثابت حين مات من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، وخلف من الأموال والضياع ما قيمته مائة ألف دينار، وخلف يعلى بن أمية خمسمئة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات بمئة ألف دينار. المسعودي ٤٣٤/١، تاريخ الاسلام ٥٤٠/١.



قصور في منطقة العقيق أجمل وأغنى أحياء المدينة في العهد الأموي

فيه بعض البقول والخضار والفاكهة. وقد أورد المؤرخون أسماء عدد كبير من القصور المنتشرة في الحزام الغربي والشمالي للمدينة المنورة، وذكر السمهودي (١) أسماء خمسة عشر قصراً للأمويين، واثنين للزبيريين، وأحد عشر قصراً لبعض أبناء المهاجرين، وذكر قصوراً كثيرة لم يسم أصحابها، وبذلك يمكننا أن نتصور قيام حزام من القصور ذات الحدائق الواسعة تبدأ بالجزء الجنوبي الغربي للمدينة المنورة، وتمتد شمالا حتى تصل إلى أقصى الشمال الغربي على امتداد وادي العقيق، ثم تتجه شرقاً لتغطي أجزاءً من منطقة الجرف، وتصل إلى جبل أحد. أما المنطقة الشرقية فلم يذكر المؤرخون فيها شيئاً من القصور، ويبدو أن البناء الذي أقيم بها من قبل قد اتصل بتلال الحرة ولم يعد فيها متسع للبناء، فضلاً عن أن وعورة الأرض هناك تجعل استصلاحها أمراً شاقاً ومكلفاً، أما المنطقة الجنوبية من مناطق بني قريظة إلى قباء فالقصور فيها قليلة، فقد كانت تشغلها مزارع النخل، وليس من الحكمة أن تقطع تلك المزارع لتحول إلى مناطق سكنية أو أن تبنى القصور فيها رغم وجود بعض المباني البسيطة فيها.

وقد تردد ذكر العقيق وقصورة في كتب التاريخ والأدب، وحفظ لنا الشعر قصائد كثيرة فيه تدل على أن الحياة قد بلغت فيه ذروة المتعة والرفاه المعروفين آنئذ، وإلى تلك القصور ينسب ما ينسب لأهل المدينة من حياة الترف والغناء والاسترخاء.

---

١) انظر: وفاء الوفاء ٣/١٠٤٢-١٠٦٦

جدول القصور التي ذكرت في المصادر القديمة

أـ قصور الزبيريين :

١ـ قصر عروة بن الزبير

٢ـ قصر عبد الله بن مصعب الزبيري

ب ـ قصور الأمويين

قصر سعيد بن العاص

= مروان بن سعيد بن العاص

= عبد الله بن سعيد بن العاص

= عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان

= عبد الله بن بكر بن عمرو بن عثمان

= مروان بن الحكم

= ابراهيم بن هشام

قصر عنبسة بن سعيد بن العاص

= سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص

عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان

قصر عبد الله بن عامر

= عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان

= عبد الله بن أبي بكر

= سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بنمروان

ج ـ قصور للقرشيين وغيرهم

قصر سعد بن أبي وقاص

= آل طلحة بن عمر بن عبد الله

= أمينة الزهرية

قصراسحاق بن أبن أيوب المخزومي

= سكينة بنت الحسين

= جعفر بن ابراهيم بن جعفر

= خارجة بن حمزة بن عبد الله
بن عبد الرحمن بن العوام
= محمد بن عيسى

= يزيد بن عبد الملك بن
المغيرة النوفلي
= أروى بنت أويس

= جعفر بن سليمان بن علي
= المقداد بن الأسود في الجرف
قصور بالعرصة لعبد الله بن
علي بن عبد الله بن العباس
قصور بالعقيق لم يسم أصحابها
قصور ببئر رومة كثيرة يمنة
ويسرة لم يسم أصحابها

قصور على يمين العقيق ويساره بعد مزارع أبي هريرة لم يُسَمَّ أصحابها.

فهرس الجزء الأول

المدينة المنورة قبل الإسلام (يثرب) ١١ ـ ١٢٥

المدينة المنورة في العهد النبوي ١٢٦ - ٣٢١

المدينة المنورة في العهد الراشدي ٢٥٢ ـ ٣٢١

المدينة المنورة في العهد الأموي ٣٢٢ - ٤٦٧